الآتُونَ مِنَ السَّمَاءِ

فادي أوطه باشي

عنوان الكتاب: الآتون من السماء
المؤلف: فادي أوطه باشي
تدقيق وتحرير: دعاء السيد
الإخراج الداخلي: دعاء السيد
تصميم الغلاف: الفنان ماهر مزوق
رقم الإيداع ٢٠١٩/٨٩٨٤
الترقيم الدولي: ٨-١-٨٥٤٩٢-٩٧٧/٩٧٨
الطبعة الثانية: ٢٠١٩

رئيس مجلس الإدارة : أ.د. محمود محمد السعيد

المدير العام : هالة البشبيشي

بريد إلكتروني : alhalapublishing@gmail.com
تليفون : ٠١١١٠١٦١١١٧
العنوان : القاهرة - ٢٦ ش ٢٦١ المعادي الجديدة -
صفحة الفيسبوك : مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing/

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

الآتُونَ مِنَ السَّمَاءِ

رواية

فادي أوطه باشي

Fadi Otabashi

الإهداء

حين اشتعلت الفتن وبدأت الدماء تنزف..

هناك رجلٌ سعى بين أهل بلدٍ يُدعى سورية..

قَدِم إليها منذ أكثر من ثلاثين عامًا، فكان كما الياسمين الذي اختار من سورية وطنًا لينشر مع لونه الأبيض عبق عشقه للسلام..

وما زال يسري في بال محبي السلام، وفي هذا الليل الطويل

إننا لا نعرف حقيقة مصيره حتى الآن منذ أن غيَّبه طيور الظلام،

فإلى روح الشهيد الحي الأب "باولو دالوليو"

وإلى كل من ضحَّى في سبيل نشر رسالة السلام والحوار بين الحضارات ومعرفة جوهر الدين الحقيقي ووقف التطرف والعنف..

وإلى كل ضحايا التطرف والعنف، وإلى الأبرياء في كل بقاع العالم..

أهدي هذه الرواية..

مقدمة

كل إنسان يتمسك بالحقيقة التي يعرفها..
إنها حقيقة قد تجعل أحيانًا إنسانًا –وأحيانًا شعبًا بكامله– أسيرًا لها..
فما هي الحقيقة.. ولمن هذه الأرض؟
ومن يملك تلك الحقيقة؟!
ولمن تلك السماء؟!
فهل تسمع السماء صوت إنسان واحد وتأتي إليه بكل الحقيقة؟
أم تدعو لكل أبناء الأرض بأن يكون السلام هو الحقيقة الوحيدة؟
ألا يحب من تعتبره خصمك عائلته مثلك!
ألا يضحي بروحه من أجل من يحب!
العدو هنا لا يقرأ الغزل لعدوه..

لكن فلنعلم إذًا؛ كلما ذهبت أيدينا إلى ذلك الزناد الذي يفرق روحين عن بعضهما، نصبح محكومين بالخسارة جميعًا معًا..

سنخسر الحب.. وسنخسر بذات الوقت تلك الحقيقة الثابتة..

مع تزايد موجات العنف والعنصرية والتطرف في أماكن متفرقة من العالم، يزداد التساؤل حول الدوافع الحقيقية من وراء كل ذلك، والعالم كله يشهد نتائج حروب تشتعل هنا وهناك معيدة تكرار نفس المآسي وهي تحصد أرواح الأبرياء وتدمر آثار وتاريخ حضارات إنسانية صوّر فيها الإنسان رحلة بحثه نحو الحياة الأمثل..

حروب واقتتال بدوافع وشعارات طائفية ينسبها من يقوم ويدعو لها إلى عقائد وأفكار مضللة يؤمن بها وينسبها للسماء، ليخلق ذلك التطرف تطرفًا آخر وضحايا أبرياء.

ونشاهد ونسمع يوميًا قصصًا مؤسفة تتحدث عن مجازر واختطاف هنا وهناك، وأحداث متفرقة في مدن مختلفة من العالم تتكلم عن عمليات دهس عبيثة لتجمعات عامة يقوم بها أفراد مهووسون بروح التطرف وزعم غريب بأنهم يفعلون ذلك بوحيٍ من السماء..

وفي مكان آخر تخرج علينا بشكل هوليودي عصابات تحمل فكر غابر من الجاهلية وظلام العصور الوسطى، فذلك يريد أن يعيد خلافة رسمها كما يهوى، وذلك يريد أن يقتلع من أرضه من يختلف عن ما يؤمن به معتقدًا بأنه يتقرب بتلك الأفعال من الله.

وآخر يمهد بدماء أبرياء وفق اعتقاده طريقًا لرجوع أو ظهور نبيٍ ما، وكأنه لن يأتي من يريد للأرض السلام إلا على بحر من الدماء..

وآخر يحتل أرض الغير بحجة أنه يدافع عن أضرحة مقدسة موجودة في مكانها منذ مئات وآلاف السنين دون أن تمس بسوء من أهل الأرض الحقيقيين.. وكل من هؤلاء يدَّعي أنه آتٍ ويعمل بوحيٍ من السماء..

لكن مع كل ما يحدث فمازال هناك من يسعى نحو السلام الذي ينشده أهل الأرض جميعًا، ليخرج في كل فترة وعصر من يعطي الأمل بأن الحياة جميلة، ويستحق كل إنسان أن يعيش بحرية وسلام..

في هذه الرواية نتنقل معًا وعبر فصولها بين الحاضر والماضي، بين الشرق والغرب، بين حقائق وأكاذيب نُسِبت إلى السماء، وقصص واقعية تصور معاناة الإنسانية وهي تبحث عن أمل مشروع في حياة آمنة تخلو من العنف والدمار ويملؤها السلام والمحبة بين أبنائها.. فكم هي جميلة إذًا هذه الأرض..

وكذلك كثير من الجمال لا يمكننا التعبير عنه، لكن فصول هذه الرواية تأخذنا لتدخل ضمن هذه المقولة، حيث الرواية هنا تقرأ التاريخ من جديد،

ومن ثمّ تنتقل من السرد المادّي إلى محاكاة النفس والسفر الممتع بين عصور ومدن على جناح جُملة جُملة دون ملل أو ضجر، بسلاسة الأحداث المسرودة المترابطة، مُترابطة بحيث أن تشعر بأنك أحد أبطالها، أو أنك شاهدٌ على مجرياتها وكأنك بينهم..

فالرواية تتحدث عن صراع الخير مع الشر الذي لم ينتهِ، بالإضافة لتضمينها بجزء أو وقفات فلسفية تم شرحها ببساطة مُفرطة، إنها رواية تداخل فيها العلم والدين والفلسفة والعاطفة والغموض والتشويق، وحتى عنصر الفكاهة تراه بين صفحةٍ وأُخرى، تلك الفكاهة التي تخرج من عمق الكارثة، على مبدأ شر البليّة ما يُضحك..

والمفاجأة قد تكون أيضًا في خاتمة الرواية، تلك الخاتمة التي أكاد أجزم أن لا أحد توقع حدوثها.. ولتبدأ عبرها رواية جديدة..

كلنا نكتب لنصارح أنفسنا بمشاعر عجزت الروح عن تحملها، نكتب لنتحرر من مهمة البوح، ليس عنَّا فقط؛ بل لمن لا قلم له ولا صوت ولا جرأة..

وعن كل من لا صوت لهم، نقول معهم عبر هذه الرواية: لنعمل معًا على نشر ثقافة الحب ونبذ العنف والتطرف، وأن الله لا يرسل عبر رسله وعارفيه إلا رسالة حب..

أما الكراهية؛ فهي تشل الحياة، والحب يطلقها.. الكراهية تظلم الحياة، والحب ينيرها..

المؤلف

فادي أوطه باشي

وَثِقتُ بك يا رب..

وثقت بك لتساعدنا..

لكي نحقق ذلك الحلم..

"إنَّ الثَّورة ليسَت توقّعات.. بل التزام"

* "الوقائع والأماكن التاريخية والدينية والأعمال الفنية والأبحاث العلمية الواردة في هذه الرواية حقيقية، إلا أن القصة التي ربطت فيما بينها هي من وحي فكر المؤلف، وباستثناء الشخصيات العامة والمعلومات المستقاة من مصادرها؛ فلا علاقة لهذه الرواية بأشخاص أو بوقائع خارجها".

الفصل الأول

صيف العام ٢٠١٠

على مشارف ريف دمشق، وبالقرب من أحد أقدم الأديرة، تبدو الشمس في صحوة الضحى، تزدان من حولها بالغيوم المتراقصة وكأنها تعانق سماء زرقاء بلا شائبة، يقف "أحمد عيسى" مع تلك المجموعة السياحية محدثًا إياهم عن تاريخ مغرق في القدم، وكأنه ينقلهم إلى زمانٍ آخر، وتلمع عيناه وكأنه "هوارد كارتر" مكتشف مقبرة "توت عنخ آمون"، وهو يشرح لهم تاريخ وقصة أحد الأديرة المسيحية القديمة في سورية، فلم يكن عمله كدليل سياحي مهنة، بل كان بالنسبة له شغفًا يكتنفه للعودة بالزمن إلى الوراء حيث التاريخ وحكاياته، وهذا ما جعله متميزًا عن زملائه، فكل يوم يشرق عليه يرى فيه مغامرة جديدة نحو مقصد جديد.

يحدّث المجموعة السياحية عن ذلك الدير بفرنسية متقنة –فقد حصل على امتياز في كلية الآداب قسم الأدب الفرنسي– وهو يسترسل في كلامه ليجعلهم يعيشون معه الحلم، حيث يقف "أحمد" وهو يقول بصوتٍ عالٍ لا يخلو من الفخر، وبشفتين تعلوهما البسمة كمن يقدم برنامجًا أو نجمًا لامعًا للمشاهدين:

– والآن أيها السادة، وبعد الرحلة القصيرة التي انطلقنا منها بدءًا من موطن الياسَمين، ها نحن الآن في ريف دمشق، في أحد الأديرة المنتشرة في مهد الحضارات، إنه دير "مارِ موسى الحبشي"، والذي يعد تحفة أثرية تحتضنها جبال "القلمون" في سورية..

تتابعه المجموعة السياحية باهتمام، وذلك من خلال أسلوبه المحبب والقريب من القلب، حيث يستطرد قائلًا:

- يقع هذا الدير الذي نقترب منه كما ترون شرقي مدينة "النبك" في وادٍ وعر من وديان سلسلة جبال "القلمون"، وبالقرب من الجبل الكبير، أو ما يطلقون عليه اسم جبل "المدخن"، على مسافة ٨٠ كم شمال العاصمة دمشق التي انطلقنا منها..

يتابع أحمد في تقديمه التعريفي لدير "مار موسى الحبشي" والذي وصله للتو مع المجموعة السياحية التي يرافقها حيث يقفون الآن أمام مدخله الرئيسي قائلًا:

- كما يقع هذا الدير أيها السادة في قلب البادية السورية على ارتفاع يصل إلى ١٣٢٠م عن سطح البحر، وعلى قمة جبل صخري حيث يتربع كدير تاريخي عُرف بدير "مار موسى الحبشي"، ويُعد كأقدم دير سرياني كاثوليكي في سورية، إذ يعود تاريخه إلى منتصف القرن السادس للميلاد و يعتبر واحدًا من أربعة أديرة في سورية التي ما زالت محافظة على شكلها منذ مئات السنين، وهو من الأديرة المشهورة في العالم، وأصبح كرسيًا أسقفيًا في العصور الوسطى..

تقف المجموعة بانبهار أمام مدخل الدير وهي تعيش مع عبق المكان عصورًا غابرة، ويرقبون كل كلمة عنه باهتمام، ويتابع أحمد حديثه وهو يقول بصوت واثق وبابتسامته التي يعرفه بها كل من تعامل معه:

- وكذلك كما ترون أيها السادة يتميّز هذا الدير بمدخله الحجري القديم، وبوجود مقام القديس "جاورجيوس"، ويزخر بوجود عدد من اللوحات الجدارية والأيقونات البيزنطية في كنيسته التي ترقى للقرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي، والتي أعطته أهمية خاصة، وتعد الأفضل من نوعها في الشرق الأوسط والمنطقة.

يشير بيديه إلى الجبال التي حوله ويكمل:

- ورغم الجبال الجرداء التي تحيط به إلا أن هذا الدير يعد من المعالم السياحية المتميزة ويؤُمُّه الزوار من شتى البلدان والأجناس والأديان.. إذ يتميز كما ترون بسحر فريد لطبيعة الموقع والهواء العليل والسكينة التي تملأ المكان والتي ينشدها كل من يقصده..

يعلو فجأة صوت لطيف من بين أعضاء المجموعة السياحية قائلًا:

- هل لي بسؤال لو سمحت؟

يلتفت "أحمد" نحو مصدر الصوت مبتسمًا، وإلى صاحبة ذلك الصوت الأنثوي اللطيف الذي يألفه كثيرًا، وينظر حيث تقف "ماريا مادين"، تلك الشابة الفرنسية الشقراء، والتي تعمل كصحفية ومقدمة برامج في القناة الفرنسية في باريس عاصمة النور، والتي اعتادت زيارة سورية في كل موسم سياحي منذ سنوات خلت، حيث تساهم في إعداد عدد من المقالات والتحقيقات الصحفية حول التأثير الثقافي والفني والديني بين الشرق والغرب.

وخلال زياراتها المتكررة إلى سورية نشأت علاقة صداقة وطيدة بين "ماريا" و"أحمد" فقد كانت تميل إلى القيام بالجولات السياحية معه لأدائه المتميز في عمله كدليل سياحي، ولمعلوماته وثقافته الواسعة والقيمة عن الأماكن التاريخية التي كانت تزورها، فتحولت تلك الصداقة سنة تلو الأخرى إلى إعجابٍ متبادل، وخاصة بعد تلك الحادثة التي جرت في السنة الماضية، والتي كادت "ماريا" أن تسقط فيها من على علوٍ شاهق بعدما تعثرت قدمها فجأة وهي تقوم بتصوير أحد المشاهد الطبيعية الخلابة من فوق مرتفعٍ عال في دير"سيدة صيدنايا" في ريف دمشق، في تلك الحادثة كان رد فعل "أحمد" السريع حين ألقى بنفسه ممسكًا بيدها ومنقذًا إياها من السقوط.

كانت تلك أول مرة تلتقي فيها عينا"ماريا" بعيني "أحمد" عن كثب، ففي تلك اللحظة تلاقت العينان وسكتت الكلمات، وبدأ نبضٌ غريب يخفق في القلب وكأنه إيذان لحب بينهما.. وكأن ذلك التعلق المفاجيء قد احتاج لتلك السقطة ليزيل اللثام عن محياه، فباتت العيون تتكلم أكثر، ومضت الأحاسيس تنمو سنة تلو الأخرى دون البوح، وأصبحت "ماريا" تنتظر بلهفة أن يأتي موسم الصيف سريعًا لتمضيه مع "أحمد" في تلك الجولات السياحية، ليس فقط لغزارة قصصه الجميلة التي يتحدث عنها في عمله واتساع ثقافته، أو لكونها أيضًا تعد ملفًا صحفيًا عن تاريخ وبداية الوجود المسيحي في منطقة الشرق الأوسط حيث مهد المسيحية الأول، بل كذلك لتعامله الأنيق الراقي، ولابتسامته الدافئة التي كانت أكثر ما يعجبها فيه.

ينظر "أحمد" إليها بابتسامة عريضة ويقول:

- طبعًا تفضلي "ماريا"، ما هو سؤالك؟
- ما هو سبب تسمية هذا الدير بدير "مار موسى الحبشي"؟

تسأل "ماريا" وهي تكتب ملاحظاتها على دفتر الجيب البرتقالي الصغير في يدها، فتبدو وكأنها في انتظار تصريح من سياسي أو فنان شهير.

يبتسم "أحمد" بترحاب ويجيب قائلًا:

- نعم.. إنه سؤالٌ مهم.. في الحقيقة هناك قصص كثيرة حول ذلك، لكن أهمها وكما تقول الأساطير أنه وصل إلى هذه الوديان ناسك يدعى "موسى الحبشي" حيث حطّ رحاله الأخيرة بعد رحلة تعبد وتنسُّك بدأت منذ هروبه من منزل والديه ليلة زفافه.. إذ كان ابنًا لملك من ملوك الحبشة، وقد أراد أبوه أن يزوجه وأن يعدّه لخلافته على العرش فرفض "موسى" التاج الملكي والأمجاد الدنيوية وهرب تاركًا البلاط الملكي في الحبشة قاصدًا البراري والصحارى، ينام في الكهوف.. ويتحدى الخطر والوحوش الضارية باحثًا عن نُسَّاك يتدرب على

أيديهم ويعتكف معهم متعبدًا لربه، فوصل في بادئ الأمر إلى صحارى صعيد مصر وأقام في أحد أديرتها، ومن هناك قصد بيت المقدس ثم بلاد الشام حتى جاء إلى بلدة تدعى "قارة" حيث يقع دير "مار يعقوب المقطع"، وعاش هناك حياة الزهد حتى هجر الدير متوجهًا إلى كهفٍ صخريٍ في "وادي المغر" في "الجبل المدخن" فحل بعد ترحاله الطويل، حيث أقيم ديره المعروف الآن باسمه "دير مار موسى الحبشي" والذي نقف فيه الآن.

ويستطرد "أحمد" بفرنسية كلاسيكية بطيئة قائلًا:

- وقد كان ذلك فاتحة الحياة الرهبانية في هذا المكان المقفر من البداية، ولكن أثناء هجوم "هرقل" أحد أباطرة بيزنطية في عام ٦٤٠م على الأديرة التي تتبع التعليم الأرثوذكسي، تم قتل الرهبان ومن بينهم "مار موسى الحبشي"، وعندما علم والده ملك الحبشة باستشهاد ابنه؛ جاء متخفيًا وزار قبره، وأثناء ذلك شاهد أن إبهام يده منفصلة عن جسده، فأمر بإحضار البنائين وشيدوا ديرًا فوق معبد ابنه وظل إصبع "مار موسى" محفوظًا في كنيسة الدير ليتباركوا بها حتى سنة ١٩٤٠م حيث نقل إلى كنيسة "السريان" إلى مدينة "النبك " القريبة.

يكمل "أحمد" قائلًا:

- وقد تبوأ هذا الدير كذلك أهمية خاصة لموقعه الإستراتيجي بالنسبة لجغرافية هذه المنطقة، فهو طريق مهم بالنسبة للذين كانوا يأخذون طريق الحج من الشمال إلى القدس، وكذلك يمثل هذا الدير بالنسبة للحضارة الشرقية نموذجًا للحضارة الآرامية وللفن السريالي الممتزج بالفن البيزنطي، وكما ترون أيها السادة يقصد دير "مار موسى" الكثير من المؤمنين كي يتنسموا نسمات التقوى والفضيلة، وكذلك الفنانون عشاق الجداريات لما فيه من كنوز جدارية ونقوش فنية رائعة الجمال

تتزين بها جدران الدير، ولذلك تعد أهميته ليس كدير "سرياني" أثري وحسب، وإنما كملتقى فريد للحوار بين الأديان والمجموعات المختلفة عبر التاريخ..

ترتسم ابتسامة على وجه "ماريا" تعبيرًا عن إعجابها الشديد بكلام "أحمد"، وهي تسجل ما يقوله ثم تقول:

"ميرسي".. إنها فعلًا معلومات رائعة تصور روحًا تواقة للتأمل ذهبت بعيدًا عن موطنها لتصل إلى المعرفة والحياة التي تحلم بها..

وتتابع متسائلة، وكأنها تحاول أن تتحدى بخبث لذيذ معلوماته:

وماذا يمكن أن تحدثنا عن قصة هذا الدير وبنائه؟

يبتسم "أحمد" بالكثير من الرضا الظاهر على قسمات وجهه لسؤال "ماريا" ثم يتوجه لكامل المجموعة التي يرافقها ويجيب قائلًا:

نعم.. فقد بُني دير "مارِ موسى الحبشي" على فترات متباعدة، ويرجح أن البناء الأساسي القديم كان برج مراقبة عسكري روماني، وحسب افتراض البعض من المؤرخين كان عبارة عن قلعة رومانية صغيرة فيها برج صغير وسور يقع غرب الدير، قبل أن يحل "موسى الحبشي" فيه، ولكن بعد تطور الحياة الرهبانية هنا، وجد العابدون حاجة لبناء كنيسة يجتمعون فيها للصلاة والعبادة وبناء دير يكون مركزاً لحياتهم النسكية، فقاموا ببناء القسم الأول من الدير ومن بعدها بُني القسم الثاني على فترة قرنين من الزمن السادس والسابع الميلادي، وقد بلغ الدير قمة حضارته في القرون الوسطى، إذ خرج منه رجال علماء كبار.

يضيف محدّثًا وكأنه مؤرخ هذا المكان:

- وفي القرن الخامس عشر أعيد ترميم الدير وأضيف قسمٌ جديدٌ عليه، واستمرت الحياة الرهبانية فيه حتى عام ١٨٣١ ميلادي، حيث هجر

آخر رهبان الدير المكان وترك فراغًا فيه، فحوله الرعاة إلى ملجأ لهم ولمواشيهم، وبالرغم من خلو الدير من سكانه؛ ظل أهالي مدينة "النبك" القريبة منه يزورونه بتقوى وورع، وقد أوكلت شؤونه إلى الرعية المحلية التي بذلت جهدًا للمحافظة عليه، وبقي الدير وقفًا كنسيًا لمطرانية حمص وحماة والنبك للسريان الكاثوليك، إلى أن بدأت أعمال ترميميه في منتصف ثمانينات القرن العشرين.

وبعدما ساءت أحوال الدير عاد الأمل من جديد بتضامن بعض المكرسين ليضيئوا الحياة الرهبانية بشموع القداسة، وبمساهمة نخبة من الاختصاصين في الآثار والتاريخ القديم إلى أن جاء من إيطاليا الأب الذي عرف بالأب "باولو دالوليو" (Paolo dall'Oglio) عام ١٩٨٢م، والذي جاء بزيارة للدير صيف العام ١٩٨٢، لقضاء بضعة أيام في التأمل في هذا المكان المقدس، لكنه بعد ذلك قرر البقاء فيه وبدأ عملية ترميمه عام ١٩٨٤ وقد تطوع معه بعض الشباب للمساعدة في إصلاح وترميم الأجزاء المتهدمة من الدير وإخلاء المكان من رعاة الماعز وإعادة استثماره كمركز لحوار الأديان واستمر الترميم حتى صيف عام ١٩٩١، حيث بدأ الأب "باولو" بإعادة الحياة الرهبانية إلى المكان وخدم الدير لثلاثة عقود من الزمن..

وخلال استغراق "أحمد" بشرح قصة وتاريخ الدير للمجموعة السياحية التي يرافقها، يخرج من مدخل الدير رجل مهيب الطلة أبيض الوجه ذو لحية قصيرة شقراء غزاها الشعر الأبيض من كل جانب، مرتديًا نظارته المستديرة، يقترب منهم وهو يبتسم بابتسامة مؤثرة تُشعر كل من يراها بالأمان والبهجة، وبصوت دافئ رخيم يتوجه ذلك الرجل للمجموعة وهو يقول مبتسمًا:

مرحبًا بكم.. أهلًا بزوارنا الكرام وضيوف الرحمن..

يُسرع "أحمد" بخطواته إلى مدخل الدير وهو يتجه نحو ذلك الرجل وهو يقول كأنما يقدم الأوسكار:

نعم أيها السادة.. هاهو ذا الأب "باولو دالوليو" الذي أحدثكم عنه وها هو يرحب بكم بقلبه الدافىء المحب للجميع، وهو يقول مرحبًا بكم بكلمة (مرحبًا).. وهي كلمة يعتقد أنها ذات أصول آرامية أول من استخدمها هم المسيحيون القدماء في سورية، وتتألف من شقين: "مار" (مور).. ومعناها سيد أو رب، و"حبا" (حوبو) ومعناها محبة، وهي عبارة تعني " الله محبة"..

ويعانق "أحمد" الأب "باولو" الذي يرحب به، وسط تهليل الضيوف أمام مدخل الدير..

يصحو فجأة أحمد من صور شريط ذكرياته، والتي قد شرد فيها بعيدًا في الزمان والمكان الذي يتواجد فيه الآن ليعود من صور ذكريات العام ٢٠١٠ عندما كان يعمل دليلًا سياحيًا في سورية إلى يومه الحالي بعد سبع سنوات من ذلك التاريخ، والذي يتواجد فيه في مدينة باريس مع غروب شمس يوم ثلاثاء بارد من أيام شهر ديسمبر من العام ٢٠١٧..

فيمسك بصورة للأب "باولو دالوليو" ويتأمل فيها وهو يردد معلوماته السياحية وكأنه عاد من جديد:

نعم، لقد خدم الأب "باولو" الدير لثلاثة عقود.. وأعاد الحياة لدير مار موسى الحبشي قبل اختطافه المشؤوم..

يمعن النظر في صورة الأب المتفاني مجددًا، وكأنه يتحدث مع صاحبها:

والآن.. أين أنت أيها الأب الإنسان؟.. هل مازلت حيًا؟ أم غيَّبتك طيور الظلام بعيدًا؟

ثم يحدّث نفسه كذلك بأنه أخيرًا يستطيع أن يقول لذلك الرجل بأنه قد أوفى بوعده له وأوصل رسالته وأمانته في لقائهما الأخير منذ سنوات، ليسلمها إلى المسيو "عازر موسان"، والذي أراد أن تصل تلك الأمانة له..

يعود "أحمد" وكأنه يناجي نفسه، فيحدثها:

وأنا هنا قد التقيت بالمسيو "عازر موسان" أخيرًا في لقاء سريع صباح اليوم في باريس، وأزحت عن كاهلي ثقل الأمانة وقمت بالوفاء بالوعد وبإيصال تلك الأمانة، ومن كان يحسب أني سأكون في باريس بعد تلك السنون، وكم كنت خائفًا من عدم القدرة على الوفاء بذلك الوعد الذي قطعته لك في ظل ما عانيته من ظروف صعبة ومريرة..

فمن لاجيء هرب من الموت الذي كان يحيط به ومن وسط قنابل الكره والحقد، متشحًا بحزن القلب يقف "أحمد" بعد ليل طويل وغمرة المشاعر في مدينة النور، بعد أن سلك طريقًا شائكًا ودربًا وعرة.. في رحلة لجوء مريرة، وبعد أربع سنوات وبضعة أشهر على آخر لقاء مع الأب "باولو" في يوم موسوم بالسواد المحيط بهما من كل حدب وصوب.

الفصل الثاني

يبعث الليل عندما يحلّ على "أحمد" في باريس مشاعر دفينة، باريس حالمة وقاسية.. تعانقه فتعتصر أضلاعه على قارعة الذكرى، يحاول أن ينساها فلا يستطيع، ينظر من نافذة الغرفة التي يقيم فيها في باريس والليل قد بدأ يخيم بسواده على الأجواء والتي تعود به لصور مشاهد سوداء مكفهرة لم ولن ينساها.. ويعود ليسرح في شروده إلى العام ٢٠١٢م وهو يسمع صوت آذان فجر صباح يوم من ذلك العام في مدينته حمص التي يعيش فيها وسط سورية..

تنتابه القشعريرة مع تذكره لصوت قصف طائرات لقذائف وبراميل تنفجر فوق أبنية المدينة، يهتز رعبًا وكأنه يرى فيلم رعب حقيقي، حيث يعود ليشهد الهرج والمرج ومشهد هروب الأهالي بما استطاعوا حمله من مؤن وما عليهم من لباس إلى أي ملجأ ممكن أن يحميهم من القصف والموت..

ويذكر كيف يهرول وهو يلهث مسرعًا، حاملًا جسد أخته الصغيرة المضرجة بالدماء محاولًا إنقاذ حياتها إلى المشفى المحلي وهو يبكي من شدة الألم لما يحصل ولا يكاد يصدق أن بيته الذي يعيش فيه مع أمه وأبيه وأخوته "حسن" و "راما" قد تبعثرت جنبات ذكرياته أمامه، فقد قُصف بيته ولم يرحم جنبات قلبه المتعب من دمار الذكريات، ويركض لاهثًا.. وهو لا يعلم مصير باقي أهله حيث يشّله التفكير وتقترب من رأسه المضرج ألف فكرة وهو يحمل أخته "راما " ابنة العشر سنوات التي بين يديه حيث تتصارع أنفاسها بين الحياة والموت..

ويقفز به الشرود إلى مشهد المشفى، المتصاحب مع صراخ الأهالي وعويلهم وهم ينشجون.. دماءٌ هنا وهناك.. وأناسٌ تركض وأناسٌ تضرب نفسها باكية، والبعض ملقى بين جنبات ممر المشفى الضيق المتسخ الزوايا،

والأهل يصيحون بالأطباء والممرضين الذين يشكون حالهم أيضًا من قلة العدد والإمكانيات..

أشلاء بعض المصابين متناثرة.. وبعض الرجال قد استندوا إلى الحائط وقد أعياهم المشهد وهم ينظرون نحو الأطباء وهم يحاولون إنقاذ حياة الجرحى وفق الحالات القادمة لهم الأولى فالأولى، وتشهدهم وهم في حيرة من أمرهم لا يعلمون بما يجيبون.

تعود بأحمد صورة الطبيب الذي يقف أمامه وهو متجمد الملامح، وقد جف دمعه من قبل مخاطباً له وهو يشير حيث ترقد "راما" قائلًا:

رحمها الله.. للأسف.. لم نستطع إنقاذ حياتها..

ليتذكر نفسه كيف جثى على الأرض باكيًا من هول الصدمة وهو يصرخ بهيسترية..

ماذا فعلت لهم هذه الطفلة البريئة .. لماذا يقتلوننا؟!

من هؤلاء المجرمين؟!

يستذكر كلماته التي خرجت منه وهو يصيح ويهذي، والناس تهدىء من روعه باكية على حاله، ويسأل نفسه في سره من أي طبيعة هي تلك الأرواح التواقة للقتل والإجرام؟ ومن أي طين جبلت أيديهم الآثمة؟!

فيعود إلى حاضره وكأنه يصحو من كابوس مؤلم، ويفرغ من تذكر تلك المشاهد المؤلمة بعد أن شهق شهقة لا إرادية وكأنه يعود بها إلى الحياة من جديد، من تلك الصدمة التي هزت عالمه الصغير البسيط ..

شهقة كأنه يسترجع بها الحياة، أعادته لتلمس مكانه حيث يقف وهو ينظر إلى النافذة مع وجع الإحساس في قلبه المجروح والدموع التي تأبى أن تفارق عينيه.

لقد خسر كل عائلته وبقي وحيدًا ليتحمل ألم الفراق وصعوبة الحياة في مدينته "حمص" التي تشهد حربًا لم تبقِ ولم تذَر ككثير من المدن والمناطق في سورية، أعقبت مظاهرات ضخمة قام بها الأهالي ضد النظام الحاكم في سوريا و الذي خسر تأييدًا شعبيًا، فاستعان بمليشيات طائفية كانت تأتيه من إيران والعراق ولبنان وحتى أفغانستان..

تملؤه الدهشة وهو يستذكر مستغربًا من تلك الأسماء والشعارات التي كان هؤلاء الغرباء يسمون أنفسهم بها ويطلقونها على فرقهم العسكرية.. أسماء مثل "زَينَبيُون" و"فاطميون"..

وبأنهم أتوا ليحموا مرقد "زينب" و آل البيت!!

يستغرب من كل ذلك وهو يقول في نفسه: حسنًا.. ماذا يوجد في مدينة "حمص" ليحموه من أهلها؟ فلا يوجد قبر أو مشهد لـ "زينب" عليها السلام أو أحد من "آل البيت".. وكيف يريدون أن يحموا مراقد "آل البيت" من أهل البيت أنفسهم الذين عاشوا وماتوا بينهم ودمهم عربي من دمهم..

فهو –ونظراً لطبيعة عمله كدليل سياحي قارىء للتاريخ– يغوص في جنباته، يستخلص الدروس ويدرك ما المشوّه منه.. وكان يرى هؤلاء وكأنهم قد خرجوا من صفحات سوداء من التاريخ وكان يشّبه حال هذه المليشيات بالصليبيين الذين ادَّعُوا كذلك أنهم جاءوا ليحموا قبر السيد المسيح والمسيحيين من اضطهاد المسلمين والعرب المزعوم لهم..

وكل العالم عرف وقرأ قصص هذا التاريخ الطويل من الافتراء، إلى أن جاء "صلاح الدين الأيوبي" وأنهى هذه الأكاذيب بسيفه وحكمته..

ولكن الآن لماذا يتم اضطهادنا ونحن أهل البلد، ومن قبل غرباء وبعض من كانوا يتقاسمون معنا الوطن وأرادوه لهم فقط؟ ذاك سؤال لم يجد إجابته!

وتعود لتطالعه ذكرى صور مؤلمة لن ينساها ومشهد أفراد عائلته المضرجة بالدماء الملقاة في بهو المشفى.. وهو يصرخ باكيًا:

..لماذا أنتم .! ماذا فعلتم لتستحقون كل هذا؟.

كان يتذكر كل ذلك، بموسيقاه التصويرية المرعبة، وهو يستمع لأصوات القصف المتعالية من جديد وأصوات أناس تصرخ وهي تقول:

قصفوا ضريح سيدي خالد !..

وهم يقصدون بالتعبير المحلي ضريح البطل خالد بن الوليد..

فيحاول أن يطمس مشاهد ذلك اليوم من ذاكرته، و في هذا المشهد بالذات حيث يقف باكياً، مذهولاً في المشفى أمام جثة أخته "راما" التي لم يستطع أن ينقذها وعيناه قد انتفختا من البكاء وهو يستمع لما يتناقله الأهالي عما يجري من همجية في القصف فيصرخ قائلاً:

قتلوا أهلنا وحاضرنا.. والأن يقصفون مجدنا وتاريخنا..

فيخرج من المشفى بحالة هيسترية هائمًا، لا يعرف وجهة ولا مقصدًا، يصيح من الألم والغضب في شوارع مدينته "حمص" التي تحول ليلها إلى نهار من شدة القصف، وألسنة النيران تعلو من حوله..

فجأة تتوقف في تلك اللحظات سيارة كانت تسير بسرعة جنونية من أمامه، وإذا بـ"حسام" صديق "أحمد" منذ الطفولة وابن جيرانه يترجل من

تلك السيارة المسرعة وهو يحمل بيده بندقية كلاشينكوف روسية الصنع لينادي بلهجة أهل البلد في حمص وهو يشده من يديه:

(اطلع خيّ .. قبل ما تموت هوني)...

يصعد "أحمد" إلى تلك السيارة، وصديقه "حسام" يسحبه نحوه وهو لا يكاد يشعر بشيء من حوله، وتغيب السيارة مسرعة وكأنها تطير فوق الركام غير عابئة بالصواعد والنوازل من الأحجار المتراكمة جراء القصف.. وتنطلق مسرعة من جديد بين الدخان الأسود وحرائق المدينة، ليصحو "أحمد" بعدها وهو يجد نفسه في مكان غريب، ينبهه صوت صديقه "حسام" الذي يناديه:

أحمد هل تسمعني؟ هل أنت بخير؟

يجيب "أحمد" وهو يجد صعوبة في فتح عينيه:

أين أنا؟

يجيبه"حسام" وهو يضع يده على كتف صديقه القديم:

لا تقلق، أنت في مكان آمن، وقد أعطاك الطبيب حقنة مسكنة لتهدأ وترتاح قليلًا..

يحاول "أحمد" فتح عينيه ليستوعب المكان من حوله وهو يجهش بالبكاء قائلًا:

حسام.. لقد قتلوا عائلتي.. لقد مات الجميع.. رأيت الدماء والدمار في كل مكان.. لمَ كل هذا؟؟ ماذا فعلوا ليستحقوا كل ما جرى؟!

ينظر "حسام" إلى "أحمد"، وهو يعلم أنه وصديقه في نفس الحالة من عدم تصديق كل ما يجري، فيقدم له كوبًا من الماء الفاتر في كأس فضي ثم يقول:

لم يعد يفيد هذا الكلام الآن.. ولم يعد لدينا لا الدمع ولا الوقت لنبكي.. اشرب الأن وحاول أن تستجمع قواك، فلن نبقى هنا كثيرًا..

يشرب "أحمد" بعض رشفات من كوب الماء، وينظر من حوله.. ليشاهد عدد من الشباب بعضهم يحمل بعض قطع من السلاح ليقول:

أين أنا ؟؟ ومن كل هؤلاء الشباب المسلحين ؟؟

يجيب "حسام":

ألم تتعرف إلى بعض الوجوه؟ إن معظمهم شباب من حيينا ومن الأحياء المجاورة وبعض المناطق جاؤوا ليدافعوا معنا عن الأهالي والمدينة ضد هذا القتل والإجرام وشكَّلنا مجموعة تحارب تلك الميلشيات المتطرفة التي جلبوها لتشارك في قمعنا وقتلنا.. وكل واحد من هؤلاء الشباب فقد منزله أو عائلته أو بعض أهله.. عدا من هرب وانشق من الجيش النظامي كي لا يشارك في قتل المتظاهرين من أبناء الوطن، وهناك الكثيرين ممن يتمنون الهروب كذلك، فليس كل من في تلك القوات يؤيد هذا القتل غير المبرر..

يقف "أحمد" وهو يلقي نظرة على المكان والمجموعة التي تتجمع به.. وفجأة يدخل شاب من المجموعة وهو يصيح مناديًا بأن هناك مظاهرة في وسط المدينة ويجب أن يخرجوا ويكونوا معهم لحمايتهم..

يخرج جميع الشباب المتواجدين في ذلك المكان ومن بينهم "أحمد"، الذي يعود فيتذكر أخته القتيلة في المشفى وأهله الذين ودعوا الحياة، ترى من سيدفنهم؟

ليجد نفسه يقف مع جموع من المتظاهرين من أحياء مختلفة مسلمين ومسيحيين ومن مختلف الانتماءات، وصديقه "حسام" يحمل بندقية ليحمي ومن معه ظهور المتجمهرين العُزَّل والذين بدأوا يغنون أغاني وطنية وثورية يتحدون فيها كل أدوات القتل والعنف.. كان "أحمد" يستمع بمشاعر

متناقضة من القهر والعزة إلى تلك الكلمات التي يصيح بها المتظاهرون وهم ينشدون..

"حانن للحرية حانن.. يا شعب ببيتو مش آمن.."

ويعلو مع تلك الصيحات تصفيق المتجمهرين من كل أرجاء تلك المنطقة..

يصحو "أحمد" من شروده في كل تلك المشاهد المؤلمة على وقع صوت زخات المطر على زجاج نافذة الغرفة التي يقطن فيها الآن في باريس، والتي وصلها مؤخرًا بعد رحلة مريرة قطع عبرها بحارً وسهولًا وجبالًا وعددًا من البلدان، ليقدم فيها طلب لجوء إنساني باحثًا عن حياة آمنة وسلام، وبمساعدة من صديقته الفرنسية "ماريا" الصحفية التي أحبها من قبل، تلك الجميلة ذات الابتسامة الفاتنة والتي جمعه معها حبهما للتاريخ وحديثهما المشترك عن الحضارات الإنسانية التي مرت على المنطقة..

حيث كانت "ماريا" تزور سورية بشكل متكرر منذ قرابة عشر سنوات لتشارك مع الوفود السياحية الجولات على المناطق الأثرية في سورية وهي تعد سلسلة صحفية حول تاريخ المسيحية في سورية التي تعتبر مهد المسيحية الأول وفيها أقدم الكنائس والأديرة ومنها انطلقت المسيحية نحو أوروبا مع الرحلات والطريق التي سلكها القديس "بولس" "بطرس الرسول" قادمًا من دمشق التي هرب عبر أسوارها من بطش الرومان..

وبقيا على علاقة تواصل متينة لم تنقطع، وبقيا دومًا يتبادلان المراسلات والكتب..

تبدل الحال الآن، فلم يعد لـ "أحمد" عائلة ولاعمل ولا بيت ولا حتى مكان آمن يعيش فيه كما مضى.. ولم يعد يبدو سعيدًا كما مضى.. فالحزن يلوح في قسمات وجهه وكأن غبار الهموم قد نسجت منه شخصًا آخر.

الفصل الثالث

يعود "أحمد" على وقع صوت طرق زخات المطر على نافذة غرفته في باريس من مشاهد ذاكرته المؤلمة، وصوت هتاف المتظاهرين وغنائهم، إلى واقعه اليوم..

ويتلمس زجاج النافذة ليعود إلى الواقع وكأنه كان يحلم بتلك الصور المؤلمة.. ثم ينظر إلى تلك الغرفة من حوله وهو يشعر بوجع شديد في رأسه بدأ معه في تلك الأيام الصعبة، ليزداد ذلك الوجع مع مرور السنوات ويتكرر معه صوت طنين قوي يذكره بذات طنين القذائف والطلقات النارية الذي كان يسمعه في المعارك..

يعود مع صوت ذلك الطنين الذي يضرب برأسه وأذنيه الآن إلى الشرود من جديد، وهو يسمع صوت القذائف والطلقات النارية ضمن معارك كرٍّ وفرٍّ داخل وخارج مدينته حمص مع قوات مختلفة وفصائل من الميلشيات المتطرفة التي جاءت لتحتل مدينته..

مر العام ٢٠١٢ مأساويًا بالنسبة إلى "أحمد" حيث فقد عائلته ومنزله وسبل العيش بأمان، وبعد مرور أكثر من ستة أشهر من العام ٢٠١٣ استمرت مأساة ذلك الإنسان ومظاهر العنف والاقتتال، ليجد "أحمد" فجأة نفسه يقاتل ضمن فصيل من فصائل تشكلت بعفوية والتحقت بما أطلق عليه اسم "الجيش الحر" والذي تشكل عبر ردة فعل شعبية ضد القمع المفرط وقتل الناس الممنهج، وتكّون بداية من ضباط وجنود انشقوا من الجيش النظامي ورفضوا الانصياع لأوامر قتل المتظاهرين، لينضم إلى تلك الفصائل عدد من المدنيين والأهالي حملوا السلاح ليدافعوا عن أهلهم وأرضهم وبيوتهم..

لم يكن "أحمد" يفكر أنه في يوم من الأيام سيحمل السلاح، ولم يكن ينوي أبدًا أن يحمل السلاح، وهو الذي حمل القلم طوال عمره، وكذلك لم يكن ليخطر له أن يقاتل ضمن هذه الأجواء المتداخلة والمعقدة وخصوم فُرضت بهذه الطريقة الغريبة، ولم يفكر يومًا أنه سيكون ضمن مجموعات تقف في وجه بعضها البعض بهذا الشكل الدامي والذي يمزق البلاد ونسيجها الاجتماعي وذكريات وأحلام أبنائها..

بدأ الأمر برمته حين قام الأهالي بمظاهرات شعبية مطالبةً بهامش من الحريات ووقف صعود موجة الفساد والمحسوبية وكردة فعل على هيمنة الأجهزة الأمنية وفئة معينة على كامل مفاصل الحياة في البلاد بأكملها..

مع صور تلك الذكريات المؤلمة يزداد الوجع والطنين في رأس "أحمد" الذي يمسك بحقيبته ليخرج علبة يأخذ منها قرصًا من "الأسبرين"، ثم يبدأ بإعداد كوبًا من القهوة ويقوم بصب الماء الساخن في الكوب ويحرك مزيج القهوة التي يعدها وهو ينظر في الكوب والدوامة التي تشكلت من تحريك الملعقة التي في يده لمزيج القهوة والماء الساخن.. وأخذ يركز في دوامة القهوة تلك وبخار الماء الساخن الخارج منها..

يعود للشرود من جديد في مشهد آخر، حيث يرى نفسه متمركزًا مع مجموعة من ذلك الفصيل الذي كان يقاتل معه في معركة ضارية ضد مجموعات غريبة ترفع أعلامًا سوداء، فيجد نفسه يقفز من مرتفع لينزل في خندق وبجانبه صديقه "حسام" الذي كان يقاتل معه في ذات الخندق ويلتفت له متسائلًا:

من هؤلاء أيضًا؟؟ أما يكفينا أعلام مليشيات غريبة لا حصر لها!

يستطرد صائحًا وأزيز الرصاص ينهمر حولهم:

من هؤلاء الذين تبدو أشكالهم وكأنهم خارجون للتو من غياهب العصور الجاهلية!

يجيبه "حسام" من بين أصوات الطلقات النارية:

التطرف يا "أحمد" يوّلد التطرف.. فهؤلاء لا يختلفون عن المليشيات التي تقاتلنا بحجج واهية زاعمة أنها جاءت تريد أن تحمي "زينب" و"آل البيت".. هؤلاء يريدون أن يعيدوا الجميع إلى العصر الجاهلي بحجة الدفاع عن الدين، فالحرية والديمقراطية ومشاهد الحياة العصرية عندهم من أكبر الكبائر، ونحن الآن مُرتَدُّون بنظرهم.. وكفار في نظر غيرهم.. ومندسين وعملاء في نظر النظام..

ويتابع "حسام "ضاحكًا وكأنه يسخر من كل ما حدث معه:

أما أنا شخصيًا فلا أفهم لماذا يقاتلنا هؤلاء المجانين وبوحي من أي إله! وكذلك لم أعرف لماذا تقصفنا تلك الطائرات التي دفعنا أثمانها لتحمينا لا أن ترمي بتلك البراميل المتفجرة علينا، وحقيقة ليس لدي ما يخيفهم ويستجدي كل هذا العنف، فلا دبابة عندي ولا مدفع، وحتى هاتف الموبايل هذا الذي أحمله لم أكمل ثمنه هههه.. ولم يكن لدي أي حلم أو هدف إلا أن أتزوج من خطيبتي "أمل" ونعيش في بيتنا الذي تعبنا في بنائه، لكنه أيضًا ذهب مع الريح.. حين تم قصفه فضاع الأمل بـ "أمل" هههه..

وفجأة تسقط قنبلة قريبة من الصديقين لتُوقِف حديث "حسام" وسخريته من ذلك الواقع وتشتد مع انفجار القنبلة زخات الرصاص بين المتقاتلين إلى أن يصاب "أحمد" بطلقة رصاص، ويتذكر ذلك الإحساس وكأنه حدث في هذه اللحظة وقدمه تئز من حرارة الرصاصة، وتمنعه من المتابعة والقدرة على الركض، ويقع على الأرض وهو ينزف وينظر من حوله ولا يرى إلا الدخان الأسود، ولا يجد نفسه إلا وقد وقع أسيرًا في يد عصابة "داعش" المتطرفة ذات الرايات السوداء التي يقاتل مع رفاقه ضدها الآن..

فيقومون برميه في سيارة مكشوفة بعد ربط يديه نحو الخلف ووضع كيس قماشي أسود على رأسه، ثم يسيرون بتلك السيارة بسرعة جنونية ترافقها أصوات سيارات أخرى عبر طرقات متعرجة وهي تسلك مسافات طويلة تؤدي إلى مكان بعيد..

لتتوقف تلك السيارة في ذلك المكان بعد أن قطعت ساعات من المسير و"أحمد" لا يستطيع إدارك ذلك المكان ولا الزمان في تلك الساعات العصيبة الطويلة وهو ينزف من أثر جرحه، ليغمى عليه من شدة الألم وفقدانه الكثير من الدماء ..

ولا يصحو إلا على وقع رميه على أرض صلبة مع صوت طرق أبواب من الحديد وأصوات صراخ يستوعب معها أنه قد ألقي به في زنزانة بعيدة.. مع صوت ارتطام بابها الحديدي..

ولا يشعر إلا بيد شخص من داخل تلك الزنزانة تمسك به ويضع ذلك الشخص الغريب يده على جرح "أحمد" و يضغط عليه وهو يقول:

يا الله ماذا حل بهذا الشاب.. ماذا فعلتم به حرام عليكم!!

جملة قالها ذلك الشخص بتأثر عميق وبلغة عربية تزاوج بين الفصحى والعامية مطعمة بلكنة تكاد تكون مألوفة بالنسبة إلى "أحمد".. وهمّ صاحب ذلك الصوت بخلع الكيس الأسود من على رأس "أحمد"، الذي يشعر بأن هذا الصوت الدافىء ليس بغريب عنه، ليتفاجَأ وهو ينظر إلى صاحب ذلك الصوت أن الرجل الذي معه في تلك الزنزانة ويضغط على جرحه ليوقف النزيف هو نفسه الأب "باولو دالوليو" راعي دير "مار موسى الحبشي" والذي كان يلتقي به كثيرًا في زياراته للدير مع المجموعات السياحية ويسعد كثيرًا بلقائه وحديثه الودود الغني..

فيصرخ "أحمد" وعينيه تدمع من الألم وهَول المفاجأة : أبونا "باولو"!!

لماذا أنت هنا.. ماذا فعلوا بك؟؟

أنت لا تستحق أي أذى!!

يجيبه الأب "باولو": إنه قدر السماء يا بني.. ثم يتابع قائلًا وهو يضغط على جرح "أحمد" ويمسح الدماء التي تتدفق من ذلك الجرح: يا لطف الله كن معنا..

قل لي يا "أحمد" ماذا حل بك وكيف وصلت بك الأقدار إلى هنا؟؟

يعانق "أحمد" الأب "باولو" وعيناه تدمعان ويقول: إنه الظلم.. قتلوا عائلتي وهدموا منزلي.

يربت الأب "باولو" على كتف "أحمد " وهو يقول متأثرًا:

إنها إرادة الله يا بني.. فليرحمنا الله جميعًا..

لا تخف بُني.. ولنسلِم أمرنا لله ودعنا ندواي جرحك الآن..

يعود "أحمد" من ذاكرة تلك المشاهد الحزينة.. فيحمل كوب القهوة الذي أعده ويجلس على كرسي في زاوية تلك الغرفة التي سكن بها مؤقتًا بشكل غير نظامي ريثما يُبت في طلب لجوئه إلى فرنسا بشكل رسمي، ويرتشف رشفة من تلك القهوة التي أعدها، ثم يضع ذلك الكوب على الطاولة أمامه، ليمسك صورة الأب "باولو" من جديد وهو يغوص في ملامحه ليتذكر ملامح وصوت هذا الإنسان الطيب المحب لكل الناس ولكل الأديان التي تدعو للمحبة باسم الله..

فالأب "باولو دالوليو" هو كاهن يسوعي من مواليد ١٧ نوفمبر ١٩٥٤م، إيطالي وناشط سلام تم نفيه من سوريا عام ٢٠١٢ من قِبل حكومة النظام الحاكم بسبب لقائه مع أعضاء من المعارضة السورية وانتقاد أفعال النظام أثناء الثورة السورية، وتأييده لحراك الشعب السوري ضد القمع والعنف.

انضم الأب "باولو دالوليو" عام ١٩٧٥ إلى المجمع اليسوعي، وقضى فترة ترسيمه في إيطاليا قبل التحاقه بالجامعة لدراسة اللغة العربية في مدينة بيروت في لبنان، والدراسات الإسلامية في دمشق في سوريا.

وفي عام ١٩٨٢ استكشف الأب "باولو دالوليو" دير "مار موسى الحبشي" الذي يقدر عمره بالقرن السادس الميلادي، وكان قد تم هجره منذ القرن التاسع عشر الميلادي.

عام ١٩٨٤ تم ترسيم الأب "باولو دالوليو" كاهنًا في الكنيسة السريانية الكاثوليكية، وفي نفس العام حصل على درجة جامعية في اللغة العربية والدراسات الإسلامية من جامعة "نابلس الشرقية" وأخرى في اللاهوت الكاثوليكي من جامعة "جريجوريان البابوية "، وحصل في عام ١٩٨٦م على درجة ماجستير في علم التبشير من جامعة "جريجوريان البابوية".

كما حصل منها كذلك عام ١٩٨٩م على درجة الدكتوراه، وقدم رسالة الدكتوراه بعنوان "الأمل في الإسلام".

في عام ١٩٩٢ أسس الأب باولو "مجتمع الخليل" (الاسم الثنائي القرآني والإنجيلي للنبي إبراهيم) كمجمع مسكوني ورهباني، وخصصه للحوار الإسلامي–المسيحي وأخذ مكانه في دير مارِ موسى الحبشي.

كتب الأب "باولو دالوليو" في عام ٢٠١١ مقالة تطالب بالانتقال الديموقراطي السلمي في سوريا، بناءً على ما سمّاه "الديموقراطية بالإجماع"، وقابل الأب "باولو" حينها ناشطين من المعارضة وشارك في جنازة صانع الأفلام المسيحي ذي الـ٢٨ عامًا "باسل شحادة"، الذي كان قد قُتِل في حمص في قصف من قبل النظام الحاكم، رد النظام الحاكم بشكل عنيف وأصدر أمرًا بنفي الأب "باولو"، والذي تجاهله الأب لعدة شهور مستمرًا بالعيش في سوريا.

لكن بعد أن أصدر الأب "باولو" رسالة مفتوحة إلى المبعوث الخاص للأمم المتحدة في أيار٢٠١٢م، أطاع الأب "باولو" أسقفه الذي رجاه لمغادرة البلاد، فغادر الأب "باولو" سورية في ١٢ تموز ٢٠١٢م، وانضم في المنفى إلى دير "مريم العذراء" المؤسَّس حديثًا في السليمانية في كردستان العراق..

وفي تشرين الأول ٢٠١٢م، تم منح الأب "باولو دالوليو" جائزة السلام من قبل منطقة "لومباردي" الإيطالية، وهي جائزة مخصصة لأشخاص قاموا بأعمال غير عادية في مجال بناء السلام..

يغمض "أحمد" عينيه وهو يسترجع لحظات لقائه مع الأب "باولو" في تلك الزنزانة، ذلك الإنسان المسالم الطيب والذي كان قريبًا منه، وكان يرى كيف أحبه الجميع من مختلف الطوائف والانتماءات..

ليسمع أحمد في شروده صوت الأب "باولو" وهو يخاطبه قائلًا:

أحمد..كيف أصبحت الآن؟ إن شاء الله جرحك قد تحسن؟

و"أحمد" ينظر في وجه الأب "باولو" ويقول :الحمد لله.. أشعر بتحسن رغم الألم المستمر..

ويتابع قائلًا: أبونا "باولو" أنا لا أصدق أننا قد اجتمعنا معًا في مكان كهذا ولا في ظروف كهذه الظروف، وأظن أنك عرفت قصة اقتيادي إلى هنا.. لكن أخبرني ما هي قصتك؟ وما الذي جاء بك إلى هنا ولماذا يسجنونك هؤلاء المتطرفين؟

فينظر الأب "باولو" إلى أحمد ويقول: بُني.. كل ذلك من قدر وحكمة ومشيئة الله.. ثم يتابع قائلًا:

وها نحن اليوم في أواخر تموز من هذا العام ٢٠١٣م وقد دخلت مدينة "الرقة " –التي نحن فيها الآن– بالأمس قادمًا من الحدود التركية، وشاركت في تظاهرة مع أهل المدينة الكرام تناهض القتل والعنف، وطلبت بعدها

لقاءً مع قياديين في هذا التنظيم الأسود الذي سيطر على المدينة مؤخرًا، والذي يحتجزنا ويدعي كذبًا وبهتانًا أنه مع الثورة وضد نظام الاستبداد، ويحاول جاهدًا أن يسيطر على هذه المدينة بأي شكل مخادعًا الأهالي بشعارات باطلة مضللة لا علاقة لها بأي إيمان..

وقد طلبت لقاء أحد المسؤولين في هذا التنظيم الأسود للتوسط في الإفراج عن صحافيين أجانب أبرياء، ولكن بدلًا عن ذلك تم اختطافي وزجي هنا في سجون جماعة الظلام هذه ولغاية سوداء في أنفسهم كاشفين عن وجههم ومخططاتهم الحقيقية والإسلام بريء منهم..

وزجوا بي هنا قبل دقائق قليلة من زجك هنا معي في هذه الزنزانة الموحشة..

ويتابع الأب "باولو" كلامه إلى أحمد ويقول: وها أنت معي بني في هذه الزنزانة والتي أعتقد جازمًا أنه لولا كثرة المختطفين مثلك وجرحك الذي نزف حتى أغمي عليك لما قُدر لنا أن نكون معًا في نفس هذه الزنزانة.. وكذلك بعد الذي رأيته وعرفته عن هذه المجموعة، لا أتوقع أنهم يريدون أن يعلم أحد عن مصيري ومكاني..

يتعجب أحمد من حديث الأب "باولو" ويقول متسائلًا: لكن لماذا؟! ماذا يريدون منك ؟ ولمَ كل هذا الظلم؟!

يجيب الأب "باولو": انظر بني.. لقد قلت لك أن كل ما يحدث هو مشيئة الله وسر حكمته..

ودومًا ومنذ الأزل هناك معركة قائمة بين السلام وبين العنف.. بين الحق والظلم ..بين النور و الظلام.. بين الخير والشر..

فدعنا الآن نستفيد من هذه الفرصة التي قدرها لنا الله بلطفه..

وأريد أن أطلب منك طلبًا ووعدًا، وأنا أعلم بأخلاقك الرفيعة وصدق وعودك جيدًا..

ينظر "أحمد" إلى وجه الأب "باولو" قائلًا: أنا تحت أمرك أبونا الطيب.. لكن ماذا عساي أن أفعل وأنا في وضعي هذا وفي هذا المكان المظلم!!

يجيب الأب "باولو": بني لا شيء يبقى على حاله فعسى يكون الغد أرحب بنا..

لذلك أريد أن أحمّلك أمانة ورسالة توصلها لأحد الأشخاص عندما يأذن لك الله بفرجه وحريتك..

فإني أشعر وبعد حديثي ونقاشي مع هؤلاء المتطرفين وعلمي بمخططاتهم وأن السواد ليس في أعلامهم فقط بل في قلوبهم أيضًا، بأن لا مخرج قريب لي من هنا الآن، ومن الممكن جدًا أن يعزلوني أو يخفوني أو يغتالوني..

فهل تقبل بأن تحمل لي ولهذه الأمة وللعالم أجمع هذه الأمانة؟ ومن أجل هذه الأرض مهد الرسل ومحط رسائل السماء، وتوصلها لمن سأدلك عليه عندما يأذن الله لك ذلك..

يجيب "أحمد" وقد دمعت عيناه: أطال الله عمرك أبونا الطيب وحماك وقدَّر لك أن توصلها بنفسك..

ينظر الأب "باولو" إلى "أحمد" ثم ينظر للسماء وهو يقول:

لتكن مشيئتك يا رب كما في السماء كذلك على الأرض..

وينظر إلى "أحمد" من جديد وهو يقول: بني قد لا تتيح لنا الظروف ولا الوقت الحديث مرة أخرى..

لذلك أجبني من فضلك هل تحمل تلك الأمانة وتوصلها؟

يجيب "أحمد" قائلًا: إن كتب الله لي عمرًا فأنا أعدك بأن أوصلها، ولن أناقش في الأمر مجددًا..

لكن ماهي تلك الأمانة والرسالة.. ولمن أوصلها و أين؟!

يجيب الأب "باولو" قائلًا: بالنسبة إلى الأمانة؛ أريدك أن توصلها إلى شخص التقيت به في رحلتي إلى القدس في الثمانينيات، ودرسنا معًا في أحد معاهد علم "اللاهوت" وتبادلنا الكثير من الدراسات والأبحاث، وكنت أُعلمه بعض قواعد اللغة السريانية، وكان لنا من الأمل أن نجتمع قريبًا لنتابع بحثًا هامًّا نقوم عليه.. إلا أن الظروف الحالية قد منعت ذلك.. ولا أشعر بأني سأخرج قريبًا أو حيًا من هنا كما أخبرتك..

أما عن الأمانة؛ فهي عبارة عن ملف هام يحتوي على عدد من الأبحاث الهامة جدًا والموجودة ضمن مغلف ورقي مغلق ومختوم بختمي وقد كُرس ما فيه لخير أبناء هذه الأرض الطيبة ولتعم مشيئة الله في السلام..

وسأخبرك أين تجده بالتفصيل، فقد تركته في مكان آمن في تركيا قبل أن أصل إلى هنا، ولم أعلم بأنني قد لا أعود.. وقد وضعت مع المغلف الورقي (الأمانة) مغلف صغير يحتوي على مبلغ يقدر بستة ألاف يورو ستكون لك أيضًا وتستطيع أن تنفق منها لتدبر أمرك في الوصول إلى الشخص الذي ستوصل إليه تلك الأمانة والرسالة..

وسيرشدك إلى حيث مكان ذلك المغلف كاهنٌ في كنيسة "كنديرلي" في مدينة "غازي عنتاب" التركية.. يُدعى الكاهن "جورج"..

يسأل "أحمد" الأب "باولو" وهو منصت لكل ما يقوله الأب "باولو": ولكن ماذا عن الرسالة؟!

يجيب الأب "باولو" على سؤال "أحمد" ويقول: أما عن الرسالة بني فهي رسالة شفهية أريدك أن تنقلها إلى ذات الشخص الذي ستسلمه ذلك المغلف الورقي الذي حدثتك عنه.

فبعد أن توصل المغلف الأمانة إلى الشخص الذي سأرسلك إليه، أريد منك أن تنقل له رسالتي الشفهية التالية له، وأَخبِره أن الأب "باولو" يقول لك:

"اتبع أثر المنبر.. وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز..

والإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد.. وليس ايلوهيم راؤول، وبشأن القصيدة المنسوبة لابن يوسف الموصلي المسعودي؛ فلا أصل لها ولا نسبة لصاحبها، بل نظمت حديثًا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم.."

ويكرر الأب "باولو" نص الرسالة على مسامع "أحمد" ثم يسأله:

هل حفظت هذه الرسالة بني؟

فيكرر "أحمد" كلمات الرسالة عدة مرات وينظر إلى الأب "باولو" قائلًا: نعم لقد حفظتها جيدًا..

ويرددها على مسامع الأب "باولو" من جديد.. ثم يقول متسائلًا: ولكن من هو هذا الشخص الذي تريد مني أن أسلمه الأمانة التي تحتوي على المغلف الورقي والرسالة الشفهية؟ وكيف سألتقي به، وأين يعيش؟

يجيب الأب "باولو" على سؤال "أحمد" ويقول: حسنًا بني.. الشخص الذي ستسلمه الأمانة والرسالة يدعى المسيو "عازر موسان".

وهو مقيم حاليًا في فرنسا، وسأعطيك بريده الإلكتروني وهو سهل الحفظ وعبر ذلك البريد يمكنك أن ترسل رسالة له تحتوي كلمات يعلم هو فقط

أني أنا مرسلها، وعندها تتفقون على المكان والزمان لتسليمه تلك الأمانة ونقل الرسالة له، وليكن الله في عونك وعوننا..

لذلك احفظ عنوان هذا البريد الذي سأخبرك به والرسالة التي ستوصلها مع الأمانة، وعندما تتواصل مع المسيو "عازر" أخبره بما حل بي، وبأن المغلف الأمانة لديك وبأنك وعدتني بأن توصلها إليه.

يكرر "أحمد" على مسمع الأب "باولو" عنوان البريد الإلكتروني للمسيو "عازر موسان" الذي أخبره به، وكذلك كلمات الرسالة حرفيًا كما سمعها من الأب "باولو" ويرددها من جديد ويقول:

"اتبع أثر المنبر وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز، والإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد، وليس ايلوهيم راؤول..

وبشأن القصيدة المنسوبة لابن يوسف الموصلي المسعودي؛ فلا أصل لها ولا نسبة لصاحبها، بل نظمت حديثًا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم"

ويتابع "أحمد "وهو يمسك بيد الأب "باولو" قائلًا:

أمانتك أبونا "باولو" وعد وعهد عليَّ أن أوصلها لمن أردت أن تصل له.. وأرجو من الله أن يكتب لك أن توصلها بنفسك.

وتعاهد الاثنان على ذلك وتوجها نحو السماء راجين من الله الفرج والسلام..

ولكن فجأة.. وبعد مضي ما يقارب الساعتين، يصدر صوت أزيز باب الزنزانة وهو يفتح من الخارج ليدخل ضوء مبهر يخترق ظلام الزنزانة ويكاد يحرق العينين التي أخذت على ذلك الظلام الدامس..

ويدخل فجأة شخص على هيئة رجل قد خرج من العصور الوسطى للتو وهو يلبس لباسًا أسودًا.. ووجه مكفهر.. طويل الشعر أشعث اللحية، يلف على رأسه عمامة سوداء ويصرخ على السجانين قائلًا: ألم أقل لكم أيها الأغبياء بأن لا يوضع أحد بهذه الزنزانة المنفردة مع هذا الكافر!! وهو يشير إلى الأب "باولو"..

ثم يتابع وهو يصرخ: أخرجوا هذا المرتد اللعين وضعوه في سجن القاعة الكبيرة لننظر في أمره..

...لقد كانت تلك اللحظات آخر مرة يشاهد "أحمد" فيها الأب "باولو" الذي كان ينظر إليه وهو يقول: لا تخف بني.. اذهب وليكن الله معك ولا تنسى عهدنا وسامحني، فأنا بين رحمات الله..

ودّع "أحمد" الأب "باولو" وهو مغرورق العينين وقد أحاط به مجموعة من السجانين المسلحين الذين أخذوه ورموا به في سجن آخر ضمن قاعة كبيرة مع تهديدهم له بقتله فورًا إن تكلم عن الزنزانة المنفردة ومن كان فيها.
نعم لقد كان ذلك اللقاء القصير آخر مرة يرى فيها "أحمد" ويسمع العالم كله شيئًا عن الأب "باولو دالوليو"..

الفصل الرابع

بعد سنتين من أسر "أحمد"، وفي أواخر العام ٢٠١٥م، استطاع "أحمد" الهروب من سجنه مع عدد من المختطفين من قبل ذلك التنظيم الإرهابي حين تعّرض مكان سجنهم للقصف من قبل طائرات التحالف الدولي..

ليبدأ "أحمد" في رحلة جديدة هدفه الوحيد فيها أن يخرج من أجواء القتل والعنف بعد أن فقد كل عزيز على قلبه وكل مايملك، وأن يوصل أمانة ورسالة الأب "باولو دالوليو" المجهول المصير حتى هذه اللحظة..

بدأ "أحمد" بعد هروبه من الأسر ومن سجن ذلك التنظيم الإرهابي في السير شمالًا نحو الحدود السورية التركية ليستطيع بعد مساعدة من بعض الأشخاص أن يعبر تلك الحدود في رحلة شاقة، ليصل إلى مدينة "عينتاب" الحدودية أو "غازي عنتاب" كما يسميها الأتراك.

وصل "أحمد" أخيرًا إلى مدينة "غازي عينتاب" في تركيا، وأول ما خطرله هو أن يسأل عن كنيسة "كنديرلي" التي تقع في المدينة، وليسأل هناك عن الكاهن "جورج" الذي سيساعده في الوصول إلى مكان الأمانة كما أخبره الأب "باولو".

تابع "أحمد" تجواله في مدينة "غازي عينتاب" التركية والتي تتميز بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي بوجود الآثار التاريخية من مساجد وكنائس، ومن هذه الكنائس كنيسة "كنديرلي" التي تقع في شارع "أتاتورك" في منتصف المدينة..

وبالفعل وصل "أحمد" إلى كنيسة "كنديرلي" وسأل عن الكاهن "جورج" الذي رحب به ترحيبًا عظيمًا، خاصة عندما علم أن الأب "باولو" هو من

قد أرسله.. وحزن الكاهن "جورج" أشد الحزن لما حدث مع الأب "باولو" واحتجازه ومصيره المجهول.. ودعا "أحمد" إلى منزله ليرتاح ويأخذ قسطًا من النوم بعد الظروف التي مر بها، والرحلة الشاقة التي عبر فيها الحدود، وكذلك ليستعد لرحلة جديدة للوصول إلى حيث توجد أمانة الأب "باولو" في مدينة "أنطاكية"..

وبعد وجبة من الطعام الدافىء دخل "أحمد" في نوم عميق لينام لأول مرة منذ خمس سنوات بدون أصوات قذائف أو براميل متفجرة أو طلقات نارية، وفي جو من الحرية والطمأنينة دون سجن ووجوه ظالمة وقلوب سوداء..

فجأة يصحو "أحمد" من شروده في صور ذكرياته والذي قد طال قليلًا وهو مستلقٍ في غرفته في باريس على صوت رنين هاتفه الجوال، والذي قطع شريط صور مؤلمة كان قد مر بها وهو يتأمل صورة الأب "باولو" مسترجعًا تلك الذكريات..

ليجيب على الإتصال الذي كان من صديقته "ماريا" الصحفية الفرنسية التي وقع في حبها..

ماريا: كيف حالك "أحمد" ؟؟ أحببت أن أطمئن عليك، هل كل شيء على ما يُرام؟؟

أحمد: مساء الخير "ماريا" نعم كل شيء بخير، لكني أشعر ببعض التعب.

ماريا: إذًا لن أراك الليلة؟

أحمد: الأفضل أن نلتقي غدا و وفق الوقت الذي يناسبك ..وأعتقد أني سأكون بصحة أفضل غدا..

ماريا: حسنا "أحمد".. إذًا أتمنى لك ليلة سعيدة ولنا لقاء غدًا. وسأتصل بك عندما أنتهي من عملي..

تصبح على خير عزيزي..

يجيب أحمد: وأنت بكل الخير.. ليلة سعيدة "ماريا"..

يسند "أحمد" رأسه على الأريكة الوحيدة التي في الغرفة ويغمض عينيه من جديد ليعود إلى مخيلته صوت الكاهن "جورج "وهو يطرق باب غرفته في مدينة "غازي عينتاب"..

ينادي الكاهن "جورج "قائلًا: صباح الخير سيد "أحمد" أرجو أن تكون قد نمت جيدًا ليلة أمس؟

يرد "أحمد" ببعض الخجل: صباح الخير سيدي.. الحمد لله كانت ليلة مريحة ودافئة.

الكاهن "جورج": إذًا هيا لنفطر سويًا ونشرب القهوة ولأعرفك على من سيوصلك إلى "أنطاكية"..

فقد كان من المصادفة أن ذلك اليوم هو يوم الأحد حيث كانت هنالك رحلة يقوم بها عدد من السياح الذين سيتجهون من "غازي عنتاب" بزيارة الى "أنطاكية" ليزورا بعض المناطق و الأماكن الأثرية فيها و كان الكاهن "جورج" قد رتب لـ "أحمد" مكانًا بينهم ليكون أول ما سيزورونه بعض الأديرة والكنائس الموجودة فيها.

بعد الإفطار وصلت سيارة الباص التي تقل الرحلة لتأخذ معها "أحمد" بعد أن رتب له الكاهن "جورج" مكانا ضمن تلك الرحلة كسائح بين بعض السياح العراقيين وأوصى قائد الرحلة بأن يساعد "أحمد" ويوصله إلى دير القديس "مارِ بطرس" في أنطاكية.

يسترجع "أحمد" تفاصيل تلك الرحلة والتي بدأت في تمام الساعة التاسعة والنصف صباحاً، حيث انطلقت بهم الحافلة من "غازي عنتاب" متوجهة إلى أنطاكية، وما أن سارت تلك الحافلة حتى بدأ "أحمد" يسمع ترتيلة "شما

دبابا وبرونا " التي ارتفعت بها حناجر المجموعة التي تنشد تراتيل جميلة "للسيدة العذراء" ومنها القصيدة الرائعة التي ترتل باللغة الآرامية الكلدانية الحديثة السورث في الكنائس والبيوت..

بشماد باباو برونا..

وروح قوذشا مَحيانا..

يا طلاثا قنومي بخا كيانا..

هوي لْعَودوخ عَيانا..

ومعناها بالعربية للبيت الأول باسم الأب والابن والروح القدس المحيي.. ومع بعض التراتيل الأخرى لطلبة "الكريالیسون".

فاللغة الآرامية الكلدانية الحديثة التي تغني بها تلك المجموعة هي لهجة آرامية تطورت من الآرامية الشمالية الشرقية النهرينية، وكانت هذه اللهجة تحكى أصلا في منطقة تمتد من سهل نينوى شمال العراق حتى (سعرت) وبحيرة (وان) جنوب شرق تركيا..

في تلك اللحظات يتذكر "أحمد" الرحلات التي كان يقودها في سورية كدليل سياحي، وخاصة إلى دير "مار موسى الحبشي " ويرى وجه الأب "باولو" الدافىء وهو يرحب بابتسامته الدافئة بالسياح وينادي "أحمد" بحب بعبارة..

"يا مرحبا بأحمد وضيوف الرحمن"...

وفي تمام الساعة الثانية عشرة والنصف وصلت الحافلة التي تقل "أحمد" إلى مدينة أنطاكية، وفي قلوب ركاب الرحلة فرح وشغف لرؤية المدينة التي دُعِي فيها تلاميذ يسوع لأول مرة بالمسيحيين..

والتي تأخذهم شوارعها إلى دير القديس "مار بطرس" حيث قامت المجموعة بزيارة الدير والتقاط بعض الصور التذكارية فيه.

بعد ذلك ذهبت بهم الحافلة وفق مخطط الرحلة إلى حارة قديمة من حارات مدينة أنطاكية تسمى "قرطلش جادسي".. حيث تقع هناك كنيسة الكاثوليك اللاتين.. وزار "أحمد" الكنيسة مع المجموعة والتقى معهم بالأب "دومنيكو" والذي بدوره حدثهم عن تاريخ الكنيسة..

بعد ذلك سار الأب "دومينكو" مع "أحمد" والمجموعة مسافة ١٥ دقيقة بين أزقة تلك الحارة القديمة ليجد "أحمد" نفسه أمام كنيسة "مار بطرس" و"ماربولس" للروم الأرثوذكس حيث أنهى الأب "ديمتريوس" القداس الإلهي للتو ووقف يتحدث للمجموعة التي رافقها "أحمد" والتي وصل معها إلى أنطاكية .

في تلك اللحظة يحدّث "أحمد" نفسه قائلا : وأخيرا وصلت إلى حيث الأب "ديمتروس" والذي وضع عنده الأب "باولو" تلك الأمانة التي ائتمنني بها ..

يقترب "أحمد" من الأب "ديمتروس" ويحييه قائلا: السلام عليكم أبونا "ديمتروس" ..

لك معي سلام وتحية من الأب "باولو داليولو" ..

فينظر الأب "ديمتروس" في وجه "أحمد" وهو يبتسم قائلا : أنت "أحمد عيسى" الذي أرسلك الكاهن "جورج "؟

يجيب "أحمد": نعم سيدي وقد أمنني الأب "باولو" أن أستلم منك الأمانة والمغلف الذي تركه عندك قبل أن يدخل إلى سورية .

ينظر الأب "ديمتروس" إلى عيني "أحمد" وهو يقول بحزن: لقد حزنَّا جدًا لما حصل مع الأب "باولو"، والذي انقطعت أخباره منذ اختطافه، وكان لغيابه

أثرًا كبيرًا علينا وعلى كل محبيه، فهو شخصية لن تتكرر أحبه المسلمين قبل المسيحيين، فقد استطاع أن يجمع القلوب على نور الله وكلمة الحق..

ثم تابع قائلًا: تعال معي بني نودع الضيوف ولنقف وقفة محبة مع أبناء الرعية في الكنيسة، فغالبيتهم يتكلمون اللغة العربية و(اللهجة السورية) وبعضهم الآخر لا يتكلمون إلا التركية، ولكن هناك من سيترجم لنا ما نقول.

يقف "أحمد" مع الزوار الذين يودعون المكان وهم يعبرون عن حبهم وحزنهم لما يجري في سورية ويسلّم عليهم الأب "ديمتروس" ويخاطبهم قائلًا: "إننا هنا في الكنيسة دائمًا نذكرهم بصلواتنا ونرجو من الله أن يحل الأمن والسلام في سورية قريبًا".

بعد ذلك يأخذ الأب "ديمتروس" بيد "أحمد" وهو ينظر إليه ويقول: هل تقبل ضيافة فنجان من الشاي مع راعي الكنيسة؟ ولتحدثني عما جرى لك وكيف كان لقاؤك الأخير مع الأب "باولو"..

يرد "أحمد" قائلًا: لي الشرف أن تحل بركتك عليّ سيدي..

ثم يرافق "أحمد" الأب "ديمتروس" إلى مكتبه حيث يتبادلا أطراف الحديث عن الأحوال والأوضاع في سورية، و"أحمد" يحدّث الأب "ديمتروس" عن الرحلات التي كان يشرف عليها في زيارة الأديرة والكنائس القديمة في سورية، ويعجب الأب "ديمتروس" أشد الإعجاب بثقافة "أحمد" الواسعة في التاريخ المسيحي في المنطقة..

عندها يفتح الأب "ديمتروس" خزنته ليخرج منها صندوق خشبي ويخرج من ذلك الصندوق مغلف ورقيًا مختوم بختم الأب "باولو" ويقول لـ"أحمد" : هذه أمانة الأب "باولو" بني.. وليعينك الله في أن توصلها لمن أرد الأب

"باولو" أن تصل إليه، وكذلك هذا المبلغ من المال الموجود معها هو لك كما أوصى الأب "باولو".

ولتنزل رحمات الله على الأب "باولو" أينما كان وليحميك الرب والروح القدس.

يُقّبل "أحمد" يد الأب "ديمتروس" ورأسه، ويقول له متأثرًا: عهدٌ عليَّ أمام الله وأمامك أن أوصل الأمانة كما أوصاني الأب "باولو"، وهذا عهدي لك كما عهدي للأب "باولو"..

ولكن هل لي من طلب إن أذنت لي؟

يجيب الأب "ديمتروس" قائلًا: بكل سرور بني.

أحمد: هل يوجد هاتف أستطيع أن أجري به اتصالًا خارجيًا بعد إذنك؟

يرد الأب "ديمتروس" مبتسمًا وهو يوجه إصبعه نحو طاولة المكتب التي في زاوية الغرفة: هناك بني على ذلك المكتب يوجد جهاز الهاتف.. اتصل به على راحتك وأنهِ اتصالك، وسألتقي بك بعد ذلك في باحة الكنيسة لنأخذ قسطًا من الراحة ولتناول طعام الغداء معًا.

أحمد: أشكرك من كل قلبي سيدي..

ويتوجه "أحمد" نحو ذلك الهاتف وقد أخرج من جيبه ورقة كُتب عليها رقم هاتف في فرنسا، ليقوم بالاتصال بذلك الرقم بلهفة شديدة..

يرن الهاتف من على الجهة الأخرى ليجيب على الاتصال صوت أنثوي رقيق بلغة فرنسية ولهجة باريسية أنيقة يألفها "أحمد" كثيرًا، قائلًا:..هالو.. من معي؟

يرد "أحمد" على ذلك الصوت المألوف لديه وهو يتحدث الفرنسية التي يتقنها: "ماريا"!! أنا "أحمد عيسى" أحدثك من تركيا كيف حالك؟؟

تجيب "ماريا" بصوت يملؤه الفرح والدهشة:

أووه.. "أحمد" حبيبي كيف حالك أنت؟!

لقد انقطعت عن التواصل معي مدة طويلة .... أين كنت كل هذه الفترة ؟!! لقد قلقت عليك جدا من الأخبار التي كنت أسمعها عن ما يجري في سورية ؟؟!..

أحمد : "ماريا" غاليتي.. إنها قصة طويلة لكن سأختصرها لك بما يرضي قلقك.. ويتحدث "أحمد" لماريا عن كل ما حدث له باختصار حتى وصل تركيا..

ماريا: يا إلهي كل هذا حدث معك!! ليكن الله في عونك وفي طريقك.

يتابع "أحمد" حديثه إلى "ماريا" قائلًا: "ماريا" أنا لم يبق لي مكان أعيش فيه وأريد أن أتحمل عناء السفر لأصل إلى باريس علّي أجد مكانًا آمنًا أعيش فيه، ولسبب آخر مهم جدًا بالنسبة لي.

تجيب "ماريا": لكن كيف ستصل إلى باريس من دون أوراق ؟ أنت تعلم أن هناك إجراءات ليست بسيطة لتحصل على تأشيرة دخول.. وخاصة في هذه الظروف.

أحمد: لا يوجد لدي للأسف إلا أن آخذ طريق البحر وأصل اليونان، وحينها أكون قد قطعت نصف الطريق.

تجيب "ماريا" وقد شعرت بالقلق الشديد: طريق البحر!! لكن هل أنت مدرك لما تقوله والخطر الكبير في ذلك!!

ألم تسمع بالضحايا التي غرقت وهي تحاول الهروب نحو أوروبا؟!

أحمد : نعم "ماريا".. لكن ليس في اليد حيلة.. سأحاول معرفة خبايا هذا الطريق، وأتحمل خطورة الرحلة.. وكذلك لدي أمانة يجب أن أوصلها.. وقبل كل ذلك أريد أن أراك من جديد.

تجيب "ماريا بتأثر": نعم "أحمد".. وأنا كذلك.. فقد اشتقت إليك جدًا وافتقدتك كثيرًا..

أحمد : إذا صلِّ لي "ماريا".. وعسى أن أراك قريبًا، وإن لم يكتب لي ذلك أريد أن تعلمي أني أحبك جدًا..

ترد "ماريا" بتأثر بالغ: وأنا أحبك "أحمد" ولا بد أن نجتمع من جديد ولن أتخلى عنك أبدًا وخاصة في هذه الظروف.. ولكن أريد منك أن تعدني بأن تنتبه لنفسك وأن تبقى على تواصل معي أينما حللت ..

أحمد : شكرًا "ماريا" وأعدك بذلك ولنبقى على تواصل لا ينقطع..

إلى اللقاء ماريا..

إلى اللقاء أحمد..

أنهى "أحمد" اتصاله بـ"ماريا" وقلبه يخفق فرحًا بمشاعر جميلة اشتاق لأن يشعر بها، فقد أعاد له صوت "ماريا" كذلك ثقته بنفسه وإصراره على تخطي كل الصعاب ليرى محبوبته من جديد..

يجلس قليلًا ويغمض عينيه لبعض لحظات وهو يستذكر تلك الأيام الجميلة التي جمعته مع "ماريا" وتلك الرحلات الجميلة التي كان يأخذها إليها ويجول معها الأماكن التاريخية والأثرية في سورية.. ثم يفتح عينيه وهو يبتسم وكله أمل بأن تعود تلك الأيام من جديد، ثم ينتبه ويقف ليخرج مسرعًا ليجتمع مع الأب "ديمتروس" الذي ينتظره على مائدة الغداء ..

يتناول "أحمد "مع الأب "ديمتروس" وجبة الغداء بمحبة وأُلفة لا نظير لها، وبعد أن انتهيا من تناول ذلك الطعام اللذيذ الذي تم تحضيره بعناية

اشتهرت بها تلك المدينة، يقترب الأب "ديمتروس" إلى جانب "أحمد" وهو يقول: هيا تعالَ معي سآخذك في جولة في شوارع مدينة أنطاكية.. ويتابع ضاحكًا: وسأخذ دورك الأن كدليل سياحي وتاريخي بأداء لا يقل عن أدائك المتميز..

يرد أحمد على الأب "ديمتروس" مبتسمًا: أشكرك من كل قلبي سيدي.. فقد سمعت الكثير عن هذه المدينة والتي ذُكرت في كثير من القصص التاريخية التي قرأتها..

وتبدأ الجولة حيث يستقل "أحمد" مع الأب "ديمتروس" إحدى السيارات التي أخذت تجول المدينة، ليبدأ الأب "ديمتروس" في الحديث لأحمد قائلًا: هذه بني مدينة أنطاكية.. حيث تطلق عليها:

باليونانية/ **Αντιόχεια** وبالتركية/ **Antakya**

وبالإنكليزية/ **Antioch** .

نشأت هذه المدينة في (سنة ٣٢٣ ق . م) وعندما مات "الإسكندر المقدوني" قام "انتيغون" أحد كبار ضباط الإسكندر بإنشاء مدينة الإسكندرونة عند مصب نهر العاصي، بعد ذلك استولى "سلوقس الأول نيكاتور" عليها وأقام مكانها مدينة أسماها أنطاكية على اسم أبيه "أنطيوخوس" وعلى نفس المنوال أنشأ مدينة أخرى أطلق عليها اسم والدته لاثوديسا (اللاذقية).

ويتابع الأب "ديمتروس" حديثه إلى "أحمد" وهو يخبره عن تاريخ المدينة ويقول: ولمدينة أنطاكية بني أهمية خاصة في المسيحية حيث تمثل أول مدينة وثنية سمعت وقبلت كلمة الله من الأمم الأخرى خارج اليهودية، وترمز إلى قيام الكرسي الأول للرسول الأول "بطرس" الذي مر بأنطاكية وأقام فيها لفترة مؤقتة قبل ذهابه إلى روما للإقامة الدائمة هناك..

"وفيما كان بطرس يخاطبهم بهذا الكلام حل الروح القدس على جميع اللذين سمعوا الكلمة ".. (أعمال الرسل / ١٠: ٤٤)..

وتشرفت أنطاكية كذلك بأول اجتماع شهير للرسل خارج اليهودية لتثبيت إيمان الوثنيين الأنطاكيين بكلمة الإنجيل المقدس..

وتعاظمت أنطاكية بكونها المدينة الأولى في العالم والتي دُعي فيها تلاميذ يسوع المسيح والمؤمنون بالمسيحيين..

"وتردد معًا (بولس وبرنابا) سنة كاملة في هذه الكنيسة وعلَّما جمعًا كثيرًا حتى إن التلاميذ دعوا مسيحيين بإنطاكية أولا"..(أعمال الرسل ١١: ٢٦)..

وبعد انتهاء الجولة والشرح الشيق عن المدينة ينظر الأب "ديمتروس" نحو "أحمد" وهو يقول مبتسمًا: أرجو أن أكون قد قمت بأداء دور الدليل السياحي الذي كنت تقوم به في سورية مع الضيوف والحجاج على خير وجه..

يجيب "أحمد" قائلًا: الأب "ديمتروس".. لقد أذهلتني ببحر علمك وأضفت لي معلومات تشرفت بأني قد سمعتها منك شخصيًا.. وحقيقة أرجو أن لا أكون قد أتعبتك معي في هذه الجولة..

الأب "ديمتروس": لا تقل ذلك بني فهذا واجب علينا.. فالعلم والمعرفة وطريق النور له كثير من الأوجه.

يجيب "أحمد" : لن أنسى هذه الكلمات العميقة سيدي وأكرر شكري لحسن وكرم ضيافتكم..

الأب "ديمتروس": إلى أين تنوي الذهاب الأن بني ؟

يرد "أحمد" قائلًا: سأتوجه بداية نحو مدينة "إزمير"، فلدي رحلة طويلة لأقوم بتنفيذ وعدي الذي قطعته للأب "باولو" ولكم بأن أوصل الأمانة والرسالة لصاحبها.

الأب "ديمتروس": إذا ليكن الله عونا لك في طريقك و ليباركك بالروح القدس.

يبيت "أحمد" ليلته في ضيافة الأب "ديمتروس" وليودعه في اليوم التالي ليتجه إلى "إزمير" بعد أن أخذ بركته..

..فجأة ينتفض "أحمد" من مكانه بعد أن كان قد أغمض عينيه واستغرق في شروده وذكرياته وهو يشعر بوجع شديد في رأسه الذي مازال متكئًا به على طرف الأريكة الخشبية لفترة طويلة مع شروده في تلك الغرفة التي استأجرتها له "ماريا" في باريس ريثما يبت في طلب لجوئه الذي قدمّه إلى السلطات هناك..

ينظر "أحمد" إلى سقف الغرفة متأملًا في المكان ثم يتمدد بكامل جسده على الأريكة والذي شعر به وقد تكسر من طول فترة جلوسه دون حراك و هو غارق في شروده بين الحين والآخر..

ثم ينظر إلى ستارة النافذة الزرقاء ويمعن في النظر فيها ليشرد مجددًا وهو يستمع لصوت أمواج البحر..

ولتعود إلى ذاكرته الآن أجواء رحلة اللجوء المرة من "إزمير" المدينة التركية إلى اليونان.

الفصل الخامس

غادر "أحمد" مدينة "أنطاكية" متجهًا نحو مدينة "إزمير" التركية ليلتقي هناك بعدد من الناس ممن هربوا من العنف والقتل في سورية، ويستمع منهم لقصص أقرب إلى الخيال عن من حاولوا التسلل عبر البحر للوصول إلى أوروبا باحثين عن ملجأ آمن..

وتعّرف هناك على عددٍ من المهربين الذي كانوا يستغلون ظروف الهاربين ويتولون مهمة تهريب البشر عبر الطرق البرية والبحرية المتاحة والتي كانت تتغير وتتبدل أحوالها وأسعارها حسب المتغيرات اليومية وحسب وضع الحدود الخطرة ،رغم ذلك قرر "أحمد" المخاطرة في سبيل الوصول إلى أوروبا حالمًا بحياة جديدة آمنة، لتبدأ تجربته المريرة التي لن ينساها..

فعند أول محاولة قام بها استقل رحلة في السيارة لنحو خمس ساعات، تلاها مسيرٌ قرابة ساعة في إحدى الغابات لبلوغ البحر، ومن ثم الخوض في البحر مشيًا للوصول إلى القارب..

لقد كان الموت هاجسًا لدى "أحمد" قبل الشروع في رحلته تلك، وله كثير من الأسباب التي كانت تدفعه للقلق، لما تناهى إلى مسامعه من أنباء عن مصير البعض من العابرين والذي عزز عنده هذا الهاجس..

هنا يحّدث "أحمد" نفسه ويقول: طبعًا كنت أخشى الموت، وسبق أن علمت أن مجموعة من المهاجرين قضت على الطرق البرية برصاص مهرّبين خشوا أن تكتشف السلطات طريق التهريب تلك بعد أن قرّر هؤلاء المهاجرون عدم المضيّ في الرحلة والعودة ..

وإحدى المجموعات تاهت في الغابات التركية لـ١٦ ساعة، قبل أن يتم إلقاء القبض عليهم من قبل السلطات..

لقد كان خط رحلة "أحمد" يقتضي بحسب المهرّب قضاء نصف ساعة بالقارب للانتقال من تركيا، وكان "أحمد" يتساءل إذا ما كان سيغرق حينها.. ولكن أولى تجارب عبوره الحدود مع اليونان فشلت، إذ اكتشف خفر السواحل اليوناني القارب الذي كان يُقلّهم قبل مئات الأمتار فقط من الوصول إلى جزيرة يونانية ليعيدهم أدراجهم.

بعدها بدأ "أحمد" برحلة الموت هذه من جديد في قارب مطاطي باتجاه اليونان.

ويتذكر "أحمد" كيف كان الموت يحيط به ومن معه في ذلك القارب من كل جهات الرحلة عبربحر"إيجة"..

لقد كان ذلك أسوأ جزء من رحلة الهروب تلك، حيث دفع ٢٢٠٠ يورو للحصول على مكان في قارب مع ستة أشخاص آخرين، ففي المحاولة مع مهرّب أخر، قضى "أحمد" ومجموعته التي تضم شابًا آخر وعائلة من اللاذقية مكونة من زوجين وطفليهما أكثر من ساعتين لاجتياز بضعة كيلومترات في مياه بحر"إيجة"، بسبب عطل أصاب قاربهم بُعيد الانطلاق ورفْض قائده العودة..

وفكر "أحمد" حينها أنه لا يوجد شيء يخسره بعد أن خسر بلده ومستقبله، لذلك قام بهذه الرحلة عبر البحر مخاطرًا بحثًا عن السلام، إما على الضفة الأخرى من الماء إذا نجى، أو على الطرف الآخر من الحياة.. أي الموت..

لكن العطل الذي أصاب القارب لم يكن المفاجأة غير السعيدة الوحيدة، فبدلًا من أن يتم إيصالهم إلى جزيرة "سيمي" اليونانية وفقًا لاتفاقهم مع المهرب، قام برميهم في جزيرة أخرى.

وبعد عدة ساعات أدرك الجميع أن تلك الجزيرة مهجورة تقريبًا، ووضع المهرب اللاجئين الستة في منطقة تبعد عدة كيلومترات عن أقرب شارع، وأن هذه الكيلومترات كانت عبارة عن جرود صخرية مرتفعة وقاسية فيها درب ضيقة لا يتجاوز عرضها نصف متر، وبلا دليل يقودهم، حيث تاهت المجموعة في الجرود الصخرية ولم يُجدِها الاتصال بالنجدة اليونانية طلبًا للمساعدة، واستمروا بالمشي على تلك الصخور وتسلّقها مما أدى لتمزق أحذية العابرين وأجزاء من ملابسهم..

يتذكر "أحمد" كل ذلك بألم وهو يحدّث نفسه: كنا أحيانًا نرى مِزَقًا لثياب آخرين مروا من الطريق نفسه، ولا نعرف هل بلغوا مرادهم أم لا!!

ونتيجة لذلك الإجهاد أخذت الزوجة التي ترافق المجموعة مع عائلتها – وكان "أحمد" من ضمنها– تبكي بشدة ثم بدأت تهلوس مع إنهاكها الشديد وتقيأت ثلاث مرات، فيما اضطرت المجموعة للتوقف مرتين وأخذ استراحة إجبارية..

يتذكر"أحمد" مرارة تلك اللحظة.. فقد كانت تلك المرة الأولى في حياته التي يشعر فيها أن الموت هو مصيره المحتوم..

وبعد يوم كامل بلا مياه أو طعام، استأنف "أحمد" مع المجموعة مسيرهم إثر ليلة بلا نوم بسبب البرد الشديد في العراء، وأحد أفراد المجموعة وهو رب الأسرة المرافقة لـ "أحمد" انفصل عن المجموعة بهدف رغبته في سلوك الطريق البحري سباحة والعودة بالنجدة، وهو ما يعني السباحة لعدة كيلومترات، و"أحمد" يشاهد أن الزوجة والطفلين لم يعودوا قادرين على إكمال مسيرتهم نتيجة الإجهاد والعطش الشديد، فطلبت الأم أن ينتظروا في مكانهم وكان آخر ما قالته..

"اجلبوا لنا ماءً كي لا نموت "..

وواصل الشابان رحلتهما على أمل العودة بمياه شرب للأم والطفلين، وفيما احتفظ "أحمد" ببعض من قوته، بدأ الشاب الآخر يفقد توازنه، وهو أساسًا يعاني من آلام في الظهر ومشاكل ضغط، فطلب من "أحمد" في حال غطّ في النوم ألا يوقظه «كي يموت وهو مرتاح»..

يواصل "أحمد" شروده وتذكر ما جرى معه في طريق اللجوء المميت.. حيث دخل مع رفيقه بعد ساعتين من المشي إلى منطقة أحراش ليجدا بناء قديمًا لكنيسة صغيرة وفارغة، عثرا في داخلها على وعاء به مياه قديمة مخضرّة، وقام "أحمد" بفك رباطًا طبيًا كان يضعه على ركبته ليستخدماه في تصفية المياه قدر الإمكان والشرب.. وبعد أن شربا، عجزا عن التحرك وغطًّا بالنوم، ليستيقظا على صوت رجال الشرطة والإطفاء بعد سبعة ساعات تقريبًا ويكتشفا أن الأحراش من حولهما تحترق وأن النار لا تبعد عنهما سوى بضع عشرات من الأمتار.

تعتقل الشرطة "أحمد" ورفيقه، ولم يصدّقوا بأنهما قد تركا وراءهما عائلة وأطفالًا ولم يبذلوا جهدًا لإنقاذهم، بل اقتادوا "أحمد" ورفيقه إلى مركز الشرطة ووجّهوا لهما اتهامات بإشعال النار عمدًا".. وبعد يوم واحد فقط في مركز الشرطة الحدودي، وصل رب الأسرة وبدأ يتحدث عن عائلته المفقودة، إلا أن الشرطة اليونانية لم تسمح لأحمد بالمساعدة في تحديد مكان العائلة إلا بعد أسبوع كامل على افتراقه عنهم، دون السماح له بالوصول إلى النقطة التي افترقوا فيها بحجة أنها منطقة محظورة، فيما واصل رب الأسرة البحث عن عائلته لوحده ولكنه عثر بعد أسبوع على الجثث للأسف..

وكان "أحمد" قد وجهت له مجموعة من الاتهامات التي بدأت بحرق الأحراش عمدًا ولم تنتهِ،و قضى خلالها ثلاثة أسابيع في السجن دون السماح له بإجراء أي اتصال، بعدها نقلت السلطات اليونانية "أحمد" إلى

سجن مركزي في "أثينا "حيث قضى أسوأ أيام حياته، قبل أن يتم الإفراج عنه لاحقًا..

وفي مقر حجز اللاجئين في اليونان سمع "أحمد" قصصًا أخرى لهاربين خاضوا تجارب متنوعة في قسوتها واستمع إلى مدى غرابتها.. فأحد اللاجئين الذين سلكوا الدرب الصخري في اليونان وصل إلى مركز الشرطة وهو يحمل حقيبة حاسوبه المحمول وهو يرتدي لباسًا داخليًا فقط، بعد تمزق ملابسه بسبب الصخور.. لاجئ آخر تم إخفاؤه في صهريج لنقل الوقود.. وقصص مرعبة كثيرة..

لكن فيما يبدو أن هناك قاسم مشترك بين جميع اللاجئين، حيث كان هناك ثمة اعتقاد خاطئ بسهولة ما هم مُقْبلون عليه.. ربما هو الأمل في النجاة بحياتهم والتفكير بغدٍ أفضل..

فالكثيرين أخبروهم أن الرحلة سهلة ومضمونة ضمن قارب واسع ومريح، لكن الواقع كان أكثر هولًا.. فالقارب صغير مخصّص للصيد، وعدد المهاجرين يتجاوز قدرة القارب للحمولة وكانت حمولة كل فرد حقيبة ظهر واحدة ملفوفة بالنايلون كي لا تبتل، احتوت قليلًا من الطعام والمياه والثياب وسُتَر نجاة، والتي كانوا يعلمون ضمنًا أنها قد لا تفيد فيما لو اضطروا لاستخدامها في عرض البحر..

الفصل السادس

يستمر "أحمد" في شروده مستغرقًا وسارحًا في شريط الذكريات وطريق رحلة اللجوء إلى فرنسا..

ولكن بالرغم من كل الصعاب التي واجهها "أحمد" كانت لرحلته أيضًا جوانب جميلة، أهمها إيطاليا.. فبعد ثلاثة أشهر من المعاناة في اليونان كان وصوله إلى إيطاليا كحلم، حيث بقي في "ميلانو" لمدة إحدى عشر يومًا بعد تمكنه من تأمين مكان للسكن بانتظار أن يستطيع التواصل مع "ماريا" صديقته الفرنسية لمساعدته في مواصلة الرحلة والوصول إلى باريس.

نعم ها قد وصل "أحمد" إلى إيطاليا أخيرًا بعد أن تنقَّل في عدة أماكن في رحلة متعبة حفتها المخاطر من كل جهة، وفي دول عدة مر بها، انطلاقًا من تركيا عبر البحر إلى اليونان..

هنا يتذكر "أحمد" عمله السابق كدليل سياحي وما تعلمه عن إيطاليا وتاريخها وجمال كنائسها، حيث كانت العاصمة الإيطالية روما لقرون عديدة المركز السياسي للحضارة الغربية باعتبارها عاصمة للإمبراطورية الرومانية، ولكن ما يهم "أحمد " الآن هو الوصول إلى حيث ينظر.. الحدود المشتركة مع فرنسا..

فرنسا.. آه.. يتنهد "أحمد" ويقول: نعم، فرنسا..

ليتذكر "أحمد" هنا "ماريا" وابتسامتها الساحرة التي اشتاق لها ولحديثها الجميل و أسئلتها التي لا تنتهي..

يبتسم "أحمد" وهو يتذكر وجه "ماريا".. ثم يتفقد تلك الأمانة التي يحملها معه، فمغلف الأب "باولو" رغم وزنه الخفيف إلا أن الحمل كان ثقيلًا جدًا

فقد جاهد "أحمد" كثيرًا في المحافظة عليه منذ بداية رحلة اللجوء المرة، حيث وضعه في حقيبة ظهره بعد أن غلفه بلفائف عازلة من النايلون ومن ثم حقيبته التي بقي يمسك بها ويربطها حول بطنه في لحظات التعب والتنقل، والآن ها هو ذلك المغلف في الحقيبة من جديد بين ما يحمله من قطع ثياب قليلة وحاجاته الشخصية..

يسير "أحمد" في شوارع مدينة ميلانو الإيطالية التي وصلها مؤخرًا في طريق سفره نحو فرنسا ليجد بعد بحث طويل هاتفًا عموميًا فيخرج من جيبه الورقة التي كان قد سجل فيها رقم "ماريا" ويقوم بالاتصال بها أخيرًا.. فهو لم يحادثها منذ أن كان في تركيا قبل أن يخرج عبر البحر في رحلته الطويلة والشاقة..

ويقوم بلهفة بالضغط على لوحة أرقام الهاتف وهو يتصل بـ"ماريا" التي تجيب على الاتصال بصوتها الناعم الدافىء:

– الو.. صباح الخير، من معي؟

يخفق قلب "أحمد" عند سماع صوت "ماريا" ليقول بلهفة:

"ماريا".. كم اشتقت لصوتك..

أنا "أحمد".. وأحدثك الآن من مدينة ميلانو في إيطاليا..

ماريا : آه.. "أحمد"! حمدًا للرب أنك بخير.. لا تتصور كم قلقت عليك لتأخر اتصالك بي!!

أحمد : الحمد لله "ماريا" فبركات دعوات من دعى لي لم تفارقني في رحلتي الصعبة، ورغم قساوة هذه الرحلة إلا أنني وصلت ميلانو أخيرًا وأحادثك وأنا بكامل صحتي..

ماريا: ممتاز، وسعيدة جدًا بما أسمعه منك.. لكن الآن ما هي الخطة؟!

يجيب أحمد: الخطة الآن هي أن أصل إلى فرنسا.. وقد اتفقت مع أحد الأشخاص أن يتدبر أمر وصولي بداية إلى مدينة "ليون" في فرنسا انطلاقًا من ميلانو، وعندما أنجح باجتياز الحدود سأتصل بك..

ماريا: حسنًا.. لكن كن على حذر "أحمد" وانتبه لنفسك.. وسأكون بانتظار اتصالك على شوق، وسآتي من "باريس" إلى "ليون" لأراك أخيرًا.. فكن بخير "أحمد" ولا تجعلني أقلق..

يجيب "أحمد": شكرًا "ماريا"، سأتصل بك حالما أدخل فرنسا.. كوني بخير أيضًا.. محبتي وشوقي لك..

يغلق "أحمد" الهاتف وهو يتنفس بعمق وسعادة لسماع صوت "ماريا " ثم يتمتم قائلًا: نعم أنا الأن في مدينة "ميلان" أو "ميلانو" كما يحلو للطليان أن يسمونها، وبقي لي مرحلة واحدة وأصل إلى فرنسا..

نعم لقد وصل أحمد إلى مدينة "ميلانو" حيث مزيج التاريخ والحياة العصرية والتي تحتاج إلى أيام عدة للقيام بزيارة أهم معالمها وأسواقها، لكن الوقت والظرف لا يسعفانه، فيجب أن ينطلق في رحلته إلى مدينة "ليون" وفق المخطط الزمني والترتيب الذي أعده له الشخص الذي اتفق معه ليساعده في الوصول إلى" ليون" وتجاوز الحدود والدخول إلى فرنسا..

حيث تحد فرنسا إيطاليا من الشمال الغربي ويمكن الوصول إليها من منطقة "تورنيو" في إيطاليا التي تبعد تقريبًا بحدود الساعتين وأكثر، وهي المدة الزمنية للمسافة من "ميلان" إلى "تورنيو"، ففرنسا عبر منطقة جبلية ضمن جبال الألب..

ويستقل "أحمد" القطار من "ميلانو" متوجهًا إلى مدينة "تورينو" الإيطالية حيث يقوم بتبديل القطار بعد معرفة طريقة التهرب من الكونترول كونه لا يملك أوراق نظامية في سفره..

فقد أمّن ذلك الشخص الذي يساعد "أحمد" في عبور الحدود بطاقة هوية لمواطن فرنسي شبيه، ولكون "أحمد" يتحدث الفرنسية بطلاقة سيساعده ذلك في عدم لفت الأنظار لوضعه..

وبذلك تشجّع أحمد للقيام في عبور الحدود متجهًا نحو فرنسا، ليصل بعد تبديله القطار في "تورينو" إلى مدينة "ليون" الفرنسية أخيرًا..

الفصل السابع

نعم هاقد وصل "أحمد" إلى فرنسا أخيرًا وهو الآن في مدينة "ليون" ثالث أكبر مدن فرنسا بعد مدينة باريس ومدينة مارسيليا، عاصمة إقليم "رون" ومنطقة "رون ألب" في جنوب شرق البلاد، والتي تقع كذلك بين مدينتي باريس ومارسيليا.

يترجل "أحمد" أخيرًا من القطار وهو يرقص ويصيح فرحًا.. لقد وصلت فرنسا أخيرًا وانتهت رحلات الموت والهروب من بحر إلى جبل إلى وادي وحرس حدود..

يتنفس الصعداء ويركض متوجهًا لأول هاتف عمومي يصادفه ليقوم بالاتصال بـ"ماريا" بلهفة شديدة، ويخبرها أنه قد وصل "ليون" أخيرًا ويتفقا بأن يلتقيا بعد ساعة من الآن..

يتجول "أحمد" في شوارع "ليون" التي يتأملها بفرح ويشتري طعامًا خفيفًا يتناوله وهو يقوم بالتجول في ساحات المدينة ليصل إلى منطقة اللقاء مع "ماريا" وفق المتفق عليه بالقرب من نافورة "بارتولدي" حيث ذلك النصب التذكاري البديع الذي تم تشييده على يد "فريديريك أوغست"، لتتزين به ساحة "تيرو" بالمدينة الفرنسية "ليون"..

يصل "أحمد" إلى أمام نافورة "بارتولدي" قبل موعد اللقاء بعشر دقائق ليقف بانتظار صديقته "ماريا" وهو يتذكر ملامح "ماريا" التي اشتاق لها كثيرًا والتي لم ينقطع تواصلهما لأكثر من عشر سنوات إلا في وقت التداعيات الأمنية الحاصلة في سورية وفترة احتجازه القهري، فقد بقيت "ماريا" تزور سورية في كل موسم سياحي وتلتقي بأحمد الذي كان يجول بها

عدد من المناطق السياحية والتاريخية ويخبرها تاريخ وقصة كل مدينة وأثر، وخاصة الكنائس والأديرة القديمة..

وكون سورية هي مهد انتشار المسيحية الأول؛ كانت "ماريا" تستفيد من تلك المعلومات في إعداد بعض البرامج التاريخية عن تاريخ دول حوض البحر المتوسط والتداخل الفني والثقافي في هذه المنطقة في عملها كصحفية ومقدمة برامج في التلفزيون الفرنسي..

لقد كان آخر لقاء بين "أحمد" و"ماريا" في صيف عام ٢٠١٠ ضمن زيارتها الأخيرة إلى سورية، إلى أن تواصل معها أخيرًا بعد وصوله تركيا هاربًا من الموت..

وبينما يقف "أحمد" وهو يتذكر صور تلك الأيام الجميلة التي جمعته مع "ماريا".. يتناهى لمسامعه فجأة صوت أنثوي لطيف قادم من خلفه وهو يقول بالفرنسية:

هل مازال "أحمد" أفضل دليل سياحي مستعد ليأخذني في رحلة جديدة؟

ليلتفت "أحمد" نحو مصدر ذلك الصوت الدافىء ويشاهد "ماريا" تبتسم وهي تركض باتجاهه ويتعانقا بكل شوق وحب، و"أحمد" يصيح فرحًا وهو ينظر في عيني "ماريا ":

"ماريا".. أخيرًا.. أخيرًا التقينا..

تتأمل "ماريا" في وجه "أحمد" وهي تبتسم وتقول:

نعم "أحمد" أخيرًا التقينا.. لقد اشتقت إليك كثيرًا.. ولا بد لنا أن نلتقي أخيرًا بعد هذه السنوات.. فلدينا الكثير من الحديث الذي لم ينتهِ..

يجيب "أحمد" ضاحكًا: بل ربما لنا عمر أطول لذلك..

تتأمل "ماريا" في عيني "أحمد" ثم تتفقده مليًا وهي تقول: لم تتغير كثيرًا "أحمد".. إلا أنك تبدو نحيلًا أكثر وتعبًا، وبحاجة إلى راحة..

وتتابع قائلة: ما رأيك أن نذهب الآن لنجلس في مطعم قريب ونرتاح قليلًا، ولتحدثني عن كل ما جرى معك بالتفصيل الممل.. ثم ننطلق إلى باريس..

يجيب "أحمد" مبتسمًا: بكل سرور آنستي الجميلة..

ثم يتوجه "أحمد" و"ماريا" لأحد المطاعم القريبة في وسط "ليون" ويتناولا وجبة عشاء رائعة على أنغام عزف جميل لعازف بيانو مبدع كإبداع هذه الأجواء المفعمة بالحب والسلام الذي افتقده "أحمد" منذ أن انقلبت حياته فجأة رأسًا على عقب منذ قرابة سبع سنوات، وبعد كل ما مر به من ظروف صعبة ومريرة وفقدان الأهل وكل ما يحب..

بعد ذلك العشاء اللطيف يستقل "أحمد" سيارة "ماريا" لتقودها وتسير في الطريق السريع باتجاه مدينة باريس العاصمة الفرنسية الأنيقة، والتي تبعد عن "ليون " مسافة ٤٦٥ كم عبر الطريق السريع..

وبعد مرور أربع ساعات تقريبًا.. يصل "أحمد" و"ماريا" أخيرًا إلى مدينة باريس في منتصف الليل، و"أحمد" ينظر متأملًا بفرح عبر نافذة السيارة إلى مشاهد الطريق المؤدية إلى باريس ويصيح فرحًا.. أخيرًا أنا في باريس..

نعم.. لقد وصل "أحمد" إلى مدينة باريس أخيرًا حيث عاصمة فرنسا والتي تقع على ضفاف نهر "السين" في الجزء الشمالي من البلاد في قلب منطقة "إيل دو فرانس".

لقد بقيت باريس منطقة فائقة الأهمية لما يزيد عن ألفي عام، ومع مطلع القرن الثاني عشر، أصبحت باريس مركزًا أوروبيًا للعلم والفنون وأكبر مدن

العالم الغربي حتى أوائل القرن الثامن عشر.. وكانت باريس مسرحًا للعديد من الأحداث السياسية الهامة على مر التاريخ، أهمها الثورة الفرنسية.

أما في الوقت الحاضر، فإنها تعتبر واحدة من أكبر المراكز الاقتصادية والثقافية ذات التأثير الهام في السياسة والعلوم والترفيه والإعلام والأزياء والفنون، مما جعلها واحدة من مدن العالم الرئيسية.

يشرد "أحمد" في ذلك الطريق المؤدي إلى مدخل المدينة وهو يشاهد مدينة باريس وأضواءها عن بعد..

و"ماريا" تناديه مرارًا دون أن ينتبه.. أحمد.. أحمد.. أين سرحت؟!

ينتبه "أحمد" أخيرًا.. آه، نعم "ماريا".. أنا معك، لكني شردت قليلًا في هذا الطريق الجميل وتلك الأنوار المضاءة..

ترد "ماريا" ضاحكة: حسنًا.. لا بأس إذا كنت تشرد بأنوار مدينة النور فقط هههه..

وها نحن قد وصلنا باريس أخيرًا..

أحمد: نعم.. أخيرًا وصلنا، شكرًا لك "ماريا".. أظن أن الطريق والسفر قد أتعبك، أعتذر إن أرهقتك معي..

تجيب "ماريا": لا أبدًا.. لا تقل ذلك..

فأنت الذي قد جئت منهكًا من سفر طويل وطرق رأيت فيها الموت أكثر من مرة..

ثم تتابع وهي تنظر له مبتسمة: المهم الآن أنني أستطيع أن أقول لك أخيرًا: حمدا لله على السلامة..

وستبيت الليلة في منزلي، لنرى غدًا ماذا يجب أن نفعل في ترتيب وضعك قانونيًا.

أحمد: شكرًا "ماريا".. وأرجو من الله أن يكون الغد أجمل..

ماريا: نعم بكل تأكيد، وهذا ما نأمله ونعمل له جميعًا.. فلنرسم معًا إذًا غدًا جميل في كل تفاصيله..

أحمد: نعم صدقتي.. يجب أن لا ينقطع حبل الأمل أبدًا من أحلامنا..

ويبيت "أحمد" ليلته الأولى في باريس في منزل "ماريا"..

ليستغرق في النوم أخيرًا بعد رحلة سفر طويلة وشاقة وكأنه لم ينم منذ سنوات.. لكن تلك المشاهد المؤلمة والحزينة لتلك الأيام الصعبة الأخيرة التي مرت عليه وأثرت فيه أخذت تتكرر في أحلامه لدرجة أنه أخذ يتعرق وهو يتقلب في سريره محاولًا الصراخ دون القدرة على ذلك..
فيصحو فجأة فزعًا.. ليدرك بعد أن نظر متأملًا لما حوله أنه كان غارقًا بين شروده ونومه..
وأنه الآن مازال في غرفته التي يقيم بها في باريس..

الفصل الثامن

في صباح اليوم التالي يصحو "أحمد" متعبًا وقد بدأت أشعة الشمس تتسلل إلى غرفته، حيث بدأ ينهض وهو ينظر إلى نور الشمس بشيء من الأمل ويقول: أرجو من الله أن يبدأ يوم جميل بدون هموم ولا أمور تثقل كاهلي، وخاصة أني أخيرًا قد قمت بتسليم الأمانة، وأستحق بعد كل تلك السنين إجازة جسد وراحة بال..

يغسل وجهه بالماء وهو ينظر لانعكاس وجهه في المرآة مبتسمًا، ويبدأ بإعداد قهوة الصباح وهو يتمتم بأغنيات صباحية لـ"فيروز" التي اشتاق لصوتها الذي ارتبط بصباحاته القديمة في الوطن..

ثم يقوم بترتيب الغرفة التي يقيم فيها حاليًا والتي قامت صديقته "ماريا" بتأمين إقامته فيها بشكل غير قانوني وعلى مسئوليتها، حتى يتم البت في طلب لجوئه إلى فرنسا بشكل رسمي وقانوني، فبعد أن قضى يومين بصحبة "ماريا" وتحدث لها بكل ما جرى معه في السنوات الأخيرة ورحلته المريرة توجه معها إلى قسم الشرطة في باريس، وقام بتقديم طلب لجوء إنساني بشكل رسمي، وخضع لجلسة التحقيق الأولى حيث تم توجيهه للإقامة في أحد مراكز طالبي اللجوء، ولكنه أحس هناك بالضيق في ذلك المركز نظرًا لما كان يذكّره ذلك بلحظات الاعتقال التي ظلم بها مرارًا، رغم اختلاف الظرف وطبيعة المكان..

فقام بوضع عنوان بريد "ماريا" وانتقل ليسكن في هذه الغرفة، وبما يسمى في أوروبا بمصطلح الإيجار الأسود لمن لا يملك إقامة رسمية، وذلك بعد مساعدة من "ماريا"..

يحدّث نفسه وهو يقوم بترتيب تلك الغرفة الصغيرة قائلًا: أخيرًا بدأت أشعر بالسعادة الآن لأني في مكان اخترته أنا ولم يفرضه علّي أحد مهما كان صغيرًا أو متواضعًا.. المهم والذي يجب التركيز فيه من اليوم أنه لا بد أن غدًا سيكون أجمل..

وجلس يرتشف من فنجان قهوته وهو ينظر إلى جهاز الكمبيوتر الخاص به ويراجع بريده الإلكتروني لتأخذه عيناه إلى رسالة في بريده كانت قد وصلته من المسيو "عازر موسان" ردًا على رسالته التي كان قد أرسلها له قبل يوم من هذا الصباح والذي التقى معه أمس أخيرًا لمدة خمس دقائق وسلم له أمانة ورسالة الأب "باولو" لينزاح عن كاهله ثقل الأمانة والوعد الكبير..

فبعد أن وصل باريس واستقر في هذه الغرفة منذ أسبوع، أخرج صباح أمس من حقيبته الورقة التي دوّن فيها البريد الإلكتروني للمسيو "عازر موسان" والذي أعطاه إياه الأب "باولو" وقام بإرسال الرسالة التالية:

مرحبًا..

أنا "أحمد عيسى" من طرف الأب "باولو دالوليو"، وقد كلفني أن أوصل لكم رسالة وأمانة من الأب " باولو"..

أنا الآن في باريس.. أرجو أن تتلقى رسالتي وأن تكون بخير وتعاود التواصل معي..

وكما يقول الأب "باولو": لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض..

المرسل : "أحمد عيسى"

ولم تكَد تمر بضع دقائق على إرسال "أحمد" لتلك الرسالة حتى وردت رسالة جوابية من بريد المسيو "عازر" الإلكتروني يقول فيها:

مرحبًا..

كم اشتقت لذلك السلام الآرامي.. ولروح الأب "باولو" الجميلة الطيبة..

كنت بالانتظار لمدة طويلة وعلى أحر من الجمر لرسالة كهذه..

وأنا أيضًا في باريس..

أرجو إرسال رقم هاتف لأتصل بك..

المرسل :"عازر موسان"

يتفاجأ "أحمد " من سرعة الرد ويقوم فورًا بإرسال رقم هاتفه الجوال الذي أعطته إياه صديقته "ماريا" برسالة عبر البريد الإلكتروني للمسيو "عازر"..

وبعد خمس دقائق يرن جهاز هاتفه ويكلمه رجل بصوت رخيم قائلًا: مرحبًا.. أنا "عازر موسان"..

يرد "أحمد": مرحبًا.. أنا "أحمد عيسى" الذي أرسلت لك الرسالة بتكليف من الأب "باولو"..

المسيو عازر: "أحمد".. نعم.. توقعت أن يرسل لي "أحمد"..

يقول "أحمد" مستغربًا: عفوا لم أفهم؟!

يجيب "عازر": لا تهتم سيدي.. هل يمكن أن ألتقي بك اليوم؟

أحمد: بكل سرور.. أين؟

يقول "عازر": دعنا نلتقي إذًا بعد ساعة في محطة مترو "دوغومبيه " في الدائرة (١٢) في باريس..

فهل تستطيع الوصول إلى ذلك المكان؟

أحمد : لا تقلق سيدي سأكون في الزمان والمكان المحدد.

يغلق "أحمد" الهاتف وهو يتذكر مشهد لقائه بالأب "باولو" الأخير والرسالة و الأمانة التي طلب منه أن يوصلها للمسيو"عازر موسان"..

وينظر إلى صورة الأب "باولو" متأملًا وكأنه يستمع لآخر كلماته التي حدّثه بها في المعتقل من جديد والتي قال فيها:

"دومًا ومنذ الأزل هناك معركة بين السلام وبين العنف.. بين الحق والظلم.. بين النور والظلام.. بين الخير والشر..

بني قلت لك أن ما يحصل هو مشيئة الله وسر حكمته.. لنستفيد الآن من هذه الفرصة التي قدّرها الله لنا بلطفه"

يعود "أحمد" من شروده في تذكر كلمات الأب "باولو" الأخيرة له وليتذكر الشخص الذي قابله صباح الأمس والذي كان كثيرًا ما يتساءل كيف سيكون شكله وقد تصّوره بأنه قد يكون على هيئة كاهن أو رجل دين كنسي يظهر عليه الورع..

لكن المفاجأة التي لم يكن يتوقعها "أحمد" عندما وصل إلى مكان الموعد الذي اتفق مع المسيو "عازر" أنه يلتقيه فيه، أنه يقف وجهًا لوجه ولأول مرة في حياته أمام رجل يرتدي زي رجل دين يهودي بقبعته السوداء وسترته السوداء الطويلة وجديلتين ناعمتين تتدلى من على وجه..

نعم لم يكن المسيو "عازر موسان" إلا حاخامًا يهوديًا..

حينها شعر "أحمد" بالارتباك لأنها قد تكون أول مرة له يقف فيها وجهًا لوجه يحادث حاخامًا يهوديًا، بالإضافة إلى الصورة النمطية لليهود عند العرب التي تأثرت من واقع الصراع العربي الإسرائيلي الطويل..

ينظر المسيو "عازر" نحو "أحمد" ويقول له: مرحبًا.. هل أنت أحمد؟

يتلعثم "أحمد" وهو يتأمل بهيئة المسيو "عازر" ثم ينظر إليه قائلًا: نعم أنا هو..

هل حضرتك المسيو "عازر موسان"؟!

يجيب المسيو "عازر" مبتسمًا: نعم بني أنا "عازر موسان".. هل تود أن نجلس في مكانٍ ما؟

يجيب "أحمد" بارتباك واضح وهو ينظر من حوله: لا لا ليس هناك داعي..

أقصد أني مستعجل لارتباطي بموعد هام..

المسيو عازر: حسنًا.. هل ستسلمني إذًا أمانة الأب "باولو"؟

ينظر "أحمد" إلى المسيو "عازر" بشيء من الدهشة وهو مازال يشعر بالارتباك : نعم..نعم ..

ويخرج من حقيبته ذلك المغلف الورقي ويقدمه للمسيو "عازر" وهو يقول: هذه هي الأمانة.. تفضل استلم مني هذا المغلف بدايةً..

ينظر المسيو "عازر" إلى المغلف الذي مُهر بختم الأب "باولو" وهو يقول متأثرًا:

ليرحمك الله أيها الأب "باولو" أينما كنت..

ثم يقترب "أحمد" من المسيو "عازر" خطوتين خجولتين وهو يقول:

أما تتمة الأمانة فهي رسالة شفهية يقول لك الأب "باولو" فيها:

"اتبع أثر المنبر وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز.

والإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد.. وليس إيلوهيم راؤول.. وبشأن القصيدة المنسوبة لابن يوسف الموصلي المسعودي؛ لا أصل لها ولا نسبة لصاحبها، بل نُظِمت حديثًا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم.."

يستمع المسيو "عازر" لكلمات الرسالة متأثرًا ويقول: شكرًا جزيلًا بني لإخلاصك وتفانيك الكبير والمشقة الكبيرة التي قمت بها لإيصال هذه الرسالة والأمانة التي اعتقدت أنها لن تصل..

ثم يتابع قائلًا: أرجو أن نلتقي بفرصة قريبة..

يجيب "أحمد" مرتبكًا: لا أعتقد.. أقصد إذا سمحت الظروف..

يبتسم المسيو "عازر" وهو ينظر إلى "أحمد" ثم يقول له: سيكون لي مؤتمر هام بعد خمسة عشر يومًا من اليوم في فندق "رويال موريس".. وسأتناول فيه مواضيع مهمة وأعلن رسالة هامة لكل العالم ومحبي السلام ومن وحي كلمات الأب "باولو" وأبحاث ودراسات قمنا بدراستها معًا وعدد ممن عمل معنا..

وأرجو منك أن تحضره، وسأرسل لك دعوة خاصة.

يجيب "أحمد" والذي ما زال يشعر بارتباك شديد: إن شاء الله سيدي إذا سمحت الظروف..

ويتابع قائلًا وهو ينظر من حوله: هل تسمح لي بالانصراف الآن؟

المسيو عازر: بالطبع ..وأكرر شكري لك مرة أخرى وإلى لقاء قريب ..مع السلامة..

الفصل التاسع

ينصرف "أحمد " من لقائه القصير مع المسيو "عازر موسان " وهو مايزال يشعر بالصدمة والارتباك، لكنه في نفس الوقت شعر براحة شديدة بعد أن قام بإيصال تلك الأمانة والرسالة التي ائتمنه بها رجل أحبه شخصيًا كما أحبه الجميع مسلمون ومسيحيون.. نعم لقد أحبه الجميع، فلماذا لا يحبه أيضًا ذلك اليهودي..

وبكل الأحوال لقد قمت بما توجب علي القيام به.. يقول "أحمد".. نعم، لقد قمت بما يتوجب علي..

بهذه الكلمات التي أعاد ترديدها وهو يتمتم بها يغلق "أحمد" جهاز كمبيوتره الشخصي ويتابع ترتيب الغرفة ليعد نفسه للخروج منتظرًا اتصالًا من "ماريا" التي ستلتقيه اليوم بعد انتهاء عملها كما اتفقا بالأمس..

لكن في ذات اللحظات تعلو فجأة أصوت أبواق سيارات كأبواق سيارات الشرطة.. أثارت هذه الأصوات انتباه "أحمد" ليسرع نحو نافذة غرفته متتبعًا لتلك الأصوات، وإذا به يشاهد عددًا من سيارات الشرطة تقترب بسرعة نحو المبنى الذي يسكن فيه وتقف عند المدخل فجأة ليترجل عدد من الرجال المسلحين، ويقف رجل مرتديًا زيًا خاصًا للشرطة وهو يشير بإصبعه نحو ذلك المبنى وحيث غرفة "أحمد" التي يقيم بها، عندها يصاب "أحمد "بحالة من الذعر والاستغراب، وفي خلال لحظات قليلة تطرق على باب غرفة "أحمد" طرقات قوية يشتد صوتها مع صوت أحد المقتحمين من خلف الباب الذي يصيح قائلًا:

"أحمد عيسى".. نحن الشرطة.. افتح الباب.. المبنى محاصر..

يتسمر "أحمد" في مكانه وقد أصابه الهلع بعد أن سمع هذه الكلمات ولم يشعر إلا بحركة لا إرادية منه تجعله يقفز من مكانه راكضًا بعد أن أخذ مسرعًا جهاز الكمبيوتر الخاص به ويقفز عبر النافذة، ليخرج منها ويسير على حافة المبنى ثم يقفز لشرفة أحد المنازل المجاروة ويصعد عبرها نحو السطح المتصل بعدد من الأسطح وهو يقفز بسرعة من سطح لآخر، إلى أن وجد سلمًا خلفيًا لأحد تلك المباني فيقفز عبره إلى أحد الشوارع القريبة وهو يركض ويلتفت من خلفه ولا يعي ماذا يحصل ولماذا تداهم الشرطة غرفته.. هل لأنه يسكن فيها بشكل غير قانوني؟ لكن هل في هذا جرم كبير هنا يستحق كل هذا المشهد المفزع؟!

يركض كثيرًا مبتعدًا عن المكان وهو يحاول أن يستجمع نفسه ويستوعب ماذا يحدث..

وفجأة يرن جهاز هاتفه بطريقة يشتد فزعه فيها فينظر للهاتف ويشاهد رقم صديقته "ماريا" فيرد على الاتصال وهو يلهث..

ماريا: الو، صباح الخير، كيف حالك؟؟.. لقد انتيهت من ارتباطاتي الصباحية فهل تفضل أن نلتقي؟

يجيب "أحمد" وهو يلهث: أهلًا "ماريا"

ماريا: مابك لماذا تلهث ماذا حدث؟!

أحمد: لا أعلم ماذا يجري!!.. فمنذ قليل داهمت الشرطة مكان إقامتي يريدون اعتقالي!!

ترد "ماريا" بدهشة: ماذا!!.. ماذا تقول؟ لماذا؟؟ ما الذي حدث!!

أحمد: لا أعرف ومندهش جدًا لما يحدث.. فهل كل ذلك لأني أقيم في تلك الغرفة بشكل غير قانوني؟

وهل في هذا جرم كبير هنا؟؟

تجيب "ماريا": ماذا تقول ؟ لا أعتقد ذلك.. لكن أين أنت الآن؟

أحمد: مازلت في منطقة قريبة من البيت بعد عدة شوارع منه.

ماريا: حسنًا ابقَ مكانك وأنا في الطريق إليك..

أحمد: حسنًا أراك عند مفترق الطرق المؤدية للمنزل..

انتظر بضعة دقائق ليرى سيارة ماريا تقترب منه لتفتح النافذة وتقول له: اصعد..

ليستقل السيارة وهو يلتفت من حوله..

تنظر "ماريا" لوجه "أحمد" الشاحب اللون وهي تقول: لاتقلق سنعرف السبب ونجد حلًا للمشكلة.. دعنا نذهب الآن لأحد المقاهي ونأخذ كوبًا من القهوة ونتابع حديثنا..

يجيب "أحمد" قائلًا: حسنًا.. لا بأس، فعلًا أنا بحاجة لقهوة لأستوعب ماذا يحدث..

ويتابعا طريقهما ليدخلا إحدى المقاهي ويجلسا في ركن هادئ ويتابعا الحديث..

ماريا: حسنًا "أحمد".. أعد لي بدقة ما الذي جرى بالضبط معك هذا الصباح؟

أحمد: لا يوجد شيء غير عادي استيقظت صباحًا وأنا في قمة النشاط والأمل وبأني أخيرًا سأشعر بالسلام وأعيد ترتيب حياتي، وخاصة بعد أن أوصلت الأمانة أمس.. وأخذ رشفة من الماء..

ماريا: أي أمانة؟

يرفع "أحمد" فنجان القهوة ليأخذ رشفة من قهوته ليشرح لها ويبدأ كلامه، فإذا به فجأة يحدق بنظره نحو التلفاز الموجود في المقهى بشكل مفزع..

تنظر "ماريا "إلى "أحمد" قائلة: مابك؟؟ ماذا هناك على التلفاز؟؟

وتنظر نحو التلفاز لتشاهد المذيع يقرأ خبرًا عن مقتل رجل يهودي في صباح الأمس في محطة مترو "دوغومبيه" ويضعون في زاوية الخبر صورة لأحمد..

ويستمع الاثنان لما يقوله المذيع الذي يقرأ ذلك الخبر قائلًا: "هذا وتشير التحقيقات الأولية أن المشتبه به الأول هو شاب سوري يدعى "أحمد عيسى".. وكان قد تقدم بطلب لجوء إنساني في فرنسا منذ أسبوع، ويفيد بيان الشرطة أنه من الممكن أن تكون جريمة قتل الحاخام اليهودي "عازر موسان" ذات دوافع وأسباب عنصرية، ومازالت الشرطة تبحث عن المشتبه به وتطلب ممن لديه أية معلومات حول هذا الشخص التواصل مع أقرب مركز للشرطة"..

ينظر "أحمد" و "ماريا" لبعضهما البعض بشيء من الدهشة والذهول ويسود الصمت لدقائق..

و"ماريا " تحدق في وجه "أحمد" ثم تقول: "أحمد" هل هذا صحيح؟؟

يجيبها وهو يكاد لا يصدق ما قد سمعه: مستحيل ماريا!! أنا لم أقتله، ومستحيل أن أفعل ذلك.. أنا التقيت به فقط لبضع دقائق وسلمته أمانة وتركته صباح أمس..

ماريا: أي أمانة؟ نحن هنا أمام جريمة قتل هل تدرك ذلك؟!

ينظر "أحمد" في عيني "ماريا" قائلًا: "ماريا" أنت تعرفينني منذ أكثر من عشر سنوات هل تعتقدين أنه من الممكن أن أقدم على مثل هذا العمل!!

تجيب "ماريا" وهي تنظر لأحمد متأثرة: نعم إني أعرفك وأثق بك جدًا لكن يجب أن أفهم ماذا يحدث؟؟

أحمد: قلت لك أني قد التقيت مع ذلك الرجل بضع دقائق قليلة في محطة مترو "دوغومبيه" وسلمته تلك الأمانة وذهبت..

ماريا : التقيت به في نفس مكان الجريمة؟؟ وتتابع قائلة: يجب أن نتحدث بتركيز وبكثير من التفاصيل.. لكن الآن دعنا نذهب من هنا، فوجودك هنا في مكان عام وبعد ما نُشر عبر التلفاز أصبح يشكل خطرًا عليك..

يخرجان من المقهى ليستقلا سيارتها التي تأخذ السير في الطريق المتجهة نحو منزلها و"أحمد" يتلفت من حوله بكثير من الارتباك..

الفصل العاشر

يصل "أحمد" مع "ماريا" إلى أمام منزلها حيث تقوم "ماريا" بإدخال سيارتها إلى المرآب.. ثم تتجه لأحمد وهي تقول: دعنا ندخل إلى المنزل لتحدثني ماذا جرى معك بالضبط.. لكن بداية أعطني هاتفك..

يخرج "أحمد" هاتفه من جيبه ويسلمه لماريا التي تخرج منه الشريحة الإلكترونية ثم تقوم بكسرها ورميها بعيدًا.. ويدخلا المنزل..

خلال بضع دقائق تعّد "ماريا" عصيرًا من الليمون البارد وتقدمه لأحمد ويجلسا في صالون منزلها ثم تتوجه نحو"أحمد" قائلة:

والآن.. أريد أن أسمع منك كل التفاصيل.. وما قصة تلك الأمانة؟

وما علاقتك بـ"عازر موسان"؟!

فيجلس "أحمد" أمام "ماريا" وقد بدأ يحدثها عن كل ماجرى معه منذ أن التقى بالأب "باولو" وطلبه بأن يوصل المغلف الأمانة والرسالة للمسيو "عازر موسان"، وكيف تحّمل "أحمد" عناء المحافظة على تلك الأمانة منذ أن استلمها في تركيا من الأب "ديمتروس" حتى وصوله إلى فرنسا، وكيف تواصل مع المسيو "عازر" والتقى به في تلك المحطة.. وكيف أنه لم يستطع أن يخفي ارتباكه عندما وجد نفسه فجأة ولأول مرة في حياته يقف أمام حاخام يهودي.. وأنه كذلك لا يعلم شيء عن محتوى ذلك المغلف الورقي "الأمانة" إلا كلمات الرسالة الشفهية وما أوصاه به الأب "باولو"..

تستمع "ماريا" لأحمد وهي تنظر بشيء من الحزن: آه يا أحمد.. لم أنسَ أبدًا لقاءنا مع الأب "باولو" المحترم في دير "مار موسى الحبشي" في سورية، وكم حزنَّا جميعًا لما حدث معه منذ اختطافه، ومصيره المجهول حتى الآن..

وتتابع وهي تقول: لكن هناك حلقة مفقودة يجب أن نعرفها..

من له مصلحة في قتل المسيو "عازر"؟؟ ولماذا تم توجيه الاتهام ضدك؟!

يجيب "أحمد": أنا مندهش مثلك تمامًا "ماريا" لما يحدث..

وبينما "أحمد" يتحدث إلى "ماريا" متعجبًا لما حدث، يرن هاتف "ماريا" فجأة.. فيصاب "أحمد" بشيء من الهلع..

فتنظر "ماريا" إلى "أحمد" وتشير له بأن يهدأ قائلة: دعني أجيب على الهاتف ونتابع حديثنا..

تمسك "ماريا" بهاتفها وتجيب قائلة: الو.. من معي؟

يجيبها صوت من الطرف الأخر قائلا : صباح الخير معك المحقق "برنار" من شرطة باريس، هل أتحدث مع الأنسة "ماريا"؟؟

ماريا: نعم "ماريا" معك..

المحقق برنار: هل يمكن أن تقومين بزيارة لنا في مركز الشرطة؟

ماريا: مركز الشرطة!! لماذا، هل هناك شيء؟؟

يجيب المحقق "برنار": نريد أن نستفسر منك ونسألك عن بعض الأسئلة حول موضوع هام لو سمحتي..

ماريا: حسنا سأكون في الطريق إليكم.. وتغلق الهاتف..

ينظر أحمد نحو "ماريا" باضطراب، ماذا يريد مركز الشرطة منك؟!

ماريا: لا أعلم، لقد طلبوا مني المجيء إلى المركز ليأخذوا مني بعض الاستفسارات حول موضوع ما.

وأعتقد أنها بخصوصك..

وتابعت قائلة وهي ترتدي سترتها الجلدية: سأذهب لأرى ماذا يريدون عسى أن نستطيع فهم الموضوع، وأنت، أرجو منك المحافظة على هدوئك وأن تبقى في المنزل ولاتذهب لأي مكان حتى أعود، ولا تفتح باب المنزل لأي كان..

ينظر "أحمد" إلى "ماريا" بتأثر وهو يهز برأسه قائلًا: حسنا سأنتظر عودتك، وأقسم لك أني بريء تمامًا من هذه الجريمة..

تنظر"ماريا" في وجه "أحمد" وهي تبتسم وتقول: لا تقلق..لكن دعنا نستطيع فهم المشكلة أولًا.. وبعدها لنرى ما هي الحلول الممكنة..

وودعته وتوجهت نحو مرآب سيارتها التي استقلتها لتتوجه مباشرة نحو مركز الشرطة..

ينظر "أحمد" من النافذة وهو يرى "ماريا" تنطلق بسيارتها مبتعدة ويجلس واضعًا رأسه بين كفيه وهو يصرخ قائلًا:

ياإلهي.. ماذا يجري!! لماذا يحدث معي كل هذا ؟!

ألا يكفيني كل ما جرى معي من قبل.. لقد هربت من العنف والقتل والحرب بحثًا عن السلام.. فأجد نفسي هنا متهمًا بجريمة قتل هل يعقل ذلك!!

بعد دقائق تصل "ماريا" إلى مركز الشرطة وتركن سيارتها وتتوجه نحو مدخل قسم الشرطة..

تسأل "ماريا "موظف مكتب الاستقبال قائلة: مرحبًا أريد أن أقابل المحقق "برنار" لو سمحت..

يجيب الموظف: تفضلي آنستي دقائق وسيكون معك..

تجلس "ماريا" في بهو المركز ليطل بعد دقائق قليلة من أحد المكاتب رجل وقور خمسيني، يقترب منها وهو يقدم نفسه قائلًا:

مرحبًا.. أنا المحقق "برنار" أعتقد أنك الأنسة "ماريا"؟

تجيب ماريا: نعم أنا "ماريا"..

المحقق برنار: هل من الممكن أن تتفضلي إلى مكتبي لنتحدث هناك؟

تنهض "ماريا" من مكانها وهي تقول: لا بأس

ويدخل المحقق "برنار" إلى مكتبه بعد أن قام بفتح الباب مرحبًا بماريا التي تدخل وتجلس على كرسي أمام مكتب المحقق "برنار".. وهي تنظر متأملة لمحتويات المكتب..

يلتفت المحقق "برنار" نحو "ماريا" ويقول لها: هل تفضلين كوبا من القهوة؟

تجيب "ماريا" : لا بأس.. شكرًا

يقدم المحقق "برنار" كوبًا من القهوة إلى "ماريا " التي تستهل الحديث قائلة: شكرًا للطفك سيدي المحقق.. لكن هل لي أن أعرف سبب دعوتي هنا إلى مركز الشرطة؟

المحقق برنار: بداية نأسف على دعوتك بشكل مفاجيء، ولكن الموضوع يتعلق بشخص يدعى "أحمد عيسى".. وأظن أنك تعرفين هذا الشخص؟

تنظر "ماريا" بعيني المحقق "برنار" وتجيب قائلة: نعم أعرفه جيدًا ومنذ أكثر من عشر سنوات وأعرف أنه شاب محترم ومثقف..

المحقق برنار: ولكن الذي قد لا تعلميه أنه متهم الآن بجريمة قتل بدوافع نعتقد أنها عنصرية وفيها شيء من أشكال التطرف..

ترد "ماريا" باستغراب: في الحقيقة لقد تفاجأت بالذي سمعته في نشرة الأخبار اليوم.. وما أسمعه منك الآن!!

يجيب المحقق "برنار" وهو ينظر لعيني "ماريا": هل أستطيع أن أفهم من حضرتك آنسة "ماريا" أنك لم تقابلي "أحمد" بعد حدوث الجريمة؟؟

تنظر "ماريا" نحو المحقق "برنار" وهي تقول: ما أستطيع أن أقوله لك سيدي أني أستبعد تمامًا من باب معرفتي الجدية والجيدة بأحمد وأسلوب حياته وتفكيره؛ أنه من المستحيل أن يقدم على هكذا جريمة..

ولكن هل لي من سؤال لو سمحت؟؟

يجيب المحقق "برنار": طبعًا تفضلي..

ماريا: مالذي يجعلك سيدي المحقق تعتقد بأن "أحمد" هو من قام بارتكاب هذه الجريمة وإصدار اتهام مباشر وسريع له بهذا الشكل؟

المحقق برنار: أنا أعرف أنك صحفية، وأستطيع أن أتفهم فضولك لمعرفة التفاصيل لذلك دعيني أرضي فضولك الصحفي..

ويتابع قائلًا: وفقًا للتحقيقات الأولية فقد وُجد المسيو "عازر موسان" مقتولًا بعدة طعنات في محطة مترو "دوغومبيه " قبيل ظهر أمس، وبعد مراجعة كاميرات المراقبة الموجودة في المحطة استطعنا أن نتعرف على آخر شخص التقى به المسيو "عازر".. ووفق تقرير الطبيب الشرعي ومراجعة التواقيت المسجلة على الكاميرات تبين أن المسيو "عازر" وُجد مقتولًا بعد دقائق من لقائه مع المشتبه به "أحمد عيسى" وتبين الكاميرات بعد تدقيق الفيديوهات المسجلة عبرها لموقع الجريمة ارتباك واضح على وجه وتصرفات "أحمد"..

وبعد أن أخذنا صورة دقيقة لوجهه وبمقارنة ذلك مع قاعدة البيانات تعرفنا على اسم المشتبه الكامل ومواصفاته وبصماته وأنه تقدم بطلب لجوء منذ أسبوع بعد دخوله إلى فرنسا سالكًا طرقًا غير شرعية، وبعد التحريات عنه علمنا بأنه يقيم في غرفة قد استأجرت باسمك، وعندما توجهت الشرطة

لمسكنه قام بالهرب من رجال الشرطة بشكل أكد شكوكنا حول قيامه بالجريمة..

ماريا: أتفهم وجهة نظرك حضرة المحقق.. ولكن أليس من الضروري أيضًا أن يكون هناك دوافع حقيقية للجريمة تؤكد شكوكم التي تحدثتم عنها سيدي؟

المحقق برنار: دوافع حقيقية.. طبعًا.. إنها أساس كل جريمة، وأعتقد هنا أن الدوافع واضحة وتأخذ شكل دوافع كراهية وعنصرية.. حيث لم يكن هناك مع جريمة القتل أي إشارات لدوافع أخرى مثلًا، وبعد التدقيق في ساحة الجريمة ودراسة التفاصيل المحيطة بها وجدنا أنه لم يكن هناك أي محاولة لسرقة الضحية..

ماريا : ماذا تقصد بدوافع الكراهية أو العنصرية سيدي؟

المحقق برنار: آنستي ألم تلاحظي أن الضحية حاخام يهودي والمشتبه به عربي مسلم قادم من مناطق صراع وتعيش صراعًا قديمًا بين العرب واليهود منذ عشرات السنين..

تقول "ماريا" معقبة على ما قاله المحقق "برنار": تقصد أن تقول الصراع بين العرب والصهاينة؟!

يبتسم المحقق وهو يتابع حديثه إلى "ماريا" قائلًا: يعجبني الدقة في كلامك..

لكن عندما تشاهدين ما يحدث وكيف أن الصراع هناك قد أصبح بين أبناء البلد أنفسهم والدين الواحد، فلا أعتقد أن هناك أهمية للنقطة التي ذكرتيها للتفريق بين معنى يهودي وصهيوني..

ماريا: ربما.. لكن هل من خلفية واضحة حول شخصية الضحية حضرة المحقق؟

المحقق برنار: كل المعلومات التي لدينا حاليًا أن المسيو "عازر موسان" فرنسي ويحمل الجنسية الإسرائيلية، ولد في القدس عام ١٩٥٥ من أب يهودي فرنسي وأم يهودية من دمشق ووفق تحرياتنا الأولية عن عمله فهو يعمل كباحث في علوم "اللاهوت" وفي قضايا حوار الأديان ومقرب من جماعات يهودية مثل "ناطوري كارتا"، وعاد من إسرائيل إلى فرنسا ليستقر فيها منذ أكثر من عشر سنوات تقريبًا مع جدول لا بأس به من السفريات المتعددة لعدد من البلدان..

تنظر "ماريا" باستغراب: إذا للضحية أصول عربية؟؟

المحقق برنار: ماذا تقصدين بسؤالك هذا أنسة "ماريا"؟

تجيب "ماريا": أقصد أنك قد قلت قبل قليل أن والدة الضحية أصلها من دمشق..

المحقق برنار: نعم ولكنها يهودية..

تنظر "ماريا" نحو المحقق "برنار" وهي تقول: سيدي.. عدا عن عملي وتقاريري الصحفية التي أعدها فقد زرت تلك المنطقة، وسورية بالذات أكثر من مرة..

وهناك في تلك البلاد سكان يعيشون معًا منذ أجيال وأجيال، وقد يكونوا مسلمين أو مسيحيين أو حتى يهود، لكنهم ينحدرون من نفس القبائل العربية التي هي أصل معظم سكان تلك المنطقة.

يهز المحقق "برنار" برأسه وقد تفهم ما تقصده "ماريا" في كلامها ويقول:

حسنًا.. شكرًا لهذه المعلومة، لكننا الأن أمام جريمة واضحة، ويوجد مشتبه به أول هارب من العدالة وبحكم معرفتك وعلاقتك به هل تعلمين أين يمكن أن يذهب أو يتواجد؟؟

ترد "ماريا": حاليًا.. لا للأسف سيدي المحقق.

المحقق برنار: حسنًا.. أريد منك في حال تواصل "أحمد" معك بأي طريقة أن تعلميني فورًا وتنصحيه بأن يسّلم نفسه إن كان فعلًا بريء..

وهذه أرقامي الخاصة على هذه البطاقة تفضلي..

تنهض "ماريا" لتغادر مكتب المحقق "برنار" وهي تقول: نعم سيدي، كما تريد.. وشكرًا للقهوة.

وتخرج "ماريا" من مركز الشرطة وتستقل سيارتها وهي تنظر عبر المرآة إن كان هناك من يتبعها، ثم تسلك الطريق الذي يؤدي إلى مكتبها ومقر عملها حيث تعمل لتبدو وكأنها تتابع حياتها اليومية الطبيعية..

الفصل الحادي عشر

بعد مضي بضع ساعات تعود "ماريا" إلى منزلها بعد أن قامت بمراجعة مركز الشرطة والتقت بالمحقق "برنار" حيث دار الحديث حول جريمة مقتل المسيو "عازر موسان" و اتهام "أحمد" كمشتبه أول في هذه الجريمة.

ثم توجهت بعدها إلى مقر عملها لتراجع بعض التقارير الصحفية وتخرج بعد ساعة من مكتبها وتتوجه نحو أحد المراكز التجارية لتتسوق بعض الحاجات وتشتري بعض المواد الغذائية وتبدو وكأنها تمارس حياتها الطبيعية ..

تصل "ماريا" إلى منزلها وتركن سيارتها في المرآب وتفتح باب المنزل وهي تقول:

"أحمد" أنا قد عدت..

يجيب "أحمد": أهلًا "ماريا" لقد تأخرتي.. قلقت عليكِ.

ماريا: لاتقلق، ها أنا بخير أمامك.. كيف أصبحت الأن؟؟

أحمد: كيف أصبحت؟!.. ماذا برأيك يمكن أن يكون حال إنسان يستيقظ من نومه صباحًا فيجد نفسه متهمًا بجريمة قتل لم يرتكبها..

تتأثر "ماريا" بما يقوله "أحمد" وتنظر إليه قائلة: هوّن عليك.. يجب أن نهدأ لنستطيع أن نجد حلًا لهذه المشكلة الكبيرة..

ويرد "أحمد" متسائلًا: حسنًا.. لكن أخبريني ماذا قالوا لك في مركز الشرطة؟

وماذا كانوا يريدون؟

تنظر "ماريا" في وجه "أحمد" وهي تقول : حسنًا.. اجلس ولتركز معي في الكلام الذي سأقوله لك، وفي المعلومات التي عرفتها اليوم من مركز الشرطة.

أحمد: حسنًا.. كلي أذان صاغية، ما الجديد في تلك القضية الغريبة؟؟

وتتحدث "ماريا" لأحمد عن المعلومات التي عرفتها في مركز الشرطة حول ملابسات الجريمة..

وأحمد يستمع لتلك التفاصيل التي سمعتها "ماريا" من المحقق "برنار" بانتباه وتركيز.. ثم يقول:

إذًا فقد تم قتل المسيو "عازر" بعد لقائي به مباشرة..

لكن من له مصلحة في ذلك؟؟

ماريا: إلى الآن لا أحد يعرف.. وتتابع متسائلة:

أحمد.. ألم تلاحظ أي شيء غير عادي في مكان لقائك بالمسيو "عازر"؟

يجيب "أحمد": لا أبدًا فقد كان المسيو "عازر" مرتاحًا ومبتسمًا وسعيدًا لحصوله على ذلك المغلف والرسالة وأكد على دعوتي على مؤتمر سيعقده بعد خمسة عشرة يومًا..

تقاطع "ماريا" "أحمد" قائلة: لحظة.. ألم يقل لك المسيو "عازر" أي شيء عن هذا المؤتمر؟؟

أحمد: لا..

ويصمت قليلًا وهو ينظر في عيني "ماريا" ثم يقول وكأنه قد تذكر شيئًا:

ولكن.. نعم أظن أن هذا المؤتمر يتعلق بما يحتويه ذلك المغلف وتفاصيل الرسالة، لكني بصراحة لم أعطِ لذلك الموضوع أهمية وقتها، وكنت فقط أريد أن أذهب، فلم أكن مرتاحًا حينها..

ماريا: حسنًا دعنا إذا نسترجع معًا كلمات تلك الرسالة بتركيز..

أحمد: حسنًا.. وأخذ يردد كلمات رسالة الأب "باولو" الشفهية للمسيو "عازر موسان"

تنصت "ماريا" لما يقوله "أحمد" بدقة واهتمام وهي تفكر في ماذا يمكن أن تعنيه تلك الكلمات.. ثم تقول:

أحمد.. ماذا برأيك كان يقصد الأب "باولو" بكلمات هذه الرسالة؟

يجيب أحمد: لا أعرف حقيقة.. فقد كانت فترة لقائي مع الأب "باولو" قصيرة، لا تتجاوز الساعتين ضمن ظروف اعتقال قاسية حينها..

ماريا: حسنًا لنركز على الكلمات من جديد.. وبدأت تعيد ترديدها مع أحمد..

وأخذت ماريا تكرر كلمات.. أثر المنبر.. آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه..

سفر التكوين الإصحاح الأول.. "إيلوهيم راؤول"

القصيدة.. ابن يوسف الموصلي؟؟

ثم تنظر إلى "أحمد" وتقول: من خبرتك كدليل سياحي ومعلوماتك التاريخية.. ألم تعني لك تلك الكلمات أي شيء؟؟

أحمد: في الحقيقة لا.. وعقلي مشوش جدًا الآن..

ماريا: حسنًا.. لنرتاح إذًا اليوم ولنحافظ على هدئنا.. وغدًا سنجد حلًا لفك هذه الألغاز، فعسى أن نصل لطرف خيط يساعدنا في إثبات براءتك..

أحمد: حسنًا.. فليس في اليد حيلة..

ماريا: إذًا فلتصبح على خير.

أحمد: تصبحين على خير.

يحاول أحمد ليلتها أن ينام لكنه لم يستطع النوم وهو يفكر في كل ما حدث معه..

بينما "ماريا" استلقت على سريرها تفكر وهي تتأمل وتتمتم بكلمات:

أثر المنبر.. آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين.. سفر التكوين.. إيلوهيم راؤول..

إلى أن دخلت في نوم عميق بعد يوم طويل مليء بالأحداث..

الفصل الثاني عشر

في صباح اليوم التالي تصحو "ماريا" بهمة ونشاط وكأنها قد عزمت على أمر ما وتدخل إلى غرفة "أحمد" وتفتح ستارة النافذة ليدخل ضوء الشمس فينتفض "أحمد" من مكانه مذعورًا.. أين أنا؟

ترد "ماريا" وهي تمازحه: أنت هنا في بيت "ماريا"..

صباح الخير، هيا عزيزي..

هيا استيقظ واغسل وجهك فلدينا شخص مهم يجب أن نذهب لنلتقي به..

أحمد: شخص!!..أي شخص "ماريا"؟؟

ماريا: سأخبرك في الطريق هيا انهض لنكسب الوقت..

ثم تابعت وهي تبتسم قائلة: أم أنك تريد أن تبقى متهمًا بجريمة قتل؟

يجيب "أحمد" وهو يقول: لا.. بالطبع.. دقائق وسأكون جاهزًا..

بعد عدة دقائق يخرج الصديقان من المنزل ويستقلا سيارة "ماريا" و"أحمد" يتلفت من حوله.. و"ماريا" تسير بسيارتها متجاوزة عددًا من شوارع باريس إلى مكان ما لم تتحدث عنه..

ينظر "أحمد" نحو "ماريا" متسائلًا: "ماريا".. ألن تخبريني إلى أين سنذهب الآن؟!

تجيب "ماريا" وهي تقود سيارتها: جامعة "السوربون"..

سنذهب إلى جامعة "السوربون"..

يقول "أحمد" متعجبًا: إلى جامعة "السوربون"!! ماذا سنفعل هناك؟!

ماريا: سنقابل صديقًا مهمًا..

أحمد: صديق!!.. من يكون؟؟

تنظر "ماريا" في وجه "أحمد" وهي تبتسم: ستعرف عندما نصل.. هل تستطيع أن تصمت الأن وتدعني أركز فيما أفكر فيه؟!..

يقول "أحمد" وما زال يشعر بالاستغراب: حسنًا "ماريا" سأصمت..

وتتابع "ماريا" السير بسيارتها لعدة دقائق، وبعد أن اجتازت عددًا من الشوارع الرئيسية، تدخل "ماريا" في أحد الشوارع الفرعية المؤدية لإحدى المباني التابعة لجامعة "السوربون"..

وتصل "ماريا" إلى ذلك المبنى من مباني جامعة "السوربون" وتركن سيارتها في الموقف العام ثم تترجل هي و"أحمد" من السيارة ويسيران باتجاه مبنى كلية التاريخ في جامعة "السوربون"..

والتي تُعد من أعرق وأرقى الجامعات في العالم.. وتقع في الحي اللاتيني للعاصمة الفرنسية باريس، وتأسست في القرون الوسطى بجهود "روبيرت دي سوربون" المرشد الروحي للملك "لويس" التاسع ملك فرنسا.

وهي كذلك أول جامعة تقدم شهادة الدكتوراه، وتمتاز في تخصصات التاريخ والشؤون الدولية والآداب والعلوم الاجتماعية..

تدخل "ماريا" و"أحمد" مبنى الكلية وتتجه "ماريا" نحو موظفة الاستقبال وتتحدث معها قليلًا بينما يقف "أحمد" في مكانه وهو ينظر من حوله..

بعد دقيقتين تعود "ماريا" بعد أن سألت موظفة الاستقبال عن شيء ما، وتتجه نحو "أحمد" قائلة: هيا لنذهب، تعال معي..

أحمد: إلى أين؟!

ماريا: إلى قاعة المحاضرات..

يجيب أحمد: لكن ماذا سنفعل في قاعة المحاضرات؟

تمسك "ماريا" بيد "أحمد" وهي تدفعه أمامها وتبتسم وتقول:

هل يمكن أن لا تسأل الآن.. هيا من فضلك.

ويتجهان معًا نحو قاعة المحاضرات والتي قد امتلأت بعدد كبير من الطلاب، حيث يسود الصمت فيها إلا من صوت محاضر يقف على المنصة الرئيسية للقاعة بجوار شاشة كبيرة وهو يتحدث للطلاب..

تجلس "ماريا" على أحد المقاعد وتشير لأحمد بأن يجلس بجانبها..

ثم يتوجهان بنظرهما نحو ذلك المحاضر الذي يبدأ في الحديث وهو يشير إلى لوحة عرضت على الشاشة الكبيرة أمامه قائلًا: وكما ترون طلابي الأعزاء نشاهد معًا لوحة فنية هامة يطلق عليها اسم "الطوفان"..

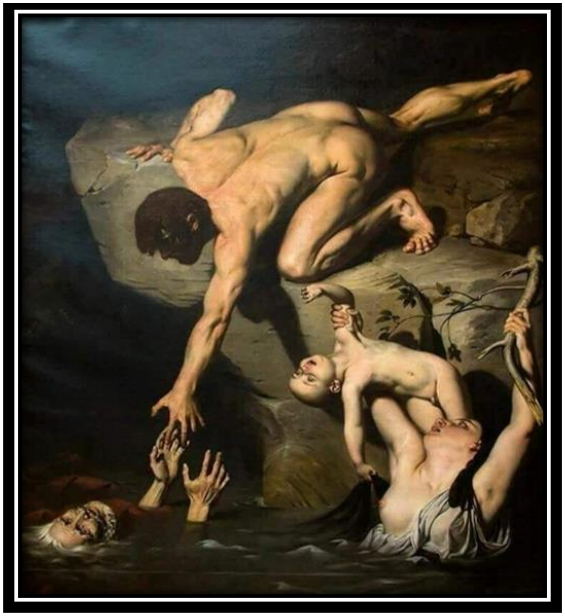

هذه اللوحة الرائعة هي من أفضل أعمال الفنان الفرنسي (جوزيف ديزيريه)، ولوحة الطوفان هذه مستوحاة من سفر "التكوين"..

ينظر "أحمد" نحو "ماريا" ويقول لها متفاجئًا:

إنه يتحدث عن سفر التكوين!!

تهمس "ماريا" في أذن "أحمد": ألم أقل لك أن لدينا لقاء مع شخص مهم.. دعنا نستمع الآن لما يقوله..

ويتابع المحاضر حديثه مشيرًا إلى تلك اللوحة وهو يقول: واللوحة كما تشاهدون تصّور رجل يهتم بإنقاذ شيخ عجوز ذو لحية من الغرق بينما يترك ابنه وزوجته..

والصورة قد تبدو صادمة، ولكنها تعبير عن حال أوروبا قبل عصر النهضة..

فالرجل العجوز هنا يمثل الماضي، واللحية تمثل التراث، واللون الأحمر يرمز لمكانة الرجل العجوز الدينية والابن رمز للمستقبل والزوجة رمز الحياة والأرض والمحبة والسلام.

ونلاحظ أيضًا أنهما الأقرب له حتى فى تفاصيل اللوحة.. ولكن يمكننا أن نرى كذلك أن أسهل ما يمكن إنقاذه في المنطق هو الطفل الأقرب والأخف وزنًا، وابنه من صلبه، إلا أن الرجل كما نرى مصمم على إنقاذ الرجل الغريب البعيد الذي لا مستقبل له، وهذا يرمز على تمسك الإنسان بمعتقداته حتى لو كانت خاطئة!!

والنتيجة التي يمكن أن نفهمها من تحليل هذه اللوحة أعزائي..

هي أن التمسك بالماضي قادر على إغراق الحاضر والمستقبل، كما نلاحظ أيضًا أن رأس الرجل ذو لون أسود وذلك دلالة على الجهل والتفكير

الظلامي..علمًا بأن الرجل العجوز تبدو عليه علامات الهرم واقتراب أجله، بينما جسد المرأة و الطفل تملؤهما الحياة والخصوبة..

وكل هذا يرمز على أن الأشياء المقدسة تسيطر حتى على عقولنا وعواطفنا، وخاصة الجهل المقدس.. وهذا هو حال أوروبا قبل النهضة طلابي الأعزاء.. وكذلك حال أي نهضة تكون غارقة في ما يمكن أن نسميه الجهل المقدس..

ويختتم المحاضر حديثه قائلًا: نكتفي اليوم إذًا بما تحدثنا به ونتابع في المحاضرة القادمة ما بدأناه اليوم.. يومكم سعيد.

تنتهي المحاضرة ويبدأ الطلاب في الخروج من القاعة بينما المحاضر يقوم بوضع كتبه وبعض الأوراق في حقيبته..

عندها تنهض "ماريا" من مكانها ومن خلفها "أحمد" لتقترب من المنصة الرئيسية حيث يقف ذلك المحاضر وهي تصفق وتقول مبتسمة:

ما أجمل محاضراتك بروفيسور "ميشيل لوكلير".. وكم اشتقت لها..

يتوجه البروفسيور "ميشيل" بنظره نحو "ماريا" وقد ظهرت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يقول:

"ماريا" الغالية هنا!! وفي قاعة المحاضرات.. كم مضى وقت طويل، كيف حالك؟؟ ومالذي ذكرك بنا بعد هذه الفترة الطويلة؟؟ هل انتهت تقاريرك الصحفية وأسفارك؟؟ (ويتابع ضاحكًا) أم يا ترى قد تركت عملك؟!

تضحك "ماريا" لما يقوله البروفيسور "ميشيل" وتجيب قائلة:

إنه الشوق لك أولًا صديقي البروفيسور العظيم، ولمحاضراتك القيمة ثانيًا ودائمًا..

وتعانق "ماريا" البروفيسور "ميشيل" الذي يرحب بها بشوق كبير..

ينظر "أحمد" نحو البروفيسور "ميشيل لوكلير" متأملًا ليجده رجلًا ودودًا مَهيب الطلعة، وفي بداية العقد الخامس من العمر، ذا كاريزما وشخصية جذابة ويتمتع بأسلوب خاص في شرح محاضراته تجذب كل من يستمع إليه لثقافته الغنية الواسعة، ويبدو كشخص مُطَّلِع و متفتح على ثقافات عديدة وعالم في التاريخ والفنون.

تقطع "ماريا" تأمل "أحمد" وهي توجه حديثها للبروفيسور"ميشيل" وتقول: "ميشيل" الغالي اسمح لي أن أعرفك على صديقي "أحمد عيسى" من سورية..

يتقدم "أحمد" نحو البروفيسور مصافحًا: فرصة سعيدة بروفيسور "ميشيل".

يرد "ميشيل" مبتسمًا: أهلًا وسهلًا، نادِني "ميشيل" أفضل.. تشرفنا "أحمد".

تنظر "ماريا" إلى "ميشيل" متسائلة: ميشيل، هل مازلت تعد قهوتك المميزة؟؟

يجيب "ميشيل" ضاحكًا: طبعًا.. ثم يتابع قائلًا: إذًا فلا بد لكما من قبول دعوتي واحتساء القهوة معًا..

ترد "ماريا" وهي تبتسم: بكل تأكيد صديقي، وكذلك نريد أن نتحدث معك في موضوع هام ونحن نستمتع بتذوق قهوتك الفرنسية المميزة..

يقول "ميشيل": حسنًا هيا بنا إذًا..

ويتوجه "أحمد" مع "ماريا" والبروفيسور "ميشيل" عبر بهو الكلية ليصعدا إلى الطابق العلوي حيث مكاتب المحاضرين وإدارة الكلية..

ثم يدخل الجميع إلى مكتب البرفيسور "ميشيل" و"أحمد" ينظر لمحتويات المكتب وهو منبهر بمجموعات الكتب التي تزخر بها طبقات المكتبة التي غطت جدارن ذلك المكتب و"ماريا" تنظر إلى انبهاره مبتسمة وهي تقول:

هل أعجبتك هذه المكتبة؟؟

ماذا ستقول إذًا" لو رأيت مكتبة "ميشيل" الضخمة التي في منزله!!

يبتسم "ميشيل" قائلًا: نعم فهذه الكتب أغلى ما لدي.. فإنها برأيي تمثل التاريخ بكل صوره وعصوره وبعضها يتحدث عن علاقة الإنسان بالرب وبحثه عنه وما نتج عن ذلك من نظريات واعتقادات وفنون منذ بدء الخليقة.. فالكتب يا أصدقائي هي لسان حال الحضارة الإنسانية..

ويتابع "ميشيل" حديثه وهو يقدم قهوته المميزة المعدة سلفًا في مكتبه لماريا وأحمد، ثم يجلس على كرسي مكتبه وهو يشعل تبغ غليونه وينظر إلى "ماريا" وهو يقول مبتسمًا: حسنًا "ماريا".. حدثيني إذًا ما هو الموضوع المهم الذي جعلك تقتحمين محاضرتي اليوم..

تجيب "ماريا" ببعض الارتباك: في الحقيقة.. في الحقيقة

ينظر "ميشيل" إلى "ماريا" متعجبًا من ارتباكها المفاجيء:

"ماريا"، أخبريني.. لمَ هذا الارتباك؟!

تجيب "ماريا": حسنًا.. الموضوع باختصار هو استشارة لموضوع يخص حياة إنسان بريء تتوقف على فهم وحل بعض النقاط، ونأمل أن نستطيع إظهار الحقيقة والوصول إلى براءة هذا الإنسان..

ميشيل: لم أفهم عن ماذا تتحدثين بعد؟ لكن أظن من نظراتك وأنت تتكلمين أن المقصود بهذا الحديث هو أحمد؟؟

يرتبك "أحمد" ويتلعثم قائلًا: في الحقيقة أنا..

تقاطع "ماريا" "أحمد" وتوجه حديثها إلى "ميشيل" قائلة: صديقي "ميشيل".. أنت تعرف ثقتي الكبيرة بك ومعرفتنا الطويلة، وكيف كنا نجد حلولًا لكثير من المشكلات والأزمات فيما مضى..

ميشيل: طبعًا، لذلك لا تهتمي بالمقدمات وأخبريني مباشرة عن ماهية المشكلة التي أمامنا الآن و كيف يمكن أن أساعد..

ترد "ماريا" وتقول: في الحقيقة نحن أمام جريمة قتل اتُّهم بها "أحمد" ظلمًا.

يلتفت "ميشيل" نحو "ماريا" متفاجئًا وقد اتسعت حدقتا عينيه قائلًا: جريمة قتل!!

ماريا: نعم للأسف..

لكن هل يمكن أن تدع "أحمد" يشرح لك كل القصة من البداية؟

يجيب "ميشيل" قائلًا: لا بد من ذلك لأستطيع أن أفهم طبيعة المشكلة وبماذا يمكن أن أساعد..

توجه "ماريا" حديثها لأحمد وهي تقول: تفضل "أحمد" وأعد القصة على مسامعنا من جديد منذ البداية وبكل تفاصيلها..

ينظر "أحمد" نحو "ميشيل" و"ماريا" قائلًا: حسنًا.. القصة من البداية بدأت في التاسع والعشرين من شهر تموز من العام ٢٠١٣ عندما التقيت في ظروف صعبة واستثنائية مع الأب "باولو دالوليو" رئيس دير "مار موسى الحبشي" وداعية السلام المعروف في سجن جماعة متطرفة تسمى "داعش" لمدة لا تتجاوز ساعتين، بعدما تم اختطافنا وزجنا في أحد الزنزانات المظلمة هناك..

ويتابع "أحمد" سرد قصته وهو يخبر ويحدّث "ميشيل" عن كل الأحداث التي جرت معه منذ تلك اللحظة التي زُج بها في سجن تلك الجماعة المتطرفة وما عايشه قبل اختطافه حتى هروبه من ذلك المعتقل ودخوله تركيا وكل ما حدثّه به الأب "باولو" في ذلك السجن الرهيب، وخاصة الحديث الذي يتعلق بذلك المغلف الورقي الأمانة التي كلفه الأب "باولو" بإيصاله إلى المسيو "عازر موسان" مع تلك الرسالة الشفهية..

وكذلك تفاصيل رحلة الموت واللجوء وكل ما عاناه في الطريق حتى وصوله إلى باريس أخيرًا، ولقائه مع المسيو "عازر موسان" ومن ثم اكتشاف مقتله واتهام "أحمد" بجريمة قتله من قِبَل الشرطة..

وبعد أن استمع "ميشيل" لحديث "أحمد" بتركيز شديد يتوجه إلى "أحمد" و"ماريا" قائلًا: في الحقيقة إنها قصة مثيرة ومحزنة في ذات الوقت، وكذلك معقدة بطريقة تحتاج إلى دراسة كل تفصيلة وكلمة مما قاله "أحمد".

تقول "ماريا": نعم، هي كذلك.. لكن بعد التمعن بتلك التفاصيل بشكل مبدئي ومعرفتي وبثقتي الكبيرة بأن "أحمد" من المستحيل أن يقدم على ارتكاب مثل هذه الجريمة، وخاصة بعد تكبده عناء السفر وسلوك طرق الموت حتى وصل هنا باحثًا عن حياة آمنة وسلامًا يحلم به.. فهل هناك عاقل يستطيع أن يقول بأن شخصًا دخل هذه البلاد بهذا الشكل ثم يقوم بتقديم طلب لجوء بشكل قانوني ويقدم بياناته إلى الجهات المختصة ثم بعد أقل من أسبوع يقدم على ارتكاب جريمة قتل..

يهز "ميشيل" برأسه وهو يتأمل في كلام "ماريا" ثم يقول: نعم "ماريا".. كلامك في هذه النقطة قد يكون منطقي ومعقول..

ويتابع قائلًا: لكن ما الذي يمكن أن أقدمه في المساعدة في هذه المشكلة الكبيرة والتي هي من اختصاص جهاز الشرطة والمحققين؟

تجيب "ماريا": أريد منك في الحقيقة وباختصار جهودك العلمية وأن نتعاون معًا في البحث عن طرف خيط نصل به لتحقيق براءة "أحمد" من تلك الجريمة..

فبرأيي الشخصي، وبعدما استمعت معي إلى قصة تلك الأمانة والرسالة التي كلف الأب "باولو" أحمد بإيصالها إلى المسيو "عازر"، واللقاء القصير جدًا الذي جرى بين "أحمد" والمسيو "عازر" أمس قبل مقتله بدقائق مع

انتفاء وجود دافع حقيقي ومنطقي لارتكاب أحمد لمثل هذه الجريمة.. كل ذلك يستدعي منا أن نكثف الجهود وأن نقوم بمراجعة وتحليل مجريات اللقاء الذي جرى بين "أحمد" والمسيو "عازر موسان" وما يمكن أن تحمله تلك الرسالة من معاني تستدعي أن نتتبع معاني كلماتها، مع سر ذلك المغلف الذي سلمه "أحمد" إلى المسيو "عازر"، كل ذلك قد يساعدنا على كشف الحقيقة وإثبات براءة "أحمد".

يركز "ميشيل" فيما تقوله "ماريا" ثم يتوجه نحو "أحمد" قائلًا: "أحمد".. هل يمكن أن تعيد على مسامعي كلمات تلك الرسالة التي نقلتها من الأب "باولو" إلى المسيو "عازر موسان" لو سمحت؟

يجيب "أحمد": بالطبع.. ويقوم بترديد كلمات تلك الرسالة على مسامع "ميشيل" و"ماريا"..

يستمع "ميشيل" لكلمات تلك الرسالة ويعيد تكرارها بصوت منخفض متمعنًا في كل كلمة وهو يطرق بقلمه على المكتب ويكرر تلك الكلمات:

أثر المنبر.. آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه..

سفر التكوين.. الإصحاح الأول.. إيلوهيم.. راؤول.. القصيدة.. ابن يوسف الموصلي؟؟

ويتابع قائلًا وهو ينظر لماريا وأحمد: إنها تكاد تكون أحجية حقيقية.. لكن هل لديكم أية تفاصيل أو خلفية عن شخصية المسيو "عازر موسان"؟؟

تجيب "ماريا": كل الذي عرفناه عن المسيو "عازر" هو ما أخبرني به المحقق "برنار" من شرطة باريس، حيث أن المعلومات التي لدينا حاليًا تقول أن المسيو "عازر موسان" فرنسي ويحمل كذلك الجنسية الإسرائيلية، وُلد في القدس عام ١٩٥٥م من أب يهودي فرنسي وأم يهودية من دمشق، ووفق

تحريات الشرطة الأولية عن عمله؛ فهو يعمل باحث في علوم "اللاهوت" وقضايا حوار الأديان، ومقرب من جماعة يهودية تدعى "ناطوري كارتا".. وقد عاد من إسرائيل إلى فرنسا ليستقر فيها منذ أكثر من عشر سنوات تقريبًا ومع جدول لا بأس به من السفر..

وعندما قابلت المحقق "برنار" قال لي أن الجريمة مبدئيًا صُنِّفَت ضمن جرائم دوافع الكراهية والعنصرية، حيث تبين أن الضحية لم يُسرق منه أية نقود ولا أية أشياء خاصة مثل ساعة أو ما شابه.

وأن الدليل الأولي في إتهام "أحمد" هو وجوده في مكان الجريمة ولقاؤه بالضحية قبل لحظات من وقوع الجريمة، وارتباكه الواضح المسجل على كاميرات المحطة، ومن ثم هروبه من عناصر الشرطة عندما داهمت مقر سكنه الحالي..

ويتابع "أحمد" وهو يقول متممًا لما تحدثت به: نعم "ماريا".. ومن المعلومات التي لدي أيضًا ما أخبرني الأب "باولو" في أنه قد التقى المسيو "عازر" في القدس في أحد المؤتمرات، وكذلك الدراسات والأبحاث التي كانا يقومان بها معًا، وهذا ما أكده لي المسيو "عازر" عندما التقيته في تلك الدقائق القليلة..

ينصت "ميشيل" وهو يستمع بتركيز شديد لما يقوله "أحمد" و"ماريا" ويحاول تسجيل بعض التفاصيل مما سمعه ثم يقول: اممم.. إذًا لقد التقى الأب "باولو" مع المسيو "عازر موسان" في القدس، والأب "باولو" يعمل على أبحاث في علوم الأديان ويشجع على إنشاء مراكز لحوار الأديان والحضارات.

وكما أخبرتموني أن الأب "باولو" قد تأثر وبحث في الحضارة الإسلامية وله كتب عديدة في ذلك.. مع أنه كان راهبًا لأكثر من ثلاثين عامًا عاشها في

دير "مار موسى الحبشي" في سورية الذي أعاد الحياة فيه بعد أن كان مهجورا..

وأما المسيو "عازر موسان" فهو حاخام يهودي مقرب من جماعة "ناطوري كارتا" ومن أم يهودية من دمشق وأب يهودي فرنسي..

تجيب "ماريا": بالضبط كما ذكرت.. وتتابع متسائلة: ميشيل، هل لديك معلومات عن جماعة "ناطوري كارتا" التي كان المسيو "عازر" مقرب منها، فقد لفت ذكر اسمها انتباهي كثيرًا؟؟

يجيب "ميشيل": من دراستي وطبيعة عملي قمت بإجراء أبحاث ودراسات في التاريخ والعقائد الدينية وتأثير ذلك على الفنون الإنسانية، كل ما أعرفه عن جماعة "ناطوري كارتا" اليهودية أن اسمها:

"ناطوري كارتا" (باللغة الآرامية "**נטורי קרתא** أي حارس المدينة"، وبالعبرية "**שׁוֹמְרֵי הָעִיר**") والمعنى الحرفي لاسم تلك الجماعة هو "حراس المدينة" وهي جماعة دينية يهودية أرثوذكسية تم تأسيسها سنة ١٩٣٥م، ترفض وتعارض أفكار الصهيونية بكل أشكالها، وتعارض وجود دولة إسرائيل، وتنادي بخلع أو إنهاء سِلمي للكيان الإسرائيلي.. حيث أنها تقتنع بأنه يجب أن يمنع اليهود من الحصول على دولة خاصة بهم حتى مجيء المسيح.

ولها أعضاء يقال أنهم بالآلاف، ومناصرين في عدة دول ويتواجد معظمهم الآن في القدس ولندن ونيويورك.

تنظر "ماريا" متفاجئة لما يقوله "ميشيل" وتقول: هذا يعني أن المسيو "عازر موسان" هو يهودي من المناهضين لإنشاء دولة اسرائيل وفق هذا المعتقد!!

ويتابع "أحمد" قائلًا: إذًا هذا ما قد يفسر علاقة المسيو "عازر" مع الأب "باولو" وخاصة في العمل معًا في الدراسات والأبحاث وأنشطة حوار

الحضارات والأديان التي كان الأب "باولو" متحدثًا وناشطًا هامًا فيها عدا عن كونه من دعاة السلام..

ماريا: تمامًا.. وكذلك هذه النقطة قد تفند دافع الجريمة التي اتُّهم بها "أحمد" وأنها جريمة ذات دوافع عنصرية وكراهية..

يهز "ميشيل" برأسه وهو يقول: في بعض ما تقولانه وجه كبير من المنطق..

ترد "ماريا": إذًا أنت معنا في أن "أحمد" بريء من هذه الجريمة؟

يجيب "ميشيل" قائلًا: من حيث الشكل من الممكن القول بذلك، لكن لا بد من العمل على كشف الحقيقة بشكل دقيق..

ماريا: لهذا السبب ببساطة جئنا عندك..

ينظر أحمد نحو ماريا ويقول: لكن كيف يمكن أن يكون ذلك برأيك؟؟

ترد "ماريا" بابتسامة: هذا السؤال يجب أن نوجهه للبروفيسور "ميشيل" الباحث المخضرم في التاريخ والحضارات الإنسانية والفنون، لأن هناك بعض النقاط والتفاصيل المهمة تتعلق بما يقوم بتدريسه هنا..

ويمكن لو استطعنا أن ندمج الفضول الصحفي مع الفضول العلمي أن نصل معًا إلى كشف الحقيقة وإثبات براءة "أحمد".

ينظر "ميشيل" إلى "ماريا" ويقول: ولكن لا أعتقد أن الموضوع بهذه السهولة..

تبتسم "ماريا" وهي تقول: إذًا أنت معنا.

يجيب "ميشيل" ببعض التردد: لكن..

تقاطع "ماريا" "ميشيل" وهي تقول: لكن ماذا "ميشيل"؟! فبعد التمعن بكل الحقائق والمعلومات التي ذكرناها الآن.. ألا ترى أمامك أن هناك حياة إنسان بريء على المحك؟؟

يهز "ميشيل" رأسه متأثرًا ويفكر بصمت للحظات ثم يقول: حسنًا.. بعد ما قلتيه الآن "ماريا" لا أستطيع هنا أن أرفض المساعدة..

تتوجه نظرات "ماريا" و"أحمد" نحو "ميشيل" بفرح قائلين:

شكرا لك "ميشيل" من كل قلبنا..

ينهض "ميشيل" ويقول: لكن علينا أن نبدأ بكشف طرف خيط نستطيع أن نرى منه نور الحقيقة.

تقول "ماريا": نعم، لا بد من ذلك.. لكن من أين سنبدأ برأيك؟

يجيب "ميشيل" وهو ينظر في ساعته: قلتِ لي "ماريا" أنك قد التقيت مع المحقق "برنار" من شرطة باريس وهو الذي يشرف على التحقيق في قضية مقتل المسيو "عازر موسان"..

ترد "ماريا" : نعم، فالمحقق "برنار" هو المسؤول عن التحقيق في تلك الجريمة..

ميشيل: ممتاز إنه محقق جيد.. وهناك علاقة صداقة طويلة تربطني مع المحقق "برنار" وعائلته، وكان لدينا فيما مضى تعاون في بعض الملفات..

لذلك لا بد لي الآن و كسبًا للوقت من التوجه إليه وزيارته لأستفسر منه عن بعض الأمور فيما يخص هذه القضية..

ولنعاود الاجتماع معًا من جديد مساء اليوم في منزلي..

تقول "ماريا" وهي تنهض من مكانها: حسنًا "ميشيل" كما تريد.. وأشكرك مجددًا لتفهمك وقبولك لمساعدتنا، فأنت كما عهدتك في كل تلك السنوات التي عرفتك بها صديق حقيقي، وكذلك عالم وباحث استثنائي..

وينهض "أحمد" من مكانه ويقول متابعًا: وكذلك اسمح لي أن أشكرك من كل قلبي برفيسور "ميشيل" لقبولك المساعدة في كشف الحقيقة.. ولكن هل لي أن أسأل ماذا تريديني أن أفعل الآن؟؟

ينظر "ميشيل" نحو "أحمد " ويقول: أريد منك أن لا تفارق "ماريا" حاليًا، وأن تكون في مكان آمن إلى أن نلتقي مساءً.. اتفقنا؟

يهز "أحمد" و"ماريا" رأسيهما موافقين، كما تريد "ميشيل"..

ويخرجان من مكتب البروفيسور "ميشيل" وكذلك من حرم الجامعة مستقلين سيارة "ماريا".

كما يخرج "ميشيل" من مكتبه متوجهًا نحو مركز شرطة باريس ليطلب لقاء المحقق "برنار"..

الفصل الثالث عشر

في داخل مركز الشرطة في العاصمة باريس يدخل البروفيسور "ميشيل" ويقترب من مكتب الاستقبال ليسأل أحد موظفيه عن المحقق "برنار"..

ميشيل: مساء الخير، هل المحقق "برنار" موجود؟

موظف الاستقبال: نعم سيدي، سأحاول الاتصال به، هل لي باسم حضرتك؟

وبينما يهّم "ميشيل" بالتعريف عن نفسه لموظف الاستقبال يصيح صوت أحدهم قادمًا من الخلف وهو يقول ضاحكًا:

ما الذي جاء بالبروفيسور العزيز "ميشيل" إلى مركز الشرطة!!

ويتابع مبتسمًا: هل لدينا محاضرة في الفنون والتاريخ اليوم؟!

ينظر "ميشيل" نحو الخلف ليجد المحقق "برنار" يتقدم نحوه مرحبًا وهو يقول:

أهلا بصديقي البروفيسور الكبير..

ميشيل: أهلًا بك صديقي المحقق "برنار"..

ويمسك المحقق "برنار" بيد "ميشيل" مبتسمًا وهو يدعوه نحو مكتبه قائلًا: أهلًا وسهلًا صديقي.. هيا تفضل إلى مكتبي ولتخبرني عن موضوع زيارتك الكريمة..

يدخل الرجلان إلى مكتب المحقق "برنار" ليبدأ "ميشيل" في الحديث والاستفسار حول جريمة مقتل المسيو "عازر موسان"..

يرد المحقق "برنار" ضاحكًا: هل أصبحت كلية الفنون والتاريخ تهتم بجرائم القتل؟!

يجيب "ميشيل": في الحقيقة لدي بعض الأسباب الهامة سأخبرك عنها لاحقًا لكن اعتبر السؤال مبدئيًا من باب الفضول العلمي كون الضحية يهودي ناشط في قضايا حوار الأديان وله اعتقاد خاص أظنه قريبًا من اعتقاد جماعة "ناطوري كارتا"..

المحقق برنار: نعم سمعت عنها وقمت بإجراء بحث حول ذلك.. لكن ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟؟

يجيب "ميشيل": هل يمكن أن تعيد عليَّ جميع تفاصيل الجريمة إن أمكن؟

المحقق برنار: حسنًا سأخبرك.. اسمع يا صديقي إذًا"..

وببدأ المحقق "برنار" يحدّث البروفيسور "ميشيل" عن ملابسات الجريمة مكررًا نفس المعلومات التي أخبر بها "ماريا" من قبل..

ويتابع المحقق "برنار" حديثه عن الجريمة قائلًا: وبعد إجراء التحريات الأولية لاحظنا من كاميرات موقع الجريمة وجود شاب يدعى "أحمد عيسى" قبل دقائق من حدوث الجريمة حيث التقى بالمسيو "عازر" لقاءً قصيرًا، ولوحظ كما تشاهد في فيلم كاميرات مراقبة ذلك المكان ارتباك "أحمد عيسى" الواضح خلال ذلك اللقاء وهذا مما زاد من الشكوك حوله..

يقول "ميشيل" مقاطعًا وقد لفت انتباهه شيءٌ ما في تلك التسجيلات:

هل يمكن أن توقف عرض الفيلم لحظة.. وأن تعيد ذلك المشهد إلى الوراء قليلًا؟؟

المحقق برنار: حسنًا.. ها قد أعدته..

يتابع "ميشيل" التركيز في بعض مشاهد الفيلم الذي سجلته كاميرات المراقبة في موقع لقاء أحمد مع المسيو "عازر" والمحقق يقوم بإعادتها إلى أن يرى "ميشيل" شيئًا يعتقده هامًا.. فيلتفت نحو المحقق "برنار" قائلًا: هنا.. هنا تمامًا، أوقفه هنا لو سمحت.

المحقق برنار: ها قد أوقفت الفيلم على هذا المشهد، لكن هل لي أن أعرف السبب؟!

يجيب "ميشيل": ألم تلاحظ أن أحمد قد سلم في هذا المشهد الضحية مغلف ورقي قبل انتهاء اللقاء؟

ينظر المحقق "برنار" نحو ذلك المشهد ويقول: نعم هذا واضح فعلًا من الفيلم..

ميشيل: إذًا هل في رأيك أن شخصًا يعمد إلى قتل شخصٍ آخر بعد أن يلتقي به لدقائق ويسلمه مغلفًا ثم يذهب ببساطة.. أما كان من المنطقي إن كان هو الفاعل أن يقتله ويذهب دون أن يلتقي به أو أن يسلمه أي شيء؟!

وثانيًا، وبعد المعلومات الأولية هل برأيك أنه من المنطق أن تصّنف هذه الجريمة كجريمة عنصرية وكراهية من شاب عربي مسلم ضد حاخام يهودي يؤمن بحوار الأديان ويناهض الصهيونية كفكر، وضد قيام دولة إسرائيل، ومن الواضح أن هناك معرفة ولو بسيطة بين الطرفين..

المحقق برنار: كلامك منطقي فيما قلته.. لكن إلى أين تريد أن تصل؟؟

ميشيل: أنا أعتقد جازمًا –وليس تدخلًا في عملكم– أنه من المبكر جدًا وفق هذه المعطيات توجيه الاتهام إلى "أحمد عيسى" في هذه الجريمة، ويجب أن نتمعن جيدًا بكامل التفاصيل وملابسات الجريمة من جديد..

المحقق برنار: كلام مقبول شكلًا صديقي، ولكن المتهم الآن هارب من العدالة ولايمكننا التقدم بخطوة قبل القيام بالتحقيق معه..

ميشيل: هل يمكن أن أسأل سؤالًا صديقي المحقق؟

المحقق برنار: طبعا تفضل..

ميشيل: قلت أن الجريمة أخذت من حيث الشكل دافعًا عنصريًا قد يصل لمستوى التطرف.

المحقق برنار : نعم، إذ أننا بعد مراجعة أغراض الضحية الشخصية وجدنا محفظة المسيو "عازر" ما تزال في جيب الضحية وفيها مبلغ من المال عدا عن أغراضه الشخصية الأخرى مثل ساعة وخاتم وحقيبة يد..

ميشيل: حسنًا.. إذًا في حديثنا الآن لاحظنا من حيث المنطق أنه قد يوجد هناك معرفة ولو بسيطة بين المتهم والضحية، لذلك فليس من المنطق أن تكون الجريمة بدافع عنصري من عربي مسلم ضد يهودي يؤمن بحوار الأديان وضد الصهيونية كفكر.. وكذلك ليس من المنطق أيضًا أن يقدم أحدهم على ارتكاب جريمة قتل في مكان مزدحم كمحطة مترو ومن قبل شخص قام بتقديم بياناته كاملة في طلب لجوء قدمه للبلاد التي دخلها بشكل غير قانوني، أي وبمعنى آخر أنه لم يكن هناك أية بيانات تؤكد هوية المشتبه به "أحمد" لو أنه لم يتقدم قبل أسبوع من تاريخ الجريمة بتقديم طلب اللجوء..

وكذلك أيضًا مما قلته لي أن الجريمة لم تكن بدافع السرقة كما دلت ذلك التحقيقات، ولم يسرق من محفظة الضحية التي فيها مبلغ من المال أي شيء، وكذلك أغراضه الشخصية من ساعة وحقيبة.. لا بل قد سلمه وفق ما شاهدناه في فيلم كاميرات المحطة مغلفًا ورقيا ثم رحل..

يصمت "ميشيل" فجأة وكأنه يفكر في شيءٍ ما..

ثم ينظر إلى المحقق "برنار" قائلًا: لحظة.. هل يمكن لنا أن نعرف ماذا كان يوجد في الحقيبة التي كانت مع الضحية؟؟

المحقق برنار: نعم لا بأس.. تعال معي إلى قسم المحفوظات لنرى معًا..

ويذهب "ميشيل" مع المحقق "برنار" نحو قسم المحفوظات ويطلب المحقق "برنار" من الموظف المسؤول في القسم الصندوق الذي وُضعت به أغراض الضحية المسيو "عازر موسان"..

وبعد أن جلب الموظف ذلك الصندوق يقوم المحقق "برنار" بفتح الصندوق أمام صديقة البروفيسور "ميشيل" وهو يقول: كما ترى صديقي هذه محتويات الصندوق، وهذه محفظته وساعته وخاتمه وكذلك هذه الحقيبة..

ينظر"ميشيل" إلى محتويات الصندوق ثم يقول: نعم.. لكن هل يمكن أن نرى ماذا يوجد في تلك الحقيبة؟

المحقق برنار: طبعًا.. ويقوم المحقق "برنار" بفتح تلك الحقيبة الجلدية السوداء..

ثم ينظر نحو "ميشيل" قائلًا: انظر معي إلى محتويات هذه الحقيبة حيث يوجد فيها مجموعة من الأوراق وقلم ودفتر الملاحظات هذا..

يدقق "ميشيل" في محتويات ذلك الصندوق من جديد ثم يقول: لكن أين ذلك المغلف الذي سلمه "أحمد" للمسيو "عازر" قبل مقتله ببضع دقائق؟!

يلتفت المحقق "برنار" متفاجئًا من منطقية سؤال "ميشيل" ويقول:

نعم معك حق "ميشيل".. لا يوجد أي مغلف هنا مع أنه كان واضحًا في الفيلم أن "أحمد" كان قد سلم الضحية المسيو "عازر" مغلفًا ورقيًا سميكًا!!

ميشيل: إذًا فوجهة نظري يوجد فيها شيئٌ من الحقيقة والواقع..

المحقق برنار: وماذا تقول وجهة نظرك صديقي؟؟

يجيب "ميشيل" قائلًا: وجهة نظري ترى أن هذه الجريمة لم تكن بدافع عنصري أو سرقة، وأن المعطيات تقول أن "أحمد" ليس المشتبه به الوحيد في هذه الجريمة بشكل مبدئي إن لم نقل أنه بريء وأن المجرم الحقيقي كان له دافع مختلف قد يرتبط باختفاء ذلك المغلف وما قد يحتويه ليمنع شيئًا ما..

يهز المحقق "برنار" برأسه ويقول: أوافقك الرأي فيما قلته صديقي "ميشيل"، ولكن كذلك أقول لك من جديد أنه لا يمكن التقدم خطوة في التحقيق دون معرف تلك المعطيات، وأولها يجب أن تكون من المشتبه به الأول "أحمد عيسى" الهارب من العدالة الآن..

ثم يعيد نظره إلى محتويات الحقيبة التي وجدت في الصندوق ويلتقط دفتر الملاحظات الذي كان موجودًا في تلك الحقيبة والخاص بالمسيو "عازر".. ويقوم بإعادة باقي الأشياء إلى الصندوق وهو يقول لميشيل: تعال صديقي لنعود إلى مكتبي ولنراجع معًا المعلومات الموجودة في هذا الدفتر علَّنا نجد طرف خيط..

يجيب "ميشيل": أوافقك الرأي تمامًا..

يتوجه "ميشيل" مع المحقق "برنار" عائدين إلى مكتبه ويجلس المحقق "برنار" وهو يتصفح بدقة دفتر ملاحظات المسيو "عازر".. ثم ينظر نحو "ميشيل" قائلًا: انظر.. لا يوجد الكثير من المعلومات التي يمكن أن نستفيد منها مبدئيًا، فكل ما هنالك بعض الحكم والمواعيد والكلمات وبعض الملاحظات ليتذكر شراء بعض الحاجات..

وتابع قائلًا: لكن هناك بعض الكلمات التي من الممكن أن نعيد مراجعتها، وربما قد تحتاج لبعض التحليل.

ميشيل: هل يمكن تقرأ تلك الكلمات لو سمحت؟

المحقق برنار: حسنًا.. مكتوب هنا يا صديقي الكلمات التالية:

(أساطير.. روجيه غارودي.. بحث الأب "باولو".. المغلف.. المسجد الأقصى والهيكل.. فكر"صلاح الدين".. "المحرقة".. سفر التكوين.. الإيلوهيم.. موعد حجز المؤتمر ١٢/١٨ /٢٠١٧.. موعد "أحمد عيسى" ١٢/٤ /٢٠١٧.. كتب العلم الضائعة..)

ينصت "ميشيل" لما يقرؤه المحقق "برنار" بتركيز وهو يسجل تلك الكلمات ثم يقول: نعم هذه الكلمات بحاجة إلى تحليل، لكن هل لاحظت أنه قد وردت معلومة تفيد بحجز موعد لمؤتمر وفق تاريخ مسجل بعد خمسة عشر يومًا من تاريخ الجريمة، والتي هي بتاريخ لقاء المسيو "عازر" بـ "أحمد"..

المحقق برنار: نعم لقد تم ذكر ذلك..

يسأل "ميشيل" المحقق "برنار" قائلًا: ألا يوجد في ذلك الدفتر شيئٌ ما يحدد مكان انعقاد المؤتمر؟

يجيب المحقق "برنار" وهو يتصفح الدفتر من جديد قائلًا: لا أبدًا.. وواضح أن هذا الدفتر مجرد دفتر ملاحظات تذكيري فلا يوجد تفاصيل لأي شيء..

ميشيل: حسنًا أظن أننا قد بدأنا نرى بصيص أمل، أو أننا نسير على الطريق الصحيح..

المحقق برنار: ماذا تقصد صديقي؟؟

ينهض "ميشيل" من مكانه وهو يقول: أقصد أني ممتن لك ولحسن استقبالك وسعة صدرك، وأرجو أن لا أكون قد قاطعت متابعتك لسير تحقيقاتك.. وسأعتذر منك الآن وأغادر لارتباطي بموعد مهم وسأوافيك كذلك بأي شيء مهم..

وينظر نحو المحقق "برنار" وهو يبتسم مودعًا ويقول: وطبعًا شكرًا على قهوتك الرائعة.

يرد المحقق "برنار" وهو يبتسم قائلًا: على الرحب دومًا صديقي..

ويتابع ضاحكًا.. وطبعًا لا ترقى قهوتنا لنكهة قهوتك المميزة..

وأرجو أن نبقى على تواصل، وإذا توصلت لأي شيء جديد أرجو أن تتصل بي في أي وقت..

ميشيل: بكل تأكيد.. وشكرًا لوقتك الثمين مرة أخرى.. إلى اللقاء

المحقق برنار: إلى اللقاء يا صديقي

الفصل الرابع عشر

في ذات اليوم، وفي مساء باريسي جميل، ومع تساقط زخات مطر خفيفة تسير "ماريا" بسيارتها برفقة "أحمد" متجهة إلى منزل البروفيسور "ميشيل" في أحد ضواحي باريس الهادئة وفق الموعد المتفق..

يلتفت "أحمد" نحو "ماريا" التي تركز في قيادة السيارة ويقول:

هل برأيك "ماريا" أن ما نقوم به سيجدي نفعًا؟

تجيب "ماريا" على سؤال "أحمد" وهي تنظر أمامها على الطريق:

طالما نحن متأكدون من براءتنا من تلك الجريمة فلا يجب أن نفقد الأمل..

أحمد: لكن الوضع الآن أكثر تعقيدًا..

توجه "ماريا" عينيها لتلحظ عيني "أحمد" ثم تعود إلى النظر في الطريق،

ثم تقول: أحمد.. لقد تجاوزت ومررت بظروف أصعب من هذه المشكلة التي تباغتنا الآن.. ألم تنجو روحك من تلك الحرب.. ألم تخرج من ظلام الاعتقال بعد سنوات كان فيها السواد يحيط بك من كل جانب.. ألم تصل إلى هدفك ونعود لنلتقي.. ألم تحافظ على أمانة الأب "باولو" رغم كل الصعوبات التي واجهتك أثناء عبورك طرق الموت في سبيل النجاة بحياتك..

يهز "أحمد" رأسه ويقول وهو يتأمل في زخات المطر التي تداعب النافذة:

نعم ماريا، معك حق.. ولكن يبدو أني قد تعبت فعلًا وأحتاج إلى سلام ولو ليومٍ واحد لأستطيع إعادة بناء ذاتي..

ترد "ماريا" وهي تبتسم: إذًا لنبدأ من اليوم ولترسم على وجهك ابتسامة أمل..

ينظر "أحمد" في وجه "ماريا" ثم يبتسم قائلًا: كيف لي ألا أبتسم وأنا أنظر إلى تلك الفتاة الجميلة التي ملكت قلبي، وحيث يحل السلام أينما حلّت..

تضحك "ماريا" قائلة: اذا لا تشيح بنظرك عنها..

بعد أقل من نصف ساعة وفي شارع هادىء حيث تصطف الأشجار وهي تحنو على جانبي الطريق تقف "ماريا" بسيارتها أمام منزل جميل في تلك المنطقة الهادئة في أحد ضواحي باريس وتسير مع "أحمد" باتجاه ذلك المنزل الأنيق حيث يسكن "ميشيل".

تقوم "ماريا" بالضغط على جرس الباب الخشبي الكبير لمنزل "ميشيل" والذي ترتسم عليه نقوش فنية جميلة..

تقوم "فيرونيكا" مدبرة المنزل بفتح ذلك الباب واستقبال الضيوف..

ماريا: مرحبًا "فيرونيكا" كيف حالك؟ هل "ميشيل" في الداخل؟

تجيب "فيرونيكا" بابتسامة لطيفة: أهلًا آنسة "ماريا".. شكرًا، أنا في صحة جيدة، نعم البروفيسور في مكتبه ينتظرك وضيفك.. تفضلا رجاءً

ماريا: شكرًا لك..

ويتجه "أحمد" و"ماريا" عبر ردهة دائرية واسعة تتوزع على جدرانها لوحات فنية موقَّعة بأسماء فنانين عالميين حتى نهاية تلك الردهة حيث تقع غرفة المكتبة والتي يقضي "ميشيل" معظم أوقاته بها..

فقد كان "ميشيل" وعبر سنوات طوال يقوم بممارسة هوايته المفضلة بجمع واقتناء أهم الكتب في مختلف المجالات، حيث تمتلىء مكتبته الضخمة

بكتب التاريخ والفلسفة والدين والفن والشعر والأدب العالمي ومواضيع مختلفة..

تدخل "ماريا" و"أحمد" غرفة المكتبة حيث ينتظرهما "ميشيل" والذي يصافحهما مُرحِّبًا بابتسامة لطيفة ..

يقف "أحمد" مندهشًا عند مشاهدته لتلك المكتبة الكبيرة التي تضم الآلاف من الكتب والمجموعات الضخمة، والتي تتوزع على أرفف خشبية أنيقة تصل إلى حدود سقف تلك الغرفة الكبيرة مع وجود عدد من اللوحات الفنية الجميلة وبعض المنحوتات ومكتب أنيق خاص للبروفيسور "ميشيل" وقد وضعت عليها شاشة كمبيوتر كبيرة..

ينظر "أحمد" من حوله مندهشًا وهو يقول: يالله.. ما أجمل هذه الأجواء!

تبتسم "ماريا" قائلة: نعم، لقد أخبرتك من قبل.. فميشيل لا يتميز فقط بقهوته الفريدة، بل كذلك بمكتبته الغنية التي طالما ساعدتني الكتب والمراجع التي فيها على إنجاز تحقيقاتي الصحفية..

يضحك "ميشيل" وهو يرحب بأصدقائه قائلًا: أهلًا بكما من جديد، شرفت منزلي المتواضع صديقي "أحمد".

يجيب "أحمد "متأثرًا بلطف "ميشيل" وترحيبه: بل الشرف لي وكل الشكر "ميشيل" للطفك الكبير..

يبتسم "ميشيل" وهو يقول: حسنًا.. ما رأيكم أن نتوقف عن المجاملات الآن، ونتحدث بأشياء مهمة تخص قضية "أحمد"..

ماريا: طبعًا طبعًا.. تفضل صديقي فكلنا آذان صاغية، هل من جديد في لقائك اليوم مع المحقق "برنار"؟

يجيب "ميشيل": في الحقيقة قمت ظهر اليوم وبعد لقائنا في الجامعة بزيارة المحقق "برنار" في مركز الشرطة، وكما تعلمين أنه وعائلته من الأصدقاء المقربين لي..

وقد تحدثنا في قضية مقتل المسيو "عازر" واتهام "أحمد" بتلك الجريمة، وبعد أخذ ورد ومشاهدة الكاميرات التي كانت ترصد موقع الجريمة والتي كان "أحمد" يظهر فيها وهو يلتقي بالمسيو "عازر" وقد بدا عليه الارتباك الواضح وهو يسلمه مغلفًا ورقيًا سميكًا..

وبعد نقاش حول ملابسات الجريمة، قمنا كذلك بتفقد أغراض ومتعلقات الضحية الشخصية التي كانت معه حين وقوع الجريمة..

تقاطع "ماريا" "ميشيل" وهي تقول متلهفة: نعم "ميشيل".. وإلى ماذا توصلتم بعد مشاهدتكم تلك صديقي؟؟

يجيب "ميشيل": نعم في الحقيقة وبعد نقاش طويل تخلله بعض التحليل وبناء الفرضيات مع المحقق "برنار" توصلنا لعدة أشياء ملخصها التالي:

في البداية المنطق يقول أنه لا بد أنه كان هناك معرفة ولو بسيطة بين المشتبه به الآن للأسف والذي هو "أحمد" والضحية..

وكذلك بعد مراجعة ودراسة خلفية الضحية مع المحقق "برنار" حدثته برأيي المبدئي بأنه ليس من المنطق أن تكون هذه الجريمة بدافع عنصري أو كراهية بين عربي مسلم ضد يهودي يؤمن بحوار الأديان ويرفض منهج الصهيونية كفكر..

وأن يقوم بارتكاب تلك الجريمة في مكان مراقب ومزدحم كمحطة مترو.. والأهم كذلك أنه ليس من المنطق أيضًا أن يكون المشتبه به شخصًا يقوم بتقديم بياناته الكاملة في طلب لجوء لبلد كان قد دخلها بشكل غير قانوني

أو بمعنى آخر لم يكن هناك مبرر للمتهم لتقديم بياناته التي لم تكن موجودة عند السلطات الرسمية والأمنية تؤكد هويته قبل أسبوع من تاريخ الجريمة..

وكذلك أيضًا أن الجريمة لم تكن بدافع السرقة كما تدل التحقيقات فلم يُسرق من الضحية أي شيء من متعلقاته الشخصية التي كانت معه وقت ارتكاب الجريمة حيث وجدت محفظته التي كان تحتوي مبلغ من المال وكذلك بعض أغراضه الشخصية من ساعة وحقيبة..

ماريا: نعم كلامك منطقي جدًا "ميشيل" وبداية جيدة..

يتابع "ميشيل" حديثه قائلًا: نعم، لكن بعد مراجعة محتويات الحقيبة لم يكن موجودًا فيها أي مغلف رغم أنه كان واضحًا في الفيلم الذي سجلته كاميرات موقع الجريمة، أن "أحمد" قد قام بتسليم المسيو "عازر" مغلفًا ورقيًا سميكًا قبل أن يذهب وقبل دقائق من وجود جثة المسيو "عازر" مقتولًا بعدة طعنات..

أحمد متفاجئًا: نعم لقد سلمته ذلك المغلف أمانة الأب "باولو" قبل أن أتركه وأذهب..

يتابع "ميشيل" ويقول: نعم.. لكننا وجدنا فقط دفتر ملاحظات تذكيرية خاص بالمسيو "عازر" لم يحتوي على الكثير من المعطيات الهامة وفق النظرة الأولى، لكن هناك بعض الكلمات التي وجدناها قد تفيدنا إذا ما قمنا بتحليلها ودراسة كل معنى لها ومقارنتها مع ما لدينا من تفاصيل أولى قد تمكن من الوصول إلى شيء يأخذنا في الطريق الصحيح..

أحمد : ماهي تلك الملاحظات أو الكلمات لو سمحت؟

يخرج "ميشيل" ورقة من جيب قيمصه وهو يقول: نعم لقد سجلت تلك الكلمات التي كُتبت على دفتر الملاحظات الخاص بالمسيو "عازر" وهذه

الكلمات هي كالتالي.. وأعاد عليهم الكلمات التي سجلها وراء المحقق برنار.

يستمع "أحمد" إلى تلك الكلمات التي يقرأها "ميشيل" ثم يقول: نعم.. بالنسبة لكلمة "موعد حجز المؤتمر" أذكر أن المسيو "عازر موسان" قد أخبرني حين التقيت به عن مؤتمر سيقيمه في فندق "رويال موريس" بعد خمسة عشرة يومًا من تاريخ لقائي به، وقد دعاني لحضوره..

ينظر"ميشيل" باهتمام لما يقوله " أحمد" ويقول: ممتاز.. أظن أنها معلومة مهمة ومكملة لما لدينا..

"مكان انعقاد المؤتمر".. فندق "رويال موريس"..

ثم يتابع قائلًا: يجب أن أخبر صديقي المحقق "برنار" بذلك ليقوم بتحقيقاته الخاصة حول هذا الأمر.

ماريا: هذا جيد، وأرى كذلك أن الكلمات التي وردت في دفتر ملاحظات المسيو "عازر" بحاجة أيضًا إلى دراسة وتحليل دقيق، وإلى أن نقاطعها مع بعض المعلومات التي لدينا..

يبتسم "ميشيل" ويقول: نعم، أوافقك الرأي "ماريا".. لا بد من ذلك..

وأظن بأن الحس والفضول الصحفي لدى "ماريا" قدأ بدأ يتفاعل.

أحمد: نعم، هذه فكرة جيدة، إذًا دعونا نراجع تلك الكلمات معًا..

يمسك "ميشيل" تلك الورقة من جديد ثم يقول: نعم، بدايةً فقد ذكر اسم "روجيه غارودي"..

تقول "ماريا": "روجيه غارودي" إنه كاتب وفيلسوف فرنسي..

أحمد متابعًا: تمامًا، وأنا كذلك سمعت به، فقد أحدث ضجة واسعة حتى في بلادنا بسبب كتاب ألفه اسمه على ما أعتقد ..

"الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية "..

Les mythes fondateurs de la politique israeliennes

ويتحدث فيه عن مجموعة من الأساطير(حسب ما أطلق عليها) قد بُنيت عليها السياسة الإسرائيلية والكتاب في مجمله يُنكر "الهولوكوست" ويرى فقط أنه "أسطورة" يتبناها الشق الصهيوني في إسرائيل من أجل تبرير احتلالهم لفلسطين مدعومًا باللوبي اليهودي في كل من فرنسا والولايات المتحدة وكندا ودول أخرى..

ميشيل: نعم، وأذكر أنه قد تلقى هجومًا من اللوبي اليهودي في كل مكان.. لذلك يجب أن نراجع تلك الأساطير التي أوردها في ذلك الكتاب ونقاطعها مع مالدينا من كلمات تخص قضية مقتل المسيو "عازر موسان"..

يقول "أحمد" معقبًا: كل ما عرفته عن ذلك الكتاب حينها أنه يفند المزاعم التي قامت عليها دولة اسرائيل..

ماريا: وهذا يتقاطع بداية مع التوجه الخاص للمسيو "عازر" والذي كيهودي يرفض أفكار الصهيونية وإقامة دولة إسرائيل، ولكن مع ذلك يجب أن نقاطع كل التوجهات لتظهر كل الحقائق واضحة..

ميشيل: تمامًا.. إذًا سنوزع المهام خطوة خطوة، وأرى أن تكون مهمة تلخيص محاور الأساطير الخاصة بكتاب "غارودي" على عاتق "أحمد".

يهز " أحمد" رأسه موافقًا

ماريا: جيد.. الكلمة الثانية ماهي؟

ميشيل: بحث الأب "باولو" والمغلف..

أحمد: للأسف المغلف اختفى مع الجريمة..

ماريا: حسنا دعونا نتابع مناقشة الكلمات الباقية حتى يستجد شيء جديد بخصوص ذلك المغلف المفقود.

ميشيل: نعم، الكلمة التالية هي المسجد الأقصى والهيكل..

أحمد: هناك تقاطع مع الرسالة الشفهية التي طلب مني الأب "باولو" إيصالها إلى المسيو "عازر" حيث تتقاطع مع جملة " اتبع أثر المنبر وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز".

ماريا : نعم هناك تقاطع مهم يجمع الكلمات التالية :

أثر المنبر.. وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى.. والهيكل..

ميشيل: نعم، وكل ماورد موجود ويجتمع في مدينة واحدة..

ماريا وأحمد: تقصد مدينة القدس؟

يجيب ميشيل: تمامًا بالضبط.. هذا ما أقصده.

وينظر "ميشيل" نحو "ماريا" التي بادلته بنفس تلك النظرة ثم تنهض وهي تقول:

إذًا لابد هنا من بحث ميداني..

يسأل "أحمد": ماذا تقصدين بالبحث الميداني؟؟

تجيب "ماريا": أقصد أنه من الضروري أن نقوم برحلة عمل ميدانية إلى مدينة القدس..

ينظر "أحمد" نحو "ماريا" وقد تفاجأ مما يسمعه.. القدس!!

ويتابع "ميشيل" قائلًا: نعم.. فلا بد من ذلك رغم أن في ذلك عناء كبير.

ماريا: وقد نجد إجابات شافية تستحق كل هذا العناء.

ميشيل: نعم أوافقك الرأي وسنقوم بهذه المهمة معًا كون "أحمد" لا يستطيع مغادرة البلاد ولديه مهام بحث أخرى..

أحمد: نعم..

تقول ماريا: حسنًا فكرة جيدة.. لنتابع الآن باقي الكلمات "ميشيل".

ميشيل: سفر "التكوين".. "إيلوهيم راؤول"..

أحمد: إن هذه الكلمات تتقاطع مع كلمات رسالة الأب "باولو" الشفهية للمسيو "عازر" عندما قال فيها "الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد.. وليس إيلوهيم راؤول"..

ماريا: تمامًا، هناك تقاطع واضح..

ميشيل: نعم.. وستكون هذه المهمة ضمن البحث الذي سيقوم به "أحمد"..

أحمد: موافق.

ماريا: حسنًا ماذا بقي من الكلمات؟؟

ميشيل: بقي التالي:

موعد حجز المؤتمر، كتب العلوم الضائعة، موعد أحمد عيسى..

أحمد: وماذا عن كلمات "كتب العلم الضائعة "؟

ميشيل: نعم.. في الحقيقة لم أفهم ما تعنيه تلك الكلمات.. ويتابع متسائلًا: هل لاحظ أحد منكما كلمة في رسالة الأب "باولو" ترتبط بتلك العبارة؟؟

تجيب "ماريا": أنا من مراجعتي لم أجد أي رابط حاليًا..

أحمد: وأنا كذلك.. لكن هل انتهت الكلمات؟؟

يقول "ميشيل": نعم هذا كل ما ورد من كلمات في دفتر ملاحظات المسيو "عازر".

تعقب "ماريا" وتقول: لكن كذلك أرى أنه قد بقي لدينا آخر شطر من رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر" لم نجد شيئًا من كلمات المسيو "عازر" قد يتقاطع معها والتي قال فيها:

"وبشأن القصيدة المنسوبة لابن يوسف الموصلي المسعودي لا أصل لها ولا نسبة لصاحبها بل نظمت حديثًا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم.."

أحمد: تمامًا "ماريا".. أنا شخصيًا لم أسمع من قبل بهذه القصيدة؟؟

يقول "ميشيل": أرى إذًا قبل كل شيء أن يتولى "أحمد" مهمة البحث عن كل ما يتعلق بهذه القصيدة وصاحبها عبر شبكة الإنترنت إن كان يوجد لها أية تفاصيل، فهو الأقدر على ذلك، كونه عربي ويتحدث العربية لغة هذه القصيدة، والظاهر منها فقط اسم شاعرها..

ماريا: أوافقك الرأي أيضًا، لكن هناك تتمة لتلك الجملة الأخيرة فيها معانٍ غريبة عبر عنها الأب "باولو" في رسالته للمسيو "عازر" في الشطر الأخير حين قال واصفًا تلك القصيدة:

"لا أصل لها ولا نسبة لصاحبها، بل نظمت حديثًا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم"

ميشيل: نعم "ماريا".. إذًا فيما يخص مراجعة أصل القصيدة وصاحبها سيكون ذلك ضمن عمل "أحمد" ولكن هناك ملاحظة هامة فعلًا بقول الأب "باولو" "أنها نظمت بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم "

أحمد: وهذا كله يتوقف على نتيجة مهمة زيارة القدس وباقي المهام التي على عاتقي.

ماريا: تمامًا.. إذًا اتفقنا.. لنراجع الأدوار من جديد..

ميشيل: البحث حول ترابط معاني "أثر المنبر وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز و الهيكل "

ستكون على عاتقي أنا و"ماريا"، وسنقوم بزيارة لمدينة القدس وإجراء بحث ميداني..

أما "أحمد" سيكون على عاتقه القيام بالبحث حول الرابط ومعاني الأساطير التي أوردها "روجيه غارودي" في كتابه ومقاطعتها مع ما لدينا من كلمات تخص قضية مقتل المسيو "عازر"..

بالإضافة إلى البحث حول الرابط بين معاني "الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد.. وليس إيلوهيم راؤول"

وكذلك البحث عن أصل ومعنى قصيدة "ابن الموصلي المسعودي" وصاحبها عبر شبكة الإنترنت..

وفيما يخص موعد المؤتمر ومكان انعقاده سأنقل معلومة مكان المؤتمر للمحقق "برنار" ولتتولى الشرطة هذه النقطة.

ماريا: وتبقى آخر نقطة هي جملة الأب "باولو" الأخيرة في رسالته للمسيو "عازر": "بل نظمت القصيدة حديثا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم".. سنتركها لحين ننهي بحثنا عن كل ماسبق لنقاطع ما نتوصل عليه مع هذه الجملة وتحقيقات الشرطة..

ميشيل: تمامًا، متفقون إذًا.

يجيب "أحمد" و"ماريا" : نعم.. متفقون.

وينظر "ميشيل" نحو "ماريا" قائلًا: حسنًا إذًا "ماريا" لنقم بالاستعداد للقيام برحلة سريعة إلى مدينة القدس، وسأتولى موضوع حجز تذاكر السفر جوًا غدًا في أول رحلة نحو القدس..

ويتوجه "ميشيل" نحو "أحمد" و هو يتابع قائلًا: و"أحمد" سيقيم هنا في منزلي ويقوم بالبحث بين الكتب الموجودة في هذه المكتبة وكذلك عبر شبكة الإنترنت، وسنقوم بالتواصل بشكل دائم لتحديث كل ما نتوصل إليه وكذلك منزلي سيكون مكانًا آمنا لأحمد ريثما نستطيع كشف الحقيقة وإظهار براءته من جريمة قتل المسيو "عازر موسان "..

وستقوم "فيرونيكا" مدبرة المنزل بتأمين كل احتياجاتك في هذه الأثناء وسأعلمها بأنني قد كلفتك للقيام ببحث حول موضوع يخص أحد المواضيع العلمية في الجامعة..

ماريا: اتفقنا إذًا.. وليكن الله في عوننا.

يقول "أحمد": نعم.. اتفقنا وليكن الله في عوننا.. وحقيقة لا أعرف كيف أشكر وقوفكما إلى جانبي في هذه المحنة..

يرد "ميشيل": لا تقل هذا، فأنت أصحبت صديقي أيضًا..

هيا لنقم بالاستعدادات اللازمة فلا وقت لدينا كي نضيعه

ماريا وأحمد: نعم.. معك كل الحق.

الفصل الخامس عشر

في اليوم التالي وبعد أن تم توزيع المهام بين الأصدقاء الثلاثة في مهمة البحث عن دليل براءة "أحمد" من جريمة مقتل المسيو "عازر"، وذلك عبر تتبع معاني كلمات رسالة الأب "باولو" والكلمات التذكيرية الموجودة في دفتر المسيو "عازر" وما ينتج من روابط تقاطعهما..

تقلع "ماريا" برفقة "ميشيل" على طائرة الخطوط الفرنسية ليلًا والمتجهة برحلة مباشرة من مطار "شارل ديغول" في باريس إلى مطار "بن غوريون" في تل أبيب أو مطار "اللد" حسب التسمية الفلسطينية برحلة ليلية تستغرق قرابة خمس ساعات جوًا..

وفي الطائرة تجلس "ماريا" بجانب "ميشيل" الذي يقرأ إحدى الصحف فتلتفت "ماريا" إليه منادية: ميشيل..

يرد "ميشيل": نعم ماريا..

ماريا: هل تعرف أنك صديق رائع..

ينظر "ميشيل" نحو "ماريا" مبتسمًا ويقول: أعرف.. ثم يتابع ضاحكًا.. لكن هل ذلك لأني أصبحت متيقن بصدق براءة "أحمد" وجئت معك في رحلة لا نعرف مداها لنبحث عن حقيقة قد لا ندركها؟

ماريا: نعم، وكذلك أيضًا لأشياء كثيرة لمستها منك طوال فترة صداقتنا التي لم تنقطع أبدًا..

ميشيل: شكرًا "ماريا"، وأنت أيضًا صديقة غالية وأحترم حبك لعملك وفضولك الصحفي وإصرارك على النجاح في عملك لإظهار شكل الحقيقة كما هي لكل الناس..

ولو نظرتي "ماريا" إلى كل ركاب هذه الطائرة مثلًا.. ستلاحظين أن لكل إنسان هنا دور خاص به، ورسالة في هذه الحياة يجب أن يقوم بها..

وكذلك أنت، وأنا.. فمثلًا عندما سمعت عن ما قدمه الأب "باولو" من جهد وتعب وتضحيات لأكثر من ثلاثين عامًا سعى فيها لخدمة الإنسان أينما كان ومهما كان دون تفرقة بين أحد وآخر بسبب انتمائه الديني أو العرقي، وعمل لتحقيق السلام بكل جهده والذي قد يكون ذلك قد كلفه حياته الآن..

وعندما شاهدت "أحمد" ذلك الشاب اللطيف المثقف الذي كان يحكي بفخر للسائحين في بلاده عن عمق الحضارة الإنسانية في تلك الأرض التي هي مهد المسيحية الأول ويشرح عن أهمية تلك الكنائس والأديرة قبل المساجد والآثار الإسلامية كونه متخصص في ذلك..

وبالإضافة لما جرى معه من صدمات غيرت شكل ومسار حياته ليفقد كل شيء من عائلة وعمل ومنزل ويصبح لاجئًا عبر طرق الموت وبأكثر من اتجاه حتى يوصل أمانة ائتمنه عليها رجل من دين آخر.. باحثًا عن مكان ينشد فيه الأمان، ليجد نفسه فجأة وبين ليلة وضحاها متهمًا بجريمة تشير كل الدلائل إلى أنه بريء منها.. لكنه مع ذلك لم يفقد الأمل..

وعندما يتقاطع فضولي العلمي في البحث عن حقائق وتاريخ ومعنى كل حرف ولوحة وكتاب، مع فضولك الصحفي المهني في البحث والتوصل للحقيقة، وعندما يتقاطع كل ذلك مع وجداننا الإنساني.. كيف تريدين مني ألا أقف هذا الموقف وأعمل معكم في رحلة البحث عن الحقيقة مهما كانت النتائج؟

ترد "ماريا": ألم أقل أنك صديق رائع..

"ميشيل" ضاحكًا: أولم أقل لك أني أعرف ذلك..

ويتابع قائلًا: ما رأيك الآن أن نرتاح قليلًا ونسترخي قبل أن نصل إلى وجهتنا، لأننا نريد من طاقتنا أن تكون جاهزة للعمل..

ماريا: نعم.. صدقت.

ويسترخى الصديقان على مقعدهما في الطائرة في محاولة شحن طاقتهما للتركيز في المهمة المجهولة النتائج التي ينطلقون بها نحو القدس..

بعد بضع ساعات ومع بزوغ شمس يوم جديد تنظر "ماريا" بعينين شبه مغمضتين نحو نافذة الطائرة التي اخترقتها أشعة الشمس من بين كتل الغيوم التي تظهر من النافذة، تحاول "ماريا" أن تفتح عينيها لتصحو وهي تنظر عبر النافذة وقد بدأت ملامح المكان الذي يقصدونه تظهر من أعالي السماء..

بينما ينطلق صوت كابتن الطائرة ليعلم المسافرين على متن تلك الطائرة عن بدء مرحلة الهبوط التدريجي نحو وجهة الرحلة متمنيًا لهم يومًا سعيدًا مع طقس هذا اليوم الجميل..

وينتبه "ميشيل" وينظر إلى النافذة فاتحًا عينيه ليسمع صوت زميلته في الرحلة "ماريا" وهي تناديه وتقول:

ميشيل.. انظر!! هاهي ملامح مدينة القدس تظهر من بعيد مع لمعان تلك القبة الذهبية لمسجد قبة الصخرة من تلك البقعة من العالم التي تقدسها كل الأديان السماوية..

ينظر "ميشيل" عبر النافذة وهو يقول: نعم.. إنها القدس..

*مدينة القُدْس (وبالعبرية: יְרוּשָׁלַיִם يِروشالَيم) أكبر مدن فلسطين التاريخية مساحةً وسكاناً وأكثرها أهمية دينية واقتصادية، والتي تسميها إسرائيل رسميًا أورشليم..

تتابع "ماريا" وهي تقول: أتعلم "ميشيل " كنت أتمنى منذ زمن أن أقوم بزيارة هذه المدينة وأُجري تحقيقًا صحفيًا عن تاريخها وعن وجود مقدسات مهمة للأديان السماوية في بقعة واحدة، حيث يتصارع التاريخ والحجر كما البشر في هذه المدينة التي مازالت تبحث عن السلام..

يرد "ميشيل" مبتسمًا: نعم، وها قد تحققت أمنيتك..

تهبط الطائرة في مطار "بن غوريون" (اللد) مع بداية فجر يوم مشمس وينهي الصديقان إجراءات الاستقبال ويخرجان من بوابة المطار الرئيسية..

ثم يشير "ميشيل" إلى أحد سيارات الأجرة المتوفقة أمام بوابات المطار وينظر إلى السائق الذي يبدو من ملامحه أنه في آخر العقد السادس من العمر أسمر البشرة ذو ملامح عربية ويقول له:

صباح الخير.. هل توصلنا إلى القدس؟

يجيب السائق وهو ينظر للصديقَين: صباح الخير.. تفضلا..

يستقل "ميشيل" و"ماريا" سيارة الأجرة مع حقائبهما وتتوجه "ماريا" نحو السائق قائلة: لو سمحت نريد أن توصلنا لأقرب فندق من المسجد الأقصى..

ينظر السائق عبر مرآة السيارة مبتسمًا ويقول بلجهة فلسطينية محلية:

(يا عمي المسجد الأقصى أم كنيسة القيامة أم الجدار.. كله فايت ببعض ما تاكليش هم رح أوصلكما)..

تنظر "ماريا" نحو "ميشيل" وهي تبتسم وتشرح له ما قاله السائق كونها قد تعلمت القليل من اللغة العربية وتنوع لهجاتها منذ أن بدأت تزور هذه المنطقة المثيرة من العالم منذ أكثر من عشر سنوات ..

وتسأل السائق قائلة : هل أنت من القدس؟!

يجيب السائق: نعم معك "أبو حمزة "مقدسي من عرب الـ ٤٨.. أو عرب الداخل أو فلسطينيو الداخل كما يطلقون علينا.. نحن الفلسطينيون الذين يعيشون داخل حدود إسرائيل في حدود ما يسمى الخط الأخضر، أي خط هدنة ١٩٤٨م، عند اليهود في إسرائيل يسمونا "عرب إسرائيل" أو "الوسط العربي".

ويتابع قائلًا: نعم نحن العرب الذين بقوا في قراهم وبلداتهم بعد أن سيطرت إسرائيل على الأقاليم التي عشنا فيها وأجدادنا وبعد إنشاء دولة إسرائيل بالحدود التي ترونها اليوم.

ويضغط على زر المذياع على أغنية لفيروز المغنية العربية الشهيرة ويتابع: استمعي لهذه الأغنية كونك تعرفين قليلًا عربي، إنها أغنية لفيروز عن القدس زهرة المدائن..

وينطلق صوت "فيروز" من مذياع السيارة وهي تشدو.. "لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي.. يا قدس.. يا قدس.. يا مدينة الصلاة"

ويقاطع السائق أغنية "فيروز" وهو يقول بلهجته: (بنت حلال "فيروز" (هاي) مدينة القدس تبدو أمامنا في آخر هذا الطريق).

ينظر "ميشيل" و"ماريا" نحو الطريق لتبدأ ملامح مدينة القدس التي تبعد عن "تل أبيب" ٥٤ كم تقريبًا وبزمن تقريبي ٥٠ دقيقة..

ماريا: نعم ها نحن في القدس..

وينظر "ميشيل" نحو النافذة متأملًا باهتمام: نعم.. إنها القدس..

وعلى أنغام وصوت "فيروز" تدخل سيارة السائق "أبو حمزة" التي تقل "ميشيل" و"ماريا" إلى مدينة القدس..

و"ميشيل" و"ماريا" يمعنان النظر بلهفة كبيرة نحو مباني وطرق هذه المدينة حيث تُعتبر القدس مدينة مقدسة عند أتباع الديانات السماوية الثلاث: اليهودية، المسيحية، والإسلام.

فبالنسبة لليهود، أصبحت المدينة أقدس المواقع بعد أن فتحها النبي والملك "داود" وجعل منها عاصمة مملكة إسرائيل الموحدة حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م، ثم أقدم ابنه "سليمان" على بناء أول هيكل فيها كما تنص التوراة.

وعند المسيحيين أصبحت هذه المدينة موقعًا مقدسًا بعد أن صُلب يسوع المسيح على إحدى تلالها المسماة "جلجثة" حوالي سنة ٣٠ للميلاد وفقًا للمعتقد المسيحي، وبعد أن عثرت القديسة "هيلانة" على الصليب الذي عُلّق عليه بداخل المدينة بعد حوالي ٣٠٠ سنة، وفقًا لما جاء في العهد الجديد.

أما عند المسلمين فالقدس هي ثالث أقدس المدن بعد مكة والمدينة المنورة، وهي أولى القبلتين، حيث كان المسلمون يتوجهون إليها في صلاتهم بعد أن فُرضت عليهم حوالي سنة ٦١٠ للميلاد، وهي أيضًا تمثل الموقع الذي عرج منه نبي الإسلام محمد بن عبد الله إلى السماء وفقًا للمعتقد الإسلامي.

وكنتيجة لهذه الأهمية الدينية العظمى، تأوي المدينة القديمة عددًا من المعالم الدينية ذات الأهمية الكبرى، مثل: كنيسة القيامة، حائط البراق والمسجد الأقصى – المكون من عدة معالم مقدسة أهمها مسجد قبة الصخرة والمسجد القبلي.

وخلال تاريخ القدس الطويل، تعرضت القدس للتدمير مرتين، وحوصرت ٢٣ مرة، وهوجمت ٥٢ مرة، وتمّ غزوها وفقدانها مجددًا ٤٤ مرة.

يقاطع السائق "أبو حمزة" تأمل "ماريا" و"ميشيل" لشوارع القدس ويقول بلهجته المحلية:

(وهاي إحنا) دخلنا القدس، وأوّل اسم ثابت لمدينة القدس هو "أورسالم" اللي ظهر في رسائل تل العمارنة المصرية، ويعني أسس سالم؛ وسالم أو شالم هو اسم الإله الكنعاني حامي المدينة، وقد قالوا عنها مدينة السلام.

ويتابع قائلًا: (بعدين).. ووفقًا لسفر الملوك الثاني، أخذت اسم "يبوس" نسبة إلى اليبوسيين المتفرعين من الكنعانيين، وقد بنوا قلعتها واللي تعني بالكنعانية مرتفع، وبمصادر تاريخية عن الملك اليبوسي "ملكي صادق" أنه هو أول من بنى يبوس أو القدس، وكان محبًا للسلام، حتى أُطلق عليه "ملك السلام"، ومن هنا جاء اسم المدينة وأنه هو من أسماها بأورسالم أي "مدينة سالم".

تنظر "ماريا" نحو "ميشيل" وتخاطب السائق "أبو حمزة" وتقول: هذه معلومات شيقة فعلًا عن القدس.

ميشيل: نعم صحيح، وقد ظهر الاسم "أورشليم" أوّل ما ظهر في الكتاب المقدس، وفي سفر "يشوع" تحديدًا، ويقول الخبراء اللغويون أنه عبارة عن نحت، أي دمج، لكلمتيّ "أور" التي تعني "موقع مخصص لعبادة الله وخدمته"، والجذر اللغوي س ل م، الذي يعني على ما يُعتقد "سلام"، أو يشير إلى إله كنعاني قديم اسمه "شاليم"، وهو إله الغسق.

وأطلق العبرانيون على أقدم الأقسام المأهولة من المدينة اسميّ "مدينة داود" و"صهيون"، وقد أصبحت هذه الأسماء ألقاب ونعوت للمدينة ككل فيما بعد بحسب التقليد اليهودي.

وفي بعض الرسائل الإسلامية باللغة العربية من القرون الوسطى، وخصوصًا في العهدة العمرية، تذكر المدينة باسم "إلياء" أو "إيليا" وهو على ما يبدو اختصارًا لاسمها اللاتيني.

وقد ذُكرت المدينة في فترة لاحقة من القرون الوسطى باسم "بيت المقدس"، وهو مأخوذ من الآرامية (**בית מקדשא**) بمعنى "الكنيس" ولا يزال هذا الاسم يُستخدم في بعض اللغات مثل اللغة الأردية، وهو مصدر لقب "مقدسي" الذي يطلق على سكان المدينة .

يقاطع السائق "أبو حمزة " حديث ميشيل عن المدينة قائلًا: واسم القدس الشائع اليوم في العربية وخاصة لدى المسلمين هو اختصار لاسم "بيت المقدس" أو لعبارة "مدينة القدس" وكثيرًا ما يُقال "القدس الشريف" لتأكيد قدسية المدينة، أما السلطات الإسرائيلية فتشير في إعلاناتها إلى المدينة باسم "أورشليم القدس".

ويتابع ضاحكًا: (وكل فريق بيشد الحبل لطرفه)..

ثم يشير نحو الأمام وهو يقول: "وها" قد وصلنا للفندق وهذا أقرب فندق للمسجد الأقصى في القدس، وعلى بعد ٢٠٠م من الحائط الغربي، وعلى بعد ٥ دقائق سيرًا على الأقدام من قبة الصخرة، وعلى بعد ٨٠٠ م من كنيسة جميع الأمم.

ينظر "ميشيل" للسائق أبو حمزة وهو يترجل من السيارة قائلًا: ممتاز.. هل من الممكن أن تعطينا رقم هاتفك لنتصل بك عندما نحتاجك؟

يجيب "أبو حمزة": طبعًا، وهذا رقمي على البطاقة..

ماريا : شكرًا "أبو حمزة"، نراك قريبًا..

يرد "أبوحمزة" مبتسمًا: نعم .. الله معكم.

يتوجه "ميشيل" و"ماريا" نحو ذلك الفندق ويضعان أمتعتهما في الغرف التي سيقيمون بها ويشربان معًا قهوة الصباح مع وجبة فطور خفيفة ثم يتجهزان للبدء في المهمة .

الفصل السادس عشر

تقف "ماريا" و"ميشيل" في بهو الفندق وهما ينظران عبر النافذة الكبيرة المطلة على الشارع القريب وعلى الأزقة القديمة من حولهما..

تتابع "ماريا" النظر نحو تلك الأزقة وتقول: ها نحن إذًا في مدينة القدس، حيث يبدأ صباحنا الجميل اليوم في هذه المدينة التاريخية الجميلة.. ثم تلتفت نحو "ميشيل" متسائلة: لكن من أين سنبدأ مهمتنا "ميشيل"؟؟

يجيب "ميشيل": نعم.. فلنبدأ إذًا بإنجاز المهمة التي جئنا من أجلها..

بدايةً علينا أن نتوجه نحو المسجد الأقصى لنتقصى عن كل ماورد ضمن كلمات رسالة الأب "باولو" وخاصة موضوع حراس الأقصى، وأن نبحث عن أي ترابط ممكن بين معاني كلمات تلك الرسالة والكلمات التي وجدناها في دفتر ملاحظات المسيو "عازر موسان"..

ويبدأ "ميشيل" بترديد كلمات رسالة الأب "باولو" وهو ينظر من نافذة الفندق:

"اتبع أثر المنبر وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز"..

ماريا: إذًا هيا فلننطلق نحو المسجد الأقصى..

ثم تتابع وهي تشير إلى مجموعة من الكتيبات التي تحملها وتقول: لقد أحضرت معي هنا بعضًا من الخرائط عن مدينة القدس وكتيبات تحتوي معلومات تاريخية عن المدينة.. سنقرؤها ونحن في الطريق نحو الأقصى فربما تفيدنا في شيء أو معلومة ما..

يهز "ميشيل" رأسه موافقًا ويقول: إذًا هيا بنا..

ينطلق "ميشيل" و"ماريا" سيرًا على الأقدام في الطريق المؤدية إلى المسجد الأقصى ليجدا أمامهما وعلى بعد ٢٠٠ متر –كما أخبرهما السائق "أبو حمزة"– حائط "البراق" أو حائط المبكى أو الحائط الغربي أو في التسمية اليهودية العبرية (**הכותל המערבי**).. وهو الحائط الذي يحد الحرم القدسي من الجهة الغربية، وهذا الحائط يشكل قسمًا من الحائط الغربي للحرم المحيط بالمسجد الأقصى، ويصل طوله نحو ٥٠م و ارتفاع لا يقل عن ٢٠م.

يقفان أمام ذلك الحائط لتبدأ "ماريا" بقراءة أحد الكتيبات التي تحملها وهي تقول: اسمع "ميشيل" لما يقوله هذا الكتيب وفقًا لما وُجد في بعض المخطوطات العبرانية التي تتحدث عن أن النبي "داود" دام حكمه لمملكة إسرائيل ٤٠ عامًا، وبعد وفاته خلفه ولده "سليمان" الذي حكم طيلة ٣٣ عامًا، وفي عهده تمّ تشييد هيكل المدينة على جبل "موريا"، بالإضافة إلى هيكل "سليمان" الشهير، الذي يلعب دورًا مهمًا عند اليهود، كونه يمثل المستودع الذي حُفظ فيه تابوت العهد وفقًا للمعتقد اليهودي، وأصبحت القدس تُسمى بالمدينة المقدسة، وقد شكّلت حينها عاصمة لمملكة إسرائيل الموحدة، وبعد وفاة "سليمان" انقسمت المملكة إلى قسمين شمالي وجنوبي وذلك بعد تمرد الأسباط العبرية الشمالية بسبط "يهوذا" الجنوبي الذي كان آل "داود" ينتمون إليه.

سُمي القسم الجنوبي بمملكة "يهوذا" في الجنوب، وأصبحت القدس عاصمة لها تحت قيادة "رحبعام بن سليمان"، وفي سنة ٥٨٧ ق.م، احتل الملك البابلي "نبوخذ نصّر الثاني" مدينة القدس بعد أن هزم آخر ملوك اليهود "صدقيا بن يوشيا"، ونقل من بقي فيها من اليهود أسرى إلى بابل بمن فيهم الملك "صدقيا" نفسه، وعاث في المدينة دمارًا وخرابًا وأقدم على تدمير هيكل سليمان، مما أنهى الفترة التي يُطلق عليها المؤرخون تسمية "عهد الهيكل الأول".

يمسك "ميشيل" بذلك الكتيب وينظر في صور تلك المخطوطات، ثم يتابع القراءة قائلًا: نعم "ماريا".. وبعد ٥٠ سنة من السبي إلى بابل، سمح الملك الفارسي "قورش" الكبير لمن أراد من أسرى اليهود في بابل بالعودة إلى القدس وإعادة بناء الهيكل المهدم، فعاد عدد من اليهود إلى القدس وشرعوا ببناء الهيكل الثاني في عهد الملك الفارسي"دارا" الأول، وعُرف فيما بعد بمعبد "حيرود" تيمنًا بملك اليهود "حيرود" الكبير الذي قام بتوسيعه.. بعد ذلك فقدت الإمبراطورية الفارسية فلسطين بما فيها القدس لصالح القائد والملك المقدوني، الإسكندر الأكبر عام ٣٣٣ ق.م، وبعد وفاته استمر خلفاؤه المقدونيون البطالمة في حكم المدينة، واستولى عليها في العام نفسه "بطليموس" الأول وضمها مع فلسطين إلى مملكته في مصر ثم خسر "بطليموس" الخامس القدس ومملكة "يهوذا" لصالح السلوقيين في سوريا بقيادة "أنطيوخوس" الثالث الكبير.

وقد حاول الإغريق أن يطبعوا المدينة بطابعهم الخاص ويجعلوا منها مدينة هيلينية تقليدية، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل عندما قام "المكابيين" بثورة على الحاكم "أنطيوخوس" الرابع ونجحوا بتأسيس المملكة "الحشمونائيمية" وعاصمتها القدس سنة ١٥٢ ق.م.

إلى أن استولى قائد الجيش الروماني "پومپيوس الكبير" على القدس في عام ٦٣ ق.م بعد أن استغل صراعًا على سدّة المُلك بين الملوك "الحشمونائيمية"، وبهذا ضُمت القدس إلى الجمهورية الرومانية.

يتابع "ميشيل" و"ماريا" الإطلاع على بعض الكتيبات وهما يقفان أمام حائط المبكى وينظران إلى جمع من اليهود وهم يقيمون الصلاة أمام ذلك الجدار ويمارسون الطقوس التي كان اليهود يؤدونها قبالة الحائط حدادًا على خراب هيكل "سليمان"..

حيث يعتبر اليهود هذا الجدار الأثر الأخير الباقي من هيكل "سليمان".. وفي رأي أغلبية الحاخامين اليهود يكون الدخول إلى الحرم القدسي محظورًا على اليهود منذ خراب الهيكل، فذلك الحائط هو أقرب نقطة من مكان الهيكل التي يمكن لليهود الصلاة فيها حسب الشريعة اليهودية العصرية.

تقترب "ماريا" من ذلك الحائط وهي تشير إليه وتقرأ عنه من كتيب المعلومات التي تحمله بيدها قائلة:

كما يرد هنا أن هذا الجدار أيضًا له أهمية بالنسبة للمسلمين ويسمونه حائط "البراق" حيث يرتبط حائط "البراق" هذا بقصة الإسراء والمعراج في التاريخ الإسلامي، ومنها جاءت تسمية الحائط حائط "البراق" نسبة للدابة التي ركبها النبي محمد عند إسرائه ليلًا من مكة إلى المسجد الأقصى، حيث ربط "البراق" في حلقة على هذا الحائط، ودخل إلى المسجد، حيث صلى بالأنبياء ثم عُرج به إلى السماوات العلا..

ميشيل: نعم.. وبما أننا الأن في موقع الحدث فقد عرفنا من المشاهدة الأولى ومما قرأناه الأن تفصيلًا مهما عن الهيكل وهي إحدى الكلمات الواردة في موضوع بحثنا الذي قدمنا من أجله وهذا الجدار الذي نقف أمامه كما يعتقد اليهود، هو الأثر الأخير الباقي من هيكل "سليمان" وفق معتقدهم..

ماريا: تمامًا، كذلك فإن هذا الجدار في ذات الوقت هو أحد جدران المسجد الأقصى الذي يمثل أولى القبلتين وثالث أقدس المساجد عند المسلمين بعد المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي في المدينة..

يتابع "ميشيل" وهو يضع يده على الجدار قائلًا: إذًا هذا الجدار من هذه الجهة حيث نقف هو بقايا الهيكل وفق المعتقد اليهودي، ومن الجهة الأخرى هو الجدار الغربي للمسجد الأقصى.. إنه ترابط واضح ومدهش في آن واحد.. ثم ينظر إلى "ماريا "وهو يقول: هيا بنا فلا بد من أن ندخل

حرم المسجد الأقصى ونتابع بحثنا، ولنرى وجه هذا الجدار من الجهة الأخرى..

تهز "ماريا" رأسها موافقة وهي تتأمل في ذلك المكان المهيب والطاقة الغريبة التي يشعرها كل من يزوره بخشوع وانبهار، فلكل حجر هنا قصة تتماشى مع تاريخ البشرية..

يدخل "ميشيل" و"ماريا" حرم المسجد الأقصى وينظران من حولهما ليبهرهما ذلك المكان ومساحته الواسعة، وبينما يقومان بالتجول في حرم المسجد الأقصى يمران من أمام مجموعة من السائحين تقف وهي تستمع لأحد المرشدين السياحيين المرافقين لها، فيقترب "ميشيل" و"ماريا" من تلك المجموعة ليستمعا إلى ما يقوله ذلك الدليل السياحي عن قرب والذي يتحدث للمجموعة السياحية قائلًا:

لا يُعرف أيها السادة بشكل دقيق متى بُني المسجد الأقصى لأول مرة، ولكن ورد في أحاديث النبي محمد (ص) بأن بناءه كان بعد بناء الكعبة بأربعين عامًا، فعن الصحابي أبي ذر الغفاري أنه قال: «قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أولًا؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة»..

وقد اختلف المؤرخون في مسألة الباني الأول للمسجد الأقصى على عدة أقوال ووفق كل معتقد: فبعضهم قال أنهم الملائكة، أو النبي "آدم" أبو البشر، أو ابنه "شيث"، أو "سام بن نوح"، أو النبي "إبراهيم"، ويرجع الاختلاف في ذلك إلى الاختلاف في الباني الأول للكعبة ويُرجّح أن يكون البناء الأول للمسجد الأقصى قد اقتصر على وضع حدوده وتحديد مساحته التي تتراوح ما بين ١٤٢ و١٤٤ دونما.

ويتابع الدليل السياحي حديثه قائلًا: وللمسجد الأقصى أيها السادة عدة أسماء، أهمّها ثلاثة: الأول وهو المسجد الأقصى.. وكلمة "الأقصى" تعني

الأبعد، وسُمِّيَ الأقصَى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظَّم بالزيارة، والذي سمّاه بهذا الاسم وفقًا للعقيدة الإسلامية هو الله في القرآن، وذلك في سورة الإسراء التي تقول "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"..

والاسم الثاني هو "البيت المُقَدَّس": وكلمة "المقدّس" تعني المبارك والمطهّر، وقد ذكر علماءُ المسلمين وشعراؤهم هذا الاسم كثيرًا، كما قال ابن حجر العسقلاني:

إلى البيت المقدّس قد أتينا حِنان الخُلد نُزُلاً من كريم

أما الاسم الثالث فهو "بيت المَقْدِس": وهو الاسم الذي كان متعارفًا عليه قبل أن يُطلق عليه اسم "المسجد الأقصى" في القرآن الكريم، وهذا الاسم هو المستَخدَم في معظم أحاديث النبي محمد (ص)، مثل ما قاله يوم الإسراء والمعراج: "ثم دخلت أنا وجبريل عليه السلام بيت المقدس فصلى كل واحد منا ركعتين"..

تهمس "ماريا" لميشيل قائلة: إنها معلومات مثيرة حقًا..

يجيب "ميشيل": نعم.. لذلك دعينا نبدأ في البحث إذًا حول ترابط معاني كلمات "اتبع أثر المنبر وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز".. ولنرى ماذا يمكن أن نعرفه حول معاني تلك الكلمات..

ماريا: حسنًا.. لكن كيف نبدأ ذلك؟؟

يجيب ميشيل: دعينا نسأل أحد من المتواجدين هنا..

ترد ماريا: حسنًا.. وتتجه فجأة نحو أحد الأشخاص المتواجدين في باحة المسجد الأقصى قائلة: صباح الخير سيدي، هل تعرف أين أجد حراس المسجد العثمانيين؟؟

ينظر الرجل متفاجئًا من سؤال "ماريا" ثم يتابع سيره وهو يضحك..

تنظر "ماريا" مستغربة من تصرف ذلك الرجل وتنتقل نحو رجلٍ آخر تواجد في المكان و"ميشيل" ينظر إليها مبتسمًا وهي تسأل الرجل الذي أمامها نفس السؤال الذي يجعله يقهقه من الضحك ويتابع سيره وهو يضرب كف بكف..

تنظر "ماريا" إلى "ميشيل" وهي تقول متعجبة: لماذا يضحكون؟؟ ما هو المضحك في السؤال؟!

ينتبه أحد الرجال، والذي كان يقف قريبًا من "ماريا" و"ميشيل" وهو يتحدث مع بعض الأشخاص إلى موجة الضحك التي أثارها سؤال "ماريا" عن الحراس العثمانيين ويقترب من خلف "ميشيل" و"ماريا" التي تعاود السؤال من جديد لأحد الأشخاص الذي لم يخفي ابتسامته أيضًا من السؤال..

ليقترب ذلك الرجل وهو يقول: لقد مات آخر الحراس العثمانيين من سنوات طويلة وأنت الأن تقفين مكانه..

يلتفت "ميشيل" و"ماريا" لمصدر الصوت خلفهما ليشاهدا أمامهما رجلًا طويلًا يضع عمامة بيضاء تلتف حول طربوش أحمر ويلبس معطفًا طويلًا فوق بدلة بنية اللون وقميص أبيض ويبدو عليه الود واللطف من نظراته وابتسامته التي يوجهها نحوهما وهو يتابع قائلًا:

السلام عليكم، أنا الشيخ "عمر" مدير المسجد الأقصى..

يرد "ميشيل" و"ماريا" التحية وتقول "ماريا": وعليك السلام، أنا "ماريا" صحفية من التلفزيون الفرنسي، وهذا صديقي البروفيسور "ميشيل" المحاضر والباحث في جامعة "السوربون"، وقد جئنا هنا بصدد إجراء تحقيق وبحث حول المسجد الأقصى والأماكن المقدسة في القدس.

يجيب الشيخ "عمر" قائلًا: أهلًا وسهلًا بكما.. تشرفنا، وعذرًا إن قاطعت سؤالكما لبعض الناس المتواجدين في حرم المسجد، لكن سؤالكما حول الحراس العثمانيين للمسجد الأقصى الآن وبعد كل هذه السنوات سيثير طبعًا بعض الابتسامة من البعض والإستغراب الشديد من البعض الآخر.

ترد ماريا: ولماذا؟؟ وماذا قصدت سيدي عن غرابة سؤالي عن الحراس العثمانيين بعد سنوات طويلة؟؟

وماذا تقصد من أنني أقف مكان آخر هؤلاء الحراس؟؟

الشيخ عمر: نعم ابنتي.. هذه قصة جميلة من تاريخ هذا المكان المقدس.. حيث الجميع يعلم أن القدس وقعت تحت الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧م بعد هزيمة الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على كامل هذه المنطقة بما فيها مدينة القدس، ولكن إثر الانهزامات المتلاحقة للجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى وفي تاريخ ٩ كانون الأول عام ١٩١٧م، كان الجيش العثماني متشتتًا، وهو في طريقه إلى الانسحاب من القدس والدولة على أبواب السقوط..

وكان من عادة الجيوش المنهزمة أو المنسحبة من المواجهات في الحروب أن تترك وحدة أو فصيلًا لتأمين الاستقرار في المنطقة لحين دخول قوات الطرف المقابل.. فبعدما انسحب الجيش العثماني من القدس ترك وراءه وحدة عسكرية لتأمين الاستقرار عند انسحابه..

وقد بقي ٥٣ جنديًا عثمانيًا رفضوا الخروج من القدس بعد أن قرروا البقاء لحماية المدينة من الفوضى، وقد كان منهم العريف "حسن الإغدرلي" – نسبة إلى مدينة إغدر التركية– مكلفًا بواجب حراسة المسجد الأقصى، ولسبب ما أو لآخر نجهله ظل واقفًا في مكانه ولم ينسحب.. ومرت الأيام والسنين وهو لا يزال ملتزمًا بواجبه.. ولكن الزمان أتى عليه بكل ثقله فصار لا يعرف حقيقته أحد، ويجهل الكثيرين هويته..

وأنتم تقفون الآن تمامًا في المكان الذي كان يقف فيه آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين فيما يسمى بالباحة الثانية للمسجد، حيث كان الناس يمرون من أمامه ولا يعرفون من هو ولماذا يقف هنا..

ويتابع الشيخ "عمر" حديثه وهو يشير نحو الأمام قائلًا: وهناك وبعدما تطأون عددًا من درجات السلم الذي أمامكما ستكونون مباشرة أمام باب المسجد الأقصى والباحة الكبيرة التي أمامه، والتي تسمى باحة الـ ١٢ ألف قنديل"..

ماريا : باحة الـ ١٢ ألف قنديل"!! ماذا يعني هذا الاسم؟؟

يجيب الشيخ عمر: نعم، فلتسمية هذه الساحة بذلك الاسم قصة ابنتي.. حيث تقول الروايات أن السلطان العثماني "ياووز سليم" حينما ضم القدس إلى سلطته يوم ٣٠ كانون الأول ١٥١٧ م كان حاضرًا في المسجد الأقصى وأدركته صلاة العشاء وسط جو معتم، فأمر أفراد جيشه بأن يوقد كل واحد منهم قنديلًا، وكان عددهم ١٢ألف جندي، فصلوا العشاء جميعًا في هذه الباحة على نور هذه القناديل..

فتمت تسمية الباحة بهذا الاسم.. باحة الـ ١٢ ألف قنديل..

ماريا: نعم، إنها قصة مؤثرة فعلًا.. وأين هو هذا الحارس العثماني سيدي؟؟

يجيب الشيخ عمر: رحمه الله، لقد توفي عام ١٩٨٢ م عن عمر يقارب الـ ٩٣ عامًا..

ويغمض الشيخ "عمر" عينيه وكأنه يسترجع في مخيلته صورة ذلك الحارس العجوز، ويتابع قائلًا: كان يقف هنا لمدة ٦٥ عامًا بمفرده.. فاردًا طوله الذي يصل حوالي متران.. وعلى بدنه الجامد ثياب غريبة.. معطف أو سترة.. كلا، بل لعله جلباب.. شيء من هذا القبيل.. ويضع على رأسه قبعة طويلة أو طربوش! أو بين هذا وذاك..

نعم لقد كان يقف هنا لا يكلم أحدًا ولا أحد يكلمه، كأنه ترابا تم حصاد محصوله للتو.. وقد أثّر الزمن على وجه بكثير من التجاعيد.. وبقايا من جلد تليد..

البعض اعتقد أنه مجنون..حيث كان هنا لسنوات طويلة واقفًا كتمثال لا يسأل أحدًا شيئًا.. ولا ينظر إلى أحد.. ولا يرى أحدًا..

يلتفت "ميشيل" نحو الشيخ "عمر" ويسأله قائلًا:

سيدي الشيخ، هذا الحارس ألم يترك أي إرث أو أثر؟؟

تعجب الشيخ "عمر" من سؤال "ميشيل" و نظر له مستغربًا وهو يقول: عذرًا!! في هذه المدينة المقدسة أهم المقدسات الروحية والتاريخية للعالم بأسره.. وألاحظ أن معظم أسئلتك والآنسة "ماريا" حول ذلك الحارس العثماني الأخير الذي لم يعرفه الكثيرون من حوله..

ويتابع قائلًا: فهل لي بسؤال لو سمحتما لي.. وأتمنى أن تجيبا عليه بصراحة لكي أستطيع أن أساعدكما..

لماذا تكررون السؤال حول ذلك الحارس؟؟

يجيب "ميشيل": معك حق سيدي، واعذر إلحاحنا في هذا السؤال لكن القصة تتعلق بحياة إنسان برىء..

ينظرالشيخ "عمر" متفاجئًا وهو يقول: حياة إنسان بريء!!

ماريا: في الحقيقة نعم.. وقد شجعتنا مكانتك في هذا المكان المقدس ولطفك الكريم على أن نعرف منك بعض المعلومات والاستفسارات التي لدينا.

الشيخ عمر: إذا كان الموضوع يتعلق بإنقاذ حياة إنسان بريء وفي عمل خير وصالح، لا أستطيع أن أبخل بمساعدتي لكما، لكن يجب بداية أن أعرف القصة كما هي..

تجيب "ماريا" و"ميشيل" : موافقون..كما تريد..

الشيخ عمر: إذًا تفضلا إلى مكتبي لنكمل حديثنا، ولنعرف كيف يمكن أن نقدم المساعدة في الموضوع الذي جئتما من أجله..

ميشيل: بكل سرور، وشكرًا سيدي للطفك وسعة صدرك..

الفصل السابع عشر

يسير "ميشيل" و"ماريا" برفقة الشيخ "عمر" متوجهين نحو مكتبه في الحرم القدسي عبر باحة الـ ١٢ ألف قنديل"..

ليدخلا إلى مبنى صغير ضمن تلك الباحة حيث يفتح الشيخ "عمر" باب أحد المكاتب وهو يقول مُرَحِّبًا بضيوفه: تفضلا رجاءً، تستطيعان أن تجلسا هنا وترتاحا قليلًا من المشي الطويل وكثرة الوقوف، ولتأخذا أنفاسكما ريثما نعد لكما بعضًا من الشاي الساخن الذي سينال إعجابكما إن شاء الله..

يبتسم "ميشيل" بوجه الشيخ "عمر" قائلًا: شكرًا للطفك سيدي..

وبعد بضعة دقائق من الاستراحة في مكتب الشيخ "عمر" يدخل أحد المستخدمين وهو يقدم أكواب من الشاي الساخن للضيوف ليبادر الشيخ "عمر" ويسأل ضيوفه:

والآن ضيوفنا الأعزاء كلي أذان صاغية لكما.. هل يمكن أن أسمع منكما القصة كاملة وعن ماذا تبحثان بالضبط ومن هو الشخص الذي تقف حياته على هذه المعلومات التي تسألون عنها؟؟

تجيب "ماريا": نعم سيدي.. القصة باختصار تدور حول "أحمد عيسى" وهو شاب من سورية.. ويبدأ كل من ميشيل وماريا بسرد القصة كاملة منذ خروج أحمد من سورية حتى وصوله فرنسا وما تخلل ذلك من أحداث..

يقاطعهما الشيخ "عمر" وهو يقول بتأثر: أتفهم عناء ذلك الشاب.. لكن ما علاقة كل ما ذكرتموه حتى الآن بقصة ذلك الحارس العثماني..

تجيب "ماريا": معك حق سيدي.. وهنا بيت القصيد فبعدما تواصل "أحمد" عبر البريد الإلكتروني مع الرجل الذي أوصى الأب "باولو" أحمد ليوصل الأمانة إليه..

التقى "أحمد عيسى" بذلك الرجل الذي يدعى بالمسيو "عازر موسان" لدقائق معدودة في محطة مترو في باريس وسلمه الأمانة وغادر..

لكن بعدها بدقائق وُجد المسيو "عازر" مقتولًا في نفس المكان.. وتم رصد لقاء "أحمد" بالمسيو "عازر" على كاميرات المراقبة الموجودة في مكان اللقاء..

وقد بدا على وجه "أحمد" بعض مظاهر الإرتباك التي زادت من الشكوك حوله في توجيه الاتهام إليه من قبل الشرطة بجريمة مقتل المسيو "عازر"..

هنا يقاطع الشيخ "عمر" حديث "ماريا" ويقول: طبعًا ولكون "أحمد" عربي مسلم أخذت الجريمة شكل جريمة عنصرية ضد حاخام يهودي..

ينظر "ميشيل"لما يقوله الشيخ "عمر" متفاجئًا ويقول: تمامًا.. لكن كيف عرفت أن المسيو "عازر موسان" هو حاخام يهودي؟!

يرد الشيخ "عمر" : لأني أعرف المسيو "عازر موسان" جيدًا فقد ولد هنا في القدس من أم يهودية دمشقية وأب يهودي فرنسي، لكنه كان قريبًا من فكر جماعات يهودية تناهض أفكار الصهيونية وترفض وجود دولة اسمها إسرائيل.. وكان مع المجموعة التي اجتمعت هنا في القدس كما أذكر في العام ١٩٨٠م، حيث كان الأب "باولو" واحدًا منهم، وكان هدفهم إنشاء نواة لتحاور جاد بين الأديان يحقق المعنى الحقيقي لرسالة الدين التي تتمحور حول الله الواحد والسلام ووقف العنف والتطرف.

ماريا: إنه لأمر رائع كل ما ذكرته سيدي.. ومن معرفتنا الأكيدة وصداقتي الطويلة مع "أحمد عيسى" وعدد من المؤشرات التي تجعلنا متأكدين من براءته جئنا إلى هنا للبحث عن دليل ما يؤكد ذلك..

يجيب الشيخ "عمر" قائلًا: نعم.. لكن جريمة وقعت في باريس والمتهم والضحية كانا موجودَين فيها.. كيف يمكن أن تجدا دليلًا ما لبراءة ذلك الشاب هنا في القدس؟؟

ميشيل: سؤالك في محله سيدي، وسنخبرك بما يرضي تساؤلك هذا..

ويتابع "ميشيل" قائلًا: فبعد أن سلم "أحمد" المغلف الورقي للمسيو "عازر" أبلغه أيضًا بالرسالة الشفهية من الأب "باولو" والتي تقول كلماتها:

"اتبع أثر المنبر.. وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز..

والإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد، وليس إيلوهيم راؤول، وبشأن القصيدة المنسوبة لإبن يوسف الموصلي المسعودي لا أصل لها ولا نسبة لصاحبها بل نظمت حديثا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم..."

ينظر الشيخ "عمر" إلى "ميشيل" مندهشًا لما يسمعه: كلام مثير للانتباه فعلًا.. نعم، أكمل لوسمحت..

يتابع "ميشيل" موجهًا حديثه للشيخ "عمر": نعم سيدي.. وبعد أن سلم "أحمد" للمسيو "عازر" المغلف الورقي ونقل له الرسالة الشفهية ودّعه وغادر مباشرة مكان اللقاء.. لتجد الشرطة بعدها جثة المسيو "عازر موسان" مقتولًا بعدة طعنات للأسف..

وبعد مراجعة متعلقاته الشخصية التي كانت معه وقت ارتكاب الجريمة تبين أنه لم يسرق منه شيء إلا ذلك المغلف الورقي الأمانة.. وكذلك تم العثور

على دفتر ملاحظاته العامة والتي وردت فيه بعض كلمات نعتقد أنها لها ما قد يربطها بمعاني الأمانة و كلمات رسالة الأب "باولو" التي نقلها "أحمد عيسى" للضحية..

الشيخ عمر : وماهي تلك الكلمات لو سمحت؟؟

يجيب "ميشيل" قائلًا: الكلمات هي (أساطير "روجيه غارودي"، بحث الأب "باولو".. المغلف.. المسجد الأقصى والهيكل.. فكر"صلاح الدين".. سفر "التكوين".. "الإيلوهيم".. موعد حجز المؤتمر.. موعد أحمد عيسى.. كتب "العلم الضائعة")..

تتابع "ماريا" الحديث قائلة: وبعد أن قاطعنا هذه الكلمات مع كلمات الرسالة الشفهية قمنا بوضع خطة عمل في البحث عن دليل براءة "أحمد عيسى".. والتي تأكدنا منها مرة أخرى الآن بعد حديثك عن لقاء الأب "باولو" مع المسيو "عازر" ومعرفتك الشخصية بهما شيخ "عمر"، وخلفية نشاطهما في السعي نحو تحقيق حوار جاد بين الأديان وإرساء سياسة السلام..

يهز الشيخ "عمر" رأسه ويقول: نعم.. الأن فهمت مغزى سؤالكما عن آخر الحراس العثمانيين للمسجد الأقصى ..

ميشيل: تمامًا شيخ "عمر"، ولذلك جئنا لمحاولة معرفة ماذا تعني كلمات الرسالة "اتبع أثر المنبر وأثر و إرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين.. مع تقاطع كلمات ومعاني المسجد الأقصى والهكيل..

يهز الشيخ "عمر" برأسه قائلًا: نعم نعم.. استوعبت الآن ما تسعون من أجله.. وسأسعى جاهدًا لتقديم المساعدة في بحثكما هذا.. وتابع قائلًا: ولكن للإجابة والبحث في ما تريدون معرفته لابد أن نقوم معًا بزيارة مباني

وباحات المسجد الأقصى ورؤيته من الداخل.. فهل تريدان أن تدخلا معي في رحاب المسجد الأقصى المبارك ونتابع الحديث في تلك الرحاب؟؟

تنهض "ماريا" بفرح: بكل سرور.. أنا شخصيًا أتوق لذلك.. وكذلك ميشيل.. لينهض "ميشيل" وهو يهز رأسه موافقًا..

الشيخ عمر: إذًا هيا بنا ..

الفصل الثامن عشر

في ذات الأثناء يجلس "أحمد" في غرفة المكتبة في منزل "ميشيل" الواقع في أحد ضواحي باريس منذ الصباح الباكر، وقد بدأ بدوره في القيام بمهمته في البحث ودراسة بعض الكلمات التي وردت في دفتر ملاحظات المسيو "عازر" والتي كانت بحاجة إلى دراسة وتحليل دقيق، وإلى أن يعمل على تقاطعها مع بعض المعلومات حول شخصية المسيو "عازر" و كلمات رسالة الأب "باولو" التي نقلها "أحمد" له..

ويقف "أحمد" أمام أحد أرفف تلك المكتبة الضخمة وهو يراجع ما كتبه على إحدى الأوراق عن مهام البحث والدراسة الموكلة إليه ويقول:

علي القيام إذًا بالبحث والدراسة والمراجعة في الكتب الموجودة هنا، وكذلك عبر المعلومات الموجودة على شبكة الإنترنت عن ثلاثة عناوين رئيسية وفقًا للترتيب التالي:

بدايةً، كتاب "روجيه غارودي" حول الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.. ثم سفر "التكوين".. والبحث فيما تعنيه كلمة "الإيلوهيم" من الإصحاح الأول.. ثم القصيدة المنسوبة "لابن يوسف الموصلي المسعودي".

ويضع تلك الورقة على الطاولة الموجودة أمامه وهو يقول:

لنبدأ المهمة إذًا، وأولًا يجب علي القيام بمراجعة كتاب "روجيه غارودي" لتحديد ما المقصود بدقة بكلمتي "أساطير غارودي" والتي وردت في دفتر ملاحظات المسيو "عازر".. ومن بعد ذلك يجب أن أقوم بدراسة وتلخيص محاور تلك الأساطير..

ثم يتابع قائلًا: لنبحث إذًا وفق فهارس هذه المكتبة الضخمة عن كتاب "غارودي" هذا، ولنعرف ماذا كان يقول عن تلك الأساطير..

ويبدأ "أحمد" في البحث عن ذلك الكتاب للقيام بما يتوجب عليه وفق توزيع مهام البحث بين الأصدقاء الثلاثة.. ميشيل وماريا وأحمد..

الفصل التاسع عشر

وفي عودة إلى مهمة "ميشيل" و"ماريا" التي أخذتهما في رحلة بحث إلى مدينة القدس.. وفي رحاب المسجد الأقصى في القدس القديمة يخرجان برفقة الشيخ "عمر" من مكتبه، وهم يسيرون باتجاه الباب الأمامي للمصلى القبلي في المسجد الأقصى عبر باحة الـ ١٢ ألف قنديل..

ويتوقف الشيخ "عمر" في باحة المسجد الأقصى وهو يوجه حديثه إليهما قائلًا: بما أن كلمة المسجد الأقصى قد وردت كمحور رئيسي في رحلة بحثكما عن حقائق تساعد في إثبات براءة الشاب "أحمد" من جريمة مقتل المسيو "عازر موسان"، ها نحن نعود إلى باحة المسجد الأقصى ونقف أمام الباب الأمامي للمصلى، وأجد أنه من الأهمية بمكان أن أخبركما عن بعض المعلومات الهامة حول المسجد الأقصى قبل أن ندخل المصلى لتشاهدونه من الداخل..

حيث يعتقد الكثيرون أن المسجد الأقصى هو فقط الجامع الذي كان قد بُني جنوبي قبة الصخرة والذي يطلق عليه بالمصلى القبلي الذي تقام فيه الصلوات الخمس اليومية، والصحيح هنا أن المسجد الأقصى هو اسم لجميع المسجد ويشمل كل ما هو داخل سور المسجد والساحات الواسعة، والجامع القبلي وقبة الصخرة والمصلى المرواني والأروقة والقباب والمصاطب وأسبلة الماء والحدائق وتحت أرض المسجد وفوقه وغيرها من المعالم وعلى أسواره والمآذن، والمسجد كله غير مسقّوف باستثناء بناء قبة الصخرة والمصلى القبلي الجامع.. وهذا ما اتفق عليه العلماء والمؤرخون، وعليه تكون مضاعفة ثواب الصلاة وفق التعاليم الإسلامية في أي جزء مما دار عليه السور، وتبلغ مساحته تقريبًا حوالي ١٤٤٠٠٠ متر مربع.

وقد أصبحت القدس مدينة مقدسة بالنسبة للمسلمين بعد حادثة الإسراء والمعراج وفق المعتقد الإسلامي، وبعد أن فُرضت الصلاة على المسلمين، أصبحوا يتوجهون أثناء إقامتها نحوها، وبعد حوالي ١٦ شهرًا، عاد المسلمون ليتوجهوا في صلاتهم نحو مكة بدلًا من القدس بسبب كثرة تعيير اليهود للنبي محمد (ص) وللمسلمين بسبب استقبالهم لقبلة اليهود، ولأسباب أخرى منها تحرير مكة والكعبة من الأوثان.

وفي عهد "عمر بن الخطاب" والفتوحات الإسلامية، أرسل "عمرو بن العاص" و"أبو عبيدة بن الجراح" لفتح فلسطين عامة ونشر الدعوة الإسلامية فيها.. لكن القدس عصيت عليهم ولم يتمكنوا من فتحها لمناعة أسوارها، حيث اعتصم أهلها داخل الأسوار.. وعندما طال حصار المسلمين لها، طلب رئيس البطاركة والأساقفة "صفرونيوس"، أن لا يسلم القدس إلا للخليفة "عمر بن الخطاب" بشخصه.

فأرسل "عمرو بن العاص" يخبر "عمر" في المدينة بما طلبه "صفرونيوس" رئيس الأساقفة المسيحيين في القدس، فاستشار الخليفة "عمر بن الخطاب" أصحابه فكان أول من تكلم "عثمان بن عفان" حيث قال:

"أقم ولا تسر إليهم فإذا رأوا أنك بأمرهم مستخفًا ولقتالهم مستحقرًا فلا يلبثون إلا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطوا الجزية".

وقال "علي بن أبي طالب": "إني أرى أنك إن سرت إليهم فتح الله هذه المدينة على يديك، وكان في مسيرك الأجر العظيم"، ففرح "عمر بن الخطاب" بمشورة "علي" فقال: "لقد أحسن "عثمان" النظر في المكيدة للعدو وأحسن "علي" المشورة للمسلمين فجزاهما الله خيرًا ولست آخذاً إلا بمشورة "علي" فما عرفناه إلا محمود المشورة ميمون الغرة.

فقصد "عمر بن الخطاب" وخادمه ومعهما ناقة إلى بيت المقدس في رحلة شاقة، وما أن وصلا مشارف القدس حتى أطل عليهما "صفرونيوس"

والبطاركة وسألوا من هذين الرجلين فقال المسلمون إنه "عمر بن الخطاب" وخادمه، فسأل أيهما "عمر" فقيل ذاك الواقف على قدميه (إذ كان خادمه ممتطيًا الناقة) فذهلوا بهذا لأنه مذكور في كتبهم، فكان الفتح العمري لبيت المقدس.

وكتب "عمر" مع المسيحيين وثيقةً عُرفت باسم "العهدة العمرية" وهي وثيقة منحتهم الحرية الدينية مقابل الجزية، وتعهد بالحفاظ على ممتلكاتهم ومقدساتهم.. وكان أن عرض "صفرونيوس" على "عمر بن الخطاب" أن يؤدي الصلاة في كنيسة القيامة بعد أن حان موعدها أثناء زيارته لها، فخرج من الكنيسة وصلى على مبعدة منها وعاد.. ولّما سأله البطريرك "صفرونيوس" عن السبب أجابه أنه يخاف من أن يتخذ المسلمون من فعله ذريعة فيما بعد للسيطرة على الكنيسة فيقولون من بعده "ها هنا صلّى عمر" وبالتالي يحولون الكنيسة إلى مسجد للمسلمين.

تعلق "ماريا" على ما يقوله الشيخ "عمر" وتقول: هذا يدل على التسامح الكبير الذي كان على هذه الأرض في ذلك الزمان.

يجيب الشيخ عمر: نعم بالضبط، وقد سمح المسلمون لليهود حينها بالرجوع للسكن في المدينة بعد فتحها، وطبقوا عليهم ما طبقوه على المسيحيين من حماية لمقدساتهم مقابل الجزية.

وأقام المسلمون مسجدًا في الموقع الذي صلّى به "عمر بن الخطاب"، بالقرب من مدخل كنيسة القيامة اليوم..

ويتابع الشيخ عمر ما قد بدأ به قائلًا: وعودة لموضوع المسجد الأقصى فقد قام "عمر بن الخطاب" بعد فتح المدينة بالبحث عن مكان المسجد الأقصى المذكور في القرآن والصخرة المقدسة واضعًا نصب عينيه الرواية التي سمعها من النبي محمد (ص) ليلة الإسراء والمعراج، وسأل الصحابة وكعب الأحبار وهو من اليهود الذين أسلموا، والبطريرك "صفرنيوس"،

وكان "عمر بن الخطاب" يراجع المرافقين له حين يدلونه على مكان لا يجد أوصافه تنطبق على ما لديه قائلًا: "لقد وصف لي رسول الله (ص) المسجد بصفة ما هي عليه هذه".

وقد عثر الخليفة على مكان المسجد الأقصى والصخرة المقدسة في وقت قصير، وكان المكان مطمورًا بالأتربة التي تكاد تخفي معالمه، فأمر "عمر بن الخطاب" بإقامة مسجد موضع المسجد الأول، وإقامة ظلة من الخشب فوق الصخرة المقدسة.

وبعدها في العصر الأموي جاء الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان" وبنى قبة الصخرة فوق الصخرة المقدسة عام ٦٩١م، ثم بنى الخليفة "الوليد بن عبد الملك" الجامع القبلي عام ٧٠٩ م، ويقول المؤرخ من القرن العاشر "محمد بن أحمد شمس الدين المقدسي" أن "عبد الملك بن مروان" بنى قبة الصخرة وجعل منها ذهبية لتصبح معلمًا بارزًا يلفت نظر الزائر، ولتكون أوّل ما يراها في المدينة.

ويتابع الشيخ عمر حديثه وهو يقول: لقد اهتم الأمويون والعباسيون بالمدينة فشهدت نهضة علمية في مختلف الميادين، لكن شهرتها سرعان ما تضعضعت بسبب عدم الاستقرار الذي شهدته الدولة العباسية وانقسامها إلى دويلات عديدة، وأدّى تفكك الدولة العباسية إلى دويلات متناحرة إلى ضعف العمل بالشريعة الإسلامية من قبل بعض الحكّام، فلقي المسيحيون بعضًا من الإضطهاد، وهُدمت كنيسة القيامة في القدس خلال عهد الخليفة الفاطمي "أبو علي منصور" الحاكم بأمر الله، وتعرّضت حياة الحجاج الأوروبيين للخطر، وعندما سقطت القدس بقبضة الأتراك السلاجقة سنة ١٠٧٦، ازدادت الحالة سوءًا وكثر التعدي على الحجاج الأوروبيين، فكانت تلك إحدى الأسباب التي استُغِلَّت لقيام الحملات الصليبية.

حيث انطلق الصليبيون في حملتهم الأولى سنة ١٠٩٥م متوجهون إلى مدينة القدس، وضربوا الحصار عليها فسقطت في أيديهم بعد شهر من الحصار، وقتل الصليبيون فور دخولهم القدس قرابة ٧٠ ألفًا من المسلمين واليهود وانتهكوا مقدساتهم، وقامت في القدس منذ ذلك التاريخ مملكة لاتينية تُحكم من قبل ملك كاثوليكي فرض الشعائر الكاثوليكية على المسيحيين الأرثوذكس الذين ثار غضبهم لذلك..

ماريا: إنه سرد تاريخي دقيق ومعلومات هامة وقيمة..

ميشيل: نعم، ونلاحظ هنا التداخل الذي حصل بفترة الحروب الصليبية بين الشرق والغرب وبفترة تاريخية شهدت تفكك دول وتوحد أخرى.. وتأثير ذلك على الحركة الأدبية والفنية في كل المجالات.

الشيخ عمر: طبعًا، فهذه المدينة كانت شاهدة على كل ذلك..

لكن الآن وقبل أن ندخل المسجد دعوني أختم باختصار الحديث حول من تتالى على حكم هذه المدينة وتأثير ذلك على المسجد الأقصى الذي نقف فيه الآن..

إذ سيأتي ذكر للسلطان "صلاح الدين الأيوبي " الذي ورد اسمه كذلك في الكلمات التي جئتم تبحثون عن رابط فيما بينهما يفسر حقيقة ما جرى وملابسات مقتل المسيو "عازر موسان"..

تهز "ماريا" رأسها موافقة وتقول: نعم سيدي أكمل، فكذلك الحديث عن تاريخ هذه البقعة من العالم ممتع وشيق..

الشيخ عمر: نعم ابنتي.. فقد استطاع "صلاح الدين الأيوبي" استرداد القدس من الصليبيين عام ١١٨٧م بعد معركة حطين، وعامل أهلها معاملة طيبة، وأزال الصليب عن قبة الصخرة، ودعا اليهود والمسلمين ليعودوا إلى المدينة، واهتم بعمارتها وتحصينها، ولكن الصليبيين نجحوا في السيطرة على

المدينة بعد وفاة "صلاح الدين" في عهد الإمبراطور "فريدريش الأول بربروسا" إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت القدس في هذه الفترة قد ضعف شأنها وأفل نجمها وأصبحت مجرّد قرية عاديّة نظرًا لتراجع أهميتها الإستراتيجية، خصوصًا بسبب انهماك أولاد "صلاح الدين" بالنزاع فيما بينهم، وعدم تركيزهم على محاربة الصليبيين، وبقيت القدس بأيدي الصليبيين ١١ عامًا إلى أن استردها نهائيًا "الملك الصالح نجم الدين أيوب" عام ١٢٤٤م.

وبعد ذلك تعرضت المدينة لغزو التتار الخوارزميين الذين قضوا على القسم الأعظم من سكانها المسيحيين وطردوا اليهود منها، ثم هُزم التتار على يد المماليك بقيادة "سيف الدين قطز" و"الظاهر بيبرس" في معركة عين جالوت عام ١٢٥٩م، وضمت فلسطين بما فيها القدس إلى السلطنة المملوكية التي حكمت مصر والشام بعد الدولة الأيوبية حتى عام ١٥١٧م.. وخلال هذه الفترة تعرّضت المدينة والمنطقة ككل لسلسلة من الزلازل وتفشّى فيها وباء الطاعون الأسود.

ثم دخلت جيوش العثمانيين فلسطين بقيادة السلطان "سليم الأول" بعد معركة مرج دابق في سنة ١٥١٧م، وأصبحت القدس مدينة تابعة للدولة العثمانية طيلة ٤٠٠ سنة حتى سقوطها بيد قوّات الحلفاء في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧م.

تتابع "ماريا" قائلة: وبقي حينها العريف العثماني "حسن الإغدرلي" يحرس المسجد الأقصى من مكانه لمدة ٦٥ عامًا حتى توفى.

ينظرالشيخ "عمر" نحو "ماريا" مبتسمًا: تمامًا.. ابنتي..

ويتابع قائلًا: وقد تطوّرت الحياة المقدسيّة بشكل ملحوظ خلال القرن التاسع عشر بعد أن أنشأت السلطات العثمانية عددًا من المرافق الحديثة لتسهيل حياة الناس، فافتتح مركز للبريد وأنشأت خطوط سير نظامية

مخصصة لمركبات الجياد العمومية، وأُنيرت الشوارع بالمصابيح الزيتيّة،وفي أواسط القرن التاسع عشر كذلك أنشأ العثمانيون أوّل طريق معبّدة بين القدس ويافا، وبحلول عام ١٨٩٢م، كانت المدينة موصولة بغيرها من المدن الشاميّة والحجازية بسكة حديدية.

وخلال الفترة الممتدة من عام ١٨٣١م حتى عام ١٨٤٠م، أصبحت فلسطين جزءًا من الدولة المصرية التي أقامها "محمد علي" باشا، وخلال هذا العهد أخذت الإرساليات والقنصليات الأجنبية تضع موطئ قدم لها في المدينة، وفي سنة ١٨٣٦م، سمح "إبراهيم باشا" بن "محمد علي" لليهود أن يعيدوا إنشاء أربعة معابد رئيسيّة ومن ضمنها كنيس الخراب، إلى أن ثار الشوام على حكم "محمد علي" باشا لأسباب مختلفة منها زيادة الضرائب بمقدار لم يعهده الناس أيام العثمانيين والتجنيد الإجباري..

ثم عادت القدس إلى الحكم العثماني بعد هزيمة جيش "محمد على" باشا حاكم مصر أمام الجيوش الخليفة العثمانية والأوروبية سنة ١٨٤٠م إلا أن كثيرًا من المصريين بقي واستقر بالمدينة، وفي نفس الفترة قدمت وفود من اليهود والمسلمين المغاربة، من مدينة الجزائر وغيرها من مدن المغرب العربي، واستقرت في القدس، إلى أن سقطت القدس بيد الجيش البريطاني بقيادة "إدموند ألنبي" في سنة ١٩١٧م بعد أن تقهقر الجيش العثماني مهزومًا أمامهم، وفي سنة ١٩٢٢م منحت عصبة الأمم بريطانيا حق الإنتداب على فلسطين وإمارة شرق الأردن والعراق، وأصبحت القدس عاصمة فلسطين تحت الإنتداب البريطاني..

ثم دخلت المدينة في عهد جديد كان من أبرز سماته زيادة أعداد المهاجرين اليهود إليها خاصة بعد وعد "بلفور" الذي أبرمته حكومة المملكة المتحدة مع ممثل الحركة الصهيونية "ثيودور هرتزل"،الذي حاول كثيرًا من قبل مع

السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني" للحصول على الموافقة بذلك لكنه قوبل بالرفض القاطع..

وبعد أن أعلنت بريطانيا في عام ١٩٤٨ إنهاء الانتداب في فلسطين وسحب قواتها، استغلت العصابات اليهودية حالة الفراغ السياسي والعسكري وأعلنت قيام الدولة الإسرائيلية..

ومن ذلك الوقت وهذا الصراع يزداد عنفًا بكثير من الأشكال والصور..

يهز "ميشيل" رأسه قائلًا: نعم صدقت سيدي، وهذا الصراع ما زال يسبب الكثير من المشاكل والنزاعات، وانعكست آثاره على كثير من التحالفات والقضايا..

ينظر "الشيخ" عمر نحو "ميشيل" وهو يقول: نعم للأسف.. والآن هيا دعونا ندخل المسجد القبلي في الأقصى والذي يصلي فيه المسلمون هنا لتشاهدونه من الداخل.. تفضلا..

الفصل العشرون

يدخل "ميشيل" و"ماريا" برفقة الشيخ "عمر" إلى داخل المصلى القبلي عبر بابه الأمامي..

ويلتفت الشيخ "عمر" نحوهما قائلًا: والآن كما تشاهدون من هذا الموقع، فإننا نقف في المصلى القبلي للمسجد الأقصى..

ثم يشير بيده عبر الباب الأمامي نحو الخارج قائلًا: وهناك بعد الباحة الأمامية التي كنا فيها كما ترون يظهر مسجد قبة الصخرة بقبته الذهبية، والتي تقع في داخله الصخرة المقدسة التي يؤمن المسلمون أن النبي محمد (ص) عرج منها إلى السماء، وكما أخبرتكما قبل قليل تم تشييد هذه القبّة في العصر الأموي خلال عهد الخليفة "عبد الملك بن مروان"، الذي رغب بأن يجعلها مكانًا يأوي إليه المسلمين هربًا من البرد والحر ولتكون مزارًا للحجاج عوضًا عن أن تكون مسجدًا للصلاة.

وللمسجد الأقصى كما ترون أربعة عشر بابًا، منها ما تم إغلاقه بعد أن حرر "صلاح الدين الأيوبي" القدس، وقد قيل عددها أربعة وقيل خمسة أبواب منها: باب الرحمة من الشرق، وباب المنفرد والمزدوج والثلاثي الواقعة في الجنوب، وأما الأبواب التي مازالت مفتوحة فهي عشرة أبواب، وهي: باب المغاربة (باب النبي)، باب السلسلة، باب المتوضأ (باب المطهرة)، باب القطانين، باب الحديد، باب الناظر، باب الغوانمة وكلها في الجهة الغربية، ومنها أيضًا باب العتم (باب شرف الأنبياء)، باب حطة، وباب الأسباط في الجهة الشمالية..

ويتابع الشيخ "عمر" حديثه إلى "ميشيل" و"ماريا" قائلًا: والآن لندخل أكثر في المصلى القبلي ولنتعرف عليه من الداخل..

ثم ينظر مشيرًا نحو الأعلى وهو يقول: فهو كما ترون في الأعلى أنه الجامع المسقوف الذي تعلوه قبة رصاصية، والذي يقع جنوبي المسجد الأقصى المبارك باتجاه القبلة، وهو المصلى الرئيس الذي يقف فيه الخطيب في صلاة الجمعة، وقد سرى خطأ قديم بين المسلمين على أنه هو المسجد الأقصى بينما هو جزء منه..

ويتابع الشيخ "عمر" سيره في المسجد ليقف فجأة وهو ينظر نحو "ميشيل" و"ماريا" ويقول: وها نحن الآن نقف أمام المنبر الشهير..

هنا تقترب "ماريا" فجأة متلهفة وبخطى سريعة إلى أمام المنبر وتستغرق في النظر إليه بشغف لجمال صنعته وزخارفه ثم تقول للشيخ "عمر": إذًا هذا هو المنبر؟؟

يجيب الشيخ عمر مبتسمًا: نعم.. هذا هو المنبر.

يقترب ميشيل من ذلك المنبر وهو يتأمل تفاصيله بعناية قائلًا:

نعم المنبر.. وهو يردد عبارة "اتبع أثر المنبر..".

ثم ينظر نحو "ماريا" ويقول لها: هل هذا هو المنبر الذي ذكره الأب "باولو" في رسالته للمسيو "عازر"؟!

تجيب "ماريا" وهي تتأمل في ذلك المنبر: أظنه كذلك "ميشيل"..

يقترب ميشيل من الشيخ عمر وهو يقول: هل لك أن تحدثنا عن قصة هذا المنبر شيخ عمر من فضلك؟

يهز الشيخ رأسه موافقًا: بكل سرور..

ويقترب ليقف بجانب المنبر ويضع إحدى يديه على أحد دعائمه وهو يقول: نعم أيها السادة.. يعتبر هذا المنبر من أجمل وأروع ما أبدعته يد الإنسان من قطع فنية نادرة، ويُعد أحد أشهر المنابر على مر التاريخ ليس

لارتباطه بالمسجد الأقصى المبارك فقط، بل بقيمة التحرير، فقد بقي طوال زهاء ٨٠٠ عامٍ رمزًا للنصر والتحرير والعزة منذ أن وُضع في مكانه هذا..

ويتابع قائلًا: ويشتهر هذا المنبر بأنه قد صنع بأسلوب "التعشيق" وهو أسلوب يعتمد على ربط القطع الزخرفية الخشبية بعضها ببعض دون الحاجة للتثبيت بواسطة المسامير أو غيرها.. وهذا أسلوب بديع ونادر كان معروفًا في مدينة حلب، حيث صُنِع المنبر..

ويُسمى هذا المنبر بين العامة باسم "منبر صلاح الدين" نسبة للسلطان الناصر "صلاح الدين الأيوبي"، وهي تسمية غير دقيقة تاريخيًا؛ ذلك أن الذي أمر بصناعة هذا المنبر لم يكن "صلاح الدين"، وإنما كان سلفه الملك العادل "نور الدين محمود بن زنكي"..

وكان الملك العادل "نور الدين الزنكي" قد رأى حلمًا في منامه بأن القدس ستتحرر من الصليبين..

فأمر ببنائه عام ٥٦٤هـ – ١١٦٨م، قبل تحرير الأقصى بتسعة عشر عاماً، فصُنع المنبر في حلب، وجُهز ليتم وضعه في المسجد الأقصى المبارك بعد التحرير من الاحتلال الصليبي، لكن مشيئة الله قضت بوفاة "نور الدين محمود" دون أن يتمكن من وضعه في مكانه.

ولكن بالفعل تم نقل هذا المنبر إلى القدس بعد تحريرها على يد "صلاح الدين الأيوبي" فأمر بنقله ونصبه في المسجد الأقصى حيث خطب عليه قاضي دمشق "محيي الدين بن الزنكي" خطبة الجمعة بعدما غابت عن المسجد حوالي ٩٠ عامًا هي فترة الاحتلال الصليبي.

تقول ماريا: إذًا نحن نقف الآن أمام منبر "صلاح الدين الأيوبي"..

يجيب الشيخ عمر مبتسمًا: لا..

يلتفت "ميشيل" إلى الشيخ "عمر" متعجبًا من إجابته على سؤال "ماريا" قائلًا: كيف لا!! ألم تقل أنه المنبر؟؟

ينظر الشيخ "عمر" نحو "ميشيل" و"ماريا" مبتسمًا: نعم هو المنبر كما قلت.. ولكن الأصح أن نقول عنه أنه ذات المنبر ولكنه ليس المنبر الذي وضعه "صلاح الدين الأيوبي" في المسجد الأقصى بعد تحريره القدس..

تنظر "ماريا" باستغراب قائلة: لكن..كيف ذلك؟!

يجيب الشيخ "عمر" ويقول: إنه في الحقيقة نسخة طبق الأصل عن المنبر الأصلي، وقد تم بناءه من جديد بعد أن تعرض في صبيحة يوم الخميس ٢٢ أغسطس من عام ١٩٦٩م لحريق على يد يهودي أسترالي متطرف يدعى "مايكل دينس روهن"..

حيث قام بجريمة حرق الجامع القبلي الذي سقط سقف قسمه الشرقي بالكامل، كما احترق منبر "صلاح الدين"، الذي أمر "نور الدين الزنكي" ببنائه قبل تحرير المسجد الأقصى من الصليبيين وقام "صلاح الدين الأيوبي" بوضعه داخل المسجد بعد التحرير.

وقد قال المعتدي "روهن" تعقيبًا على الحريق الذي افتعله أنه كان يأمل من إحراق المسجد الأقصى أن يعجل المجيء الثاني للمسيح، مما يعجل الطريق كذلك لإعادة بناء الهيكل اليهودي المزعوم على جبل الهيكل.

ماريا : إن هذا الإعتداء عدا عن كونه جريمة تاريخية يعتبر عملًا مجنونا..

الشيخ عمر: نعم، لقد تمت التغطية من قبل المحتل على هذا الفعل الإجرامي وأدْخل "روهن" إلى مصحة الأمراض العقلية حيث ادّعوا بأنه رجل مختل عقليًا..

وردًا على هذا الحادث تم عقد قمة للدول الإسلامية في الرباط في العام نفسه، واعتبر حريق الأقصى أحد العوامل المحفزة لتشكيل منظمة المؤتمر الإسلامي (والآن تسمى منظمة التعاون الإسلامي)..

وفي عام ١٩٧٢م، تم ترميم المسجد الأقصى بعد الحريق، وكذلك تم إعادة بناء المنبر..

يسأل ميشيل الشيخ عمر: وكيف تم ذلك؟؟

يجيب الشيخ: لقد تمت عمليات ترميم هذا المنبر في الأردن، وعند انتهائه تم نقل المنبر من الأردن إلى القدس بعد خمس سنوات من العمل والتكاليف الكبيرة، وبعد أن تم جلب أكبر الخبراء في هذا الفن لاكتشاف سر وآلية بناء هذا المنبر..

فقد استغرق البحث للوصول إلى أسرار بناء المنبر تقريبًا تسع سنوات منذ عام ١٩٩٣م وحتى ٢٠٠٢م، ولقد كان فعلًا عملًا فنيًا جميلًا ومعقدًا وحافلًا بالأسرار.

ويتابع الشيخ حديثه وهو ينظر نحو المنبر قائلًا: فهذا المنبر مكون من ١٦٥٠٠قطعة صغيرة وكبيرة ثبتت ببعضها بدون تلصيق أو دق مسمار.. وقد وجد الخبراء فيه مجموعة من اللوحات كل لوحة صممت على طريقة هندسية جيومترية، وهي عبارة عن مجموعة من الدوائر تنطلق من مراكزها إلى محيطها ومجموعة من الخطوط تشكل مجموعات هائلة من الأشكال الهندسية تقوم بدورها بتشكيل الآلاف من اللوحات الهندسية..

وبالإمكان أخذ لوحة واحدة وفصلها عن المجموع ووضعها في إطار وهذا السر الذي اعتمدوا عليه في رسوماتهم للمنبر..

ينظر "ميشيل" بدهشة وإعجاب وهو يتفحص المنبر ويقول: من تعمقي في عالم الفنون والحضارات كنت أرى أن الفن دومًا يستند على الحقيقة والحكمة الموجودة في كل ديانة، لكنها تختلف باختلاف المنهجيات من حضارة إلى أخرى..

وهذه الحقيقة أو الحكمة لا بد لها من لغة تستند عليها، الأمر الذي أدى إلى ظهور اللغة أو الرمز، فالأشكال المنتجة هنا لا بد أنها كانت رموز لحقيقة معينة ولاتزال مرتبطة بالحق، فالرمز دال على المرموز ويستطيع حمل رسالة المعنى الذي هو أصل هذا الشكل وهو الحق..

ثم يتابع قائلًا: إذا فالإطار هنا كما تقول شيخ "عمر" كان يحدد أين سينتهي الشكل..

يجيب الشيخ عمر: تماما سيد ميشيل.. وكذلك تم التوصل إلى أسرار أخرى مثل الأشكال التي في أعلى الجزئين الأيمن والأيسر، إذ وجد هناك لفظ

الجلالة وتحتها اللوحة الخماسية التي ترمز إلى الوحدة الإلهية أي أركان الإسلام الخمسة، وتحتها لوحة سداسية ترمز إلى الرسالات السماوية ونعتبره أكمل الأشكال إذ يرمز إلى الإنسان الكامل، أي الرسول (ص) ..

ويتابع قائلًا: وجميع رسومات المنبر تجمع بين أشكال هندسية وأشكال لها علاقة بالفلك والرياضيات والعلوم والخط العربي والزخارف الهندسية وفنون الحفر والتطعيم والتعشيق وفنون المقرنصات.. فهناك علاقة وثيقة بين الفنون الإسلامية الموجودة في هذا المنبر وبين الاعتقادات الدينية والجوانب الروحية..

فالفنون يجب أن تكون دالة على ماهو أعلى من شكلها الخارجي وهذا واضح في الفنون الإسلامية، فهي مرتبطة بالحقيقة، وهذا سر دوامها واستمرارها، وهذا يعني أنه لا فرق بين الجمال والاستعمال، فكل ما هو جميل يحب أن يستعمل، بمعنى أن لا يوجد قطيعة بين المقدس والدنيوي، فالإنسان يعيش في الدنيا وهو متعلق بالمقدس وكذلك فنونه، فكل حضارة حقانية نسبة إلى الحق أو حكمية نسبة إلى الحكمة تكون فنونها مرتبطة بالحقيقة، لأن الديانات تختلف في شكلها الخارجي وتتشابه من حيث الجوهر، فالحقيقة واحدة..

فقد قال تعالى: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا"

والفلسفة الإسلامية تعبر الفنون عنها هنا خير تعبير في هذا العمل الفني الفريد المتمثل بالمنبر كمعنى كلمتي (هنا الآن):

ف (هنا الآن) مثلا تعني كل ما يجب أن ينقل في المجمل و(هنا) تعني أن المركز موجود في كل مكان، أي أن الحقيقة موجودة في كل مكان وهذا مايسمى خارج المكان وما يفوق المكان..

و(الآن) هي اللحظة الموجودة في كل زمان ولا زمان أي أنها تفوق الزمان وهي أصل الزمان وهذه هي حقيقة الإنسان الفطري وهي ما يفوق الشكل أي تعالى عن الشكل لينقل بالشكل..

هذا أيضًا يقود إلى معنى (وأين) أين والذي عاشها العرب في حلهم وترحالهم فالمكان كان بالنسبة لهم غير موجود وهو دائما موجود بمعنى أن كل مكان هو بيته أي أن كل مكان هو مركز فالمركز هو أصل المحيط في الدائرة وهذا مهم جدًا في الفنون الإسلامية فعندما تنظر في أي لوحة أو عمل فني إسلامي تجد هناك مركز ينعكس في كل مكان وهناك إيقاع وهو ما يعكس الإهتمام بالمكان، فلو نظرنا للشمس كآية من آيات الله لوجدنا أنها تقرأ على ثلاثة أوجه فالشكل الدائري، ثم الدفء، ثم النور، وهذا يعكس ثلاثية وجود وتكّون الفنون الإسلامية، وهي أصل من أصول علم الهندسة القديمة الجيومتري، فالشكل الدائري والذي يعني الاكتمال والنضج هو أساس جميع الأشكال الهندسية، ويمكن أن تراه في كل لوحة فنية إسلامية الطابع، فالدائرة أساس كل زخرفة هندسية..

أما الدفء الذي يمنح الحياة فهو مصدر الزخرفة النباتية والتي لها علاقة بالمسافة والزمن و تستند إلى المركز وهي جيومتري لوغريتمي.. والنبات هو الأقدر على إظهار شكل الحياة في كل مراحلها و تمثل شيء يفوق الزمان و المكان فهي كالنور بالنسبة للوجود..

أما الزخرفة الأساسية الثالثة وهي الخط العربي والمرتبط بنزول القرآن الكريم هو أساس النور على الأرض يمثله نور الشمس..

فالمدركات الثلاثة الموجودة في أصل تصاميم المنبر هي شاهد على عصر كان الفن والعلوم والحكمة على مستوى عال وهذا يظهر من العلاقات الفلكية المصورة بأشكال زخرفية على المنبر..

وفي العشاري الذي يوجد تحت لفظ الجلالة هناك تصوير واضح لبعض العلاقات الفلكية فهو يبين توسط مدار عطارد حول الشمس، والمشتري حول الشمس والأرض حول الشمس، وشكل آخر يبين علاقة القمر بالأرض مما يدل على أن الوجود مرتبط ببعضه البعض بنسب واضحة تمثلها الجيومتري..

ولعل فن التعشيق والذي هو أساس هذه التحفة الفريدة هو انعكاس من الخلف لسيطرة الجيومتري من الداخل، يعني أن هذا العمل هو علوم في علوم وهذه العلوم مبنية في أصلها على الحكمة، ولعل التعشيق من العشق وهو يمثل أكثر الأسرار قدسية وطهارة، وأن الله يحبهم ويحبونه، فتعلق المحبوب بالمحب هو أصل الحياة وأساس تكوينها بعيدًا عن المادية التي تنزع عنها المعنى المقدس..

يستمع "ميشيل" لما يتحدث به الشيخ "عمر" وهو مستمتع ومندهش من ذلك التحليل الفني الرائع والثقافة الفنية والفلسفية التي لدى الشيخ "عمر"، ثم ينظر مجددًا نحو ذلك المنبر بتمعن وتأمل وهو يقول: إذًا فالفن الإسلامي هنا يعتمد على مبدأ التجريد المعبر عن فكرة ذات أصل مقدس، وقد اعتمد في إخراج أعماله الفنية للوجود على مبادىء روحية متعددة كان على رأسها مبدأ البساطة في التعقيد والتعقيد في البساطة، ومبدأ التماثل ومبدأ النور والظلمة، وهذا ما يترجمه وجود العاج والأبانوس هنا في مكونات المنبر..

ويلتفت نحو الشيخ عمر ويقول متابعًا: إذًا فبعد معرفة أسرار بناء المنبر وإنشاء المخططات التفصيلية بدأ التنفيذ وإعادة بناء المنبر كما قلت شيخ "عمر" في عام ٢٠٠٢ م..

الشيخ عمر: تمامًا.. وقد استغرق العمل نحو أربع سنوات، وشارك فيه نحو ٣٠ شخصًا و١١ باحثًا ومهندسًا.

ولعل ما يمكن أن يضاف إلى كل ما سبق ذكره من مبادىء روحانية هو هذا السر الكوني الذي يعالج ويوضح نسب الجمال في الطبيعة، والتي اهتدى إليها الفنانون العرب واستخدموها في عمارتهم، وقد وجدوا أنها مريحة بصريًا وتشكل أحد أهم معايير الجمال في الطبيعة، ولعل هذه النسبة الكامنة في الطبيعة بشكل مذهل كانت هي الأساس في الوصول إلى فك سر صناعة المنبر..

فلولا اكتشاف سر تصميم المنبر باستعمال النسبة الذهبية لما أمكننا ذلك من إنتاج هذا المنبر من جديد والذي لا يوجد له مثيل..

وفي الحقيقة إن منبر الأقصى هذا كان من أجمل المنابر التي أنتجها الفنان العربي في بلاد الشام.

علاوة على مكانته الجمالية وصناعته الفنية فقد ارتبطت فكرة بنائه مع طموحات القائد الأيوبي "نور الدين زنكي" لتخليص القدس من أيدي الصليبين والنصر الذي حققه "صلاح الدين"..

ميشيل: إنه لعمل فني رائع فعلًا وقصة مثيرة استفدت جدًا منها في دارستي للفنون وتأثيرها المتبادل مع مسيرة التاريخ والفكر الإنساني و بناء الحضارات..

ماريا: نعم وهذا المنبر فعلًا تحفة فنية..

ثم تتابع قائلة: فنحن الآن إذًا نقف أمام المنبر أو النسخة الدقيقة للمنبر الأصلي..

الشيخ عمر: تمامًا.. هو كذلك.

ماريا: لكننا الآن نقف كذلك أمام مشكلة في مهمة تتبع واكتشاف معنى كلمات رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر" حين قال له: "اتبع أثر

المنبر".. فكيف نبحث عن أي معنى ورابط هنا والمنبر الأساسي قد احترق!!

الشيخ عمر: نعم للأسف ولم يبق منه إلا قطع بسيطة من بقايا الحريق..

ينظر "ميشيل" نحو الشيخ "عمر" متفاجئًا ويقول: قطع بسيطة من بقايا المنبر الأصلي!! أين هي؟؟

يجيب الشيخ "عمر": نعم.. إنها محفوظة الآن في المتحف الإسلامي في الحرم القدسي، وقد تم تصوير وتوثيق عملية الإطفاء التي قام بها الشباب المقدسيون والذين استعانوا بالبراميل ونقلوا المياه يدويًا من الآبار الموجودة في ساحات الحرم القدسي الشريف وأخرجوا السجاد المحترق إلى الساحات الخارجية، وجمع القطع الصغيرة التي بقيت من الحريق من آثار منبر "صلاح الدين الأيوبي".

وتابع قائلًا: لقد كانت جريمة إحراق المسجد الأقصى من أبشع الاعتداءات بحق الحرم القدسي الشريف، كما كانت خطوة صهيونية فعلية في طريق بناء الهيكل اليهودي المزعوم مكان المسجد الأقصى وكانت الكارثة الحقيقية والصدمة التي أعقبت هذا الاعتداء الآثم أن قامت محاكم الكيان الصهيوني بتبرئة ساحة الفاعل بحجة أنه «مجنون»!! ثم أطلقت سراحه دون أن ينال أي عقوبة أو حتى إدانة..

وصرح "مايكل دينس روهن" الذي قام بهذه الجريمة لدى اعتقاله أن ما قام به كان بموجب نبوءة في "سفر زكريا" مؤكدًا أن ما فعله هو واجب ديني كان ينبغي عليه فعله، وأعلن أنه قد نفذ ما فعله كمبعوث من الله!!

يتأمل ميشيل باهتمام كلام الشيخ "عمر" ثم يقول: نعم إنه الصراع من جديد.. وكله للأسف يتم باسم الله..

الشيخ عمر: نعم.. وهي كذلك جريمة ومحاولة طمس معالم تاريخية هامة.. وعلى الرغم من أن الدلائل وآثار الحريق كانت تشير إلى تورط مجموعة كاملة في الجريمة وأن هناك شركاء آخرين مع المتطرف المذكور، إلا أن قوات الأمن الصهيونية لم تجرِ تحقيقًا في الحادث ولم تحمّل أحدًا مسؤولية ما حدث، وأغلقت ملف القضية بعد أن اكتفت باعتبار الفاعل مجنونًا..

يعقب "ميشيل" على ما قاله الشيخ "عمر" ويقول: وفق التاريخ الذي أُدَرِّسُه يقول اليهود بأن "تيطس" قد دمر الهيكل الثاني الذي يزعمون أنه كان مقامًا مكان المسجد الأقصى في ٧٠/٨/٢١م، ولذلك فإن هذا التاريخ يمثل ذكرى حزينة لديهم..

الشيخ عمر: تمامًا.. ولذلك لديهم الدافع لارتكاب اعتداءات ضد المسلمين وضد المسجد الأقصى للإسراع في بناء الهيكل الثالث المزعوم، ولهذا يلاحظ أن الاعتداءات اليهودية عادة ما تزداد في شهر آب – أغسطس من كل عام منذ احتلال اليهود لأرض فلسطين..

تنظر "ماريا" بتعجب لما تسمعه: هل يعقل هذا الكلام.. جرائم تقوم على أساس تنبوءات!!

يجيب الشيخ عمر: هذا ما يدّعونه.. ولم يكتفِ الصهاينة بإحراق المسجد الأقصى قبل ٣١ عامًا، كما لم تكن جريمة الإحراق حدثًا عابرًا، بل كانت خطوة على طريق طويل يسيرون فيه..

يقف "ميشيل" أمام المنبر ويقول: إذًا حلمًا بالنصر وبتحرير القدس يدفع السلطان "نور الدين الزنكي" لبناء المنبر..

ثم ووفقا لحلم ونبوءة مزعومة يأتي مجنون متطرف ويعتقد أنه مبعوث من الله ليحرق ذات المنبر!!

يبتسم الشيخ "عمر" وهو يقول: نعم، هو كذلك كما تقول..

ويتابع قائلًا: تعالوا معي إلى قسم المتحف لأريكم القطع الصغيرة المتبقية من حريق المنبر الأصلي..

ويخرجان برفقة الشيخ "عمر" من المسجد القبلي متوجهين نحو قسم المتحف ليشاهدوا بتأثر قطع خشبية صغيرة بعضها متفحم..

و"ميشيل" ينظر متأملًا إلى تلك القطع الخشبية الصغيرة المتفحمة ويقول بتأثر: هل هذا كل ما تبقى من المنبر الأصلي الذي بناه "نور الدين الزنكي" ووضعه في المسجد الأقصى "صلاح الدين الأيوبي" منذ ما يقارب ٨٠٠ عامًا؟!

يجيب الشيخ عمر: نعم للأسف.. وكما تشاهدون فهذه بعض أجزاء المنبر المتفحم ولم يستطع الاستفادة منها في بناء المنبر الجديد.. وقد تم الاستفادة من الصور الموثقة للمنبر الأصلي الموجودة في مصادر أبحاث المنبر في مكتبة الأقصى وفي مكتبة "الكونغرس" الأمريكي ومتحف "شمولين" في لندن، نسبة لاحتوائها على مجموعات من الصور للمنبر الأصلي التي ساعدت في إعادة بنائه..

تقول "ماريا" بتأثر: إذًا لم يعد هناك أثر للمنبر الأصلي.. إلا هذه القطع الصغيرة المتفحمة والتي لم يستفيدوا منها حتى في إعادة بناء النسخة الجديدة ..

يجيب الشيخ عمر: نعم للأسف..

ميشيل معقبًا: ولكن ما يحيرني الآن وبعد مشاهدة هذه المأساة.. ماذا كان يقصد الأب "باولو" في رسالته للمسيو "عازر".. "اتبع أثر المنبر".. ولم يبقَ للمنبر أثر!!

ماريا: والغريب أن كلمات رسالته بقوله: " اتبع أثر المنبر.." جاءت بعد أعوام من الحريق الذي لم يترك من المنبر شيئًا يُذكر..

يتأمل "ميشيل" بما تقوله "ماريا" باهتمام ثم يقول:

تمامًا "ماريا".. فعلًا، إنه لغز محير!!

ينظر الشيخ "عمر" نحو "ميشيل" و"ماريا" ويقول: نعم للأسف.. وقد حاولت أن أساعد عبر كل المعلومات التي أعرفها عن هذا المكان المقدس بما يمكنه أن يفيد هدف رحلتكما..

يرد "ميشيل": نعم والشكر الجزيل شيخ "عمر" على جهدك معنا طوال اليوم، وهذه الجولة الممتعة، وأعتقد أننا قد أخذنا من وقتك اليوم كثيرًا..

يجيب الشيخ "عمر" مبتسمًا: لا أبدًا.. فهذا واجبي في نقل المعرفة والحقائق.. ولا بد أنكما أيضًا قد تعبتما من السفر وجولة اليوم، وحان موعد الغداء، ويتوجب علينا أن ندعوكم لتتذوقوا طعامنا ونقوم بواجب الضيافة كما هي الأصول العربية..

تبتسم "ماريا" وتقول: شكرًا للطفك شيخ "عمر".. فعلا فمنذ خروجنا من الطائرة صباح اليوم لم نرتَح أبدًا..

ويتابع "ميشيل" قائلًا: ونشكرك فعلا لجولتك معنا ودعوتك التي لا يمكن أن نرفضها، ولكن إن سمحت لنا أن نؤجلها إلى الغد لنرتاح اليوم من عناء السفر.. ولأراجع تلك المعلومات المهمة التي سجلتها والتي تعرفنا عليها اليوم بفضلك..

ماريا: نعم، وكذلك لنتابع أية مستجدات جديدة من باريس..

الشيخ عمر: حسنًا إذًا، سأترككم اليوم لترتاحوا وسأراكم غدًا في مكتبي، وإن أردتم أية استفسارات أخرى وفي أي وقت أنتم مرحب بكم..

ماريا: شكرًا جزيلًا سيدي.. ولن ننسى لطفك الجميل..

يصافح "ميشيل" الشيخ "عمر" ويودعه قائلًا: شكرًا جزيلًا شيخ "عمر" وأشكر الفرصة التي عرفتني بصديق وعالم مثلك.. إلى اللقاء.

يودع الشيخ "عمر" "ميشيل" و"ماريا" من أمام باب المسجد القبلي في المسجد الأقصى ليعودا إلى الفندق القريب من الأقصى والذي يقيمان فيه في القدس القديمة..

ويخرج "ميشيل" و"ماريا" من المسجد القبلي في المسجد الأقصى مع رفع أذان صلاة العصر لدى المسلمين ويقفان وهما يتأملان مشهد تراصف المصلين بصفوف منتظمة للصلاة على صوت تكبيرات إمام المسجد وبعض الزوار الذين يقرأون أيات من قرآن المسلمين..

ثم يتابعان سيرهما عبر باحة الـ ١٢ ألف قنديل..

ويمران على بضع درجات نحو الباحة الثانية للمسجد حيث كان يقف العريف "حسن الإغدرلي" آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين..

فيقف "ميشيل" في ذات الموقع الذي كان يقف فيه ذلك الحارس العثماني وفق ما أخبره به الشيخ "عمر"، وينظر خلفه نحو المسجد الأقصى ويقول لـ"ماريا " وهو يتأمل ذلك المشهد: إنه فعلا تاريخ ممزوج بالجهد والدم، وحكايات شعوب ورسائل سماء مختلفة وفق كل معتقد..

تهز "ماريا" رأسها وهي تقول: نعم، إنه كما تقول.. وتستطيع هنا النظر إلى معالم هذا المكان حيث يمكنك في كل حجر فيه أن تقرأ تاريخ عصور وعصور وعظماء وجيوش وأنبياء مرت من هنا.. ووقفت حيث نقف..

ويتابع الصديقان السير وهما يخرجان من حرم المسجد الأقصى باتجاه الفندق الذي يقيمان فيه ويسيران من نفس الطريق الذي قدما منه لزيارة المسجد الأقصى..

ويعبرا الجدار الغربي من المسجد أو حائط "البراق" كما يسمونه المسلمون ليخرجا من المسجد الأقصى وينظرا للوجهة الثانية الخارجية للجدار الغربي للمسجد الأقصى ليشاهدا مجموعات من المصلين اليهود يقفون أمام ذلك الجدار من الجهة الأخرى، والذي يطلق اليهود عليه اسم حائط "المبكى".. فيتوقف "ميشيل" و"ماريا" لدقائق ليتأملا هذا المشهد من كل جوانبه..

حيث ينظر "ميشيل" متأملًا بنظرة بانورامية من المكان الذي يقف فيه من جميع جهاته ليلمح عن بعد قريب قبة ذهبية لفَتَهُ لمعانها الجميل الذي يعكس نور الشمس وقد وُضِع في أعلاها صليب ذهبي..

فيهز رأسه مبتسمًا ويقول: وكذلك كنسية القيامة تقول ها أنا هنا..

تتأمل "ماريا" معه لذات المشهد وتقول: إنه فعلًا مشهد مهيب، ثلاثة أهم أماكن مقدسة لثلاثة أديان في موقع واحد..

يرد "ميشيل": إنها القدس إذًا.. مدينة للصلاة وطلب السلام الروحي.. وأتعجب لماذا لم ترَ السلام الحقيقي والذي هو أحد أسمائها حتى الآن؟!

تقول "ماريا": نعم صدقت "ميشيل"، فما زالت هذه المدينة تبحث عن السلام..

هيا لنذهب إلى الفندق فما زال لدينا الكثير لنعرفه عن القدس..

ميشيل: نعم نعم.. فلنتوجه الآن إذًا إلى الفندق لنرتاح ونركز في المهمة التي جئنا من أجلها..

الفصل الواحد والعشرون

في المساء وفي الفندق الذي يقيم به "ميشيل" و"ماريا" في القدس.. يجلس "ميشيل" في غرفته يتأمل في المعلومات التي سجلها من حديث الشيخ "عمر" مدير المسجد الأقصى حول تاريخ المدينة والمسجد الأقصى و المنبر وقصة العريف "حسن الإغدرلي" أخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين..

ثم ينظر في الصفحة التي كتب عليها كلمات رسالة الأب "باولو" الموجهة إلى المسيو "عازر" و أخذ يرددها بتمعن، ويعود ويردد: "اتبع أثر المنبر.. وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى .."

ليقطع تأمله صوت طرق باب غرفته مع صوت "ماريا" وهي تدخل ممسكة بهاتفها الجوال وهي تقول: "ميشيل" مساء الخير..كيف حالك؟؟

أتحدث الآن مع "أحمد "على الهاتف من باريس وقد أخبرته بما حدث معنا حتى الآن وهو مازال على الهاتف يريد أن يحادثك أيضًا، سأفتح مكبر الصوت..

يجيب "ميشيل" : حسنًا.. ويتابع "ميشيل" موجها حديثه لأحمد الموجود في باريس عبر الهاتف:

أهلًا "أحمد" مساء الخير.. ثم يتابع ضاحكًا: أخبرني هل تستمتع بالعمل في مكتبتي؟؟

يرد "أحمد" عبر الهاتف: إنها مكتبة مثالية وفيها مراجع مهمة.. ثم يتابع ويقول: في الواقع لقد أنهيت للتو مراجعة كتاب "روجيه غارودي" لتحديد

معنى وماهية "أساطير غارودي" والتي وردت في دفتر ملاحظات المسيو "عازر"..

وقد أرسلت لكما بريدًا إلكترونيًا يلخص ما توصلت إليه، لذلك أرجو إلقاء نظرة على البريد لنتناقش معًا إن كان هناك أي ترابط مع باقي الكلمات التي نقوم بفك معانيها وتحليل سر ترابطها..

يفتح "ميشيل" جهاز كمبيوتره الشخصي ليتفقد بريده الإلكتروني وهو يقول: حسنًا "أحمد" ها أنا أتفقد البريد.. وأرى الآن رسالتك التي أرسلتها حول موضوع البحث..

تضيف "ماريا" بعد إلقائها نظرة على البريد: تمامًا "أحمد".. إذا سنقرأ رسالتك التي أرسلتها وسنبقى على تواصل في أية مستجدات..

يرد "أحمد": حسنًا سأترككما الآن لترتاحا، وإلى تواصل قادم، كونا بخير.

يجيب "ميشيل": نعم صديقي، إلى تواصل قريب وكن بخير أنت أيضًا.. مع السلامة.

تغلق "ماريا" الهاتف وتنظر إلى "ميشيل" الذي يقوم بطبع رسالة "أحمد" التي أرسلها عبر البريد الإلكتروني والتي تحتوي البحث الذي قام به "أحمد" حول ماهية معنى كلمة أساطير "غارودي" الواردة في دفتر ملاحظات المسيو "عازر موسان"..

فيلتفت "ميشيل" نحو "ماريا" ويقول: "ماريا" اسمعي ملخص البحث الذي قام به "أحمد" حول الأساطير المذكورة في كتاب "غارودي" ثم ينظر للأوراق التي طبعها للتو ويبدأ بقراءة رسالة "أحمد" قائلًا:

يبدأ "غارودي" كتابه بالحديث عن أساطير التوراة، وعن التعاليم التي وردت فيها، وعلى الأخص في سفر "يوشع"، والتي قضى فيها على سكان عدد من المدن الفلسطينية وأبادهم عن آخرهم بأمر من الرب "رب الجنود"،

ويوضح "غارودي" أن هذا السلوك ظل مستمرًا في الأدبيات اليهودية، إلى أن تبنته الصهيونية كنهج سياسي وعسكري ما زال قائمًا إلى اليوم مع باقي عناوين الأساطير التي تتلخص كالتالي:

(الأساطير الدينية):

أسطورة الوعد: الأرض الموعودة أو الأرض المحتلة في التفسير المسيحي المعاصر وفي "اللاهوت" اليهودي.

أسطورة شعب الله المختار

أسطورة "يهودا": التصفية العرقية

(أساطير القرن العشرين):

أسطورة معاداة السامية، أسطورة عدالة "نورنبيرغ"، أسطورة الستة ملايين "الهولوكوست"، أسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، أسطورة "المعجزة الإسرائيلية"و التمويل الخارجي.

(الاستعمال السياسي للأسطورة): والذي كان عبر ضغوطات مارستها مجموعات اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة / اللوبي الإسرائيلي في فرنسا..

تستمع "ماريا" لما يقرأه "ميشيل" من رسالة "أحمد" ثم تقول: في الحقيقة "ميشيل" أشعر وكأننا في بحثنا الذي نقوم كمن يفك مجموعة ألغاز تقوده لقراءة التاريخ من جديد، والدخول في ألغاز جديدة..

يجيب "ميشيل" معقبًا: نعم "ماريا"، لكن ألا تلاحظين معي ومن حديث الشيخ "عمر" اليوم وما عرفناه من معلومات كثيرة ومتشابكة حول القدس والمسجد الأقصى وجدار "المبكى" والحروب الصليبية، بأن هناك صراع تاريخي طويل بين أمم زالت وأمم بقيت وحضارات بُنّيت حول تفسيرات دينية لرسائل كان كل طرف ينسبها إلى السماء..

تجيب "ماريا" باهتمام: تمامًا، وهذا ما شد انتباهي حقيقة، وكذلك لا يمكن أن أنسى مشهد اليوم في تلك البقعة القريبة حيث كان المصلون من الأديان الثلاثة يصلون وهم يتوجهون نحو السماء بخشوع مهيب وكذلك لا أستطيع أن أغفل قصص التاريخ كيف كان بعضهم يكيد لبعض، ومازال الصراع مستمرًا على ذات الأرض وبأشكال مختلفة..

ميشيل: نعم، إنه لتناقض عجيب!!

تتثاءب "ماريا" وهي تنظر بوجه "ميشيل" وتقول: حسنًا "ميشيل"..

سأقول لك الآن تصبح على خير وليلة سعيدة..

وتتابع مبتسمة: ولتذهب تلك الصحفية المجتهدة الجميلة لتنام فلدينا غدًا عمل في متابعة البحث الذي جئنا من أجله، ولا نعرف إلى أين سيقودنا!!

يضحك "ميشيل" قائلًا: نعم أيتها الصحفية المجتهدة الجميلة تصبحين على خير وأحلام سعيدة..

ماريا وهي تتثاءب من جديد: إذًا أراك في الصباح.. وداعًا.

وتذهب "ماريا" إلى غرفتها لتستلقي على سريرها ولتغفو سريعًا بعد سفر وتعب يوم طويل، ويسترخي "ميشيل" في غرفته، وهو يعيد القراءة بتمعن للتقرير الذي أرسله "أحمد" حول بحثه الموكل به.. ويسترجع المعلومات التي سجلها في جولة الشيخ "عمر" ويتمتم مجددًا بكلمات رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر"، والذي يحاول مع "ماريا" و"أحمد" فك معانيها..

ليغفو ميشيل مع صوت أذان الفجر المنطلق من المسجد الأقصى القريب من الفندق.

الفصل الثاني والعشرون

في القدس وبعد بضع ساعات تسطع شمس اليوم التالي مشرقة في السماء وهي تطل على الفسحة الداخلية للفندق الذي يقيم به "ميشيل" و"ماريا" في القدس القديمة ويلتقيا ليتناولا معًا فطورهما الصباحي ..

تلقي "ماريا" تحية الصباح على "ميشيل" وتقول مبتسمة:

صباح الخير "ميشيل".. كيف كانت ليلتك؟؟

يجيب ميشيل: في الحقيقة لم أستطع النوم كثيرًا فقد كنت أفكر مليًا في كل ما حدّثنا به الشيخ "عمر" أمس وخاصة قصة المنبر وقصة العريف "حسن" أخر الحراس العثمانيين للمسجد الأقصى..

"ماريا": معك حق صديقي.. وهذا طبعًا عدا عن قصص الصراع على هذه المدينة على مر العصور..

ميشيل: نعم، وقد وجدت أن آثار الصراع قد انعكست على مختلف الأصعدة وحتى على الفنون التي أدرّسها.

ماريا: لكن ألم تلاحظ معي أن الصراع كثيرًا ما كان يلبس رادء الدين؟!

يجيب "ميشيل": بل تستطيعين أن تقولي أنه صراع حضارات ألبسوه رداء الدين..

وربما لذلك ومن إيمان الأب "باولو" الشديد بالسلام وأن الله قد أرسل رسالاته السماوية من أجل سلام الإنسان، جاهد الأب "باولو" ومن آمن معه بذات الرسالة في العمل نحو تحقيق السلام والبدء بحوار حقيقي بين الحضارات والأديان بدل الصراع الذي لا ينتهي ولا جدوى منه ولا وجود لأي إيمان حقيقي فيه..

ماريا: وهل تعتقد أن الهدف الذي كان يسعى إليه الأب "باولو" كان السبب الحقيقي في اختطافه وتغييبه قسرًا؟؟

يجيب "ميشيل": نعم، ممكن ذلك، وأعتقد أن ذلك أيضًا كان السبب والدافع الحقيقي في جريمة قتل المسيو "عازر موسان"..

تتفاجأ "ماريا " مما يقوله "ميشيل" وتقول: هل يمكن أن يكون ما تقوله صحيح!!

ميشيل: كل شيء ممكن وخاصة عندما أخبرنا الشيخ "عمر" بمعرفته بالمسيو "عازر" وأنه قد التقى بالأب "باولو" عند زيارته للقدس في الثمانينيات وعملهما المشترك في تأسيس حوار حقيقي للأديان بهدف تحقيق معنى الرسالات وإفشاء السلام وخاصة في هذه المدينة..

وبعد أن انتهى الصديقين من تناول فطورهما ينظر "ميشيل" إلى ساعته ثم ينهض وهو يمسك بحقيبته التي كان يضعها على كتفه وهو يقول لماريا.. هيا بنا الأن لننطلق..

ترد "ماريا" قائلة: إلى أين؟؟

يجيب "ميشيل" : لنتابع الخطى في البحث الذي جئنا من أجله ..وسنبدأ يومنا بالذهاب إلى مكتب الشيخ "عمر" و نلبي دعوته على فنجان من الشاي..

تهز "ماريا " رأسها موافقة وهي تقول:.. إذا هيا بنا

ويخرج "ميشيل" و"ماريا" من الفندق باتجاه المسجد الأقصى ويسلكان ذات الطريق الذي مروا به في الأمس ليعبرا من أمام حائط المبكى والجدار الغربي للمسجد الأقصى ويدخلان في رحاب المسجد وباحاته متجهين نحو مكتب الشيخ "عمر" الذي استقبلهما بابتسامته اللطيفة المعهودة..

و"ماريا" و"ميشيل" يلقيا التحية باللغة العربية على الشيخ "عمر" قائلين:

السلام عليك شيخ "عمر".

يرد الشيخ "عمر" وهو يبتسم: وعليكما السلام ورحمة الله، أهلًا وسهلًا.. يبدو أنكما بدأتما تحفظان حارات وطرق المدينة وعادات ولغة أهلها..

تجيب "ماريا" مبتسمة: إنها مدينة تجتمع فيها قلوب المؤمنين عبر التاريخ، وهي مدينة تستحق فعلًا الكثير من الوقت في البحث والقراءة..

ميشيل: وكذلك ورغم أني معروف بباريس بقهوتي الفرنسية إلا أني وجدت أن مشروب الشاي الذي تعدونه هنا لا يقل متعة في التذوق عن قهوتي الفرنسية..

يرد الشيخ "عمر" ضاحكًا: بكل سرور لقد طلبت ضيافة الشاي منذ دخولكما.. تفضلا بالجلوس رجاءً..

ميشيل: شكرًا شيخ "عمر"..

ويتابع "ميشيل" قائلًا: في الحقيقة لقد كنت أراجع المعلومات القيمة التي حدثتنا عنها في جولة أمس، ومقارنة ذلك مع كلمات رسالة الأب "باولو" والتي جئنا للقدس بحثًا عن أي رابط لمعنى قد يحدد لنا طريقًا نحو إثبات براءة "أحمد".. وخاصة كلمات الرسالة التي كانت تقول: "اتبع أثر المنبر.. وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز.."

ولكن في جولة أمس تبين لنا أن المنبر الأساسي قد احترق عام١٩٦٩م من قبل متطرف صهيوني في محاولته حرق الأقصى، و أن آخر حراس الأقصى العثمانيين "حسن الإغدرلي" قد مات عام ١٩٨٢م.

ماريا: نعم، كما أن هناك قصص مثيرة وغريبة لا يصدقها إلا من يزور هذه المدينة ويعرف هذه الحقائق عن كثب.. فكيف ولماذا مثلًا يقف آخر

حارس عثماني يحرس الأقصى ٦٥ عامًا من إنهيار الدولة العثمانية ولا يُعرف عنه أحد شيئًا..

وبينما تتابع "ماريا" كلامها، يدخل رجل يبدو عليه أنه في آخرالستين من العمر ويظهر كذلك من هيئته وكأنه أكبر سنًا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة لطيفة للضيوف وهو يقول: أهلًا وسهلًا تفضلوا الشاي..

ويتابع الشيخ "عمر" قائلًا: نعم، ها هو أمامكم أفضل رجل يعد الشاي في القدس، إنه العم "مصطفى" الذي ولد وترعرع وأصبح شابًا وله عائلة وأولاد جميعهم ترعرعوا في رحاب المسجد الأقصى كما والدهم..

تنظر "ماريا" للعم "مصطفى" وهي تقول: إذًا فلا بد وأنه عاصر أحداثًا وقصصًا تاريخية عديدة لهذا المكان كقصة آخر الحراس العثمانيين للمسجد..

يبتسم العم "مصطفى" وينظر نحو "ماريا" وهو يقدم لها كوبًا من الشاي ويقول مقاطعًا: تقصدين الحارس العثماني العريف "حسن الإغدرلي"؟؟

تلتفت "ماريا" نحو العم "مصطفى" وقد تفاجأت من إجابته ومعرفته بالجندي العثماني "حسن الإغدرلي" وتقول متلهفة:

هل تعرفه؟! هل تعرف آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين؟

يجيب العم "مصطفى" قائلًا: طبعًا، رحم الله "حسن الإغدرلي"، فقد كنت صديقه الوحيد منذ أن كنت طفلًا يركض حوله..

ميشيل: حقًا إنها لفرصة رائعة أن نتعرف إليك وأن تحدثنا عنه إن أمكن..

الشيخ عمر: نعم.. فكما أخبرتكما من قبل، فالعم "مصطفى" ليس فقط أفضل من يعد مشروب الشاي في المدينة، بل هو كذلك صديق الجميع..

ينظر "ميشيل" نحو "مصطفى" وهو يقول له: حسنًا.. هل من الممكن أن نسألك عم "مصطفى" كونك كنت الصديق الوحيد للعريف "حسن الإغدرلي" ماذا كان يقول، ولماذا كان يقف في مكانه طول اليوم في باحة المسجد الأقصى طيلة ٦٥ عامًا رغم غياب الدولة العثمانية عن الوجود؟!

يجيب العم مصطفى: في الحقيقة نعم كنت صديقه، ولكنه لم يكن يتكلم مع أحد، بل كان يعبر بحركات قليلة عبر وجهه العابس معظم الأحيان، وكذلك وفي أحيان نادرة تعبر ابتسامة خجولة عن ترحيبه لبعض الأشخاص الذين كانوا يقتربون منه..

لقد كان يقف في موقعه ومكانه كل يوم وفي نفس المكان لمدة ٦٥ عامًا حتى توفي..

ويتابع قائلًا: وكان لا يبرح مكانه منذ أذان الفجر حتى غروب الشمس ثم يذهب باتجاه الغرفة الصغيرة خلف تلك الدرجات لينام حتى بزوغ فجر اليوم الذي يليه..

يلتفت "ميشيل" بانتباه نحو العم "مصطفى" ويقول: عذرًا للمقاطعة قلت أنه كان للعريف "حسن" غرفة صغيرة يعيش فيها لوحده؟!

يجيب "مصطفى": نعم فقد كان وحيدًا وعاش ومات وحيدًا لا يعرف أحد ولا يعرفه أحد..

ماريا: ألم يكن له أهل أو تكلم معك عن وجود أهل له يتواصل معهم..

مصطفى: ابنتي.. قلت لكم أنه لم يكن يحدث أحدًا ولم يسأل عليه أحد طوال السنوات التي عاشها هنا في رحاب المسجد الأقصى..

وغرفته، ماذا حدث بها؟ يسأل "ميشيل"

يجيب "مصطفى": أعتقد أنها أصبحت مستودعًا لبعض الكراسي والأثاث المتكسر رغم أنها صغيرة جدًا ولم يقربها أحد منذ سنين..

يتوجه "ميشيل" بحديثه للشيخ "عمر" قائلًا: شيخ "عمر"، هل تسمح لنا بأن نقوم بزيارة للغرفة التي كان يسكن فيها العريف "حسن الإغدرلي" إن أمكن؟؟

يجيب الشيخ "عمر": طبعًا لا مانع من ذلك..

ينظر "مصطفى" للشيخ "عمر" وضيوفه وهو يقول: ولكني أعتقد أنها ستكون مليئة بالغبار والأتربة، فهي الآن عبارة عن مستودع صغير مغلق منذ سنين طويلة..

يرد الشيخ "عمر" مبتسمًا : إذا تعالَ معنا..

ويخرج الجميع من مكتب الشيخ "عمر" متوجهين نحو تلك الغرفة الصغيرة التي حدثهم عنها العم "مصطفى" والتي كان يعيش فيها العريف "حسن الإغدرلي" آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين..

ويسيرون خلف العم "مصطفى" عبر باحة المسجد الكبيرة ثم نزولًا على عددٍ من الدرجات الكبيرة ليلتفوا من خلفها ويتقدمهم العم "مصطفى" الذي يقوم بفتح باب خشبي قديم متهالك تقبع خلفه غرفة صغيرة لا تتجاوز مساحتها ثمانية أمتار وفيها عدد من المقاعد الخشبية المتكسرة والموضوعة فوق بعضها البعض، والتي بدأ العم مصطفى بإخراجها مع السعال الذي انتاب الجميع من انتشار الغبار..

وبينما يقوم العم "مصطفى" بإخراج المقاعد الخشبية المتكسرة من الغرفة يظهر للمجموعة سرير حديدي قديم ومن فوقه وضعت بطانيتين من الصوف القديم المهترىء..

يقترب الجميع من ذلك السرير القديم ويقوم "ميشيل" بتفقد محيط السرير بعناية ودقة ليظهر له من طرف ذلك السرير وكأن هناك صندوقًا خشبيًا مخبأً في الأسفل، ويشير للشيخ "عمر" قائلًا:

انظر هناك شيخ "عمر".. وكأن هناك صندوق ما أسفل السرير!!

ينظر الشيخ لأسفل السرير ليشاهد طرفًا من صندوق خشبي مخبأ أسفل السرير.. ثم يشير لمصطفى بأن يخرج ذلك الصندوق من مكانه.. مع انتباه شديد من "ميشيل" و"ماريا" التي تنظر للصندوق وهي تقول:

ما هذا الصندوق؟؟ وماذا ممكن أن يكون في داخله يا ترى؟!

يُخرج "مصطفى" ذلك الصندوق الخشبي ويضعه على منضدة خشبية قديمة في الغرفة و يقترب الشيخ "عمر" من ذلك الصندوق وهو يقوم بمسح الأتربة المتراكمة عليه ثم يتأمل مايراه بدهشة واستغراب..

تسأل "ماريا" الشيخ "عمر" قائلة:

ماهذا الصندوق؟؟ وما هذه الدوائر المعدنية البارزة على الصندوق؟؟

يجيب الشيخ "عمر": إن هذا الصندوق مقفول بتقنية قفل عربي قديم..

ترد "ماريا" ولم تستوعب ما كان يقصده الشيخ "عمر" في كلامه:

قفل عربي قديم؟! ماذا يعني ذلك لم أفهم؟؟

يلتفت الشيخ "عمر" نحو "ماريا" ويقول: في القرن الثاني عشر الميلادي طور العالم المسلم "القزازي" عدة أجهزة تقنية منها أول قفل في العالم يحتوي على أربع أقفال صغيرة كان قد شفّر كل منها باثنى عشر حرفًا للحماية من اختراقه، ولا يحتاج الإنسان إلى أي مفتاح لفتح هذا القفل وعليه فقط أن يعلم تلك الرموز ويوجه مؤشراته المعدنية في مواضعها الصحيحة، عندها تنفك أسنانه وأعمدته الداخلية عن بعضها البعض وينحل عن الصندوق بكل سهولة..

ترد "ماريا" وهي مندهشة لما تراه وتسمعه عن ذلك الصندوق وهي تقول: في الحقيقة لم أرَ شيئًا كهذا من قبل!! وهل هذا الصندوق له نفس تقنية القفل الذي تتحدث عنه شيخ "عمر"؟!

يجيب الشيخ "عمر" وهو ما زال متعجبًا من وجود صندوق في هذا الزمن مقفل بهذه التقنية المنسية:

نعم، وحقيقة أتعجب لذلك.. فالآن وفي عصرنا هذا لم تعد تستخدم هذه التقنية، وذلك لضياع الكثير من العلوم التي كان للعرب والمسلمون الفضل في اكتشافها وتطوير الكثير من المعارف والتقنيات منذ عصور مضت..

ينظر "ميشيل" باهتمام إلى ذلك الصندوق، والذي يتفحصه بإعجاب وهو يقول: لكن لماذا ياترى هذا الصندوق مغلق بهذه التقنية الخفية القديمة؟؟ وماهي الشيفرة التي يمكن أن نفتح بها هذا الصندوق؟؟

وبينما يقوم العم "مصطفى" بإزاحة ورفع الجزء الأعلى من الفراش الموجود على ذلك السرير القديم والبطانيات الصوفية المهترئة، ويقوم بثنيهما على بعض؛ تسقط فجأة عدد من الجرائد القديمة على الأرض وقد خرجت من ضمنها بعض الأوراق القديمة المصفرة اللون..

ينظر العم "مصطفى" مندهشًا ثم يصيح: انظروا ماذا وجدت!!

تلتقط "ماريا" تلك الأوراق القديمة من الأرض والتي كانت مخبأة أسفل فراش سرير العريف "حسن الإغدرلي" وتنظر فيهم وتقول: إنها مجموعة جرائد قديمة ترجع لعشرات السنين..

ثم تتابع تفقدها لتلك الصحف إلى أن تلفت نظرها ورقة مطوية بعناية وذات ملمس ورقي مميز.. تمسك "ماريا" بتلك الورقة وهي تتمعن بما تحتويها، ثم تنظر إلى "ميشيل" والشيخ "عمر" وتقول: يبدو أن هذه ورقة قديمة ويظهر عليها رسم غريب ودوائر ورموز وأحرف!!

يقول "ميشيل" مندهشًا: ماذا!! دعيني أراها لو سمحتِ..

ويتفحص "ميشيل" تلك الورقة بدقة ويتابع قائلًا: من خبرتي في هذه المواضيع فنحن أمام مخطوطة قديمة فعلًا.. وأظن أن لوجودها هنا علاقة بموضوع هذا الصندوق..

ينظر الشيخ "عمر" إلى تلك الورقة أو المخطوطة القديمة ويقول بعد تفحص محتوياتها بدقة وتمعن: نعم أيها السادة، إنها مخطوطة قديمة، وأعتقد وبما أننا قد وجدناها هنا قرب هذا الصندوق المقفول بتقنية عربية قديمة؛ أن هذه الورقة هي مخطوطة يدوية لرسم تقنية فتح قفل الصندوق الذي أخبرتكم عنها..

ماريا: ماذا؟!

ميشيل: إذًا فقد تم تصميم وتصنيع قفل هذا الصندوق حسب مخطوطة قديمة خطت خصيصًا لصنع مثل هذه التقنية من الأقفال؟

الشيخ عمر: نعم، وهذا مايبرر وجودها هنا، والقفل الموجود على هذا الصندوق الذي وجدناه مخبأ أسفل هذا السرير..

ماريا: لكن كيف يمكن أن نعرف شيفرة رموز فتح قفل هذا الصندوق؟؟

ميشيل: لا بد لنا من أن نتفحص هذه المخطوطة بدقة..

يمسك "ميشيل" بتلك الورقة وهو يضع نظارات التكبير ليرى بدقة كل تفاصيل المخطوطة والجميع ينظر لما يقوم به بلهفة..

حيث يتمعن "ميشيل" بتفاصيل تلك المخطوطة لبضع دقائق ثم يقول: وفق ما أراه الآن على هذه المخطوطة أنها عبارة عن رسم تعبر عنه أربع دوائر ومؤشرات ومسننات مرتبطة ببعض وكل مسنن يحتوي على ١٢ سن.. إنها نفس التقنية التي حدثتنا عنها شيخ "عمر"!!

الشيخ عمر: نعم بكل تأكيد..

ماريا: إذًا هذه المخطوطة هي مخطوطة تمثل رسم قفل الصندوق، ولكن كيف يمكن أن نعرف الشيفرة ورمز كل مسنن من الأقفال المتشابكة مع بعضها؟؟

يتابع "ميشيل" تأمله في تلك المخطوطة ثم يقول فجأة: لحظة.. انظروا معي إلى تلك المخطوطة، فوفقًا لهذا الرسم الموجود عليها يوجد على كل مسنن ١٢ سن، وكل سن مكتوب أمامه حرف من الأحرف العربية، ولكن الملفت للنظر أنه يوجد حرف من بين ١٢ حرف المكتوب هنا مكتوب بشكل بارز كما يوجد خط باهت يصل بين المؤشر والحرف البارز..

ينظر الشيخ "عمر" بعناية للمخطوطة وهو يستمع لما يقوله "ميشيل" ثم يقول: تمامًا، وهذا مكرر في الدوائر الأربع المرسومة على المخطوطة..

ماريا: هل برأيكم أن ذلك قد يدل على رموز شيفرة فتح قفل الصندوق؟!

ثم تنظر للشيخ "عمر" وهي تقول: ماهي الأحرف البارزة الموجودة المرسومة هنا شيخ "عمر"؟؟

يدقق الشيخ "عمر" في المخطوطة وهو يتمتم قائلًا: المؤشرات هنا تدل على الأحرف التالية:

(ص.. ل.. ا.. ح..)

والمؤلفة لكلمة.. لا بل المؤلفة لاسم.. صلاح!!

ماريا: اسم "صلاح"!! ماذا تقصد؟؟

ميشيل: حسنًا دعونا إذن نجرب فك القفل ونقوم بتوجيه المؤشرات الموجودة على الصندوق إلى تلك الأحرف أو الرموز ونرى..

يوافق الجميع على فكرة "ميشيل" ويساعدون في تحريك وتوجيه تلك المؤشرات الموجودة أعلى الصندوق نحو جهة الأحرف (..ص.. ل.. ا.. ح..) وفق المخطوطة التي وجدوها..

وعند تحريك المؤشر الرابع نحو جهة الحرف (..ح..) يسمع الحضور صوت طرقعة خفيفة تصدر من داخل الصندوق.

فتنظر "ماريا" باندهاش إلى ذلك الصندوق وهي تقول:

ماهذا الصوت الذي خرج منه؟؟

حينها يتبسم الشيخ "عمر" قائلًا: أظن أن هذا الصوت يعني أننا عندما قمنا بتوجيه المؤشرات الموجودة أعلى هذا الصندوق في اتجاه الأحرف التي وجدناها في تلك المخطوطة؛ قمنا بحل رموز شيفرة قفل الصندوق التي قد تفكك عبرها تشابك المسننات..

وذلك يعني.. ويتابع الشيخ "عمر" حديثه وهو يحاول فتح الصندوق وهو يقول: يعني.. أن القفل قد تم فتحه كما نرى هنا..

ثم يقوم بدفع غطاء الصندوق ويرفع ذلك الغطاء لينفتح الصندوق كاملًا ويبتسم الشيخ "عمر" ابتسامة عريضة ويقول بعد فتحه للصندوق: نعم هذا هو الشيء المنطقي..

يقترب الجميع من الصندوق الذي فُتح للتو وقد انتشر منه غبار كثيف كصندوق قديم مغلق لم يفتح منذ عشرات السنين.. وقد علته طبقات كثيفة من الغبار والأتربة من حوله..

تنظر "ماريا" لذلك الصندوق مندهشة وهي تقول:

إذًا هكذا تعمل تقنية هذا القفل الغريب!!

يتأمل "ميشيل" باهتمام في ذلك الصندوق ويقول: إنه شيء مدهش حقًا.. دعونا نرى ماذا يوجد في داخل هذا الصندوق..

ويبدأ الشيخ "عمر" بإفراغ محتويات الصندوق الذي كان قد وُضع في أعلاه من الداخل علمًا تركيًا قديمًا..

ثم يُدخِل الشيخ "عمر" يديه إلى داخل الصندوق ويخرجها وهو يمسك كتابًا بين يديه ويحمله بكل هدوء..

تنظر "ماريا" نحو الكتاب قائلة: هذا كأنه كتاب.. ماهو هذا الكتاب؟؟

يقوم الشيخ "عمر" بمسح الغبار من على ذلك الكتاب ويتأمله ثم يقربه من وجهه ويقبله ويضعه جانبًا وهو يقول: هذا "قرآن كريم".. كتاب المسلمين..

ويهز "ميشيل" و"ماريا" رأسيهما تعبيرًا عن تفهمهما لاحترام الشيخ "عمر" لذلك الكتاب.. وتتابع عيناهما النظر داخل الصندوق الذي لم يعد فيه إلا قميصًا أبيضًا وبنطالًا عسكريًا قديمًا ودفترًا متوسط الحجم ذا غلاف جلدي قديم بني اللون..

يمسك الشيخ "عمر" بالموجودات ويخرجها من الصندوق ويقول:

هذا على ما يبدو أيها السادة إرث العريف "حسن الإغدرلي" الأخير..

يلتفت "ميشيل" بعينيه باتجاه الدفتر القديم ثم يمسك به ويحمله ويقوم بتصفح صفحاته القديمة بعناية.. وفجأة، وبينما يقوم "ميشيل" بتصفح ذلك الدفتر القديم تسقط من بين طيات صفحاته على الأرض صورة قديمة يلتقطها "مصطفى" من على الأرض وهو يصرخ مندهشًا ويقول:

هذه صورة العريف "حسن الإغدرلي"!

يمسك الشيخ "عمر" بتلك الصورة ويتأملها جيدًا ثم يقول: نعم إنه هو.. العريف العثماني "حسن الإغدرلي".. نعم هذه صورته..

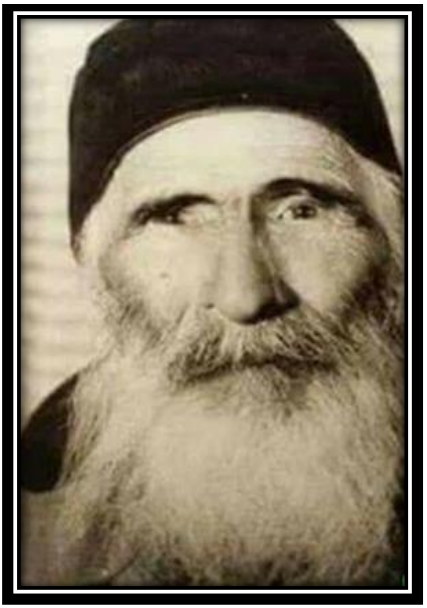

ينظر "ميشيل" و"ماريا" نحو تلك الصورة القديمة والتي انعكس عليها وجه شيخ عجوز قد غزا الشيب كل شعره و كذلك ذقنه البيضاء الطويلة.. ويظهر من تحت عينيه الغائرتين وجه قد ملأته التجاعيد العميقة التي بدت وكأنها تمثل كل تلك السنوات الطويلة التي بقي فيها واقفًا بمفرده غريبًا عن الجميع، إلا عن ذلك المكان الذي بقي يحرسه حتى توفي وحيدًا غريبًا..

وكأن تلك التجاعيد التي غمرت وجهه تتكلم عن تاريخ قديم وضائع لهذا الرجل وقصة وفائه العجيب.. يكرر الشيخ "عمر" ما قاله بعد أن تمعن بكل تفاصيل تلك الصورة: نعم.. كما قلت لكم إنها صورة العريف "حسن" رحمه الله..

تقول "ماريا" بتأثر:.. فلترقد روحه في سلام..

ميشيل: نعم فلترقد روحه في سلام..

ويتابع "ميشيل" تصفحه للدفتر القديم الذي وجدوه في الصندوق ثم يقول: يوجد هنا بعض الصفحات كتب عليها بلغة وبأحرف عربية كما أعتقد..

يقول الشيخ عمر: دعني أنظر لو سمحت.. وينظر الشيخ "عمر" في صفحات ذلك الدفتر وإلى ما كتب عليها ثم يقول: نعم، إنها أحرف عربية لكنها ليست لغة عربية بل هذه عبارات قد كتبت باللغة التركية القديمة، أو اللغة العثمانية، حيث كانت اللغة الرسمية المعتمدة لدى دولة "الخلافة العثمانية" جنبًا إلى جنب مع اللغة العربية، وهي لغة مختلطة تجمع كمًّا هائلًا من المفردات العربية والتركية والفارسية، وتُكتب بأبجدية عربية مع بعض التعديلات على أشكال بعض الأحرف، وبعض القواعد التي تَحكم قراءة تلك الأحرف بطرق مختلفة في الأماكن المختلفة.

تلتفت "ماريا" نحو الشيخ "عمر" وتقول: هل يمكن أن تقرأ هذه اللغة شيخ "عمر"؟؟

يجيب الشيخ "عمر": طبعًا، أنا أعرف هذه اللغة، بالإضافة للعربية والإنكليزية والعبرية، وشيءٍ من الفرنسية و الفارسية وأقرأ اللغة التركية القديمة كونها لغة الدولة العثمانية رغم أنها لم تعد اللغة الرسمية التركية وذلك لمعرفة وقراءة تاريخ المنطقة.. فهذه اللغة التركية العثمانية أو كما كان يطلق عليها (لسانِ عثمانِى) كانت تستخدم على النحو الإداري، وكانت اللغة الأدبية للإمبراطورية العثمانية..

ثم ينظر إلى الدفتر القديم الخاص بالعريف العثماني "حسن الإغدرلي" من جديد وهو يتصفح ما كتب على صفحاته ويقول:

من الواضح أن العريف "حسن" قد كتب هنا بعض مذكراته.. دعونا نعود للمكتب ونقرأها بهدوء..

يوافق الجميع على الفكرة ويقومون بالتوجه عائدين إلى مكتب الشيخ "عمر" بعد أن أخذوا الصندوق وأغلقوا باب الغرفة التي أعادوها كما كانت.

ويجلس الجميع في مكتب الشيخ "عمر" ليرتاحوا قليلًا ويتنفسوا هواءً نقيًا بعد كمية الهواء المشبع بالرطوبة والغبار في تلك الغرفة المنسية من سنين طويلة..

بينما الشيخ "عمر" يأخذ بتصفح دفتر مذكرات العريف "حسن" من جديد.. ثم يبدأ بالقراءة بصوتٍ عالٍ ما كتبه العريف "حسن" العثماني قائلًا: اسمعوا أصدقائي ماذا كتب المرحوم "حسن" في هذا الدفتر كمذكرات وملاحظات دونها بنفسه باللغة العثمانية القديمة..

إذ يقول المرحوم "حسن الإغدرلي": (حينما سقطت دولتنا العزيزة تركنا القدس وقد كانت تحت سيطرتنا طوال ٤٠١ عاما و٣ أشهر و٦ أيام.. والتاريخ يشير إلى ٩ كانون الأول ١٩١٧م، لا يمكن نسيان هذا التاريخ بتاتًا.. الجيش العثماني متشتت، وهو في طريقه إلى الإنسحاب.. وفي سبيل عدم حصول نهب وسلب في مدينة القدس ترك جيشنا وحدة لحين دخول الجيش الإنكليزي إلى القدس.

ومن عادة الجيوش المنتصرة أن لا تعامل مثل هذه الوحدات التابعة للجيش المنهزم معاملة الأسرى عندما تدخل إلى المدن التي تحتلها..

أنا من أفراد هذه الوحدة التي تركها الجيش العثماني..

أنا العريف "حسن الإغدرلي" من الفيلق الـ ٢٠، اللواء الـ ٣٦، الفوج الـ ٨.. آمر رهط الرشاش الـ ١١.

إلى من يقرأ كلماتي هذه وهو يحمل دفتري هذا، فهذا يعني أنني قد انتقلت من هذه الدنيا الفانية إلى دار الخلود وعندها ستعود روحي مع كلماتي

هذه إلى الأناضول.. فأرجو ممن يقرأ هذه الكلمات أن يذهب إلى قرية "سنجق توكات"، فهناك ضابطي النقيب "مصطفى" الذي أودعني هنا حارسًا على المسجد الأقصى، ووضع الأمانة في عنقي.. فقبِّل يديه نيابة عني إن كان حيًا أو تراب قبره إن انتقل لرحمة الله وقل له:

سيدي الضابط، إن العريف "حسن الإغْدِرلي" رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الحارس في المسجد الأقصى، بقي قائمًا على حراسته في المكان الذي تركته فيه منذ ذلك اليوم ناظرًا للأمانة حتى بعد الحريق، ولم يترك نوبته أبدًا.. وإنه لَيرجو دعواتكم.. لقد بقيتْ وحدتُنا كلها في القدس.. لأننا ما رضينا أن يقول الناس "تخلت الدولة العثمانية عنا"..

أردنا ألا يبكي المسجد الأقصى بعد أربعة قرون.. أردنا ألا يتألم سلطان الأنبياء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.. و لم نرض أن يستغرق العالم الإسلامي في مأتم وحزن.. لقد تعاقبت السنون الطويلة ومضت كلمح البصر.. ورفاقي كلهم انتقلوا إلى رحمة الله تعالى واحدًا واحدًا.. لم يستطع الأعداء أن يقضوا علينا، وإنما القدر والموت..

وها أنا ذا العريف "حسن" لا زلتُ على وظيفتي حارسًا على القدس الشريف.. حارسًا على المسجد الأقصى..

قولوا لضابطي أن العريف "حسن" رفض الإنسحاب، أو العودة إلى دياره، لأن القدس فوق الأوامر، وقد عاش معمرًا في باحات المسجد الأقصى هناك خوفًا من ملامة القدير، في يوم لاينفع فيه الرد والتفسير حتى توفاه الله إلى رحمته).

انتهت كلمات العريف "حسن الإغدرلي".. يقول الشيخ "عمر" بتأثر بالغ..

و"ميشيل" يستمع بإنصات واهتمام لما كان يقرأه الشيخ "عمر" من الكلمات الأخيرة التي كتبها العريف "حسن الإغدرلي"، ثم يقول وقد بدا عليه بعض التأثر: إنها رسالة فيها من المعاني الإنسانية ما يؤثر بالنفوس حقيقة..

وكأن التاريخ هو من يتكلم الآن.. وإني أرى أن ما كتبه "حسن الإغدرلي" لهو وصية إنسانية أكثر منها رسالة..

تقول "ماريا" بحزن: نعم، انظروا لما كتبه في دفتر مذكراته، فبالرغم من نسيان العالم له طوال ٦٥ عامًا إلا أنه ظل محبًا لوطنه ومتمسكًا بأداء واجبه ولم يترك مكانه..

تدمع عينا "مصطفى" وهو يقول: ليرحمك الله يا عم "حسن"

الفصل الثالث والعشرون

في تلك الأجواء المؤثرة والتي تأثر فيها الجميع لما قرأه الشيخ "عمر" من الكلمات التي كتبها الجندي العثماني العجوز "حسن الإغدرلي"، يغلق الشيخ "عمر" بتأثر ذلك الدفتر القديم بعد قراءة تلك الكلمات، والتي حرص "ميشيل" على إعادة كتابتها في دفتر ملاحظاته..

وبعد أن أغلق الشيخ "عمر" ذلك الدفتر القديم، نظر متأملًا في صورة العريف "حسن" وهو يقول:

لترقد روحك بسلام عند مليكٍ مقتدر أيها الإنسان الطيب الوفي..

تلتفت "ماريا" نحو الشيخ "عمر" وهي تراه يقوم بوضع ذلك الدفتر جانبًا وتقول: لقد أثرّت فينا تلك الكلمات كثيرًا وخاصة بعد كل هذه السنوات الطويلة والتي كاد بها أن يضيع فيها إرث ذلك الرجل الوفي، فعبر تلك الكلمات معاني عميقة الأثر..

وتتابع وهي تنظر لذلك الدفتر وتقول للشيخ "عمر": حضرة الشيخ المحترم برأيي وقبل أن نضع ذلك الدفتر جانبًا حيث قد يعود منسيًا كما كان، ألا يتوجب علينا أن نتفحص باقي الصفحات بدقة عسى أن نجد معلومات أو كلمات أخرى نستطيع عبرها أن نفهم معنى كلمات رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر" حين قال له: "اتبع أثر المنبر.. وإرث وأثر آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين".. والتي قطعنا مسافة كبيرة متتبعين ذلك الأثر بحثًا عن دليل ما، يساعدنا في إثبات براءة "أحمد" من جريمة مقتل المسيو "عازر موسان".

ينتبه الشيخ "عمر" لما تقوله "ماريا" ويقول: معك حق، فقد أثَّرت تلك الكلمات في نفوسنا لدرجة أننا قد سهونا عن الهدف من ذلك البحث، فاعذري لي ذلك السهو من فضلك..

ويمسك دفتر مذكرات العريف "حسن" من جديد ليتفحص باقي الصفحات بعناية ويتوقف عند إحدى الصفحات والتي يبدو أنه قد أُلصق بها ظرف صغير مصفر اللون..

فيقوم الشيخ "عمر" بتفقد ما يحتويه ذلك الظرف الصغير ليجد فيه ورقة قديمة تحتوي في داخلها على صورة قديمة..

تنظر "ماريا" نحو تلك الصفحة باهتمام وتقول:

ماهذا الظرف الصغير المثبت على تلك الصفحة؟؟

يجيب الشيخ "عمر": إنه ظرف مُلصق بالصفحة ومكتوب على وجه الصفحة المقابلة له باللغة العثمانية القديمة كلمات يبدو أنها بخط العريف "حسن" وأخذ يتمتم بقراءة تلك الكلمات بصوت خافت..

ثم يتابع قائلًا: حسنا أيها السادة، إنها فعلًا كلمات كتبها أيضًا العريف "حسن" ويقول فيها التالي:

(أبلغوا حضرة النقيب "مصطفى" أن أحد الأصدقاء من الجنود الألمان كان قد أصيب في أحد المعارك وبقي في القدس للعلاج، وقد أخفيته عن قوات الحلفاء، إلا أنه قد تُوفي متأثرًا بجراحه، وأنه قد أبلغني قبل أن يموت سرًا أراد مني أن أبلغكم به، وهو أن الإمبراطور الألماني "ويليام" الثاني قد أعاد كتاب العلم المسروق من عهد "فريدرتش" الثاني إلى السلطان "صلاح الدين الأيوبي".. وأني على يقين بإذن الله أنه سيأتي يوم ونسترجع تلك الأمانة عندما نعيد القدس وبلاد الشام من أيدي الأعداء).

تنظر"ماريا" نحو "ميشيل" مستغربة مما يقرؤه الشيخ "عمر" وتقول:

لكن ماذا يعني ذلك؟؟

الشيخ عمر: وفق ما كُتب هنا.. يتحدث العريف "حسن" عن سر كان قد أبلغه إياه أحد الجنود الألمان في الحرب العالمية الأولى وفق ما يبدو، وقد تحدث فيه عن إعادة كتاب كان قد سُرق في عهد "فريدرتش" الثاني وقد أعاد ذلك الكتاب الإمبراطور "ويليام" الثاني إلى السلطان "صلاح الدين الأيوبي".

ويتابع الشيخ "عمر" كلامه وقد ظهر عليه التعجب البالغ وهو يقول: كيف يتحدث عن إعادة كتاب ما؟ كيف ذلك! فكل حاكم من الحكام المذكورين من عصر مختلف! في الحقيقة فعلًا إنه لغز محّير!

يفكر "ميشيل" بما يقوله الشيخ "عمر" ويلتفت إليه قائلًا: هل يمكن أن نلقي نظرة على الورقة التي في الظرف لو سمحت شيخ "عمر"؟؟

يخرج الشيخ "عمر" من ذلك الظرف الصغير ورقة مطوية وقد اصّفر لونها من مرور الزمن عليها والتي احتوت بداخلها على صورة قديمة كذلك..

وينظر الشيخ محاولًا قراءة ما كتب فيها ثم يقول: إنها مكتوبة بلغة ليست إنكليزية، وكذلك ليست فرنسية على ما يبدو ومرفقة بصورة قديمة لرجل وامرأة..

يقترب "ميشيل" من الشيخ "عمر" وهو ينظر باهتمام ودهشة قائلًا:

دعني أطَّلع عليها رجاءً..

يدفع الشيخ "عمر" بتلك الورقة والصورة القديمة التي كانت في داخلها برفق وعناية نحو "ميشيل" والذي بدأ يتمعن ويتأمل في الصورة المرفقة ويمسك بتلك الورقة محاولًا فهم ماكُتب عليها ثم يقول مذهولًا:

يا للعجب.. نعم.. إنها صورة قديمة للإمبراطور الألماني "ويليام" الثاني وزوجته، وهذه الورقة عبارة عن رسالة مكتوبة باللغة الألمانية وهي كما يبدو من ذلك الجندي الألماني الذي تحدّث عنه العريف "حسن" في دفتر مذكراته في الصفحة المقابلة حيث ألصق ذلك الظرف الصغير..

تستمع "ماريا" وهي مندهشة لما يقوله "ميشيل" ثم تقول:

ميشيل، هل ما تقوله صحيح!!

يجيب ميشيل: نعم هذا ما أراه أمامي..

تتابع "ماريا" وهي تسأل: إذا هل يمكن أن تقرأ لنا ما ورد في تلك الرسالة لو سمحت؟؟

ينظر "مصطفى" نحو "ميشيل" مذهولًا كذلك لما يسمعه، وكذلك يلتفت الشيخ "عمر" نحو "ميشيل" متعجبًا وهو يقول: نعم سيد "ميشيل" هل يمكن أن تقرأ لنا ما كُتب في هذه الورقة؟؟

يجلس "ميشيل" على أحد المقاعد في مكتب الشيخ "عمر" قائلًا: نعم، إنها تعود للعام ١٩١٨م وقد كتبت باللغة الألمانية وقد جاء فيها التالي:

(أنا الرائد "ألفريد غيرد" من الجيش الألماني الثامن، كنت ضمن مهمة مع القوات العثمانية في معركة القدس ضد القوات الإنكليزية التي وقعت في الفترة ما بين ١٧ نوفمبر إلى ٣٠ ديسمبر ١٩١٧م، وقد أصبت إصابة عجزت بعدها عن الحركة خلال تلك المعركة..
وقد كنت منذ ٢٠ عامًا من المرافقين الشخصيين والمسؤول عن أمن الإمبراطور "ويليام" الثاني في زيارته التاريخية لعدد من الولايات العثمانية بدعوة من السلطان العثماني "عبدالحميد الثاني"، وكنت شاهدًا على الحفاوة البالغة التي لقيها الإمبراطور ومرافقيه في تلك الزيارة، وخاصة في دمشق.. والتي كان لها بالغ الأثر لدى الإمبراطور "ويليام" الثاني وزوجته ومرافقيه..

والآن وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التي انتهت بهزيمة قواتنا ونفي الإمبراطوار.. لم يسأل عني أحد، ولا أعرف ما هو مصير الإمبراطور..

ولا إن كنت سأشفى من إصابتي البالغة أم لا..

لذلك كان لا بد لي من أن أخبر الصديق الوحيد الذي اعتنى بي وهو العريف "حسن الإغدرلي" من حامية المسجد الأقصى العثمانية والذي لم يترك سلاحه ومكانه وتكبد المخاطرة في تقديم العناية لي، عن سر لا يعرفه أحد غيري إلا جلالة الإمبراطور الذي أجهل مصيره الآن..

لذلك وجدت أنه لا بد لي من أن أفصح لهذا الصديق البطل بسر كنت المؤتمن الوحيد عليه حتى يتم الإعلان عنه رسميًا لكن القدر غير مجرى الأحداث رأسًا على عقب..

لذلك أخبر صديقي الذي اعتنى بي قبل أن يخطفي الموت بسري التالي:

حيث كنت مكلفًا بمهمة سامية سرية من الإمبراطور "ويليام" الثاني، أراد عبرها جلالة الإمبراطور تقديم عربون صداقة وعهد تاريخي لحلفائه في الدولة العثمانية وذلك بإعادة كتاب العِلم المسروق من عهد "فريدريش" الثاني إلى الأمة التي سرقت منها تلك العلوم، وتسليمها إلى "صلاح الدين الأيوبي" حيثما يكون، وأراد الإمبراطوار أن يعلن عن ذلك في أول انتصار له مع حلفائه في الدولة العثمانية.

وقد قمت بمهمتي على أكمل وجه ضمن زيارة الإمبراطور "ويليام" الثاني لدمشق عام ١٨٩٨م ولكن الأحداث التي سبقت الحرب وما جرى من انهيارات أخَّرت إعلان ذلك، ووجدت أنه من الواجب إبلاغ أصدقائنا العثمانيين عبر العريف"حسن الإغدرلي" حارس المسجد الأقصى عن ذلك السر وتلك الأمانة..

وحيث لم يبقَ غيرنا في وقت غابت فيه الدول والملوك..

تذكرونا بما يليق بتضحياتنا)

الرائد "ألفريد غيرد"

تقف "ماريا" وهي تكاد لا تصدق ما تسمعه وتقول: هذا يعني أننا أمام كلمات توثق أحداثًا تاريخية هامة!

وتابعت قائلة: ولكن ما هو المقصود بكتاب العلم المسروق ومن عهد "فريدريش" الثاني؟!

يرد "ميشيل" قائلًا: "فريدريش" الثاني أو "فريدريك" الثاني هو إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٢٢٠م–١٢٥٠م) وملك صقلية (١١٩٨م–١٢٥٠م) من سلالة "هوهنشتاوفن"، تميز عهده بالصراع مع البابوية من أجل السيطرة على إيطاليا، قاد الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨م–١٢٢٩م) وتوج نفسه ملكًا على القدس عام ١٢٢٩م.

وقد حكم "فريدريك" مملكة صقلية حكمًا جيدًا، وأسس جامعة "نابولي" عام ١٢٢٤م وجعل من جامعة "ساليرنو" أفضل مدرسة طب في أوروبا، وكان طوال حياته في خلاف مع البابوات.

وقد أعجب "فريدريك" الثاني بالثقافة العربية الإسلامية وشجع دراستها والترجمة منها. وأصبحت صقلية في عهده مركزًا هامًا لإنتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، وقد أغضب اهتمامه هذا رجال الدين المسيحيين فاتهموه بالهرطقة والخروج عن الدين..

الشيخ عمر: نعم صحيح ما تقوله، وتقول الروايات أنه كان يتكلم العربية أكثر من لغته الألمانية..

تقول "ماريا" بتعجب: لكن..كيف ذلك؟!

يجيب الشيخ "عمر": نعم بنيتي.. فقبل حوالي ألف عام كان قد نشأ نظام عالمي جديد واندلعت حرب طاحنة على مدينة القدس قاتل فيها الصليبيون ضد المسلمين.. لكن مما لا يعرفه إلا القليل أن المسلمين آنذاك كانوا يمتلكون من التقنيات ما لا يعرفه الأوربيون.. مثل تقنية قفل الصندوق القديم الذي وجدناه في غرفة العريف "حسن".

وفي الحقيقة إن الذي شجع العلوم عند المسلمين هو أنهم سخروها في تطبيق تعاليم دينهم من أجل أن يكون الإسلام ذا مكانة عالية وممارسة العبادة الإسلامية في أحسن الأحوال.

فمثلًا لقد بلغنا من روايات ذلك الزمن فيما بلغنا أن طبيبًا عربيًا حينها قد تم استدعاؤه في زمن الحملة الصليبية إلى حصن صليبي ليشهد بنفسه طريقة معالجة طبيبهم لمرأة تعاني من مرض نفسي، وقد حلقوا لها شعر رأسها ونقش على جلد رأسها رسم الصليب ظنًا منهم أن هذا سيبرؤها

ويعافيها، فبهذه الطريقة كان يتم معالجة الأمراض العقلية عند الأوربيين في حينه..

إذ كانوا يعالجون الأمراض عن طريق السحر والصلوات، بينما الأطباء العرب يجرون لمرضاهم عمليات جراحية معقدة بعد أن برعوا في علم التشريح، مما جعلهم قادرين على إجراء عمليات جراحية في العظام والأعضاء الداخلية وطورو العديد من الأجهزة الميكانيكية التي تساعدهم في فحص مرضاهم..

وفي سنة ١١٩٠م شرع "ريتشارد" قلب الأسد بحملته الصليبية على فلسطين لاسترداد القدس من أيدي المسلمين وتمكن من تحقيق بعض الانتصارات، إلا أنه أخفق في استرداد القدس.. حينها عرض "صلاح الدين الأيوبي" عليه تسوية سلمية، حيث اتفقوا على أن تبقى القدس بأيدي المسلمين مقابل السماح للحجيج النصارى بزيارة القدس، وقد أدى هذا التقارب إلى تدفق العلوم الإسلامية إلى أوربا ولم يعلم المسلمون آنذاك أنهم سيخسرون بهذا تفوقهم العلمي، وقد استفادت أوروبا من ذلك، فها هي العلوم والتقنيات الإسلامية تصل إلى أوروبا وللعالم المسيحي وبالأحرى إلى مقر الإمبراطور الروماني "فريدريش" الثاني والذي ترعرع بين المسلمين وكانت عربيته أفضل من ألمانيته والذي كان في مأزق حينها، فالكنيسة تحرضه كقيصر ألماني مسيحي على الشروع بحملة صليبية لاسترداد القدس، وهو يشعر أنهم أقرب إليه من أبناء جلدته..

ولم يكن هذا السبب الوحيد لنقد الكنيسة له إذ أنه كان يدرس علاوة على ذلك في العلوم والتقنيات كانت الكنيسة ترى أن ذلك العمل كفر.

لقد كان "فريدريش" شديد الإعجاب بالعلوم الفلكية الإسلامية حيث كانوا يستخدمون ساعات دقيقة لمراقبة مسارات النجوم والكواكب..

وفي سنة ١٢١٥م كانت مدينتَي "كوربو" و"توليدو" في الأندلس بالإضافة إلى "باليرمو" أحد أهم مراكز العلوم الإسلامية والسبب في ذلك هو القيصر الألماني "فريدريش" الثاني، الذي كان يمقت الأوروبيين المتخلفين ويشجع الحضارة والعلوم العربية.. لذلك كان الشوكة في حلق الكنيسة آنذاك والتي كانت تسعى في سرقة العلوم الإسلامية من جهة ومنع مشروع التقارب بين الأديان من جهة أخرى..

وهنا استولوا على كتب العلماء العرب وسرقوها وقاموا بترجمتها في المدينة الإيطالية "ساليرنو"، ويقال أنه قد تمت ترجمة خمسة وعشرين مجلدًا في "ساليرنو" إلى اللغة اللاتينية دون ذكر أسماء مؤلفيها الحقيقيين..

تندهش "ماريا" مما تسمه وتقول بتعجب: ماذا!!

الشيخ عمر: نعم ابنتي.. هذه الحقيقة للأسف.

يتابع "ميشيل" قائلًا: نعم، هذا صحيح للأسف.. لقد كان هذا نهجًا عاديًا في أوروبا العصور الوسطى، وقد قرأت الكثير من الدراسات التي تؤكد اكتشاف أن هذه الكتب كتبها علماء عرب وترجمت بعد سرقتها..

ويتابع الشيخ "عمر" قائلًا: وبموت "فريدريش" سنة ١٢٥٠م مات أكبر مشجع للعلم في أوروبا وهذه فرصة الكنيسة لإنهاء التقارب مع المسلمين ونبذ علمهم..

ميشيل: تمامًا.. ووفق الدراسات صادرت الكنيسة حينها كتب ومخطوطات ورسومات ونماذج علمية لـ"فريدريش" التي أخذها من العرب وعكف على دراستها، وهكذا بدأت أكبر عملية سرقة للعلم والمعرفة في تاريخ البشرية وتم نفي العلماء المسلمين من البلاط..

ماريا: إذًا أظن أن المقصود من رسالة ذلك الجندي الألماني أصبح واضحًا، إذا كان يقصد أن الإمبراطور الألماني "ويليام" الثاني قد أعاد كتاب العلم المسروق من عهد "فريدرتش" الثاني!

الشيخ عمر: تمامًا.. فعلًا إنه شيء عجيب جدًا!!

ماريا: نعم فقد قال ذلك الجندي الألماني حرفيًا:

(كنت مكلفًا من الإمبراطور "ويليام" الثاني بإعادة كتاب العلم المسروق من عهد "فريدريش" الثاني إلى الأمة التي سُرقت منها تلك العلوم، وتسليمها إلى "صلاح الدين الأيوبي" حيثما يكون، وقمت بذلك على أكمل وجه ضمن زيارة الإمبراطور "ويليام" الثاني لدمشق.."

وتتابع "ماريا" وهي تنظر إلى "ميشيل والشيخ "عمر" قائلة:

تمعنوا رجاءً في هذا، لقد قال أنه أعاد كتاب العلم المسروق إلى الأمة التي سُرقت منها، وبعد ما عرفناه الآن من رسالة الجندي الألماني يعني ذلك بأنه قد أعاده للعرب المسلمين ولكن كيف سلمها لصلاح الدين الأيوبي الذي كان قد مر على وفاته وقتها ما يقارب ٨٠٠ عامًا أو أكثر!! والزيارة التي قام بها الإمبراطور الألماني "ويليام" الثاني للولايات العثمانية آنذاك كانت كذلك في العام ١٨٩٨م!!

يقول الشيخ "عمر" معقبًا على ما قالته "ماريا": نعم إنه لغز محير فعلا!! وخاصة أنه حدد ذلك ضمن زيارة الإمبراطور "ويليام" الثاني لدمشق وهذه الزيارة كما نعرف أنها كانت في العام ١٨٩٨م وقد زار القدس أيضًا حينها..

ينهض "ميشيل" من مكانه موجهًا حديثه للشيخ "عمر": إنها معلومات كثيرة ومتشعبة فعلًا وبحاجة لتأمل دقيق ودراسة وافية.

وقد مضى اليوم علينا سريعًا، وأظن أننا قد أتعبناكم والعم "مصطفى" اليوم، ونُقدر كم الأعمال التي تقع على عاتقكم، لذلك اسمحوا لنا بأن نستأذن منكم الآن لنعود لبعض متابعاتنا ونرتاح قليلًا وسنبقى على تواصل..

يقول الشيخ "عمر" وهو يصافح "ميشيل" بحرارة: بل نحن الذين نشكركم لأنكم كنتم سببًا في إعادة توجيه الضوء على تفاني ذلك الإنسان الذي وقف حارسًا لسنين طويلة وكان وفيًا في عهده ومخلصًا في تنفيذ مهامه..

ويتابع قائلًا: ولكم كل الاحترام وكامل الحرية في التحرك، وقد أصبحتم الآن تعرفون مكتبي ومنزلي ومُرحبٌ بكم على الدوام، وهذه بطاقة أرقامي لأي مساعدة وتواصل..

تقف "ماريا" لتحيي الشيخ "عمر" مودعة وهي تقول: شكرًا لك شيخ "عمر"، وشكرا للعم "مصطفى" كذلك على جهده معنا.

وقبل أن يخرج من المكان يلتفت "ميشيل" نحو الشيخ "عمر" وهو يقول: هل يمكن شيخ "عمر" أن يبقى معي دفتر العريف "حسن" والمخطوطة هذه الليلة لأراجع بعض التفاصيل بعناية؟؟

يجيب الشيخ "عمر": بكل سرور.. فأنتم من نفضتم الغبار عن هذا الإرث المهم.

يرد "ميشيل" مبتسمًا: كل الشكر والاحترام لك شيخ "عمر" والشكر الجزيل لمساعدتكم ووقتكم الثمين.

ويخرج "ميشيل" و"ماريا" من رحاب المسجد الأقصى باتجاه الفندق وهما يسيران من جديد سالكين ذلك الطريق المليء بالمصلين والمحفوف بالصلوات من كل الجوانب.

الفصل الرابع والعشرون

في مساء ذلك اليوم، وبعد استراحة قصيرة يجلس "ميشيل" في شرفة غرفته في الفندق الذي يقيم فيه في القدس مع "ماريا" وهو منهمك في التفكير، ويقوم بمراجعة تلك الكلمات التي نقلها من دفتر مذكرات العريف "حسن" ويتمتم وهو يقرأ كلمات العريف "حسن الإغدرلي":

"سيدي الضابط، إن العريف "حسن الإغْدِرلي" رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الحارس في المسجد الأقصى، بقي قائمًا على حراسته في المكان الذي تركته فيه منذ ذلك اليوم ناظرًا للأمانة حتى بعد الحريق، ولم يترك نوبته أبدًا.. وإنه لَيرجو دعواتكم"..

ويسترجع كذلك رسالة الأب "باولو" ويرددها مرارًا: "اتبع أثر المنبر.. وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز".

والإصحاح الأول في سفر التكوين هو..

هنا يتوقف ميشيل فجأة.. ويعيد قراءة الرسالة وهو يعيد كتابة كلمات: "اتبع أثر المنبر.."

ثم يكتب كلمات العريف "حسن":

" ..سيدي الضابط، إن العريف "حسن الإغْدِرلي" رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الحارس في المسجد الأقصى، بقي قائمًا على حراسته في المكان الذي تركته فيه منذ ذلك اليوم ناظرًا للأمانة حتى بعد الحريق ، ولم يترك..

وينهض "ميشيل" من مكانه وهو يردد: " اتبع أثر المنبر (لكن المنبر احترق)..

ويقرأ من جديد: رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الحارس في المسجد الأقصى، بقي قائمًا على حراسته في المكان الذي تركته فيه منذ ذلك اليوم ناظرًا للأمانة حتى بعد الحريق، ولم يترك.. ولم يترك نوبته أبدًا!!

يفكر "ميشيل" بصمت عميق مفاجيء فيما يقرؤه.. ثم يخرج من تلك الشرفة وهو يركض باتجاه غرفة "ماريا" ويطرق باب غرفتها بلهفة شديدة فتفتح "ماريا" الباب مذعورة وهي تنظر إلى "ميشيل" وتقول:

"ميشيل" ما بك!! ماذا هناك؟؟

يجيب "ميشيل" وهو يقول متحفزًا: اسمعي "ماريا".. سأقرأ لك شيئًا وأريد أن تركزي جيدًا فيما سأقرؤه وبدأ يقرأ ويقول:

"اتبع أثر المنبر.."

ثم يتوقف ويتابع: "رئيس مجموعة الرشاش.... ولم يترك.نوبته أبدًا"!!

تنظر "ماريا" لميشيل متعجبة: نعم.. وماذا في ذلك؟!

يرد "ميشيل": سأقول لك ماذا في ذلك.. لكن الأن تجهزي بسرعة فيجب أن نذهب لنرى الشيخ "عمر".

ماريا : الشيخ عمر!! لماذا؟؟ ألا تلاحظ أن الوقت متأخر!!

يجيب "ميشيل": "ماريا" لا تضيعي الوقت سأتصل بالشيخ "عمر" ولنذهب مباشرة نحو منزله..

بعد دقائق يخرج "ميشيل" و"ماريا" مسرعين باتجاه منزل الشيخ "عمر" الذي اتصل به "ميشيل" طالبًا لقاءه لأمر عاجل وهو الآن في انتظارهما في منزله..

ويصل "ميشيل" و"ماريا" إلى أمام منزل الشيخ "عمر"، ويقوم ميشيل بطرق الباب ليفتح لهما العم "مصطفى" مرحبًا ومازحًا وهو يقول: لقد عرفت أنكم ستذوقون الشاي الذي أعده مرة أخرى، ادخلا فالشيخ "عمر" بانتظاركما..

يدخل "ميشيل" و"ماريا" ليجدا الشيخ "عمر" في استقبالهما بابتسامته المعهودة ويقول:

أرجو أن تكونا بخير.. قولا لي لو سمحتم بداية هل من مشكلة قد طرأت جعلتكما تطلبون لقائي على عجل؟؟

يجيب "ميشيل": أريدك منك شيخ "عمر" بداية أن تستمع معي لهذه الكلمات بتركيز شديد وبدأ ميشيل يقرأ مثلما قرأ على ماريا من قبل..

الشيخ عمر: نعم إنها كلمات من رسالة الأب "باولو" كما أعتقد وكذلك كلمات "العريف" حسن في مذكراته..

ميشيل: تمامًا.. ولكن إذا أمعنت التركيز من جديد في كلمتي " اتبع أثر المنبر".. ومن ثم فيما قاله العريف "حسن" في أنه قد بقي قائمًا على حراسته في المكان الذي تركه فيه قائده منذ ذلك اليوم ناظرًا للأمانة.. حتى بعد الحريق!!

يجيب الشيخ "عمر": نعم، وكما تعلمون فإن المنبر الأصلي الذي وضعه السلطان "صلاح الدين" في المسجد الأقصى قد احترق ولم يبقَ منه سوى بضع قطع صغيرة متفحمة..

ميشيل: نعم، لكن ما لفت انتباهي هنا هي كلمة العريف "حسن" الذي قال فيها: أنه بقي قائمًا على حراسته في المكان الذي تركه فيه قائده منذ ذلك اليوم.. ناظرًا للأمانة.. حتى بعد الحريق، ولم يترك.. نوبته أبدًا.

يقول "مصطفى" مقاطعًا: نعم لقد بقي العريف "حسن الإغدرلي" واقفًا في مكانه المعتاد طيلة ٦٥ عامًا..

يرد "ميشيل" قائلًا : نعم، تمامًا.. وهذا ما أقصده..

الشيخ "عمر": هل يمكن أن توضح أكثر سيد "ميشيل"؟

يجيب "ميشيل": نعم.. لاحظوا معي كلمات العريف "حسن"..

لاحظوا معي كلمات "بقي في نفس المكان الذي يقف فيه".. ثم "حارسًا وناظرًا للأمانة".."حتى بعد الحريق"..

ينظر الشيخ "عمر" لميشيل مستغربًا: إذًا..؟؟

يرد "ميشيل": فالسؤال الذي يفرض نفسه الآن بعد ما سمعتموه مني هو ماذا كان يحرس العريف "حسن" في النقطة التي وقف فيها ولم يتركها طيلة هذه الأعوام؟؟

أو بدقة أكثر، ما هي هذه الأمانة التي نسي العالم فيها العريف "حسن" وهو واقفٌ يحرسها طيلة ٦٥ عامًا؟!

يلتفت الشيخ "عمر" نحو "ماريا" و"مصطفى" ويوجه حديثه لميشيل قائلًا: في الحقيقة وبعد ما قلته قبل قليل فهذا سؤال منطقي يثير الفضول ويفرض نفسه..

ميشيل: إذًا فهل يمكن أن نذهب معًا الأن لمعاينة مكان وقوف وحراسة العريف "حسن الإغدرلي"؟؟

الشيخ عمر: لكن الوقت الآن متأخر وقد قاربنا منتصف الليل..

مصطفى: شيخي لو سمحت لي أعتقد أنه الوقت المناسب لذلك حتى لا نلفت انتباه الآخرين، وخاصة الجنود الإسرائيليين المتواجدين بالقرب من حرم المسجد الأقصى..

ماريا: حسنًا.. وكذلك أرى أيضًا أنه الوقت المناسب للمعاينة بهدوء..

يجيب الشيخ "عمر" وقد اقتنع موافقًا: حسنًا لا بأس، هيا بنا لنذهب.

وينطلق الجميع من منزل الشيخ "عمر" القريب من المسجد الأقصى نحو المسجد، والذي يدخلونه متجهين مباشرة نحو طريق الباحة الثانية من المسجد الأقصى حيث كان يقف العريف "حسن الإغدرلي" صامتًا لعشرات السنين..

وبعد وصولهم يقف العم "مصطفى" أمام تلك المجموعة على حجر ضخم دائري الشكل في طرف الباحة وهو يقول: هنا كان يقف العريف "حسن" ووجهه نحو الباب الأمامي للمصلى، ومن خلفه شجرة النخيل هذه والتي كان يعتني بها ولا يسمح لأحد أن يجلس هنا..

الشيخ عمر: نعم أتذكر ذلك..

يقترب "ميشيل" من ذلك الحجر ويتأمله ويقف أمامه وهو ينظر بشكل دائري من حول النقطة التي كان العريف "حسن" يقف فيها.. ثم ينظر للخلف ليشاهد شجرة نخل ضمن مترٍ مربعٍ من التراب، يحيط به أرضية الباحة الحجرية.. ويقترب من تلك الشجرة وهو يفكر ويقول:

"اتبع أثر المنبر.. وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز"..

وتمتم متابعًا: "اتبع أثر المنبر.." ثم يصمت ويعود ليتمتم قائلًا: "رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة.. ولم يترك.. نوبته أبدًا!!

وبدأ "ميشيل" بتفحص التراب المحيط بشجرة النخيل الموجودة حيث النقطة التي كان يقف فيها العريف "حسن الإغدرلي" ٦٥ عامًا حتى مات منذ قرابة ٣٥ عامًا، ثم يقف متسائلًا: شيخ "عمر" خلال الـ ٣٥ سنة الأخيرة هل تغير شيء في هذا الموقع وفق معرفتكم الدقيقة لهذا المكان؟

يجيب الشيخ "عمر": في هذه الباحة ومن معرفتي الدقيقة بكل تفاصيل هذا المكان المقدس، لا شيء قد تغير.. لكن أعتقد أن هذا الحجر كان قرب الشجرة بالضبط..

مصطفى: تمامًا شيخي، أذكر ذلك حيث كنت ألعب وأركض حول العريف "حسن" وهو جالس على ذلك الحجر وخلفه بالضبط هذه الشجرة.. (ويشير إليها)..

تنظر ماريا نحو ميشيل متسائلة: "ميشيل" مالذي تفكر به؟؟

يقترب "ميشيل" نحو الشجرة ثم يلتفت قائلًا: شيخ "عمر" هل يمكن أن نحفر قليلًا حول هذه الشجرة؟!

يرد الشيخ "عمر" متفاجئًا: تحفر!! لماذا؟ والآن!!

يجيب "ميشيل": إن صدق ما أفكر وحدسي التحليلي أعتقد أننا من الممكن أن نحل لغزًا مهما عمره مئات السنين..

الشيخ عمر: لكن هذا قد يلفت هذا انتباه البعض، ولا تنسَ حساسية المكان الذي نحن فيه.

يقول "ميشيل": طبعًا أقدر ذلك..

لكن ألا تلاحظ معي شيخ "عمر" أن ما حدث وكل ما يحدث مؤخرًا من معلومات وحوادث تكمل بعضها البعض أننا أمام فرصة ذهبية هيأ لنا القدر فيها الوصول إلى شيء هام؟!

ويتابع قائلًا: كن على يقين أن ذلك لن يخرب شيئًا في هذا الموقع واعتبر بأن ما سنقوم به مجرد تقليب التراب من حول هذه الشجرة..

يرد الشيخ عمر: حسنًا.. وحقيقةً أثار كل ما يحدث معنا فضولي مثلك.. ثم يلتفت نحو "مصطفى" قائلًا: أخ "مصطفى" هل يمكن أن تجلب لنا فأسًا وتساعد السيد "ميشيل" في تقليب تربة هذه الشجرة؟؟

يجيب "مصطفى" باسمًا: بكل سرور شيخي، دقائق وأجلب الفأس..

ويهرول مصطفى مسرعًا نحو المستودع الصغير خلف درجات الباحة ليعود بعد دقائق وقد جلب فأسًا، ويقترب ويقف بالقرب من تلك الشجرة حيث يقف الشيخ "عمر" و"ميشيل" و"ماريا" وهو ممسك بذلك الفأس ثم يقول:

من أين تريدون أن أبدأ في تقليب تربة هذه الشجرة؟؟

ينظر "ميشيل " نحو "مصطفى" قائلًا: هل من الممكن أن تقّلب التراب بأقرب نقطة من موقع الحجر الذي كان يجلس عليه العريف "حسن"؟

يرد مصطفى: كما تأمر سيدي.. ويرفع الفأس ويهوي به في التراب من حول الشجرة وهو يقول يا الله..

ويتابع "مصطفى" في الحفر و"ميشيل" يبعد التراب ويتحسس طرف الأرضية الحجرية من حول الشجرة وهو يبعد التراب، و"ماريا" والشيخ "عمر" ينظران إليهما بانتباه بالغ..

بعد وقت قليل من الحفر يتوقف "مصطفى" فجأة عن متابعة الحفر وكأنه قد أحس بوجود شيء غريب..

ينظر "ميشيل" نحو "مصطفى" ويقول: مابك لماذا توقفت؟

يجيب مصطفى: لا أعلم لكني شعرت بأن شيئًا ما قد علق بالفأس!!

يقترب "ميشيل" من مكان الحفر ويهم بإزاحة التراب من أسفل وحول الفأس، ويساعده "مصطفى" في ذلك إلى أن يشعر و كأنه قد لمس شيئا غير التراب..

فجأة يشير ميشيل لمصطفى بالتوقف وهو يقول: لحظة هناك شيئٌ ما فعلا!!

ويتابع إزاحة التراب عن الشيء الذي لمسه بيده ليلمس مقدمة لجسم غريب ملفوف بقطع من قماش الكتان المهترئ وعليه رباط من الحبال الناعمة..

يصرخ مصطفى مذهولًا وهو يقول: ماهذا؟!

ماريا: ماذا.. هل وجدتم شيئًا؟

ينظر كذلك الشيخ "عمر" متفاجئًا وهو يقول: قولوا لنا لو سمحتم ماذا وجدتم!!

يجيب ميشيل: لقد أمسكت بطرف شيء ملفوف بعناية وكأنه عصا سميكة أو عامود ما..

ويتابع قائلًا: لحظة.. لقد أمسكته..

ويبدأ ميشيل بمحاولة إخراج ذلك الجسم الغريب الذي وجده تحت التراب، لكنه يجد صعوبة بالغة في ذلك ثم يقترب أكثر من مكان الحفر وينظر من بين التراب..

ميشيل: ياللعجب!! هذا الشيء ممتد لتحت الأرضية الحجرية الملاصقة لتراب الشجرة.

ثم ينهض وقد غير مكانه ليقف تمامًا كما كان يقف العريف "حسن" ووجهه نحو الباب الأمامي للمصلى القبلي للمسجد الأقصى ثم يمسك بطرف ذلك الجسم الغريب وهو يقول: ساعدوني رجاءً على إخراج هذا الشيء..

ويبدأ الجميع في المساعدة على إخراج ذلك الجسم الغريب ويقومون بسحبه، حتى استطاعوا وبعد صعوبة بالغة من أن يخرجوا جسمًا غريبًا عبارة عن قطعة طويلة مربعة بطول متر أو أكثر قليلًا وعرضها بحدود ٢٠ سم تقريبًا ملفوفة بقطع من الكتان المهترىء والذي تم لفه برباط من الحبال الناعمة..

ينظر الجميع مندهشين لذلك الشيء الذي وجدوه مدفونًا أو مخبأً تحت التراب!! و"ماريا" تقول بتعجب: ماهذا الشيء؟!

ينظر مصطفى وهو منذهل لما يراه ويقول: يا إلهي، ولماذا هذا الشيء مدفون هنا!!

الشيخ عمر: سيد "ميشيل" دعنا نرى لو سمحت ماذا يوجد داخل هذا القماش؟؟

يرد ميشيل: نعم..

وهمّ "ميشيل" والشيخ "عمر" بإزاحة طرف القماش الكتاني الملفوف ليصرخ فجأة الشيخ "عمر" مذعورًا: يالله كيف ذلك؟!

ينظر الجميع إليه بانتباه واستغراب شديد..

ماريا: ماذا رأيتم شيخ عمر؟؟

يرد الشيخ عمر: ياللعجب!! هذه قطعة خشبية من المنبر الأصلي!! إنها من العامود الأيمن للمنبر كما أعتقد، لكن كيف؟؟ ولماذا دُفنت هنا!!

يعقّب ميشيل قائلًا: وكذلك يجب أن نسأل أيضًا، لماذا العريف "حسن" خبأها هنا وماذا كان يعني ذلك؟؟

يلتفت الشيخ عمر نحو ميشيل ويقول: نعم، هناك شيء غريب بالتأكيد ويجب أن نفهمه.. ويتابع كلامه وهو يتوجه نحو مصطفى: أعد ترتيب التراب حول الشجرة من فضلك بسرعة..

ودعونا نذهب من هنا قبل أن نثير الانتباه..

يرد مصطفى قائلًا: نعم شيخي سوو..وف..

وفجأة يتقطع كلام مصطفى لينظر الجميع إليه وهو يسقط على وجهه مغشيًا عليه..

تصيح "ماريا" مذعورة: عم مصطفى ما بك؟!

ويسرع الجميع لمحاولة إنقاذ مصطفى واستيعاب ما حصل له.. حيث يمسك ميشيل بمصطفى وإذا بيده قد امتلأت بالدماء..

فيصيح ميشيل قائلًا: ماهذا؟؟ إنها دماء تتدفق من كتف مصطفى!!

ينظر الشيخ "عمر" إلى جسد "مصطفى" ويقوم بتفقده ثم يصرخ قائلًا: يا الله لقد أصيب بطلقة نارية!!

ماريا: رحمتك يا رب كيف ذلك ونحن لم نسمع صوت إطلاق أي سلاح ناري؟؟

يرد ميشيل وهو يساعد في حمل مصطفى: يبدو أن الطلقة التي أصابته (مشيرًا إلى مصطفى) قد خرجت من مسدس كاتم للصوت..

ثم يتابع قائلًا: لقد أصبح هذا المكان خطرًا ويبدو أننا قد دخلنا في بحثنا هذا في وكر الأفعى!!

يقول الشيخ عمر: نعم، هناك شيء مريب والخطر الآن يحوم من حولنا،

ويتابع قائلًا: اسمع سيد ميشيل خذ ماريا واذهبا من هنا قبل أن ينتبه الجنود الإسرائيليون من موقع تمركزهم القريب لما يجري هنا ولنلتقي صباحًا في منزلي..

يرد ميشيل: كيف لنا أن نتركك هنا شيخ عمر والسيد مصطفى هكذا!!

يجيب الشيخ عمر: لا تقلقا.. اذهبا من هنا بسرعة الآن وأنا سأتدبر الأمر..

تسأل "ماريا" مشيرة إلى القطعة التي وجدوها مدفونة تحت التراب والأرضية الحجرية لباحة الحرم القدسي: وهذه القطعة؟؟

الشيخ عمر: أعتقد أنكم ستستطيعون المحافظة عليها إلى أن نلتقي صباحًا.

يرد ميشيل: بكل تأكيد.. لا تقلق.

الشيخ عمر: إذًا اذهبا قبل أن ينتبه الجنود الإسرائيليون، واحذرا من الطريق، أو إن كان هناك أحد ما يتربص بكما..

تجيب ماريا: حسنًا.. وليكن الله في عوننا جميعًا، كما نرجو السلامة للعم مصطفى..

ويخرج "ميشيل" و"ماريا" من الحرم القدسي مسرعين وهما ينظران من حولهما بحذر شديد متجهين إلى الفندق القريب الذي يقيمان فيه، وميشيل يقوم بإخفاء تلك القطعة التي وجدها مدفونة تحت أرضية الحرم القدسي داخل سترته الجلدية ويلفها عليها بعناية وحذر..

الفصل الخامس والعشرون

وفي هذا الوقت المتأخر من ذات المساء وفي ضاحية من ضواحي باريس حيث منزل "ميشيل" يجلس "أحمد" في غرفة المكتبة وهو منهمك في مراجعة بعض الكتب والبحث عبر شبكة الإنترنت حول كل ما يمكن معرفته من روابط ومعلومات قد تتعلق بمعاني ماجاء في الجملة الثانية من رسالة الأب "باولو" إلى المسيو "عازر" التي كان قد قال فيها:

"الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد.. وليس إيلوهيم راؤول"..

وبينما يتابع "أحمد" البحث والعمل تدخل فجأة "فيرونيكا" مدبرة المنزل إلى غرفة المكتبة حيث يعمل "أحمد" وهي تحمل في يدها كوبًا من القهوة وتنظر إلى إحدى طاولات الغرفة متفاجئة لكون الطعام التي كانت قد أحضرته لأحمد منذ ظهر ذلك اليوم لم يلمسه أحد!!

فتلتفت نحو "أحمد" وهي تقول: مساء الخير مسيو "أحمد".. لقد جلبت لك كوبًا من القهوة التي تفضلها..

لكني أرى أنك لم تأكل شيئًا منذ الصباح!!

وتتابع "فيرونيكا" النظر نحو "أحمد" وهي متعجبة من عدم رده على سؤالها، فقد كان مستغرقًا في قراءة أحد الكتب ويقوم بكتابة بعض الملاحظات على أحد الأوراق الكثيرة أمامه..

وتعيد "فيرونيكا" سؤالها مرة أخرى لكن دون جدوى أو إجابة من "أحمد"..

فتتيقن من أن "أحمد" غارقًا في العمل الذي يقوم به ولم يسمعها ولم يشعر حتى بوجودها.. فتضع القهوة على تلك الطاولة وتخرج بهدوء من غرفة المكتبة..

ويبدو من الواضح أن "أحمد" قد وجد معلومات كثيرة ومهمة ولا تخلو من الغرابة في بحثه هذا الذي يقوم به، والذي جعله ينسى بأنه لم يأكل شيئًا منذ الصباح، حيث كانت كل حواسه مستغرقة في ذلك البحث، وفكره متنقلًا وشاردًا في عوالم تلك الكتب التي يبحث فيها..

فجأة ينهض "أحمد" من على كرسيه وهو يمسك بمجموعة من الأوراق التي يعيد قراءتها بتمعن ثم يقول مبتسمًا:

حسنًا.. لقد أنجزت شيئًا مهمًا اليوم وراجعت الجملة الثانية من رسالة الأب "باولو" التي قالها للمسيو "عازر" وحللت كل كلمة جاءت فيها وقمت ببحث طويل في عدد من الكتب وعبر شبكة الإنترنت، ووجدت هذه المعلومات الغريبة والمهمة..

ويتابع قائلًا: من الضروري أن أقوم بتلخيصها فورًا وكتابتها على شكل تقرير متكامل وواضح المعاني وأرسلها إلى "ميشيل" و"ماريا" عبر البريد الإلكتروني ليطّلعا عليها، ومن ثم نناقش معًا هذه النتائج المذهلة.

بينما أتابع أنا هذا البحث الذي يبدأ بجملة ويكاد لا ينتهي..

ويعود "أحمد" مسرعًا ليجلس على طاولة المكتب ليتابع عمله بتركيز شديد، ويبدأ بكتابة وتلخيص ما توصل إليه من معلومات هامة وكتابة ذلك على شكل تقرير ليرسله إلى "ماريا" و"ميشيل" ليطّلعا عليه ومن ثم مناقشة تلك النتائج معهما..

الفصل السادس والعشرون

بينما في ذات الأثناء وفي مدينة القدس القديمة أجواء يشوبها الخوف والقلق، حيث يدخل "ميشيل" و"ماريا" بحذر إلى الفندق الذي يقيمان به في القدس قادمين من باحة المسجد الأقصى وهما بحالة ذعر وينظران من حولهما نتيجة لما جرى في باحة المسجد حيث ملأت الدماء المكان من حولهم وذلك لإصابة العم "مصطفى" بطلق ناري من مصدر مجهول..

ويتوجهان مباشرة إلى غرفة "ميشيل" حيث يشعرا ببعض الأمان، يأخذ "ميشيل" نفسًا عميقًا وهو يخرج من بين سترته الجلدية تلك القطعة الخشبية الملفوفة بقطع الكتان القماشية، ويقوم بوضعها على طاولة الغرفة وقد علق بها بعض آثار من التراب.. ثم يجلس وهو يتأملها بصمت..

تلتفت ماريا نحو ميشيل وهي تقول بحزن: هل يُعقل أن يحدث مكروه للعم مصطفى ذلك الرجل الطيب؟؟

يجيب ميشيل: أتمنى ألا تكون إصابته خطيرة.. وأتساءل لماذا يتم إطلاق النار علينا؟؟ فأنا في الحقيقة مندهشٌ جدًا لما حدث!! ومن يا ترى قد يكون الفاعل.. ولماذا؟!

وهل كان ذلك المعتدي المجهول يستهدف مصطفى تحديدًا؟!

أم أننا كنا جميعًا مستهدفين؟؟

ترد ماريا بذهول: ماذا تقول!! هل تعتقد ذلك ؟!

يجيب ميشيل وهو ينظر إلى تلك القطعة الخشبية الملفوفة بقطع الكتان المهترىء: كل شيء الآن أصبح ممكنًا، وأعتقد أن السبب في ذلك هو ما

كنا نقوم بالبحث فيه، وأننا كنا جميعًا مستهدفين.. وأن الخطر مازال يحيط بنا، وأشعر أننا قد دخلنا في أجواء لعبة وقصة كبيرة تتوالى ألغازها تعقيدًا..

تقول ماريا: نعم، هناك شيء مريب فعلًا!!

فما حدث مع "أحمد عيسى" في باريس ثم اتهامه بمقتل المسيو "عازر موسان" والكلمات التي وجدناها على دفتر ملاحظات المسيو "عازر" ورسالة الأب "باولو" التي أوصلتنا كلماتها إلى هنا في القدس..

وهذا الشيء الغريب الذي وجدناه هذه الليلة مدفونًا في التراب أسفل المكان الذي كان يقف فيه العريف "حسن" يحرس بصمت لسنين طويلة وقد نسيه العالم..

يوافق "ميشيل" على ما تقوله "ماريا" ويقول: أعتقد معك جازمًا أن هناك ترابط قوي وواضح لكل ما يحدث، ويجب أن نكون أكثر حذرًا من الآن وصاعدًا..

تقول "ماريا" وهي تنظر إلى هاتفها الذي يرن فجأة: نعم معك حق ميشيل..

ثم تتابع قائلة: هناك اتصال.. إنه "أحمد" يتصل بي من باريس..

ترد "ماريا" على هاتفها وهي تقول : هالو أحمد..

يجيب أحمد: مساء الخير ماريا..كيف حالكما؟؟

ماريا: لابأس "أحمد"..كيف حالك أنت؟

يشعر "أحمد" وكأن هناك خطب ما وهو يستمع لصوت "ماريا" والذي شعر عبره بوجود بعض التوتر، فيتابع قائلًا:

ماريا.. ماذا بك؟! لماذا أشعر أن في صوتك شيئًا من التوتر والارتباك؟

تجيب "ماريا" على تساؤل "أحمد" وهي تنظر إلى "ميشيل": لا تقلق إنه مجرد تعب.. وسأخبرك لاحقًا بما حدث معنا وما توصلنا له..

ثم تتابع قائلة: لكن أخبرني الآن، هل توصلت إلى شيء جديد في البحث الخاص بك؟؟

يرد أحمد: حسنًا.. نعم ماريا لقد راجعت جملة رسالة الأب "باولو" التي قال فيها للمسيو عازر: "الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد.. وليس إيلوهيم راؤول"..

وحللت كل كلمة قد وردت فيها وقمت ببحث طويل في عدد من الكتب وعبر شبكة الإنترنت ووجدت أشياءً كثيرة ومهمة سأرسلها الآن على البريد الإلكتروني، وأرجو منكما قراءتها والاطلاع عليها لنعاود التواصل لاحقًا ومناقشتها معًا لكون نتيجة البحث التي توصلت إليها الآن مهمة وخطيرة وكذلك غريبة بعض الشيء!!

ماريا: حسنًا، سنراجع البريد الإلكتروني ونعاود الاتصال بك لاحقًا..

أحمد: حسنًا.. كونا بخير.

ماريا: وأنت كذلك، سأرسل سلامك لميشيل.. مع السلامة

تغلق "ماريا" هاتفها ثم تنظر نحو "ميشيل" وهي تقول: يبدو أن الأبحاث والنتائج تتوالى.. وقد أرسل "أحمد" لنا ملفًا هامًا حول الجملة الثانية من رسالة الأب "باولو" ويقول أنها مهمة جدًا.

يرد ميشيل: حسنًا.. سنراجع ذلك البحث باهتمام.. لكن دعينا نركز الآن على موضوع هذه القطعة التي أمامنا.. ونطمئن على سلامة السيد مصطفى وأن الأمور مازالت تحت السيطرة.. ويتابع قائلًا:

وقبل كل ذلك دعينا نرتاح قليلًا، فالفجر قد شارف على البزوغ..

تنظر ماريا إلى ساعتها وتقول: معك حق ميشيل فالشيخ عمر ينتظرنا صباحًا في منزله..

وتتجه نحو غرفتها وهي تقول لميشيل: تصبح على خير، أراك في الصباح صديقي..

ميشيل: تصبحين على خير ماريا.

الفصل السابع والعشرون

بعد ساعات قليلة، وفي صباح اليوم التالي.. يطرق ميشيل طرقات خفيفة على باب غرفة ماريا في الفندق الذي يقيمان به في القدس القديمة ليوقظها استعدادًا للذهاب إلى منزل الشيخ عمر وفق المتفق عليه..

تفتح "ماريا" باب غرفتها وهي تتثاءب قائلة: صباح الخير ميشيل..

ميشيل: صباح الخير، كيف حالك اليوم؟

ماريا: في الحقيقة لم أنم بشكل جيد.. فمازلت قلقة على العم مصطفى وإصابته المؤسفة بالأمس.

ميشيل: معك حق.. شيء موسف ومقلق بنفس الوقت.. ويجب أن نتوخى الحذر من الآن فصاعدًا في كل خطوة نخطوها..

وتابع قائلًا: هيا إذًا لنتجهز للذهاب إلى منزل الشيخ "عمر" لنطمئن عما حدث مع "مصطفى" ونحاول أن نكتشف معًا سر هذه القطعة التي بين أيدينا وماذا تحتويه، ولماذا خبأها العريف "حسن" تحت التراب كل هذه السنوات الطويلة؟؟

تجيب ماريا: نعم.. دقائق قليلة وأكون جاهزة..

يتابع "ميشيل" حديثه وهو يخرج من غرفتها: حسنًا.. وكذلك لنجهز أيضًا ونعد حقائبنا لنغادر القدس هذه الليلة إن أمكن، وخاصة أنه لم يعد هناك جدوى من بقائنا هنا..

ترد ماريا: حسنًا أوفقك الرأي..

بعد عدة دقائق يخرج "ميشيل" و"ماريا" من الفندق ومعهما القطعة الخشبية التي وجودها مدفونة في التراب تحت أرضية الحرم القدسي في موقع حراسة

العريف "حسن"، والتي خبأها ميشيل ضمن حقيبة يضعها على ظهره كسائح، وهما يتابعا السير في شوارع المدينة القديمة في حالة من الحذر من أي شيء مفاجيء أو غير متوقع، ويتجهان مباشرة نحو منزل الشيخ عمر..

بعد قليل من السير في حارات القدس القديمة وعلى مقربة من حرم المسجد الأقصى يصل "ميشيل" و"ماريا" إلى حيث منزل الشيخ عمر، فيقوم ميشيل بالطرق على باب ذلك المنزل ليفتح لهما الشيخ عمر باب منزله ويشير إليهما بالدخول..

ميشيل: صباح الخير شيخ عمر، أتمنى أن تكون الأمور بخير؟

ماريا: هل يمكن أن تطمئننا لو سمحت كيف هو وضع العم مصطفى؟؟

يجيب الشيخ عمر: الحمد لله استطعنا أن نخرج الرصاصة التي أصابت كتفه، وقد تجاوز الآن مرحلة الخطر وسيطرنا على الموقف الذي حدث معنا بالأمس دون أن نلفت نظر أحد حتى لا ندخل بتفاصيل وتحقيقات لا جدوى منها إلا التشويش..

وتابع قائلًا: وكذلك لنستطيع بهدوء متابعة اكتشاف سر ما أخرجناه من التراب ليلة أمس..

ثم ينظر إلى "ميشيل" متسائلًا: هل أحضرتم تلك القطعة الخشبية؟؟

يجيبه قائلًا: نعم ها هي داخل الحقيبة كما وجدناها أمس، ولم نخرجها من قطع القماش الملفوفة فيها حتى نجتمع معًا ونرى ما وراء هذه القطعة..

يرد الشيخ "عمر" وهو يشير لضيفَيه بالدخول إلى الغرفة الكبرى التي في منزله: بارك الله فيكما، تفضلا بالدخول رجاءً..

يدخلا الغرفة التي أشار لهما الشيخ "عمر" بدخولها ليتفاجآ بوجود شخصين غريبين لم يقابلاهما من قبل..

فينظران إلى الشيخ "عمر" باستغراب..

يتفهم الشيخ عمر ويقول: تفضلا أصدقائي..

اسمحا لي أن أعرفكما إلى أعز صديقين لي في هذه المدينة السيد "جودة" والأب "حنا"..

ميشيل وماريا: تشرفنا أيها السادة..

السيد جودة: أهلًا بكما، لقد حدثنا عنكما الشيخ عمر كثيرًا..

الأب حنا: بارك الرب فيكما وحفظكما من كل سوء.. نعم لقد كنا متشوقين للقائكما..

الشيخ عمر: تفضلا أيها السادة بالجلوس..

يبادر السيد "جودة" بالحديث قائلًا: لقد أخبرنا الشيخ "عمر" عن سبب زيارتكما لمدينة القدس وزادنا ذلك شرفًا للقائكما..

ويتابع الأب "حنا" ويقول: فبالإضافة إلى ذلك يهمنا أن تعرفوا أننا من أصدقاء الأب "باولو" وقد التقيناه معًا، وكذلك المسيو "عازر موسان" هنا في القدس في الثمانينات وبجلسات عديدة أفضت إلى تأسيس نواة مركز لحوار الأديان للمساهمة في نشر وترسيخ رسالة السلام التي تدعو إليها وتجلها جميع الشرائع..

وقد كان سعينا المشترك كذلك العمل في المحافظة على الأماكن المقدسة وتاريخ الحضارات الإنسانية التي عاشت ومرت هنا من على هذه الأرض.

يبتسم "ميشيل" ويقول: في الحقيقة يشرفني شخصيًا التعرف بكما أيها السادة الأفاضل وبما تقومون به من أعمال تساهم في الحفاظ على نتاج التراث والحضارة الإنسانية وخاصة أني من المهتمين بذلك، وأعمل كباحث ومحاضر في تاريخ الحضارات والتاريخ الإنساني والفنون..

وتتابع "ماريا" قائلة: نعم، وأنا لي الشرف كذلك.. فهذه اللقاءات فعلًا توحي لي بفكرة إعداد تحقيق صحفي مهم مع أهم مصادر يمكن أن تتحدث عن تاريخ مدينة تعتبر مهد للأديان السماوية، وقد جمعت على أرضها حضارات إنسانية على مر العصور، وأثرت تأثيرًا كبيرًا في كتابة التاريخ..

الشيخ عمر: معك حق آنسة ماريا، ولهذا أحببت أن يشاركنا اجتماعنا اليوم الأب "حنا "من مجلس إدارة كنيسة القيامة، والسيد "جودة" حامل أمانة مفاتيح كنيسة القيامة وختم القبر المقدس، والذي يعود نسبه إلى نسب الرسول الكريم محمد (ص).

تنظر "ماريا" نحو الأب "حنا" والسيد "جودة" باستغراب وهي تقول:

مفاتيح كنيسة القيامة محفوظة لدى رجل مسلم!!

يبتسم السيد "جودة" ويقول: ربما استغربت الآنسة "ماريا" قليلًا من كوني كمسلم أحمل أمانة مفاتيح كنيسة القيامة في القدس وختم القبر المقدس..

ويتابع "جودة" ذلك الرجل المقدسي والذي ورث الأمانة المقدسة ومفتاح كنيسة القيامة عبر إرث يتوارثه منذ أمد بعيد قائلًا: كنيسة القيامة، هي بيتي الثاني، ففي هذه البقعة المقدسة أشتم رائحة الآباء والأجداد على بوابة تلك الكنيسة المقدسة، ومن هذه البقعة المقدسة ولد نور التآخي الإسلامي المسيحي، فهي مسقط رأس هذا التآخي والذي يبث نوره المقدس إلى أنحاء المعمورة.

ويتابع السيد "جودة" حديثه إلى "ميشيل" و"ماريا" وهو ينظر من النافذة التي تطل على شوارع القدس قائلًا:

فمن هنا ضيفَانا الكريمين بدأت مهمة عائلتي الهاشمية والتي أَرثها عنهم وأفتخر بقيامي بها فعندما حرر "صلاح الدين الأيوبي" مدينة بيت المقدس

من الصليبيين سنة ١١٨٧م قام بإرجاع ممتلكات الكنائس الشرقية لأصحابها المسيحيين وتعهد بأن يحذو حذو الخليفة "عمر بن الخطاب" عندما أعطى الأمن والأمان للمسيحيين في بيت المقدس، وأراد أيضًا أن يحافظ على المعالم الدينية للمسيحيين إلى الأمد الطويل ومنها كنيسة القيامة المقدسة والتي تعتبر من أقدس مقدسات المسيحيين على مستوى العالم، فعهد بمفاتيحها لآل البيت "عائلة آل غضية" الهاشميين المقدسيين، وكانوا في ذلك الوقت شيوخ وعلماء وأشراف بيت المقدس، وذلك لضمان الحفاظ على الكنيسة وعدم المساس بها وبممتلكاتها، ومنذ أن سُلِّمت مفاتيح كنيسة القيامة للعائلة وحتى يومنا هذا لم يحدث أي ضرر لكنيسة القيامة وما حولها من ممتلكات للكنيسة والأمانة، وبقيت كما عهد إلينا بها "صلاح الدين الأيوبي"، ومن واقع احترامنا ومحافظتنا على وصية العهدة العمرية..

ويتابع الأب "حنا" معقبًا على حديث السيد "جودة" ويقول: نعم صدقت أخ "جودة".. فكنيسة القيامة تعتبر من أعرق الكنائس في المسيحية، وقد وصفها المؤرخون بأنها "الجوهرة الثالثة في القدس الشريف بعد قبة الصخرة المشرفة وقبة الأقصى والمسجد القبلي". وسميت بذلك نسبة إلى قيامة المسيح من موته على الصليب، ويحج إليها كل سنة عشرات الآلاف من المسيحيين من مختلف أنحاء العالم..

ويتابع موجهًا حديثه إلى "ميشيل" و"ماريا": يقوم السيد "جودة" بتسليم مفتاح كنيسة القيامة للكنائس المختلفة في عيد الفصح في احتفال مهيب يكون وصفه كالآتي.. ففي خميس الأسرار يستقبله حارس الأراضي المقدسة والكهنة في حراسة الأراضي المقدسة "الفرنسيسكان"، حيث يقوم بتقديم التهاني بعيد الفصح المجيد للكهنة والضيوف المستقبلين له، ويتم تسليم المفتاح لحارس الأراضي المقدسة وبعدها يتحرك موكب مهيب من البطريركية مرورًا بأسواق القدس القديمة ومتوجهًا إلى باحة كنيسة القيامة،

وعند الوصول إلى باب الكنيسة يقوم حارس الأراضي المقدسة بتسليم المفتاح لأحد أفراد عائلة "نسيبة" المسلمة كذلك ليقوم بفتح البوابة المغلقة وليتمكن الموكب والحجاج من دخول الكنيسة وإقامة الصلوات، ويذكر أنه بعد فتح أقفال الكنيسة من قبل أحد أفراد عائلة "نسبية" يقوم بإرجاع المفتاح للسيد "جودة "باعتباره الأمين الحالي من العائلة الهاشمية المقدسية..

وفي يوم الجمعة العظيمة يقوم بتسليم مفتاح كنيسة القيامة لممثل كنيسة الروم "الأرثوذكس" في مقر بطريركية الروم "الأرثوذكس"، وهو نفس احتفال وموكب الكنيسة اللاتينية.

وفي سبت النور يتم تسليم المفتاح بنفس الاحتفال لكنيسة الأرمن "الأرثوذكس" في مقر بطريركية الأرمن..

وفي يوم سبت النور، يقوم رجال الدين من الروم "الأرثوذكس" و"الفرنسيسكان" والأرمن" الأرثوذكس" بالدخول إلى مقمورة القبر المقدس، وبعد الفحص يقوم ترجمان كنيسة الروم "الأرثوذكس" بإغلاق باب القبر المقدس بكتلة كبيرة من الشمع المقدس الساخن، وبعد إحكام الإغلاق يتم الاحتفال بختم القبر المقدس، حيث يقوم السيد "جودة" بوضع ختمه الشخصي على الشمع المقدس..

يبتسم السيد "جودة "وهو ينظر للأب "حنا" ويتابع ما تحدث به قائلًا: تمامًا.. وذلك التوازن الذي حافظت عليه عائلتي هو مثال حي في المحافظة على الأماكن الأكثر قدسية في العالم، وهو إرث القائد المحرر "صلاح الدين الأيوبي" الذي سلم هذه الأمانة لعائلة مسلمة استطاعت حملها رغم كل الصعوبات والمعوقات التي مررنا بها ونمر بها في الوقت الحاضر..

ينظر "ميشيل" بإعجاب لما يسمعه ويقول: إنه حقيقةً لَمثال رائع عن التسامح يستحق أن يُكتب ويُعبَّر عنه بكثير من الكتب والفنون..

ماريا: فعلًا ميشيل.. وأوعدكم أني عندما أعود إلى باريس سأعد برنامجًا عن هذه المعلومات الهامة والمثيرة التي أسمعها الآن..

يقول الشيخ عمر مبتسمًا: إذًا دعونا قبل أن تسافر ضيفتنا الغالية وضيفنا الغالي إلى باريس، وبحضور هذه المجموعة الكريمة أن نعاين معًا ما اكتشفناه بالأمس ونتفحص معًا تلك القطعة الخشبية التي كانت مدفونة منذ حريق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩م، والتي أعتقد أنها من قطع المنبر، وقد أخرجناها أمس بعد أن كانت مدفونة في التراب تحت أرضية الحرم القدسي في موقع حراسة العريف "حسن الإغدرلي" وبعد تحليل وتدارس طويل لفهم رموز ومعاني رسالة الأب "باولو" إلى المسيو "عازر موسان"، وكذلك أيضًا بعد اكتشاف وتحليل الكلمات الأخيرة التي تركها العريف "حسن الإغدرلي" أخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين ضمن دفتر مذكراته والتي اكتشفناها أيضًا بجهود السيد "ميشيل" و الآنسة "ماريا" اللذين كان لهما الفضل الأول في اكتشاف سر كبير وفي غاية الأهمية، وربما كان هو السبب في بقاء ذلك الحارس العجوز ٦٥ عامًا في مكانه يحرس شيئًا لم يرَه الأخرون..

عندها يقوم ميشيل بإخراج تلك القطعة الخشبية الملفوفة بقطع من قماش الكتان المهترىء من حقيبته ويسلمها للشيخ عمر الذي يضعها على طاولة موجودة في منتصف تلك الغرفة الكبيرة، حيث يقف الجميع وهم يشاهدون الشيخ عمر وهو يبدأ بعناية بفك تلك الحبال التي تلتف حول القطع القماشية التي كانت تحتوي في داخلها تلك القطعة الخشبية ويبدأ بإزالة القطع القماشية التي كانت تحمي ما بداخلها وينظر مذهولًا وهو يقول: إنها فعلًا قطعة من العامود الخشبي الذي كان يقع في يمين المنبر..

ينظر الجميع بذهول ودهشة إلى تلك القطعة الخشبية..

ويتمعن السيد "جودة" في تلك القطعة ويقول: نعم بالضبط إنها كما تقول، وهي كذلك سليمة من أي حرق أو كسر..

يمسك الأب "حنا" بتلك القطعة الخشبية متفحصًا لها وهو يقلّبها من كل جانب لينتبه إلى وجود تجويف داخل القطعة مسدود من الأعلى بقطعة قماش سميكة.. فيقول متفاجئًا:

انظروا معي أيها السادة.. وكأن هناك تجويف في داخل هذه القطعة مسدود بقطعة قماشية من الأعلى.. ويقوم بإزالة القطعة القماشية من أعلى القطعة الخشبية، ليشاهد الجميع وباندهاش كبير وجود تجويف داخل تلك القطعة الخشبية بطول خمسين سنتميترًا وبسماكة تصل لعشرة سنتميترات ويحتوي شيئًا ما..

يهم الشيخ عمر والسيد جودة بمساعدة الأب حنا بعناية وحذر شديدين في إخراج ما يحتويه ذلك التجويف ليجدوا لفافة جلدية قديمة.. وخاتم حديدي مسنن!!

يصيح السيد جودة بذهول: إنها حافظة رسائل قديمة!! مع خاتم حديدي كبير!!

يتابع الأب "حنا" قائلًا: نعم تمامًا هي كذلك.. دعونا نفتح هذه الحافظة بعناية لنرى على ماذا تحتوي.

ويقوم الشيخ عمر بفتح تلك الحافظة من أحد طرفيها وسط ذهول شديد من "ميشيل" و"ماريا" وباقي الحضور..

ثم ينظر الشيخ "عمر" للحاضرين في تلك القاعة وهو يقول: إنها فعلًا مخطوطة قديمة ضمن الحافظة، لنفردها بعناية وحذر..

ويقوم الشيخ عمر بوضع قطعة قماش نظيفة وناعمة على الطاولة ليقوم بفرد تلك المخطوطة بمساعدة الأب حنا والسيد جودة..

وينظر الجميع متلهفين لمعرفة محتويات تلك المخطوطة ويقترب الشيخ عمر متفحصًا تلك المخطوطة وبعد دقائق من تفحص ما بها يشهق وهو يقول بذهول:

إنها كتاب بالأحرف العربية القديمة ممهورة بختم السلطان الناصر "صلاح الدين الأيوبي"!!

ينظر الجميع بدهشة شديدة لما يقوله الشيخ "عمر" ..!!

ويصيح السيد جودة مذهولًا: ماذا تقول!! إنه لكشف تاريخي مهم!!

ويتابع الأب حنا قائلًا: نعم بكل تأكيد إنه اكتشاف تاريخي مذهل.. ونشكر الله الذي جعلنا نشهد على هذا الكشف!!

فعلا إنه لشيء مذهل.. يقول "ميشيل" مندهشًا، ثم يتابع:

لكن هل لك شيخ عمر أن تقرأ لنا ما تحتويه هذه الرسالة؟؟

تنظر ماريا نحو الشيخ عمر وهي تقول: نعم نعم، هل يمكنك ذلك شيخ عمر؟؟

فيمسك الشيخ "عمر" بتلك المخطوطة بعناية ثم يقول:

نعم أيها السادة.. اسمعوا ماذا تقول هذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

بما أن هذا الكتاب قد فُتح وتُقرأ كلماته، فهذا يعني أن المنبر الذي عادت عليه دعوة صلاة وخطبة الجمعة بعدما غابت عن المسجد الأقصى ٩٠ عامًا خلال الغزو الصليبي قد أُزيح من مكانه..

هذا المنبر الذي جسّد الأمل والعزم على النصر، وانتظر تحرير الأقصى تسعة عشر عامًا حتى منَّ الله على المؤمنين بالنصر..

النصر الذي رفع هذا المنبر كان بكسب القلوب.. ولم يرفع على دماء الآخرين.. رفعنا الراية في بيت المقدس وحافظنا على عهدة وعهد أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" لأهل إيلياء من الأمان، وبأن أعطينا كما أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها.. وأن لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم..

وبتسامحنا عاد يهود عسقلان إلى القدس ليعيشوا ويصلوا بحرية..

وليرفع الأذان من جديد في المسجد الأقصى، هذا المسجد هو هدية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وهدية خليفته للمسلمين، وأمانة ليوم الدين، هذه الأمانة هي شرفنا وتاريخنا..

فالقدس هي القلب، والقلب هو القدس، والمسجد الأقصى هو الأمانة التي لن تضيع ولو غابت رايتنا يومًا..

أدعو الله العلي القدير أن يغفر زلتكم ويعيديكم إلى ما هجرتموه وأن يمدكم بسر القوة وبسر النصر الذي كان بالإيمان، وتحقق بالتسامح والعزم.. وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه.. هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار التي ستحوم حول شعار رايتي وقبري..

وذكِّر عسى الذكرى تنفع المؤمنين، ولاحول ولا قوة إلا بالله..

"الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب"

يستمع الأب حنا لما يقرؤه الشيخ "عمر" متأثرًا ويقول: رحم الله السلطان الناصر العادل "صلاح الدين" فقد صدق ما عاهد عليه.

ويعقِّب السيد "جودة" قائلًا: نعم صدقت أخي"حنا".. وكأن السلطان "صلاح الدين" في هذا الكتاب يُذكِّر أمته بأسباب النصر وما عاهد عليه..

يضع الشيخ عمر تلك المخطوطة بعناية على طاولة الغرفة ثم يقول: نعم.. إنها رسالة ممن تعب وضحى حتى رأى النصر محققًا، والذي بناه على مبدأ التسامح..

ميشيل: وإنه كذلك لكشف تاريخي مذهل بقيمته ومعناه!!

وتعقِّب ماريا قائلة: لذلك بقي العريف "حسن" يقف منسيًا يحرس ذلك المكان لمدة ٦٥ عامًا؟!

ميشيل: نعم أعتقد ذلك.. لكن السؤال الذي يفرض نفسه هو كيف عرف العريف "حسن الإغدرلي" بوجود هذا الكتاب مخبأ في قطعة المنبر الخشبية ؟!

الشيخ عمر: نعم إن في ذلك سر كبير بحاجة إلى بحث، وبحث طويل يعيدنا إلى تلك الأيام.. أيام النصر وأجواء التسامح.

فإن لم تكن المصادفة قد جعلت الحارس العثماني الأخير يجد هذه الرسالة أثناء حريق الأقصى عام ١٩٦٩م، فإنه لا بد من أن من أمره بالبقاء حارسًا في مكانه كان يعرف حق المعرفة بوجود هذا الكتاب ضمن قطعة المنبر الخشبية بسر توارثه العديد ممن حرس هذا المكان المقدس..

ميشيل: هذا ما يقوله المنطق بكل تأكيد وأظنه كذلك شيخ عمر.. بل إن تلك المعرفة بسر وجود هذا الكتاب كان ضمن سلسلة متوارثة عبر التاريخ ووصية من صاحب الكتاب نفسه..

ماريا: وإذا ما عدنا للسبب الذي جاء بنا إلى هنا في محاولة المساعدة لكشف براءة "أحمد عيسى" والمتهم ظلمًا بقتل المسيو "عازر" نرى في هذا مؤشر كبير بأن الأب "باولو" كان عنده علم كذلك بهذا السر وفق كلماته في رسالته للمسيو "عازر" حين قال له: "اتبع أثر المنبر.. وأثر وإرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين"..

الشيخ عمر: نعم صدقتي ابنتي الكريمة وأعتقد معك بذلك ولا أستغرب أن يعرف راهب مسيحي عاش في ظل هذا التسامح هذا السر، فالسر أساسه هو معنى التسامح..

وبالإضافة إلى أنه قد يكون من المنطقي أن الأب "باولو" قد التقى بـ "حسن الإغدرلي" عندما زار القدس في الثمانينيات والتقى أيضًا بالمسيو "عازر موسان"..

يقول ميشيل: لكن ومع أهمية هذا الكشف التاريخي العظيم.. هناك أسئلة مهمة تفرض نفسها الآن، ومنها هل أن الأب "باولو" هو وحده من يعلم بهذا السر وأرسل إرشادًا للبحث عنه برسالته الشفهية للمسيو "عازر موسان" الحاخام اليهودي الذي قُتل لأسباب مازالت مجهولة بعد استلامه لرسالة الأب "باولو" التي نقلها "أحمد عيسى"؟!

وأظن كذلك أن هناك خيوطًا ما تتشابك مع من حاول أمس قتلنا وأصاب العم "مصطفى" في الموقع الذي وجدنا فيه هذا الكتاب والذي استطعنا كشفه بعد أن تمكنَّا من أن نفك رموز كلمات رسالة الأب باولو..

يقول الشيخ عمر موافقًا لما يتحدث به ميشيل وماريا:

نعم وأنا معكم في كل ما تقولونه أيها السادة..

تنظر ماريا مجددًا نحو الطاولة التي وضعوا عليها القطعة الخشبية ومحتوياتها وتقول: نعم شيخ عمر ولكن ماهذا الخاتم الحديدي الموجود مع المخطوطة ضمن قطعة المنبر الخشبية؟؟

يمسك الشيخ عمر بذلك الخاتم الحديدي ويتمعن به ويقول: نعم.. إنه خاتم ضخم نسبيًا من كونه خاتم، وكذلك يبدو أنه صلب جدًا والغريب أنه صنع من الحديد أو ربما الفولاذ.. ثم نظر مدققًا على سطح الخاتم.. وهو يتابع

قائلًا: كما أنه يوجد هنا مسنن حول محيط الخاتم وفي الداخل محفور شعار العقاب..

السيد جودة: شعار العقاب.. إنه شعار راية السلطان "صلاح الدين الأيوبي"

الشيخ عمر: تمامًا، لكن لماذا هو محفور هنا ولا يوجد شيء في المخطوطة أو ضمن القطعة الخشبية التي كانت تحتويه ما يشير إليه أو عن سبب وضعه هنا؟؟

ماريا: إذًا لا أظن أن الموضوع قد انتهى هنا.. أو أن البحث قد انتهى..

ينظر الشيخ "عمر" نحو "ماريا" متسائلًا: ماذا تقصدين آنسة "ماريا"؟

تجيب "ماريا": إذا لاحظتم أنه من بداية القصة ولقاء الأب "باولو" بأحمد في سجن مجموعة المتطرفين وإسراع الأب "باولو" لشعوره بأن هناك خطر على حياته، وبعد أن أصبح متيقنًا بذلك بأن يحمِّل "أحمد" أمانة الرسالة والمغلف الورقي المفقود..

والآن وبعد ما اكتشفناه هنا يمكننا أن نقول الآن أن الأب "باولو" قد أمضى حياته في سبيل الوصول لغاية معنى هذه الرسالة..

ولاحظوا معي ما جاء في آخر سطرين من الكتاب التي يقول فيها السلطان "صلاح الدين":

"أدعو الله العلي القدير أن يغفر زلتكم ويعيديكم إلى ما هجرتموه ومدكم بسر القوة وبسر النصر الذي كان بالإيمان وتحقق بالتسامح والعزم.. وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه.. هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار التي ستحوم حول شعار رايتي وقبري"..

يتمعن السيد "جودة" بما تقوله "ماريا" ويقول بشيء من الاستغراب:

ماذا تقصدين آنسة ماريا؟

يجيب ميشيل قائلًا: أعتقد أن ماريا كانت تريد أن تقول أن السر الحقيقي وراء كلمات رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر" قد يكون هو الوصول لكل معاني كتاب "صلاح الدين الأيوبي" الذي اكتشفناه الآن.. والذي عبرت عنها كلمات هذه المخطوطة أو كتاب الوصية إن صح التعبير..

يعقب الأب "حنا" على ما يتحدث ميشيل به قائلًا: نعم فهناك دعوة لاستمرار قيم التسامح الذي رسخ هذا النصر..

يرد ميشيل: تمامًا.. وهذا موجود بشكل واضح في السطرين الأخرين كما كانت تقول "ماريا"... لكن إذا ما قرأنا تلك الكلمات بدقة كما وردت نجد بأن السلطان "صلاح الدين" قد دعا الله لأمته بكلمات قال فيها:

"أدعو الله العلي القدير أن يغفر زلتكم ويعيديكم إلى ما هجرتموه وأن يمدكم بسر القوة وبسر النصر الذي كان بالإيمان وتحقق بالتسامح والعزم..

وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه.. النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار التي ستحوم حول شعار رايتي وقبري"!!

ويتابع "ميشيل" قائلًا: إذًا فبعد تفهم المعاني المعنوية كالإيمان والعزم والتسامح والحفاظ على عهدة "عمر" وأمانة الرسول الكريم.. قال أيضًا كلمات لفتت نظري كما "ماريا"..

يسأل الشيخ "عمر" ميشيل قائلًا: أي الكلمات تقصد؟؟

يجيب "ميشيل" : أقصد تلك الكلمات حين قال:

"وأن يمدكم بسر القوة وبسر النصر.. وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه.. هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار.. التي ستحوم حول شعار رايتي وقبري"..

يفكر الشيخ "عمر" بما يقوله "ميشيل" ثم يقول: نعم هذا ممكن.. وخاصة بعد ماتوصلنا إليه الآن..

نعم.. فقد كان شعار راية "صلاح الدين الأيوبي" هو نسر العقاب.

تتابع "ماريا" قائلة:

وإذا ما لاحظتم قوله أن هذه الأسرار تحوم حول رايته و قبره؟؟ فماذا برأيكم كان يقصد في ذلك؟؟

يقول السيد جودة: من المعلوم أن السلطان "صلاح الدين الأيوبي" قد دُفن في مدينة دمشق حيث قبره..

ويتابع الشيخ "عمر" قائلًا: ولكن شعار رايته الشهيرة العقاب هو رسم حجري موجود في قلعته قلعة "صلاح الدين الأيوبي" في مدينة القاهرة..

ينظر "ميشيل" نحو "ماريا" ثم يقول: إذًا أرى أن مهمتنا هنا قد انتهت بالذي توصلنا إليه الآن، وكذلك أرى أنه من الأفضل أن نغادر هذه المدينة خاصة بعد حادث الأمس حيث الأجواء الآن قد أصبحت تحف بالمخاطر.. وقد حان وقت السفر..

ينظر الشيخ "عمر" نحو "ميشيل" و"ماريا" ويقول: إذا ستعودان إلى باريس؟

يجيب ميشيل: لا.. بل سنذهب إلى القاهرة

يندهش الجميع من جواب "ميشيل" وتنظر "ماريا" نحو "ميشيل" وقد استوعبت مغزى متابعة السفر نحو القاهرة وتقول لميشيل وهي تبتسم: ألم أقل لك أنك صديق رائع!!

يقاطع الأب "حنا" ما تقوله "ماريا" وهو لا يستوعب ما المغزى من ذلك ويقول متسائلًا: لماذا القاهرة الآن!! وفي هذه الأوقات بالذات!!

أليس في ذلك مشقة لكما بعد زيارتكما للقدس..

يجيب ميشيل: نعم سيدي.. لقد دخلنا منذ أن قبلنا بهذه المهمة دائرة الخطر وبعد كل ماوصلنا إليه اليوم يتحتم علينا أن نحترم تضحية كل من حافظ وعمل حتى وصلت إلينا هذه الرسالة أو الوصية وأن نحترم ماقدموه من تضحيات..

و كذلك احترامًا لقسمي العلمي في البحث عن المعرفة والحقيقة..

والمهم أيضًا الآن هو متابعة البحث عن دليل براءة "أحمد" الذي ينتظر في باريس على أحر من الجمر حتى نصل إلى شيء ملموس يساعد في تحقيق براءته..

تعقّب "ماريا" على ما يقوله "ميشيل": نعم، وأعتقد أن رسالة الأب "باولو" للمسيو عازر لم تكن محصورة ضمن هذين الشخصين، بل كان يريدها أن تصل إلى كل العالم، ولكل من آمن برسالتهما، ولذلك يبدو أنه قد أصبح من الواضح سبب مقتل المسيو "عازرموسان" وتوجيه أدلة الاتهام بقتله نحو "أحمد عيسى"..

ينظر الأب "حنا " إلى "ماريا" و"ميشيل" ويقول: حماكما الرب وأبعد عنكما كل مكروه.. ويتابع قائلًا: حقيقة لقد تشرفت بالتعرف إليكما وبتحملكما لكل هذه المشقة في الوصول إلى الحقيقة وبما اكتشفناه في هذا الكتاب القيّم..

الشيخ عمر: طبعًا، وأنا معك أخ حنا فيما تقوله، وكذلك كان لهما الفضل الأول في الكشف عن مذكرات المرحوم "حسن الإغدرلي" والتي أوصلتنا لاكتشاف هذه الوصية والخاتم، وكذلك رسالة الضابط الألماني عن إعادة كتاب العلم المسروق..

ترد "ماريا" وهي تبتسم وتقول: الشرف لنا شيخ "عمر" ولولا مساعدتك المهمة والصادقة لنا لما استطعنا الوصول إلى أي شيء..

وتتابع متسائلة: لكن لم تقل لنا ماذا ستفعل بهذا الكتاب؟؟

يفكر الشيخ عمر قليلًا ثم يقول: أرى أنه من الحكمة أن لا نعلن عنه للملأ الآن حتى تصلا إلى ما تبحثان عنه وتعودان سالمين إلى بلدكما ومعكما إثبات براءة ذلك الشاب البريء.. وأتمنى أن يقبل السيد "جودة" بأن يكون هذا الكتاب عنده كأمانة لديه لحين يأذن الله بالكشف عنه للعالم..

يقول الأب "حنا" موافقًا: أوافقك الرأي شيخ "عمر" فمن يؤتمن على مفاتيح كنسية القيامة لهو أجدر شخص بحمل هذه الأمانة الجديدة..

يقول السيد "جودة" متأثرًا: كيف لي أن أرفض ذلك وقد كتب الله ذلك لأجدادي من قبلي.. سيكون هذا الكتاب بعهدتي، وأعاهد الله وأعاهدكم بأن أحافظ عليه كما أحافظ على روحي..

ينظر "ميشيل" مجددًا نحو الطاولة التي وضعت عليها تلك القطعة الخشبية التي تم اكتشافها بالأمس وبجانبها تلك المخطوطة والخاتم الحديدي ويفكر قليلًا ثم يقول: ولكن هل تسمحون لنا بأن يبقى ذلك الخاتم الحديدي معنا في رحلتنا الجديدة لعل وعسى أن يكون ذلك ملهمًا لشيء ما في بحثنا المستمر..

يجيب الشيخ "عمر": بكل سرور لا نرى مانع في ذلك وليكن الله في عونكما أينما حللتم..

يبتسم "ميشيل" وهو ينظر إلى الجميع ويقول: كل الشكر لكم ولمساعدتكم الكريمة لنا.. وسنستأذن منكم الآن بالرحيل لنرتب سفرنا وننطلق إلى القاهرة مباشرةً..

يقول الأب "حنا" مودعًا: ليكن الرب في عونكما وينير طريقكما..

ويصافح السيد "جودة" "ميشيل" و"ماريا" وهو يقول:

بأمان الله وعونه أيها الأصدقاء.

تودع "ماريا" و "ميشيل" تلك المجموعة بتأثر قائلين:

شكرًا لكم جميعًا وإلى لقاء قريب.. السلام عليكم

يبتسم الشيخ "عمر" ويودعهما قائلًا: وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته، ويخرج "ميشيل" و"ماريا" من منزل الشيخ "عمر" ليسيرا عائدين باتجاه الفندق وهما يسلكان شوارع وحارات القدس القريبة من المسجد الأقصى..

و"ماريا" تنظر إلى مشهد المسجد الأقصى وما يحتويه وما يحيط به من مقدسات ومع صوت قرع أجراس كنيسة القيامة ووجوه المصلين من حوله من مسلمين ومسيحيين ويهود..

وتقول لميشيل: حقا إنها مدينة الصلاة!

يرد "ميشيل" وهو يتأمل معها في ذلك المشهد: نعم صديقتي.. وهذه الجملة أول شيء سمعته من السائق "أبو حمزة" الذي استقبلنا في المطار..

ثم يتابع قائلًا: دعيني إذًا أتصل به ليقلّنا إلى المطار..

تجيبه ماريا: حسنًا تفعل..

يصلان إلى الفندق ثم يقومان بتجهيز حقائبهما استعدادًا للمغادرة والتوجه إلى المطار..

و"ماريا" تقول لميشيل: ريثما تقوم بتجهيز الحقائب استعدادًا للمغادرة، دعنا قبل أن نغادر الفندق أن نقوم بالاتصال بأحمد في باريس لنخبره عن المستجدات..

يرد ميشيل: طبعًا من الضروري ذلك.

تتابع "ماريا" حديثها مع "ميشيل" وهي تقوم بالاتصال بأحمد: نعم وأعتقد أن "أحمد" سيسر وسيتفاجأ بالمستجدات التي توصلنا لها..

ماريا: مرحبًا أحمد، كيف حالك؟

أحمد: أهلًا ماريا أنا بخير، كيف حالكما؟ هل قرأتما البريد الذي أرسلته؟

ماريا: لا للأسف، ولكننا سنقرأه بكل تأكيد في الطائرة ونحن متوجيهن نحو القاهرة.

يقول أحمد بتعجب: القاهرة!! لماذا القاهرة؟! هل انتهى عملكما في القدس؟

ماريا: نعم، سننطلق إلى القاهرة مباشرة وذلك لمتابعة ما توصلنا إليه في القدس..

يقاطعها أحمد مندهشًا: لكن لماذا القاهرة؟!

وإلى ماذا توصلتم في القدس، هل من جديد؟

ماريا: نعم.. بل تستطيع أن تقول أننا توصلنا إلى اكتشاف خطير.. ولأننا ما زلنا نتبع أثر المنبر وما توصلنا إليه فذلك يدعونا إلى السفر والتوجه نحو القاهرة.. وتتابع حديثها وتقول:

اسمع أحمد.. ميشيل يريد أن يحادثك..

وتنقل الهاتف إلى ميشيل، والذي يبادر قائلًا:

مرحبًا أحمد كيف حالك؟

أحمد: أهلًا صديقي.. إلى الآن بخير

يبتسم "ميشيل" وهو يتابع حديثه إلى "أحمد" عبر الهاتف قائلًا:

كما قالت لك ماريا نحن مازلنا نتتبع كلمات رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر" بقصد كشف الحقيقة حول مقتل المسيو "عازر" وإظهار براءتك، لكن الطريق في البحث بدأ يأخذنا لدوائر أوسع وأعمق..

فقد اكتشفنا إرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين والذي تتبعنا أثره ودخلنا بذلك في دائرة الخطر، حيث تعرضنا أمس لإطلاق نار خرجنا منه بأعجوبة وأصيب أحد الأشخاص الذين كانوا يساعدوننا في القدس..

يصيح أحمد مذعورًا: إطلاق نار!!

ميشيل: نعم للأسف.. ولكننا مع ذلك اكتشفنا إرثًا تاريخيًا مهمًّا، وهو عبارة عن كتاب كان مخبأ تحت أرضية حرم المسجد الأقصى حيث كان العريف "حسن الإغدرلي" العثماني يقف منسيًا وهو يحرسه طوال تلك السنين الطويلة.. ووجدنا كتاب أو مخطوطة فيها كلمات ووصية بختم السلطان "صلاح الدين الأيوبي"..

فيصيح أحمد مندهشًا: صلاح الدين الأيوبي!! مالذي أسمعه!!

ميشيل: نعم.. ومن تحليل كلمات ذلك الكتاب أو الوصية إن استطعنا أن نطلق عليه كذلك، اضطررنا لأن نتبع الأثر والإرث من جديد، وأن نتابع السفر إلى القاهرة لنتبع مبدئيًا أثر شعار راية "صلاح الدين" الموجود في قلعته في القاهرة..

أحمد: لكني لم أستوعب حتى الأن ما هو الرابط بين كل هذا ودليل البراءة الذي نبحث عنه؟؟

فيتابع "ميشيل" الحديث مع أحمد وهو يسرد له تفاصيل كل ما جرى معهم في القدس وما توصلوا إليه من أسرار واجتماعهم الأخير مع الشيخ "عمر" و الأب "حنا" و السيد "جودة" وضرورة متابعة البحث الذي بدأت به المجموعة و السفر إلى القاهرة..

الفصل الثامن والعشرون

في القدس القديمة وبعد ساعتين من الزمن يصل السائق "أبو حمزة" إلى الفندق ليجد "ميشيل" و"ماريا" في انتظاره استعدادًا للمغادرة..

فيقوم "أبو حمزة" بوضع الحقائب في السيارة وينطلق بـ"ميشيل" و"ماريا" باتجاه المطار مباشرة والذي يصلونه في الوقت المحدد ليتوجها مباشرة إلى حيث بوابة الطائرة المتوجهة إلى القاهرة..

يصعد "ميشيل" و"ماريا" مسرعين إلى الطائرة التي تبدأ بالإقلاع، ويجلس"ميشيل" على مقعده وهو ينظر من النافذة و يشير لماريا قائلًا:

انظري ماريا إلى هذا المشهد الخاص، فكلما نرتفع في الجو نرى تلك الأماكن المقدسة التي شاهدناها على الأرض تقترب من بعضها البعض أكثر لتبدو وكأنها وحدة واحدة!!

تنظر ماريا من نافذة الطائرة حيث يشير ميشيل وتقول: نعم صدقت.

وقد لمست ذلك أيضًا عندما دخلنا إلى مدينة القدس، وقرأنا تاريخها عن قرب رأيت هذا التداخل العجيب، وأن الأماكن المقدسة لجميع الديانات هنا أقرب مما قرأناه في الكتب..

وتتابع قائلة وهي تنظر من النافذة: انظر ميشيل، هاهي قبة الصخرة الذهبية يظهر لمعانها حتى هذا العلو من السماء..

وكذلك لمعان قبب الكنائس بالقرب منها..

إنها القدس، وإنها تستحق فعلًا أن تسمى مدينة الصلاة..كما تستحق أن تكون مدينة سلام..

ميشيل: نعم ماريا.. وصفك رائع يجسد الواقع والحلم..

تعود ماريا لتتمركز على مقعدها في الطائرة ثم تفتح حقيبتها وتخرج بعض الأوراق ثم تلتفت نحو ميشيل مبتسمة وهي تقول: ما رأيك الآن أن نعود إلى الواقع الذي نعيش فيه ونستثمر الوقت في هذه الرحلة القصيرة..

ميشيل ضاحكًا: هيا أعيدينا للواقع إذًا..

ترد "ماريا" وهي تمسك ببعض الأوراق: حسنًا لقد طبعت البريد الأخير الذي أرسله "أحمد" من باريس حول نتائج ما يقوم عليه في البحث الموكل به، والذي لم نستطع أن نتفرغ لقراءته في القدس لانشغالنا بالحادث الذي أصيب به العم "مصطفى" وما تم معرفته بعد ذلك..

ميشيل: نعم.. لنقرأه جيدًا إذًا، فقد حدثني "أحمد" عن نقاط مهمة عساها تكمل ما توصلنا إليه..

ماريا: تمامًا يا صديقي، سأقرأ ما أرسله "أحمد" في رسالته:

الأعزاء "ماريا" و"ميشيل" بعد مراجعة ودراسة جملة رسالة الأب "باولو" للمسيو"عازر" والتي قال فيها:

"الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد، وليس

إيلوهيم راؤول..".

قمت بالبحث الدقيق والطويل في عدد من الكتب وعبر شبكة الإنترنت، وحللت كل كلمة وردت في تلك الجملة، وقد وجدت أشياء كثيرة مهمة لفتت انتباهي.. لذلك أرجو التمعن في الملخص التالي لنعاود التواصل ومناقشتها معًا..

وملخص ما توصلت إليه في البحث هو كالآتي..

ينظر "ميشيل" إلى "ماريا" وهو ينصت باهتمام ،حيث تتابع ماريا قراءة ملخص البحث الذي قام به أحمد وتقول:

بدايةً وبعد مراجعة رسالة الأب "باولو" كلمة كلمة، ومقارنة ذلك بما جاء في الكتاب المقدس –العهد القديم– سفر "التكوين" وبالتحديد الفصل أو الإصحاح الأول لسفر "التكوين" والذي جاء فيه حرفيًا:

١ – "في البدء خلق الله السماوات والأرض"..

وكذلك تتمة الإصحاح الأول جاء فيه الكلمات التالية:

٢– "وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه "..

٣– "وقال الله: ليكن نور، فكان نورًا"...

٤ – "ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة"..

يقاطعها ميشيل قائلًا: تمامًا هذا صحيح.. ومن معرفتي الشخصية ومن دراستي لسفر "التكوين" والعهد القديم للكتاب المقدس وارتباط كلماته بعدد من الأعمال الفنية..كل ما أورده "أحمد" ونقله من الإصحاح الأول في سفر التكوين هو صحيح..

تهز "ماريا" رأسها موافقة وتتابع قراءتها لرسالة "أحمد" التي يقول فيها:

وبعدما قرأتم مانقلته لكم من الكلمات الواردة في الإصحاح الأول في سفر التكوين ومقارنة ذلك مع ما ورد في جملة رسالة الأب "باولو" التي قال فيها حرفيا:

"الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد، وليس ايلوهيم راؤول"..

رجعت بداية لقراءة ما جاء في كلمات الإصحاح الأول التي جاء فيها :

١ – "في البدء خلق الله السماوات والأرض"..

وكيف قد كتبت وعبر عنها في اللغة العبرية والإنكليزية ومن ثم العربية

فقد كتبت باللغة العبرية كالتالي:

(براشيت برى إيلوهيم آت هشميم فات هارص ها إرتس) (تكوين ١:١)

ولكن لو ترجمناها حرفيًا باللغة العربية كانت ستكون:

" في البدء خلق (إلوهيم) السموات والأرض".

أما فى الترجمة الإنجليزية فقد كتبت كالتالي:

When God began to create heaven and earth (Genesis 1:1)

فإذا الترجمة الإنجليزية جاءت كلمة "إيلوهيم" هنا بلفظ **God**.

وهكذا نجد أن الترجمة الإنجليزية قد ترجمت "إيلوهيم" إلى إله..

وهي صحيحة من حيث المعنى الأول من الجزء الأول فقط لكلمة "إيلوهيم".. حيث تعني هذه الكلمة بالعبرية التالي: "إيلوهيم" = إيلوه (إله)+ يم (جمع)..

ولأن كلمة "إيلوهيم" قد تعنى أكثر من إلهين حيث تنقسم هذه الكلمة في العبرية إلى (إيلوه) بمعنى إله و(يم) هنا تفيد الجمع ومعناها الحرفي الآلهة وترجمتها فى الإنجليزية كما كتبت من الوهلة الأولى ليست صحيحة تمامًا فهي تعنى إله واحد فقط..

وأعتقد بذلك أن المسيحيين الغربيين يعتمدون في ترجمة تلك الكلمة على إثبات الثلاثة أقانيم الآب والابن والروح القدس من كلمة "إيلوهيم" كإله واحد وليس كما جاءت في العبرية والتى قد تعنى أكثر من إله اشترك فى خلق الأرض أو إيجاد شيء من العدم، ولهذا كان يجب أن تكون (**gods**) وليس (**god**)..

وعلى نفس المنوال تُرجمت إلى اللغة العربية:

"فى البدء خلق الله السموات والأرض"..

(ويتابع أحمد في رسالته) لذلك قمت في البحث حول ماذا تعنيه كلمة "إيلوهيم" حقيقة..والمفاجأة كانت بعد البحث الذي فرض نفسه وأخذني للبحث في أسماء الله المختلفة وما هي معانيها عند اليهود!!

لذلك عدت إلى ترجمة كلمة الله في عدد من المراجع اليهودية والتي وجدتها تقول:

أن الأصل اللغوي لكلمة "إيل"، "إيلوه" /EL, ELOAH– : هي الله "القدير، القوي" (تكوين ٧: ١؛ إشعياء ٩: ٦)

"إيل" تعني "القدرة" كما في: "في يدي القدرة.." (تكوين ٣١: ٢٩).

كما ترتبط كلمة "إيل" بصفات أخرى مثل الأصالة (عدد ٢٣: ١٩)،

الغيرة (تثنية ٥: ٩)، والعطف (نحميا ٩: ٣١)..

ولكن المعنى يشير أساسًا إلى القدرة.

ELOHIM "إيلوهيم" :الله "الخالق، القدير، القوي" (تكوين ١٧: ٧؛ إرميا ٣١: ٣٣) – وهو صيغة الجمع من الاسم "إيلوه". فمن أول جملة في الكتاب المقدس تظهر الطبيعة المركبة لقوة الله حين يخلق الله (إيلوهيم) العالم بكلمته (تكوين ١: ١)..

ولاحظت كذلك أنه قد تم استخدام اسمين للفظ الجلالة (إيلوهيم، ويهوه) وهذا يدل على أن التوراة جُمعت من عدة مصادر..

ينظر "ميشيل" إلى "ماريا" وهو يردد الجملة التي جاءت في رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر":

"الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد، وليس ايلوهيم راؤول"..

ثم يتابع قائلًا: ألاحظ هنا أن "أحمد" يركز حاليًا في البحث حول معنى كلمة "إيلوهيم" والتي جاءت في رسالة الأب "باولو"..

ماريا: نعم هذا ما يقوله لنا في رسالته..

ميشيل: إنه يتخذ منهجًا بحثيًا جيدًا.. لكن هل عرف ماذا كان يقصد الأب "باولو" حين قال للمسيو "عازر".. الله الواحد الأحد.. وليس ايلوهيم راؤول؟؟

ماريا: ربما، وذلك ما سيتضح في تتمة قراءة رسالة "أحمد".. اسمع "ميشيل" تتمة ما جاء في رسالته..

وتتابع ماريا قراءة رسالة "أحمد" عن نتائج بحثه قائلة: "وإن ماذكرته سابقًا هي مقدمة تعريفية لمعنى كلمة الله وكلمة "إيلوهيم" في العبرية وماذا تعني، ولكن بعد البحث حول ماذا كان يقصد أو معنى كلمة الأب "باولو" في رسالته للمسيو "عازر" حين قال:

"الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد. وليس إيلوهيم.. راؤول"..

فوجئت بالمعلومات التالية:

بداية "راؤول" أو "رائيل" هو الاسم الذي أطلقه على نفسه الصحفي الفرنسي "كلاود فوريلهون" والذي يزعم أنه في صباح أحد أيام ديسمبر من عام ١٩٧٣ كان في طريقه إلى عمله في بلدة ريفية فرنسية تدعى "كليرمونت فيراند".

ولكن بدلاً من الذهاب إلى مكتبه اندفع متوجهًا إلى بركان مجاور، وفقًا لكتاب كتبه "فوريلهون" المعروف حاليًا باسم "رائيل" أو "راؤول"..

ويقول "فوريلهون" في كتابه أنه اتصل مع مخلوقات قادمة من الفضاء نزلت من طبق طائر وتحدثت معه باللغة الفرنسية بطلاقة وأخبرته بأن البشر قد صنعوا في مختبرات من قبل مجموعة أتت من كوكب آخر،

ويعرف هؤلاء الأشخاص أو الخالقون كما يزعم باسم "إيلوهيم" / " Elohim "وهي كلمة عبرية قديمة تعني:

"أولئك الذين هبطوا من السماء" أو "الآتون من السماء"..

والغريب هنا هل استخدم "راؤول" كلمة "إيلوهيم" للإشارة إلى معنى اسم الله في الصلوات اليهودية كما ذكرت سابقًا في دراسة لمعنى الله وكلمة "إيلوهيم" في العبرية (تكوين ١٧: ٧؛ إرميا ٣١: ٣٣)،ليرسّخ ما يزعم به في أذهان الناس.. لأنه يزعم كذلك أن كلمة "إيلوهيم" لها مرداف يستخدمه المسلمون في كتابهم القرأن وهو لفظ "اللهم"..

لذلك قمت بمراجعة مراجع لغوية هامة لمعنى كلمة "اللهم" في اللغة العربية ولم أجد شيء يؤكد زعم "راؤول" الغريب هذا.. حيث وجدت في معجم المعاني الجامع –معجم عربي عربي– تعريفًا لمعنى كلمة "اللهم"

وأنقل حرفيًا ما جاء في التعريف:

(اللَّهُمّ): اسم صيغة نداء ودعاء مثل: يا الله، حذف منها حرف النداء وعُوّض عنه بميم مشدَّدة كمثل – اللّهم ارحمني – ..

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ: اِسْتِعْمَالٌ لِلنِّدَاءِ الحَقِيقِيِّ اللهُمَّ تَقَبَّلْ دُعَائِي..

اللَّهُمَّ إلاَّ: صيغة استثناء تفيد إثبات ما فيه شك...

اللَّهُمَّ نعم: صيغة تفيد تمكين الجواب في نفس السَّامع مثل أيوب قائم؟ تقول: اللهُمَّ نعم..

وكذلك (اللهم) هو مناداة للرب لتحقيق أمنية عوضًا عن عبارة (يا الله) التي تتكون من أداة النداء (يا) وكلمة لفظ الجلالة (الله) اتخذت معاني أخرى لا تتعلق بالنداء وترمز إلى الإشارة ببدء عمل معين والاتكال على الله رغم أن هناك أحيانًا أيضًا (يا اللهم)، لأجل قراءة مفصلة عن أصل كلمة (الله).

وكذلك جاء في (موسوعة الإسلام باللغة الإنجليزية)

Encyclopedia of Islam – التالي:

ومناداة الرب بعبارة (اللهم) يجب أن تكون قديمة لأنها على الأكثر تعكس أصل الكلمة العبرية التي بتشديد الميم عُربت حرفي (im)

ولا توجد اللاحقة (مُمَّ) إلا في هذه العبارة فقط مما يدل على استعارتها لتشير وتعبر عن تعظيم الله..

وتحولت في العربية إلى (مُمَّ) من الاسم العبري لله في المفرد أو الجمع أي أن اللاحقة (im) في (Elohim) الله تشير الى Eloh ، وأن (im)جاءت لنفس الغرض، أي التأكيد والتعظيم، ولا أعتقد أن إضافة الياء والميم جاءت هنا إلا بقدر التعظيم..

أما الإشارات الأخرى التي تقول أن عبارة (اللهم) تشير إلى (يا الله أُمَّ بخير) فإنها أكثر من ساذجة لا تستحق حتى ذكرها هنا، نظرًا لأن عبارة (اللهم) هي مناداة الرب وأمنية تطورت لها معانٍ جديدة تشير أكثرها إلى الاحتماليات مثل (اللهم يكون قد غادر البلد)..

أما اللاحقة (مُمَّ) فهي غير معروفة حتى الآن إلا فيما أشرت إليه سابقًا ولكن سوف أرجع اليها مرة أخرى..

كذلك لايمكن أن تكون (الميم) المشددة في نهاية الكلمة نوع من التنوين، لأن التنوين صفة النكرة، كلمة (اللهم) معرفة بالأداة والكلمة المعرفة لا

تنون إطلاقًا، هذا وإن لفظ التنوين كما نراه في الاسم نفسه يشير إلى النون وليس إلى الميم.

وعودة لما يزعم به "فوريلهون" أو"راؤول" من أن هذه الكائنات قد أخبرته بضرورة نشر كلمة ورسالة "الإيلوهيم" على الأرض تحضيرًا لعودتهم.. يصف "فوريلهون" تلك "الإيلوهيم" بأنهم كائنات صغيرة يزيد طولها قليلًا عن متر واحد، وجلودهم خضراء شاحبة، وعيونهم كبيرة ولوزية الشكل ولهم شعر داكن طويل..

ومنذ تلك الحادثة تزايد عدد الرائيليون كحركة وطائفة عالمية حيث تحدثت تقارير عن انتقال "راؤول" نفسه إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد معاناته من السلطات الفرنسية..

يقول "ميشيل" متعجبًا:

إذا "راؤول" كما وجد "أحمد" في بحثه هو رئيس طائفة تعتقد أن البشر خُلقوا عن طريق مخلوقات قادمة من الفضاء الخارجي يدعون باسم "الإيلوهيم"..

تجيب "ماريا" باستغراب: نعم هذا ما يقوله..

ويقول "أحمد" كذلك في رسالته أن طائفة الرائيليين تأسست في فرنسا عام ١٩٧٣م من قبل "كلاود فوريلهون" الصحفي السابق والذي كان يعمل في مجلة تهتم بسباقات السيارات والذي أصبح يدعى "راؤول" أو "رائيل"..

يمسك "ميشيل" برسالة "أحمد" ويعيد التمعن في كل ماجاء فيها ثم يقول لماريا: أظن مما نقرؤه الآن في رسالة "أحمد" أننا أمام بحث هام ومثيرٍ للجدل، ويحمل الكثير من الغرابة والأسئلة، ونحن نقوم بمحاولة تفسير كلمات الأب "باولو" وماذا كان يقصد بالضبط في رسالته للمسيو "عازر".. حين قال:

"الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد، وليس إيلوهيم.. راؤول"

تهز "ماريا" رأسها موافقة لما يقوله "ميشيل" وتقول: في الحقيقة أنا متفاجئة مثلك تمامًا لما توصل إليه "أحمد" في هذا البحث الغريب الذي بين أيدينا..

فقد بيَّن "أحمد" في بحثه معنى كلمة "إيلوهيم" العبرية و"اللَّهم" العربية تعني اسم من أسماء الله، بينما "راؤول" وفق قصته المزعومة يزعم أن "إيلوهيم" هم كائنات فضائية ويزعم كذلك أنهم هم من خلق البشر وعليه أسس طائفة تعتنق هذه المزاعم..

ميشيل: فعلًا إنه شيء عجيب ولا يخلو من الطرافة ويستحق متابعة البحث في ذلك، لكن السؤال الهام الآن ماهو الرابط بين كل ما عرفناه من بحث "أحمد" ورسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر"؟ وماذا كان يريد الأب "باولو" أن يقول أو ينبه المسيو "عازر" إليه؟ وهل المغلف المفقود له علاقة بما ذُكِر الآن!!

ماريا: نعم ميشيل.. فهناك أسئلة كثيرة تفرض نفسها الآن.. وكذلك ما علاقة كل هذا بباقي جمل رسالة الأب "باولو"؟؟

يركز "ميشيل" فيما تقوله "ماريا" ثم يقول: حسنًا.. ها نحن قد اتبعنا أثر المنبر وعرفنا إرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين.. ومازلنا نتبع أثر المنبر والقطعة الخشبية التي وجدناها من أثر المنبر والكتاب الوصية أو رسالة "صلاح الدين الأيوبي" الذي يأخذنا الآن إلى القاهرة..

ماريا: تمامًا.. وكذلك يقول "أحمد" في نهاية رسالته أنه يعمل الآن على إيجاد الرابط بين رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر" وما قصده "بإيلوهيم راؤول".. وسيوافينا بالجديد..

يسند "ميشيل" رأسه على مسند مقعده في الطائرة وهو يقول: إنه عمل جيد حتى الآن، وكلما نراه قد تشعب؛ يعيدنا من جديد إلى خط بحث مشترك.. لنسترخي الآن قليلًا فيما تبقى من وقتٍ لرحلتنا حتى نستطيع التركيز على ما جِئنا من أجله إلى القاهرة، وسنتواصل مع "أحمد" في باريس عندما نصل القاهرة..

ماريا: حسنًا وهو كذلك.

الفصل التاسع و العشرون

مع ميل الشمس نحو الغروب في ذلك اليوم تبدأ الطائرة في الهبوط تدريجيًا باتجاه مطار القاهرة الدولي..

و"ماريا" تنظر من نافذة الطائرة مستمتعة بجمال ذلك المشهد، ولتظهر لها من على ذلك الارتفاع الذي ينخفض تدريجيًا تلك الأهرامات الشهيرة التي سمعت وقرأت عنها الكثير الكثير..

تقول "ماريا" لميشيل وهي تنظر نحو النافذة:

"ميشيل" انظر إلى هذا المنظر الرائع!! هاهي أهرامات مصر تظهر روعة بنائها شيئًا فشيئًا من هذا الارتفاع الشاهق ونحن نقترب من الأرض.

ينظر ميشيل من نافذة الطائرة لذلك المشهد الرائع باهتمام وهو يقول:

نعم "ماريا"، إنها حقًا من عجائب الدنيا السبع، انظري كيف يظهر كل هرم من السماء بهذا الشكل الهندسي البارع التصميم..

ماريا: نعم ميشيل فكثيرًا ما أثار إعجابي وفضولي كيفية تصميم هذا الشكل الهرمي وبنائه منذ آلاف السنين.. لا بل كذلك سر تصميم إنسان ذلك الزمن الذي عاش على هذه الأرض على بناء هذه الأعجوبة.

ميشيل: معكِ حق "ماريا".. فقد ارتبط الشكل الهرمي لدي المصريين بفكرة نشأة الكون، واعتقدوا كذلك طبقًا لبعض كتاباتهم ونصوصهم الدينية أن الهرم وسيلة تساعد روح المتوفى في الوصول إلى السماء مع المعبود (رع)..

ويمكن أن نرى أحيانًا آشعة الشمس بين السحاب وهي تأخذ الشكل الهرمى أيضًا وكانت كذلك من ضمن هذه الوسائل الكثيرة التي يمكن أن

تساعدهم في الصعود إلى السماء، كما نستطيع أن نرى أيضًا الشكل الهرمي أعلى المسلات وبعض المقابر الصغيرة للأفراد في جنوب مصر، حتى عندما فكر ملوك الدولة الحديثة من الفراعنة في بناء مقابرهم في البر الغربي في وادي الملوك ونقرها في باطن الجبل لحمايتها من السرقة لم يتخلوا عن الشكل الهرمي والذي كان يتمثل في قمة الجبل نفسه وبشكل طبيعي..

لقد استغرق بناء الهرم الأكبر ما يقرب من عشرين عامًا، وبناء الممرات والأجزاء السفلية من الهرم عشرة أعوام، وذلك طبقًا لما ذكره "هيرودوت" المؤرخ اليوناني الذي زار مصر في القرن الرابع قبل الميلاد بعد أكثر من ٢٠٠٠ سنة من بناء الهرم، وسمع هذه الروايات وغيرها من بعض الكهنة والرواة..

ماريا: نعم ميشيل.. إن بناء هذه الأهرامات معجزة حقيقية!!

ميشيل: صدقتي "ماريا" فما يزال ذلك الهرم الذي نقترب منه ونراه من الجو في الطائرة أحد أكبر الألغاز التي واجهت البشرية منذ مطلع الحضارة..

ولقد ادَّعى كثيرون أنه مجرد مقبرة فاخرة للملك (خوفو)، ولكن علماء العصر الحالي يعتقدون أن هذا الرأي يثير السخرية، وأعتقد أنه تم بناء الهرم الأكبر لغرض أسمى وأعظم من ذلك بكثير، والدليل على ذلك هو تلك الحقائق المدهشة التي يتمتع بها هذا الصرح العظيم والتي جمعها "تشارلز سميث" في الكتاب الشهير (تراثنا عند الهرم الأكبر) في عام ١٨٦٤م، فارتفاع الهرم مضروبًا بمليار يساوي ١٤٩٦٧٠٠٠ كم أي بمايقارب ١٥٠مليون كم وهي المسافة بين الأرض والشمس، والمدار الذي يمر في مركز الهرم يقسم قارات العالم إلى نصفين متساويين تمامًا، وأن أساس الهرم مقسومًا على ضعف ارتفاعه يعطينا عدد ثابت الدّائرة الشهير (٣,١٤) الوارد في الآلات الحاسبة، وأن أركان الهرم الأربعة تتجه إلى الاتجاهات

الأصلية الأربعة في دقة مذهلة حتى أن بعض العلماء أشاروا إلى وجود زاوية انحراف ضئيلة عن الجهات الأصلية، ولكن بعد اكتشاف الأجهزة الإلكترونية الحديثة للقياس ثبت أن زوايا الهرم هي الأصح والأدق..

تستمع "ماريا" بتعجب لما يقوله "ميشيل" وهي تتأمل ذلك المشهد من جديد والطائرة تلتف مقتربة من مشهد الأهرامات وهي تهبط تدريجيًا نحو مطار القاهرة.. نعم يا للروعة.. نعم ها نحن في مصر!!

ويعلن قائد الطائرة دخول المجال الجوي لمطار القاهرة الدولي استعدادًا للهبوط على أرض مصر أو رسميًا جمهورية مِصرَ العَرَبيةِ والتي تقع في الركن الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، وامتداد آسيوي، حيث تقع شبه جزيرة سيناء داخل قارة آسيا.. فمصر دولة عابرة للقارات وتحتوي على ثلثي أثار العالم..

تحط الطائرة أخيرًا على أرض مطار القاهرة الدولي مع غروب شمس ذلك اليوم.. ويخرج "ميشيل" و"ماريا" من المطار بعد إنهاء إجراءات الوصول سريعًا ليستقلا سيارة أجرة باتجاه الفندق الذي سيبيتان فيه ليلتهما الأولى في القاهرة حيث تبدأ رحلة البحث فيها حول المهمة التي جاءا من أجلها من جديد.

الفصل الثلاثون

في ذلك اليوم ومنذ الصباح الباكر وفي منزل البروفيسور "ميشيل" في ضواحي باريس يبدأ "أحمد" العمل في متابعة البحث الذي بدأه حول معنى "الإيلوهيم" وما جاء في الجملة الثانية من رسالة الأب "باولو" الشفهية للمسيو "عازر" والتي قال فيها:

"الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد، وليس ايلوهيم راؤول".

ويتابع "أحمد" في بحثه الذي وصل به إلى مزاعم "فوريلهون" أو "راؤول" حول تلك المخلوقات الخالقة التي تدعى "بالإيلوهيم" ويقوم في البحث عبر شبكة الإنترنت ليجد أحد مواقع تلك الطائفة الغريبة ليقرأ بعضًا مما جاء في كتبهم التي يزعمون أنها من رسائل "الإيلوهيم" لهم..

ثم يتوقف عند أحد الفقرات ليقرأ إحدى تعاليم ورسائل "الإيلوهيم" المزعومة والموجهة لـ"راؤول" التي يقول مما جاء فيها:

"هناك إعلان جد مهم يمكنك أن تعلن عنه ابتداءً من الآن:

اليهود ينحدرون منا مباشرة، لهذا فهناك مصير معيّن مُدّخر لهم، هم ينحدرون من أبناء "الإيلوهيم" وبنات الإنس كما ذكِر في سِفر "التكوين"، خطيئتهم الأصلية كانت تجانسهم بخليقتهم العلمية..

لهذا فقد عانوا طويلًا، لكن الآن فقد حان وقت المغفرة ويمكنهم العيش في بلادهم المستعادة في هدوء إلا إذا قاموا بخطأ آخر بعدم اعترافهم بكم كرسولنا، نتمنى أن تُشيَّد سفارتنا الأرضية في إسرائيل على أرض تمدكم بها الحكومة"

يندهش "أحمد" مما يقرؤه، ثم يكرر البحث في موقع تلك الطائفة فيجد ما يثير اندهاشه أكثر وهو يقرأ ما وجده قائلًا:

"إلى شعب إسرائيل..

يجب على دولة إسرائيل أن تمنح لمرشد المرشدين أرضًا تقع قرب القدس لكي يشيد عليها الإقامة، سفارة "الإيلوهيم"، لقد حان الوقت يا شعب إسرائيل لتأسيس القدس الجديدة كما كان متوقعًا، "كلود رائيل" هو الذي أعلن عنه، راجعوا كتبكم وافتحوا أعينكم..

نتمنى أن تكون سفارتنا بين ذرِّيتنا، وبما أن الشعب الإسرائيلي يتكون من ذرِّية أولاد الذين ولدوا بعدما التقى أبناء "الإيلوهيم" ببنات الإنس..

يا شعب إسرائيل لقد أخرجناك من قبضة المصريين ولم تُظهر لنا أنك أهلٌ لثقتنا، لقد فوضنا إليك رسالة موجهة إلى الإنسانية جمعاء ولكنك عِوَضًا عن نشرها؛ احتفظت بها بِغَيْره، لقد قاسيت وقتًا طويلًا كعقاب لك على أخطائك، لكن وقت العَفو قد حان، وكما كان متوقعًا قلنا للشمال اعطِ وللوسط لا تحجز، فأتيت بأبنائك وبناتك من أطراف الأرض، كما كتب "أشعياء"، وتمكنت من استرجاع أرضك، وبإمكانك أن تعيش فيها بسلام إذا أنت استمعت إلى آخر الأنبياء، ذلك الذي قد أنبأناك به، وأن تعينه على القيام بما أمرناه به..

إنها آخر فرصة لك، وإلا سيستقبل بلد آخر قريب منكم مرشد المرشدين وستُشَيد سفارتنا على أرضه، وسيكون مَحْمِيًّا وتعمه السعادة، وستُدمَّر من جديد دولة إسرائيل..

أنت، ابن إسرائيل الذي لازلت لم ترجع بعد إلى أرض أجدادك، انتظر قبل أن ترجع إليها حتى ترى ما إذا قبلت الحكومة أن يُشيَّد عليها سفارتنا،

وإذا رُفِض ذلك لا ترجع إليها، ستكون من الذين سينقذون من الهلاك ويمكن لذريتك يومًا ما أن تعود إلى الأرض الموعودة، عندما يحين الوقت".

يتأمل "أحمد" فيما يقرؤه من تعاليم ومزاعم تلك الطائفة الغريبة، ثم يقول بذهول:

إنهم إذًا يزعمون أن اليهود هم من ذرية "الإيلوهيم" أنفسهم عندما التقوا ببنات الإنس.. ويعتبرونهم العرق البشري الأنقى وأن "الإيلوهيم" يطلب من إسرائيل التي يدعمها أن تعترف بـ "راؤول" أو "رائيل" وأن تساعده في إقامة سفارة لهم قرب القدس حتى يعودوا ليجتمعوا مع البشر..

يفكر "أحمد" قليلًا ثم يعود لقراءة تلك التعاليم من جديد ثم يقول: كأني قد وجدت رابطًا فيما جاء هنا وما كنت قد قرأته سابقًا في كتاب أساطير "غارودي"..

ثم ينهض من مكانه ويتوجه إلى أحد أرفف المكتبة الكبيرة في منزل "ميشيل" حيث يقيم "أحمد" حاليًا، ويقوم بالبحث عن كتاب "روجيه غارودي" الذي يعتقد أنه كان قد قرأ فيه شيئًا يتوافق مع اكتشفه الآن من معتقدات وتعاليم طائفة "الإيلوهيم" أو "الرائليين"..

الفصل الواحد والثلاثون

في صباح اليوم التالي وعلى بعد آلاف الكيلومترات من مدينة باريس، وفي مدينة القاهرة تشرق شمس يوم جديد ويستيقظ "ميشيل" و"ماريا" ويلتقيا في مطعم الفندق الذي يقيمان فيه في القاهرة ليتناولا معًا فطورًا خفيفًا وهما يتبادلان بعض الحديث..

تتأمل "ماريا" وهي ترتشف من قهوتها الصباحية مشهد مدينة القاهرة من نافذة مطعم الفندق وتقول:

إنه صباحٌ جميل حيث تسطع آشعة الشمس دافئة هنا في هذا الوقت من السنة..

وتتابع وهي توجه حديثها إلى ميشيل: ومن الجيد صديقي أننا قد أخذنا قسطًا من الراحة قبل البدء بمهمة بحثنا الجديدة هنا..

ثم تنظر نحو هاتفها وتقول: مارأيك أن نتصل بأحمد في باريس ونرى إن كان لديه جديد؟

يجيبها وهو يستمتع بقهوته الصباحية: لا بأس ماريا فكرة جيدة، ولنخبره أيضًا أننا أصبحنا في القاهرة..

ماريا: نعم، إذًا سأتصل به، وتمسك بهاتفها وتقوم بالاتصال بأحمد الموجود في باريس..

وهناك على الجهة المقابلة في أوروبا يرن هاتف "أحمد" الذي ينظر إليه وهو يهتز ويضيء ويشاهد رقم "ماريا" على شاشة ذلك الهاتف فيبتسم ويجيب على اتصالها مبتهجًا:

آلو "ماريا" ماهذا الصباح الجميل.. كيف حالك وكيف "ميشيل"؟؟

ماريا مبتسمة: صباح الخير "أحمد".. طبعًا سيكون صباحك جميلًا وأنت تستمع إلى صوتي..

وتتابع قائلة: نحن بخير، ونحّدثك الآن من مصر، ومن مدينة القاهرة تحديدًا.. كيف حالك أنت؟

وتتابع: لقد ضغطت على مكبر الصوت في هاتفي لنتشارك الحديث مع "ميشيل"..

أحمد: نعم بكل سرور.. صباح الخير "ميشيل" حمدًا لله على سلامتكما..

هل قرأتما رسالتي الأخيرة؟

ميشيل: صباح الخير أحمد.. لقد قرأنا رسالتك الأخيرة والبحث الذي قمت به حول سفر التكوين و"الإيلوهيم" الذي ذكرهم الأب "باولو" في رسالته للمسيو "عازر"..

لكن السؤال الآن ما هو برأيك الرابط ومعنى وجود عبارة "وليس إيلوهيم راوؤل".. في رسالة الأب "باولو"؟؟

تتابع ماريا: تمامًا أحمد.. وهذا ما كنت سأسألك عنه أيضًا.. فلا بد من وجود رابط يجمع بين كل ما نقوم في البحث فيه من وحي كلمات رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر".. وقد أصبحنا على ثقة الآن بأنها قد تكون سبب مقتله وتم إلصاق التهمة بك..

أحمد: نعم.. لقد ذكرت لكما في نهاية رسالتي السابقة بأني أعمل على إيجاد الرابط بين رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر" وما قصده بعبارة "إيلوهيم راؤول".. وقمت بمقارنة ذلك ببحثي السابق حول أساطير "غارودي" التي ذُكرت ووجدت في دفتر المسيو "عازر"..

وقد توصلت لرابط مهم وأعتقده خطيرًا كذلك..

ميشيل باهتمام: ماهو؟!

أحمد: نعم ميشيل.. فبغض النظر عن ما قد أخبرتكم عنه سابقًا حول أفكار "راؤول" أو "رائيل" وتأسيسه لطائفة تؤمن بمخلوقات فضائية تزعم أنها هي من خلقت البشر وتدعى بإسم "الإيلوهيم"..

فإنه يزعم كذلك أن تلك الكائنات قد أخبرت "فوريلهون" أو "راؤول" بضرورة نشر كلمة "الإيلوهيم" على الأرض تحضيرًا لعودتهم وإنشاء سفارة لهم في القدس..

ماريا مندهشة مما تسمعه من أحمد: سفارة!! لماذا هم محتاجون لسفارة؟!

أحمد: نعم هذا ما جاء في بعض كتبهم، حيث يشير "راؤول" كما يزعم إلى أنهم –أي "الإيلوهيم"– قد كلفوه إلى جوار نشر الرسالة التي تبين أصل البشرية بأن ينشئ لهم سفارة في القدس لتحقيق رغبة "الإيلوهيم" بالنزول إلى الأرض ومقابلة زعمائها لمنح الزعماء تقنياتهم المعقدة..

ففي بادئ الأمر لا يودون لقاء أي مؤسسة، حكومة، ديانة أو حركة فلسفية غير الفلسفة الرائيلية.. ولن يأتوا إلا عندما يشيد لهم سفارتهم للتعبير عن احترامهم وحب المؤمنين بهم..

ميشيل متعجبًا: وهل تقصد في ذلك أنهم يتبنون أسطورة أن اليهود هم شعب الله المختار كما ذكر ذلك "غارودي" في كتابه حول تلك الأساطير؟!

أحمد: تمامًا.. وذلك يبدو واضحًا في كثير من تعاليمهم..

ويتابع قائلًا: وقد بدأوا بذلك بالفعل.. ووفق ما وجدته في البحث أنه في عام ١٩٩١م تقدمت حركة الرائيليين بطلبات عدة للكيان الصهيوني ساعية لدى الحاخامات للحصول على قطعة أرض في القدس لبناء السفارة المزعومة عليها، لكن طلبها مازال قيد البحث.

وقد قام "راؤول" بالترويج لعقيدته الخرافية الجديدة، والتي وجدت في ظل الفراغ الروحي والفساد العقائدي الذي تعيشه المجتمعات الغربية أنصارًا اقتنعوا بما يروِّج له، وينتشر معظم أتباع هذه الطائفة في فرنسا وكيبيك في كندا والولايات المتحدة وسويسرا حيث مقرها العالمي..

وقد طلبت الحركة الرائيلية إنشاء السفارة في القدس من أجل الحصول على الحصانة وتشييد السفارة في القدس، والتي حسب زعمهم أن "الإيلوهيم" قد خلقوا الكائنات البشرية الأولى فيها..

ويعتمدون في هذا الزعم على التوراة، حيث بني المعبد اليهودي الأول هناك.. والذي وفق ما يزعمون به أن ذلك المعبد كان في الواقع أول سفارة حيث بنيت حولها المدينة العتيقة (القدس).

وقد منحتهم إسرائيل فعلًا الحصانة، لكن لم يسمحوا لهم بإقامة تلك السفارة.. ويزعمون أن الوزير الإسرائيلي "إسحاق رابين"، عندما كان في كندا لحضور مؤتمر يهودي في "مونتريال"، وافق على الاقتراح.. لكن بشرط تغيير الرمز الأصلي "الأبوكاليبس" المستعمل من قبل الحركات الرائيلية في الغرب.

حيث تم استبدال شعار "السفاستيكا" بالوسط، والتي تعني "السعادة" بالسنسكريتية وتمثل أيضًا اللانهاية في الزمن، و تم تعويضها بدائرة لولبية على شاكلة مجرة احترامًا لحساسية الضحايا (يقصد بذلك الهولوكوست) تحت نظام النازية أثناء الحرب العالمية الثانية.

ففي آسيا، حيث توجد "السفاستيكا" في أغلب المعابد البوذية وتمثل الأبد في الزمن وهذا الرمز الأصلي لا يمثل أي مشكلة، ومع ذلك فإن "الإيلوهيم" يفضلون إعطاء الفرصة لنجاح الطلب الموجه لإسرائيل بما أن الهدف الأصيل هو إقامة السفارة في إسرائيل..

وعلى هذا الأساس، تقدمت الحركة الرائيلية ولمرات عديدة من الحكومة الإسرائيلية ومن الراهب الأكبر للقدس، بطلب الحصول على الحصانة لتشييد السفارة في القدس حيث خلق "الإيلوهيم" الكائنات البشرية الأولى، وذلك أنهم يزعمون أن المعبد اليهودي الأول كان في الواقع أول سفارة حيث بنيت حولها المدينة العتيقة..فالإيلوهيم ينتظرون إذًا أن تمنحهم إسرائيل الحصانة للسفارة الجديدة –المعبد الثالث– لكن لم تعطِ إسرائيل أي جواب نهائي حتى الآن.

ماريا: شيء غريب فعلًا!!

يتابع أحمد: نعم هذا ماوجدته.. فأول مبادرة لإنشاء تلك السفارة تمت في ٨ نوفمبر سنة ١٩٩١م، في يوم السنة اليهودية الجديدة، وكذلك تم تقديم طلب رسمي آخر تم توجيهه للراهب الأكبر لإسرائيل..

وبعد شهور تم الاعتراف بالطلب وجعلوا مضمونه قيد الدراسة.

وفي عام ١٩٩٣م استنتجت لجنة من الحكومة الإسرائيلية بأن الحركة الرائيلية لها أهداف سلمية ولا تشكل أي تهديد للسلم في إسرائيل، وفي تقريرهم هذا وجدوا بأنه من الأفضل عدم فعل أي شيء ضد "راؤول"، في حالة ما لو كان هو المسيح المنتظر!

تنظر "ماريا" نحو "ميشيل" بتعجب شديد قائلة: أشعر وكأني أسمع قصة تجري على كوكب آخر، أو قصة فيلم من الخيال العلمي..

يستمع "ميشيل" لكل ما يتحدث به "أحمد" باهتمام بالغ ويسجل بعض الملاحظات ثم يقول: حسنًا "أحمد"، واضح من أنك قد قمت بجهود كبيرة في هذا البحث.. إنها بالفعل معلومات مهمة وشديدة التشعب تجعلنا نعتقد فعلًا بوجود رابط ما بين فكر تلك الجماعة الغريبة ونظرية شعب الله المختار ونظرية سيادة اليهود المختارين..

وأنه في عام ١٩٩٠م غير الرائيليون رمزهم الذي كان أصلًا عبارة عن صليب معقوف يتوسط نجمة "داود"، والهدف من ذلك كله هو تطوير العلاقات مع إسرائيل وإقناع حكومتها ببناء سفارة لـ"إيلوهيم" في القدس وإنشاء هذه السفارة مكان المعبد الأول في القدس..

أحمد: نعم هو كذلك كما أعتقد.. وهذا ما جعلني أقوم بمقارنة موضوع إنشاء سفارة "الإيلوهيم" في القدس مع أسطورة شعب الله المختار والتي طُرحت في كتاب "غارودي"..

وأقوم حاليًا بجمع كل كتب وأقوال ومزاعم هذه الجماعة والأفكار التي يؤمنون بها لمعرفة وإيجاد روابط أكثر وضوحًا حول ما يقومون به وموضوع بحثنا فيما قصده الأب "باولو" في رسالته للمسيو "عازر موسان "..

ميشيل: حسنًا تفعل، ونحن سنبدأ بعد قليل بالبدء بمهمتنا في القاهرة ومتابعة البحث حول ما توصلنا إليه في القدس من نتائج..

أحمد: حسنًا إذًا سأدعكما الأن لتباشرا مهمتكما ولنبقى على تواصل في أي جديد.. وكونا بخير دومًا.

ماريا: حسنًا "أحمد" وأنت كذلك.. وداعًا الآن.

تغلق "ماريا " هاتفها بعد انتهاء الحديث مع "أحمد" والمعلومات الجديدة التي تحدث بها، وهي ماتزال تشعر بشيء من الغرابة مما سمعته للتو منه..

ثم تنظر نحو "ميشيل" وتقول: إني أرى أننا كلما انتقلنا في بحثنا لمعنى جديد ندخل في غياهب تاريخية وعقائد غريبة تنسب كلها إلى السماء..

ميشيل: نعم، صدقتي "ماريا"، لكن لا بد من الوصول إلى الحقيقة في نهاية المطاف..

ويتابع وهو يبتسم قائلًا: وأظن أن ذلك أيضًا يشبع فضولك الصحفي كما فضولي العلمي الذي لا ينتهي..

ماريا: نعم ربما.. رغم أني لم أكن أتوقع أن يأخذنا هذا الفضول في رحلات عبر الزمان والمكان لنرى هذا التداخل العجيب!!

وتتابع متسائلة: والأن كيف سنبدأ برنامجنا اليوم برأيك؟

ميشيل: بداية سنذهب لمقابلة الجنرال "محمد"..

تسأل "ماريا" "ميشيل": ومن يكون الجنرال "محمد"؟؟

ميشيل: إنه صديق قديم كنت قد التقيت به منذ سنوات بأحد الفعاليات الفنية في باريس عندما كان يعمل ملحقًا عسكريًا للسفارة المصرية في فرنسا، وكان لنا وقتها حوار فني ثقافي عالي المستوى جعل منا هذا الحوار صديقين مقربين ولم تنقطع صداقتنا أبدًا واستمر تواصلنا الدائم، حتى عندما أنهى مهامه الرسمية وعاد لمصر ليتولى منصبًا آخر..

ماريا: حسنًا إذا.. فلنذهب ولنبدأ يومنا باكرًا..

ميشيل: وهو كذلك..

الفصل الثاني والثلاثون

يخرج ميشيل وماريا من الفندق ليستقلا سيارة أجرة باتجاه مكتب الجنرال "محمد"، والذي يقع ضمن مجمع حكومي كبير وسط مدينة القاهرة، ويسلكان طريقًا يتماشى مع مجرى نهر النيل العظيم..

حيث ينظرا من نافذة السيارة باستمتاع وهما يتأملان مشهد نهر النيل والقوارب التي تنساب فيه بهدوء أمام صخب الشوارع المحيطة وازدحام السيارات..

وبعد نصف ساعة تقريبًا يصلان إلى وجهتهما ويترجلان من سيارة الأجرة ثم يسيران باتجاه مبنى حكومي ضخم ويدخلان من عبر البوابة الرئيسية لذلك المبنى ويتوجهان مباشرة نحو مكتب الاستقبال..

يقترب "ميشيل" نحو أحد موظفي الاستقبال قائلًا: صباح الخير سيدي..

يرد موظف الاستقبال: صباح الخير سيدي، هل من خدمة؟؟

ميشيل: أريد أن أقابل الجنرال "محمد السبكي" لو سمحت.

الموظف: هل من موعد مسبق؟

ميشيل: في الحقيقة لا، ولكن الموضوع ضروري، وقد وصلت القاهرة بالأمس وأرغب في لقائه، فهل يمكن أن تخبره لو سمحت بأن البروفيسور ميشيل من جامعة السوربون يريد مقابلته؟

يجيب موظف الاستقبال: حسنًا سيدي..

ثم يجري اتصالًا وهو يتكلم بضع كلمات ثم يهز برأسه وهو يقول: أمرك سيدي..

ينظر الموظف نحو "ميشيل" قائلًا: سيكون اللواء "محمد" معكما خلال دقائق وقد كلفني بأن اصطحبكما إلى قاعة الاستقبال..

ميشيل: حسنًا، شكرًا لك..

يتوجه "ميشيل" و"ماريا" نحو قاعة الاستقبال خلف ذلك الموظف الذي يفتح لهما باب إحدى القاعات ليدخلاها والدهشة تكاد تملأ ناظريهما من ذلك المشهد الجميل لتلك القاعة الملكية ذات الزخارف الباهرة والتي تملأ الجدران بزخارف عربية وإسلامية وإيطالية.. إلى جانب لوحات كتابات قرآنية وأبيات شعرية وبعض اللوحات الفنية الرائعة التي وُزِّعَت على تلك الجدارن بأسلوب مبهر..

وقد ازدانت أسقف تلك القاعة كذلك بأخشاب طبيعية ذات أحجام ضخمة عليها زخارف هندسية مذهبة وزخارف نباتية ملونة دقيقة التنفيذ، أما الأبواب والنوافذ فهي مكونة من الزجاج الملون الذى رسمت عليه لوحات ملونة لأشجار وبحار وطيور..

تتمعن "ماريا " بجمال تلك القاعة وتقول: يا لجمال هذه القاعة.. إنها تحفة فنية فريدة!!

يقول "ميشيل" وهو مايزال يتأمل في تلك الزخارف المذهبة والمتنوعة:

نعم إنه لإبداع فني رائع..

ينظر من حوله متأملًا ثم يتوجه نحو إحدى تلك اللوحات المعلقة على أحد جدران القاعة ويقف أمامها مستمتعًا بجمال ذلك الإبداع الفني..

وبعد دقائق قليلة يُفتح باب القاعة من جديد، وإذا بصوت أجش يصيح قائلًا: إنها لأحد الفنانين العالميين المستشرقين من عهد الخديوي "اسماعيل".. ويتابع ذلك الصوت ضاحكًا:

وهذا هو أيضًا صديقي الغالي البروفيسور "ميشيل" الذي لا يفوت فرصة تأمل لأي لوحة فنية يمر أمامها، وخاصة إذا كانت ذات أبعاد تاريخية..

يلتفت "ميشيل" نحو صاحب ذلك الصوت ويبتسم قائلًا: صديقي العزيز الجنرال "محمد".. مضى زمن لا بأس به لم نلتقِ به وجهًا لوجه.. كيف الحال؟؟

اللواء "محمد" وهو يعانق ميشيل: البروفيسور الكبير "ميشيل" صديق الفكر والفن.. أهلًا بك، نورت مصر..

ميشيل : أعتذر بداية عن زيارتي المفاجئة، وأشكر استقبالك الكريم رغم أني أعرف حجم مسئولياتك، ولكن حقيقةً حتى أنا لم أكن أعرف بأني سأزور القاهرة إلا في الأمس عندما كنت في القدس..

اللواء "محمد" مستغربًا: هل كنت في القدس؟؟

ميشيل: نعم صديقي.. ولدي موضوع هام أود أن أتحدث معكم فيه، ولكن اسمح لي بداية بأن أعرفك بالآنسة "ماريا" الصديقة العزيزة ومن أنشط صحافيي باريس..

تصافح ماريا اللواء "محمد" قائلة: تشرفنا سيدي، لقد حدثني عنك صديقي "ميشيل" وعن اهتماماتكما الفنية المشتركة..

اللواء "محمد": الشرف لي آنستي.. وكيف لا يكون حديث الفن والتاريخ حاضرًا والبروفيسور" ميشيل" موجود في المكان.. تفضلا رجاءً لنجلس ونشرب قهوة الترحيب بكما.

ميشيل مبتسمًا: بكل سرور فلم أنسَ بعد كرم ضيافتكم المعهودة..

اللواء "محمد" ضاحكًا: أهلًا وسهلًا بكما..

ومن عادات الضيافة العربية كذلك ألا نسأل ضيوفنا عن سبب الزيارة إلا بعد ثلاثة أيام..

ماريا متفاجئة: ثلاثة أيام!! لكن لدينا موضوع هام جئنا من أجله..

يرد اللواء "محمد " ضاحكًا" وهو ينظر نحو "ماريا" ويقول:

لا تقلقي آنستي، العادات هي أن لا نسأل كأصول الضيافة..

ويتابع ضاحكًا: لكن يمكنك الحديث بعد ثلاث دقائق..

يجلس الجميع للاستراحة في ركن جميل من أرجاء القاعة حيث يقوم أحد المستخدمين بتقديم القهوة للضيوف ويأخذ "ميشيل" بفنجان القهوة الذي يرتشف منه رشفة خفيفة..

في حين يتوجه اللواء "محمد" نحو "ماريا" قائلًا: والآن تفضلي آنستي إن أردتِ، فلك كامل الحرية في الحديث عن سبب الزيارة المفاجئة التي أسعدتني..

تجيب "ماريا" بشيء من الارتباك: في الحقيقة.. في الحقيقة السبب هو جريمة قتل.

ينظر اللواء "محمد" متفاجئًا ويقول: جريمة قتل!! قتل من؟؟

يرتعش فنجان القهوة من على شفتي "ميشيل" بعد سماعه كلمات "ماريا" المباشرة ثم يلتفت نحو اللواء "محمد" وهو يقول معقبًا: في الحقيقة نعم.. الموضوع يتمحور حول جريمة قتل حدثت في باريس منذ أيام، وبملابسات ساعدت بإلصاق التهمة خطأ بصديق لنا وهو شاب سوري اسمه "أحمد عيسى" لجأ إلى فرنسا مؤخرًا من الأحداث المؤسفة الحاصلة في بلده..

تتابع "ماريا": نعم سيدي.. وقد وصل إلى باريس بعد سنوات من العذاب والتعرض لأبشع الظروف وصور العنف، وبعد أن فقد عائلته، وتم احتجازه

لأكثر من سنتين من قبل منظمة ارهابية تدعى "داعش" وكان قد التقى في بداية اعتقاله ولزمن بسيط بالأب الإيطالي الأصل "باولو دالوليو" رئيس دير" مار موسى الحبشي" والذي مازال مصيره مجهولًا..

ينظر اللواء "محمد" مستغربًا لما يسمعه ويقول: نعم، لكن لم أفهم بعد ما هو المقصود؟

يرد "ميشيل": دعني أخبرك جنرال بالتفاصيل المرافقة لتلك الجريمة.. ويبدأ هو وماريا في سرد الأحداث بالتفصيل حتى لحظة محاولة الشرطة الفرنسية إلقاء القبض على أحمد..

يعّقب اللواء "محمد" على ما سمعه من "ماريا" و"ميشيل" قائلًا: من المؤسف حقيقة ما حدث، ولكن على أي أساس تم إلقاء التهمة على ذلك الشاب؟؟

وعذرا لسؤالي كذلك، فما علاقة جريمة حدثت في باريس بسبب زيارتكما للقاهرة؟؟

يجيب ميشيل: نعم سؤالك في محله صديقي الجنرال، ففي الحقيقة حتى الآن لا يوجد دليل قاطع إلا أن كاميرات محطة المترو كانت قد التقطت صور لقاء المسيو"عازر" مع "أحمد" لدقائق قليلة مع ظهور الارتباك الواضح على وجه "أحمد" حينها وكان سبب ذلك الارتباك أنه لم يكن يتوقع حينها أن المسيو"عازر موسان" الذي سيقابله هو حاخام يهودي، وكان ذلك بالنسبة لأحمد مفاجئًا، فهو كعربي كان يقف مباشرة ولأول مرة في حياته أمام حاخام يهودي..

وعندما وجد المسيو "عازر" مقتولًا بعد دقائق من لقائه بأحمد وفق التسجيل الزمني لكاميرات المراقبة الموجودة في المكان أخذت الجريمة شكل دافع عنصري وكراهية وتعلم حساسية هذا الموضوع...

يهز اللواء "محمد" رأسه متفهمًا لما يقوله "ميشيل" ويقول: مفهوم، وكون "أحمد" عربي ومسلم...

تتابع ماريا: نعم هذا ماحدث بالفعل.. لكن بعد مناقشة وتحليل تفاصيل ما حدث وخاصة كلمات رسالة الأب "باولو" وماوجدناه من كلمات مكتوبة في مفكرة المسيو "عازر موسان" اليومية وفقدان المغلف الذي سلمه "أحمد" للمسيو "عازر" قبل مقتله.. وعدد من الدلائل والحقائق ومعرفتنا الوثيقة بأحمد وأنه من غير الممكن أن يقوم بهكذا جريمة.. دفعنا كل ذلك بأن نقوم بمهمة البحث في معاني تلك الكلمات والروابط التي تجمعها للبحث عن سبب أو دافع تلك الجريمة الحقيقي ومرتكبها ..

يستمع اللواء "محمد" لما تقوله "ماريا" باهتمام ثم يقول:

وماهي تلك الكلمات؟؟

تجيب "ماريا" : الكلمات كانت عبارة عن رسالة شفهية نقلها "أحمد" من الأب "باولو" إلى المسيو"عازر"، وتبدأ في سرد نص الرسالة الشفهية..

يتابع "ميشيل" الحديث قائلًا: تمامًا وبعد مراجعة الكلمات الموجودة على مدونة المسيو "عازر".. ويبدأ في سردها أيضًا..

شكلنا فريق عمل وبحث وانتقلنا بداية إلى القدس لنتتبع أولا أثر المنبر و أثر و إرث آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين الذي لم يترك مكانه منذ عام دخول الإنكليز..

وقد ذهلنا لما قد توصلنا إليه في القدس، والذي شكل لنا الدافع للاستمرار في البحث والوصول لإثبات براءة ذلك الشاب المسكين..

ينظر اللواء "محمد" إلى "ميشيل" و"ماريا" وهو يستمع باهتمام لما يقولانه ثم يقول: ما تقولانه شيء يثير الاهتمام حقًا، لكن بداية هل لي أن أعرف إلى ماذا توصلتم في زيارتكم للقدس والمسجد الأقصى؟؟

وبدأ "ميشيل" يتحدث ويشرح للجنرال "محمد" كل ما جرى لهما في القدس وماوجدوه في صندوق العريف "حسن الإغدرلي" آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين وما تم اكتشافه من أثر المنبر المحروق والكتاب الوصية بختم السلطان "صلاح الدين الأيوبي"..

ينهض اللواء "محمد" مذهولًا من مكانه وهو يقول: إنه فعلا لاكتشاف تاريخي هام جدًا!!

ويتابع متسائلًا: ولكن ماذا كان مكتوب في الكتاب الوصية؟؟

أخرج "ميشيل" دفتر ملاحظاته وفتح على إحدى الصفحات وقال: لقد سجلت كل كلمة وردت في ذلك الكتاب اسمع صديقي العزيز ماذا كُتب فيها.. وبدأ "ميشيل" يقرأ نص الرسالة التي تركها السلطان صلاح الدين الأيوبي كاملة..

يستمع اللواء "محمد" بتأثر بالغ لما يقرؤه "ميشيل" ثم يقول: إن ذلك كشف تاريخي مهم.. وهذه الكلمات التي قرأتها الآن فيها من المعاني بالنسبة لنا ولكل الشعوب العربية والإسلامية ما يحرك في القلب والروح مشاعر كبيرة!!

ويتابع قائلًا وهو ينظر إلى "ميشيل" و"ماريا": وجئتما القاهرة اليوم متتبعين أثر كلمات السلطان "صلاح الدين الأيوبي"؟

ماريا: نعم حضرة الجنرال هو كذلك..

يرد اللواء محمد: لكن كيف تريدون مني أن أساعدكما فيما تقومان به؟

يجيب ميشيل: في الحقيقة نريد بداية أن نزور معًا قلعة "صلاح الدين الأيوبي" في القاهرة إن أمكن..

يقف اللواء "محمد": إن كان هذا ما تطلبونه فهذا بسيط وبكل سرور..

ويتابع وهو ينظر إلى ساعته قائلًا: هيا بنا إذا لنكسب الوقت ولنزور معًا قلعة "صلاح الدين الأيوبي"..

ويخرج اللواء "محمد" يرافقه "ميشيل" و"ماريا" من المبنى الحكومي الضخم ليستقلا سيارة اللواء "محمد" الذي أخذ يسير بها في شوراع مدينة القاهرة المزدحمة والطريق المؤدية نحو القلعة والتي تسير ضمن شوراع تحاذي أبنية قديمة وبعض كتل من أسوار حجرية قديمة، وبعد وقت قصير من المسير تطل عليهم ومن على بعد رابية مرتفعة تتربع عليها قلعة ضخمة يظهر من بين أسوارها مسجد ضخم بمآذن تشق عباب السماء..

الفصل الثالث والثلاثون

تسير سيارة اللواء "محمد" متجاوزة العديد من شوارع مدينة القاهرة القديمة في اتجاه تلك القلعة التي تقترب منها شيئًا فشيئًا، ويشير اللواء "محمد" نحو القلعة وهو يقول: هاهي أمامنا قلعة "صلاح الدين الأيوبي" والتي تطل علينا من على تلك الرابية المرتفعة..

إنها كما تشاهدون، مكان فريد حيث تلتقي فيه عراقة التاريخ وعبقرية المكان بالسياسة وفنون العمارة..

ويتابع اللواء "محمد" حديثه إلى "ميشيل" و"ماريا" والسيارة التي تقلهم تقترب أكثر فأكثرمن تلك القلعة قائلًا:

تعتبر قلعة "صلاح الدين الأيوبي" –والتي نقترب منها الآن والمعروفة باسم «قلعة الجبل»– من أفخم القلاع الحربية التي شُيِّدت في العصور الوسطى، وهي إحدى أهم معالم القاهرة الإسلامية وقد أقيمت على إحدى الربى المنفصلة عن جبل المقطم على مشارف مدينة القاهرة، فموقعها إستراتيجي من الدرجة الأولى بما يوفره من أهمية دفاعية، لأنه يسيطر على مدينتي القاهرة والفسطاط، كما أنه يشكل حاجزًا طبيعيًا مرتفعًا بين المدينتين، وبهذا الموقع يمكن توفير الاتصال بين القلعة والمدينة في حالة الحصار في ذلك الزمن..

وكان أول من فكر في بناء القلعة هو السلطان الناصر "صلاح الدين يوسف بن أيوب" على ربوة "الصوة" في موضع كان يُعرف بقبة الهواء في عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م حيث قام وزيره "بهاء الدين قراقوش الأسدي" بهدم المساجد والقبور التي كانت موجودة على تلك الصوة لكي يقوم ببناء

القلعة عليها، حيث قام العمال بنحت الصخر وإيجاد خندق اصطناعي فصل جبل المقطم عن الصوة زيادة في مناعتها وقوتها.

وقد وفق "صلاح الدين" تمامًا في اختيار مكان القلعة، لكن القدر لم يمهله لكي يرى مشروعه الدفاعي عن مصر ضد أي هجمة صليبية في حياته وقد اكتمل ذلك على يد "قراقوش"، وأول من أقام فيها هو ابن أخيه السلطان الكامل بن العادل فكان أول من سكنها واتخذها دارًا للملك، واستمرت كذلك حتى عهد "محمد علي" باشا الكبير..

تتوقف السيارة عند مدخل القلعة حيث تبدو القلعة شامخة فوق ربوة مرتفعة وقد ظهر من حولها إضافات معمارية متنوعة مع تعاقب العصور التي مرت على تاريخ هذه القلعة..

يلتفت اللواء "محمد" نحو "ماريا" و"ميشيل" وهو يتقدم من أمام مدخل القلعة ويقول: أهلًا بكما في رحاب قلعة "صلاح الدين" في القاهرة، تفضلوا أصدقائي لندخل القلعة ولنقم بجولة معًا داخل رحاب ومباني هذه القلعة الفريدة..

يدخل "ميشيل" و"ماريا" برفقة اللواء "محمد " من المدخل الرئيسي للقلعة وهما يتأملان ضخامة الأسوار، وتوزع مباني عديدة ضمن المساحة الكبيرة من على تلك الرابية المرتفعة والمطلة على مدينة القاهرة..

ويسيران خلف اللواء "محمد" الذي يتابع حديثه عن القلعة قائلًا: لقد مرّ على هذه القلعة الشامخة الكثير والعديد من الأحداث التاريخية، وشهدت أسوارها أحداثًا تاريخية مختلفة خلال العصور الأيوبية والمملوكية وزمن الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م، وحتى تولي "محمد علي" باشا حكم مصر، حيث أعاد لها ازدهارها وعظمتها.

ويقف اللواء "محمد" مشيرًا لإحدى جهات القلعة من الداخل وهو يقول:

في ذلك الاتجاه وفي الضلع الغربي للقلعة كما ترون، يوجد الباب المدرج وفوقه كتابة تشير إلى بناء هذه القلعة، ونصه الذي يقول:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، المجاورة لمحروسة القاهرة التي جمعت نفعًا وتحسينًا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينًا، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده، الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته، ومعين دولته، قراقوش ابن عبد الله الملكي الناصري في سنة تسع وسبعين وخمسمائة.."

ويتابع قائلًا: وقد حفر "صلاح الدين" في القلعة بئرًا يستقي منها الجيش وسكان القلعة إذا مُنع الماء عنها عند حصارها، وهي أعجب ما تم من أعمال، لأن البئر محفور في الصخر بعمق ٩٠ متر من مستوى أرض القلعة، وهذا يتطلب جهد كبير في ذلك الوقت، وهو أحد الآثار الباقية من العصر الأيوبي، وهو بئر عجيب في هندسته، نادر في عمارته، يبلغ عمقه ٩٠ مترًا منها ٨٥ مترًا حفرت في الصخر، وتتكون البئر من مقطعين ليسا على استقامة واحدة إلا أنهما يتساويان في العمق تقريبًا، من أجل ذلك سمي هذا الأثر بئرين في كتابات بعض المؤرخين، وتبلغ مساحة مقطع البئر السفلية ٢,٣ متر مربع، في حين تبلغ مساحة مقطع البئر العلوية خمسة أمتار مربعة، وذلك للحاجة إلى تأمين ممر إلى البئر السفلية، يسمح بنزول الثيران اللازمة لإدارة الساقية المثبتة على البئر السفلية، وذلك لجلب الماء من عمقها إلى مستوى البئر العلوية، ويقوم زوج آخر من الثيران بإدارة ساقية ثانية مثبتة على البئر العلوية لرفع الماء من منسوب الساقية الأولى إلى سطح الأرض.. والعامة ينسبون هذه البئر إلى النبي "يوسف" عليه السلام، لكن الأدلة التاريخية تؤكد أن البئر حفرت في عهد الناصر "صلاح الدين"، وبمرور الوقت نُسي اسم "صلاح الدين" وبقي اسم

"يوسف"، الذي مهّد لرسم قصص أسطورية من الخيال الشعبي حول البئر..

ويتابع اللواء "محمد" مع ضيوفه جولتهم في القلعة وسط اندهاش "ماريا" و"ميشيل" بالمساحة الواسعة للقلعة والمباني المتعددة والمتنوعة التصاميم والتي بنيت كإضافة من كل عصر لاحق لتاريخ بنائها.

إلى أن توقفوا أمام مشهد مسجد ضخم مهيب متأملين، والذي يتميز بقبة ضخمة على الطراز العثماني ومآذن ترتفع بشموخ نحو السماء..

ثم يعود اللواء "محمد" إلى الحديث من جديد وهو يشير إلى عدة اتجاهات ويشرح عن تفاصيل القلعة من الداخل ومحتوياتها من المباني والأماكن التي عاصرت عدد من الحكام و الأحداث التاريخية المهمة ويتابع قائلًا:

لقد مرّ على هذه القلعة الكثير والعديد من الأحداث التاريخية الدامية وفيها توج سلاطين وذبح آخرون، وظلت منذ أن أنشأها "صلاح الدين الأيوبي" مقرًا للحكم في الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وفي عهد الولاة العثمانيين ثم في عهد الأسرة العلوية التي أسسها "محمد علي" باشا، واستمرت كذلك إلى عصر الخديوي "إسماعيل" حيث اتخذ من قصر عابدين العامر مقرًا للملك.

وقد قام "محمد علي" الكبير –رأس الأسرة العلوية المصرية ومؤسس مصر الحديثة– بعد أن قام بإصلاح أسوار القلعة، بإنشاء القصور والمدارس ودواوين الحكومة في هذه القلعة، وتوج منشآته هذه بإنشاء مسجده هذا الذي نقف أمامه الآن، والذي يشرف على مدينة القاهرة بقبابه ومآذنه كما ترون..

ويتابع اللواء "محمد" حديثه عن القلعة وتاريخها وهو يقول: ونستطيع أن نرى من هنا أصدقائي الأعزاء أن القلعة قد قسمت إلى قسمين رئيسيين،

القسم الشمالي كحامية عسكرية، تحيطها أسوار في الاتجاهين الشمالي والشرقي، والتي تم بناؤها في عهد"صلاح الدين الأيوبي" وعهد أخيه الملك العادل، وتضم أبراجًا مستديرة ومربعة، الأولى بنيت في عهد "صلاح الدين" والثانية بناها العادل..

والقسم الجنوبي الغربي من القلعة الذي خُصِّص لقصر الحكم ومقرًا لإقامة الوالي..

وتتابع المجموعة القيام بجولتهم وهم يسيرون في أرجاء قلعة "صلاح الدين الأيوبي" برفقة اللواء "محمد" والذي يتوقف فجأة أمام أحد الأبراج التي كانت تشكل إحدى النقاط الدفاعية عن القلعة وهو يقول:

بالرغم من أن الدولة التي أسسها "صلاح الدين" لم تدم طويلًا من بعده إلا أن "صلاح الدين" يُعَدُّ في الوعي العربي والإسلامي محرر القدس، ومع تصاعد مشاعر القومية العربية في القرن العشرين، ولا سيما مع وجود الصراع العربي الإسرائيلي، اكتسبت بطولة "صلاح الدين" وقيادته أهمية جديدة، فقد كان في تحريره للقدس من الصليبيين مصدر إلهام لمعارضة العرب في العصر الحديث للصهيونية، كما استُلهمت شخصيته في الملاحم والأشعار، و أُلِّفَت عشرات الكتب عن سيرته، وتناولتها المسرحيات والأعمال الدرامية..

فلا يزال "صلاح الدين" يُضرب به المثل كقائد مسلم مثالي واجه أعداءه بحسم ليحرر أراضي المسلمين، دون تفريط في الشهامة والأخلاق الرفيعة.. كذلك يُطلق بعض المسلمين على أولادهم الذكور اسم "صلاح الدين" تيمنًا بهذا القائد، على الرغم من أن هذا الاسم كان لقبًا للسلطان الأيوبي خُلع عليه بعد إسقاطه الدولة الفاطمية وقتاله الصليبيين..

علاوة على ذلك، كان يُنظر إلى وحدة العالم العربي تحت راية "صلاح الدين" رمزًا مثاليًا للوحدة الجديدة التي سعى إليها القوميون العرب في بدايات القرن العشرين والخروج من السيطرة العثمانية آنذاك..

تقاطع "ماريا" فجأة اللواء "محمد" وتقول: آسفة لمقاطعتك حضرة الجنرال، ولكنك قد تكلمت منذ لحظات عن راية "صلاح الدين"..

يجيب اللواء "محمد": نعم راية "صلاح الدين".. لقد ذكرت ذلك.

ينظر"ميشيل" للجنرال "محمد" متابعًا حديث "ماريا" ويقول: تمامًا صديقي الجنرال، ونحن قد جئنا إلى مدينة القاهرة متتبعين أثر تلك الراية من وحي كلمات الوصية التي عثرنا عليها في القدس حيث ختم السلطان "صلاح الدين" كلماته بالجملة التالية:

"أدعو الله العلي القدير أن يغفر زلتكم ويعيديكم إلى ما هجرتموه وأمدكم بسر القوة وبسر النصر الذي كان بالإيمان وتحقق بالتسامح والعزم.. وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه.. هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار.. التي ستحوم حول شعار رايتي وقبري..."

يجيب اللواء "محمد": نعم تذكرت ما قد حدثتموني به عن كلمات تلك الوصية أو الكتاب المهور بختم السلطان "صلاح الدين" ولكن ما المقصود في كلامكما حول تلك الراية؟؟

ماريا: إن هذا يأخذنا للسؤال الذي جئنا من أجله إلى القاهرة حضرة الجنرال، وهو أين توجد راية "صلاح الدين الأيوبي"؟؟

يجيب اللواء "محمد" على ما سألت عنه "ماريا" قائلًا:

تقصدين راية "صلاح الدين الأيوبي" العقاب؟!

ينظر "ميشيل" و"ماريا" نحو اللواء "محمد" قائلين معًا:

نعم العقاب.. شعار راية "صلاح الدين الأيوبي"..

يهز اللواء "محمد" رأسه متفهما لما يقصده "ميشيل" و"ماريا" في سؤالهما عن شعار راية "صلاح الدين".. العقاب ثم يقول:

في الحقيقة كانت لراية "صلاح الدين الأيوبي" مكانة واحترام كبيرين، فقد كانت رايته دومًا منتصرة في مسيرته التي غيرت مجرى الأحداث والتاريخ في المنطقة.. ولهذا أصبح شعار راية "صلاح الدين" العُقاب رمزًا للدولة هنا، ويتوسط علم جمهورية مصر العربية.. وأشار بيده إلى أحد الأعلام التي ترفرف على سور القلعة..

تقول "ماريا" متفاجئة: هل تقصد أن ذلك النسر الموجود في علم مصر الرسمي حاليًا هو نفسه شعار العقاب الذي كان راية "صلاح الدين الأيوبي"!!

يجيب اللواء "محمد": تمامًا هذا ما أقصده.. وقد اعتمد لاحقًا كشعار لعدد من الدول العربية الأخرى مثل العراق وفلسطين واليمن وسورية..

وفي عام ١٩٨٤ تم تبني شعار جديد على العلم المصري وهو العقاب الذهبي ويحمل درعًا بألوان العلم المصري..

ويتابع اللواء "محمد" سيره برفقة "ميشيل" و"ماريا" قليلًا ثم يقف فجأة وهو ينظر إلى أحد جدران القلعة ويقول:

وها نحن الأن أصدقائي نقف أمام رسم حجري تم اكتشفاه في هذه القلعة.. وهو رسم حجري قديم بقدم أحجار هذه القلعة.. والذي يشكل رسم راية "صلاح الدين الأيوبي".. العُقاب..

تصيح "ماريا" بذهول مشيرة نحو الرسم :

هل هذا الرسم الحجري هو شعار راية "صلاح الدين".. العقاب!

يجيب اللواء "محمد" مبتسمًا: نعم هذا هو العقاب بجناحيه..

يتوجه "ميشيل" و"ماريا" مسرعين نحو ذلك الرسم الحجري الموجود على الجدار والذي اتخذ شكل نسر العقاب وينظرون له بدقة متأملين بكل تفاصيله..

(عُقاب "صلاح الدين" الذي اكتُشف في قلعة القاهرة، والذي اقتُبس ليُصبح شعارًا لعدة دول عربية وإسلامية)

يتلمس "ميشيل" ويتفحص ذلك الرسم الحجري بدقة وحذر وهو يتمتم ويقول: "أدعو الله العلي القدير أن يغفر زلتكم ويعيديكم إلى ما هجرتموه وأن يمدكم بسر القوة وبسر النصر الذي كان بالإيمان وتحقق بالتسامح والعزم.. وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه.. هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار التي ستحوم حول شعار رايتي وقبري"..

ويكرر ما كان يقوله من كلمات الكتاب الوصية الذي اكتشفه في القدس وهم يتمتم قائلًا: "هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار التي ستحوم حول شعار رايتي و قبري" ويكرر "التي ستحوم حول شعار رايتي و قبري".

بينما اللواء محمد وماريا ينظران باهتمام واستغراب لما يقوم به ميشيل الذي يتلمس ويتفحص بدقة متناهية ذلك الرسم الحجري للعقاب...

في ذات الوقت يتابع اللواء "محمد" حديثه وسط استغرابه من اهتمام "ميشيل" الشديد برسم العقاب الحجري ويقول:

نعم هذا هو شعار راية "صلاح الدين" العقاب والذي يعتبر من الجوارح التي لها شرف ومكانة في مخيلة العرب، لأنه طائر قوي لا يأكل إلا من صيده، وينقض على طرائده من عل، وله نظر ثاقب يُضرب به المثل فيقال (أَحَدُّ من نظر العقاب)، ويغلب الصقر في القوة، بل إن الصقر يفر منه في العادة نظرًا لأنه يفوقه في الحجم وقوة البأس، كما أنه يرمز للقوة والشجاعة، حيث أن العرب استخدموا اسم عقاب في مسمياتهم فكانوا يتفاخرون في تسمية بعض أبنائهم بعقاب فخرًا ورمزًا للقوة والشجاعة التي شاهدوها في العقاب الطائر..

يقاطع "ميشيل" حديث اللواء "محمد" – ويبدو كأنه قد تلمس شيئًا غريبا في ذلك الرسم الحجري – قائلًا: لحظة لو سمحت جنرال.. لاحظوا معي هذه الدائرة الصغيرة الموجودة هنا والتي حُفرت على الجناح الأيمن لرسم العقاب الحجري..

إنه حفر دائري بقطر لايزيد عن خمسة سنتيمترات.

ثم يتلمس ميشيل بعناية باقي الرسم الحجري للعقاب ويتابع كلامه قائلًا: وكذلك يوجد حفر دائري آخر هنا على الجناح الأيسر بالتوازي مع ذلك الحفر الحجري الموجود على الجناح الأيمن!! أليس هذا بشيء غريب؟!

يتأمل "ميشيل" بعمق في كامل الرسم الحجري للعقاب ويعود ليتمتم بصوت منخفض كلمات: "وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه.. هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار التي ستحوم..حول شعار رايتي وقبري"..

وينتفض فجأة ويلتفت نحو "ماريا" قائلًا:

أعطني زجاجة الماء التي معك لو سمحتي "ماريا"..

ترد "ماريا" باستغراب: حسنًا.. تفضل "ميشيل".

يأخذ "ميشيل" زجاجة الماء من "ماريا" ثم يقوم بسكب الماء على الحفر الحجري الدائري الموجود على الجناح الأيمن لرسم العقاب الحجري ثم يمسك بقطعة حديد صغيرة ويحك بها ذلك الحفر..

و هو يصيح مذهولًا: ياللعجب!! هل يمكن أن ذلك يعني ما أفكر فيه حقًا؟!

تسأل "ماريا" "ميشيل" قائلة: عن ماذا تتحدث وبماذا تفكر ميشيل؟!

ويتابع اللواء "محمد" وهو يقول باستغراب شديد:

مابك صديقي "ميشيل" مالذي يدهشك لهذه الدرجة؟؟

يجيب "ميشيل" قائلًا: لقد ذكر السلطان "صلاح الدين" في كتابه الذي عثرنا عليه في القدس كلمات دقيقة ووصف واضح حين قال: "وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه.. هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار التي ستحوم حول.. شعار رايتي وقبري" فهل كان يقصد ياترى؟!

ثم يصمت.. ويعود ليتأمل ويتلمس ذلك الرسم الحجري من جديد..

اللواء محمد: ما الذي تريد أن تقوله ميشيل؟؟

يجيب "ميشيل" وهو يدخل يده في حقيبته وهو يبحث عن شيء ما:

لحظة.. أعتقد أن لهذا الخاتم الحديدي علاقة بشيء ما هنا..

ويخرج الخاتم الحديدي ذو الدائرة المسننة والذي كان مخبأً داخل قطعة المنبر الخشبية مع كتاب "صلاح الدين" والتي أمضى الحارس العثماني "حسن الإغدرلي" يحرسها لعقود طويلة وهي مخبأة تحت أرضية باحة المسجد الأقصى..

ثم ينظر للخاتم متمعنًا في تفاصيله وهو يقول: إن رسم العقاب موجود هنا أيضًا داخل دائرة الخاتم وهناك مسننات فولاذية غريبة الشكل من حوله.. وهي تقريبا بنفس قطر الرسم الدائري على هذا الجناح..

ويعيد لتلمس ذلك الحفر الدائري الصغير على الجناح الأيمن لرسم العقاب الحجري.. ثم يقول: لكن ماذا لو؟!

تنظر "ماريا" إلى "ميشيل" باستغراب وتكرر سؤاله له:

ماذا لو؟ ماذا تقصد ميشيل؟!

يمسك "ميشيل" فجأة بذلك الخاتم الدائري المسنن وهو يقوم بمحاولة مقاربة تلك المسننات على الحفر الدائري الصغير الموجود على الجناح الأيمن ليصيح مندهشًا: يا الهي إن مسننات الخاتم الحديدي تطابق قطر الحفر الدائري على الرسم الحجري للجناح الأيمن للعقاب.. ولكنه بحاجة إلى..

يصمت ميشيل للحظات.. ثم يبدأ وهو يحاول جاهدًا حكّ مسننات الخاتم الحديدي على الحفر الدائري الحجري بقوة..

يصيح اللواء "محمد" مذهولًا مما يقوم به "ميشيل" :

ماذا تفعل ميشيل!! قد يسبب هذا ضررًا برسم العقاب الحجري!!

يرد "ميشيل" قائلًا: لحظة رجاءً.. أمهلني بضع دقائق حضرة الجنرال..

وأخذ "ميشيل" يزيد من الضغط على مسننات ذلك الخاتم وهو يدفعها نحو الرسم الدائري المحفور على جناح العقاب الأيمن الحجري إلى أن فجأة.. بدأت مسننات الخاتم الفولاذي تدخل بصعوبة ضمن الحفر الدائري المطابق لها.. و"ميشيل" يستمر بحكّ تلك المسننات بالحفر الدائري وهو يتصبب عرقًا من المجهود الذي يقوم به إلى أن تطابقت فجأة جميع مسننات ذلك الخاتم على الحفر الدائري الموجود على الرسم الحجري للعقاب..

واللواء "محمد" يقول باضطراب بالغ وهو ينظر إلى ما يفعله ميشيل:

ميشيل انتبه.. إن ما تقوم به قد يتلف الرسم الحجري الأثري!!

تتابع "ماريا" وهي غير مستوعبة لما يقوم به "ميشيل" قائلة:

ميشيل.. ماذا يحدث؟!

لكن بعد دخول مسننات ذلك الخاتم وتطابقها مع الرسم الدائري الحجري الصغير والموجود على جناح العقاب.. يلتفت "ميشيل" نحو "ماريا" واللواء "محمد" وهو يشير للرسم الحجري ويقول: الآن وكما تلاحظون معي فقد تطابقت مسننات هذا الخاتم الفولاذي الذي وجدناه في القدس محفوظًا مع كتاب السلطان "صلاح الدين"، على الحفر الدائري الموجود على الرسم الحجري للجناح الأيمن للعقاب..

ثم يصمت قليلًا للحظات.. ويتابع وهو يتمتم قائلًا: .وقد جاء في كلمات كتاب السلطان "صلاح الدين" الذي وجدناه في القدس الجملة التالية..

"وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه.. هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار التي ستحوم حول شعار رايتي وقبري "..

ويكرر "ميشيل" كلمات.. "وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه"..

ثم تتسع حدقتا عينيه وكأنه قد اكتشف شيئًا وهو يصيح بذهول: يا إلهي!!

يسأل اللواء محمد ميشيل بتعجب بالغ قائلًا: ماذا تقصد ميشيل؟!

يجيب ميشيل: اممم أقصد..

ثم يصمت وهو يحاول منهمكًا تدوير الخاتم المسنن داخل ذلك الحفر الدائري الحجري على الجناح الأيمن..

ويلتفت نحو اللواء "محمد" و"ماريا " قائلًا: ساعدوني قليلًا لو سمحتم..

فيقوم اللواء "محمد" و"ماريا" بمساعدة "ميشيل" في محاولة تدوير ذلك الخاتم الحديدي داخل الحفر الدائري على الرسم الحجري وهما لا يستوعبان ما يقوم به ميشيل..

ليتابع "ميشيل" حديثه وهو يجهد في محاولة تدوير ذلك الخاتم داخل الحفر الدائري الحجري قائلًا: بما أن لهذا الخاتم مسننات وقد تطابقت تلك المسننات مع هذا الحفر الدائري على هذا الرسم الحجري لجناح العقاب.. ووفق كلمات السلطان "صلاح الدين" التي جاءت في كتابه والذي عثرنا عليه مع هذا الخاتم الصلب.. جاء في كتاب "صلاح الدين" العبارة التالية "بسر شعار رايتنا وجناحيه"..

فذلك قد يعني.. يتابع "ميشيل" كلامه وهو يقوم بالضغط على مسننات الخاتم في محاولة تدوير الخاتم بقوة وهو يقول: يعني أن.. أن..

وفجأة يُسمع صوت كسر ما من داخل رسم العقاب الحجري تحت مكان وضع مسننات الخاتم والتي تطابقت جميعها مع ذلك الحفر الدائري الحجري، وأصبحت عملية تدوير مسننات الخاتم الفولاذي داخل الحفر الدائري أكثر مرونة..

عندها يقول ميشيل: الآن أستطيع أن أقول.. أن هذا الخاتم الحديدي الصلب بمسنناته الفولاذية أيها السادة يمثل هنا مفتاحًا لشيء ما!!

ماريا: أوه.. ماذا تقصد ميشيل؟!

عندها يقوم ميشيل بزيادة الضغط على مسننات الخاتم الحديدي وتدوير الخاتم داخل الدائرة الحجرية الصغيرة التي اكتشفها على الجناح الأيمن لرسم العُقاب الحجري أكثر فأكثر..

إلى أن تنزاح فجأة وتنزلق قطعة الحجر التي نُحت عليها رسم الجناح الأيمن للعقاب باتجاه الخارج مخلفة هالة من الغبار المندفع من داخل ذلك الحجر..

ينظر اللواء "محمد" مذهولا لما يحصل وقد اتسعت حدقتا عينه:

ما هذا؟! إن الحجر ينزاح ويخرج جزء منه نحو الخارج وكأن جناح العقاب قد أصبح بابًا أو شيئًا من هذا القبيل..

عندها يقوم "ميشيل" مبتسمًا بإخراج الخاتم الحديدي من على الحفر الدائري الموجود على الجناح الأيمن لرسم العقاب الحجري، ليضعه بثقة مرة أخرى على الحفر الدائري الموجود على الجناح الأيسر لرسم العقاب، ويبدأ من جديد بالضغط بمسننات ذلك الخاتم داخل الحفر الحجري الدائري وهو يكرر ما فعله على الحفر الدائري للجناح الأيمن للعقاب.. ثم يقوم كذلك بمحاولة تدوير الخاتم داخل الحفر الدائري الحجري ضاغطًا نحو الجهة اليسرى.. ويقوم بالضغط بشدة..

لينزاح بعد ذلك الضغط الشديد وبتدوير مسننات الخاتم داخل الحفر الدائري الحجري قطعة الحجر التي نحت عليها رسم الجناح الأيسر للعقاب نحو الخارج مخلفة كذلك غيمة من الغبار المندفع من داخل ذلك الجدار..

عندها يقف "ميشيل" أمام الرسم الحجري للعقاب وهو يقول: أظن أنه بإمكاني أن أقول الآن.. أن جناحي العقاب هنا في الحقيقة يشكلان فعلا طرفيّ باب مغلق من عصور خلت..

تصيح "ماريا" مذهولة مما تشاهده :

إن جناحي رسم العقاب.. قد فُتحا كطرفي باب لخزنة ما خلفه!!

ينظر"ميشيل" نحو ذلك الجدار الحجري وهو ينفض الغبار الذي اندفع نحوه من داخل الجدار: تمامًا.. إنهما يشكلان طرفي باب يحمي خزنة ما خلفهما فعلًا..

تنظر "ماريا" وهي لا تكاد تصدق: أووه.. نعم، إنها خزنة!!

يقترب اللواء "محمد" من ذلك الرسم الحجري للعقاب وهو يتأمل جناحيه الحجريين وقد برزا من ذلك الجدار ليظهرا فتحة حجرية في الجدار أشبه ما تكون كخزنة مخبأة ويقول مذهولًا: إنه شيء لا يصدق هل من المعقول أن تكون هنا خزنة حجرية مخبأة خلف رسم العقاب الحجري، ونكتشفها الآن بعد مئات من السنين الطويلة التي مرت!!

يلتفت "ميشيل" نحو اللواء "محمد" وهو يقول: وفق خبرتي العلمية صديقي الجنرال في مثل هذه الأمور.. أستطيع أن أقول نعم، كل شيء ممكن..

ويتابع "ميشيل" محاولة فتح جناحي العقاب اللذان شكلا بابي الخزنة قائلًا: ساعدوني لو سمحتم لنرى ماذا يوجد هنا؟

فيقوم اللواء "محمد" و"ماريا" بمساعدة "ميشيل" في دفع البابين الحجريين ليشهدوا مشهدًا لن يتكرر مرة أخرى.. إنها خزنة حجرية فعلا مخبأة داخل الجدار الحجري منذ أكثر من ٨٠٠ عام، ويظهر بداخلها للوهلة الأولى عدد كبير من المخطوطات، وصندوق خشبي كبير قديم..

تنظر "ماريا" بذهول لمحتويات الخزنة الحجرية وهي تقول:

ما كل هذه المخطوطات؟

يجيب اللواء "محمد" وهو يتفقد تلك المخطوطات ولا يكاد يصدق ما يراه أمام عينيه:

إنها مخطوطات قديمة لا تقدر بثمن!!

ثم يتابع وهو يتفحص إحدى تلك المخطوطات قائلًا: ومن النظرة الأولى أستطيع أن أقول أن هذه مخطوطات تحتوي على مخططات عسكرية لحماية القلعة وكذلك تفصيل تكوين الجيوش..

ويتابع تفحص المخطوطات باندهاش كبير وهو يقول: كذلك أرى هنا مراسلات لصلاح الدين الأيوبي مع عدد من القادة العرب والصليبين!! إنها فعلًا كنز تاريخي قيم..

تتامل "ماريا" في موجودات تلك الخزنة ثم تقول: وما هذا الصندوق هناك؟؟

فيلتفت اللواء "محمد" إلى "ميشيل" وهو يقول:

ساعدني حتى نزيل هذه الأتربة المتراكمة فوق هذا الصندوق..

يقوم "ميشيل" بمساعدة اللواء "محمد" بإزالة الأتربة من على الصندوق بحرص شديد ثم يقومان بفتح ذلك الصندوق بحرص وحذر ويقفان يتأملان ما يشاهدونه..

تسأل ماريا: ماذا وجدتم في الصندوق؟

فيخرج "ميشيل" قطعة كبيرة من القماش مطوية بعناية وذات وزن ثقيل ويتأملها بدقة ويقول:

أعتقد أنها الراية.. العقاب.. راية السلطان "صلاح الدين"!!

ينظر اللواء "محمد" إلى تلك القطعة القماشية الكبيرة ويتفحصها بدقة وذهول: نعم، هي كذلك كما تقول ميشيل.. وأعتقد أنها الراية الأصلية وعليها رسم العقاب، وقد كتب على جناحيها الشام ومصر.. وأظن أن لذلك دلالات مهمة..

ماريا: ما هي هذه الدلالات حضرة الجنرال.. ماذا تقصد؟؟

يجيب اللواء "محمد" قائلًا: نعم آنستي.. فقد كان الترتيب القتالي الذي استعمله "صلاح الدين الأيوبي" ومعاصروه من القادة المسلمين، يعتمد على التنظيم الكلاسيكي العربي القديم بشكل أساسي، أي قلب وجناحين

وميمنة وميسرة، وجالشية (نبالة) وساقة، ولكن الفارق الجديد الذي استحدثه "صلاح الدين" كان في قيام مجموعة القلب بمناورة تقدّم ثم تقهقر، لاستدراج العدو إلى الطوق الذي سرعان ما يتشكل ويتم الإطباق، هذا بالإضافة إلى تشكيلات وترتيبات قتالية أخرى عرفها العرب في زمن "صلاح الدين"، وكانت تشبه الأشكال الهندسية المختلفة، كالمستطيل والزاوية الحادة والمعيّن والدائرة..

والمعنى المقصود هنا أنه يذكرنا بأنه عندما استطاع "صلاح الدين الأيوبي" أن يجمع قوى وإمكانات الشام ومصر معًا، استطاع أن يكسب الحرب ضد الصليبين، وهذا ما نسميه إستراتيجيًا فكي الكماشة، وقد طبقت هذه النظرية كذلك في العصر الحديث عندما تكاتفت القوى العسكرية العربية وتعاونت سوريا ومصر في حرب أكتوبر في العام ١٩٧٣م وأطلقا معًا بنفس الوقت النار معلنين الحرب لاستعادة الأراضي العربية التي احتلها اسرائيل..

ماريا: إنه تحليل مهم فعلًا..

اللواء محمد: تمامًا.. لكن دعونا الآن نتفقد باقي موجودات الصندوق..

يخرج "ميشيل" بعض الأشياء من الصندوق ويتفحصها: هذا قميص أشبه بثوب، وهذا درع حربي.. ثم يمسك شيئًا ما بعناية وحرص وهو يتفحصه بدقة.

ثم يتابع وهو يقول: وهذا سيف فولاذي مكتوب عليه شيء أو كلمات لم أفهمها!!

ينظر اللواء "محمد" لذلك السيف الذي يمسك به "ميشيل" قائلًا:

دعني أرى لو سمحت.. نعم إنه سيف تاريخي وقد كتب عليه "الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب"..

ماريا: إذًا هل يمكن أن يكون ذلك قميص "صلاح الدين" وسيفه ودرعه؟!

يجيب ميشيل: نعم، هذا ما يبدو..

يأخذ اللواء "محمد" إحدى المخطوطات الموجودة في الخزنة الحجرية وينهمك في محاولة فهم محتواها وهو يقول: إنها مخطوطة كتب عليها بالعربية القديمة.. تسرد أحد الوقائع التي جرت في ذلك العصر..

ماريا: ماذا تقول المخطوطة حضرة الجنرال؟؟

اللواء محمد : نعم اسمعا ماذا تقول المخطوطة أيها السادة ...

وبدأ يقرأ ويقول:

"نحن الآن في نهاية القرن السادس الهجري، زمن الحملات الصليبية الأوروبية على الشرق الإسلامي وفي خيمة أحد القادة الصليبين، اجتمع بعض الفرسان والأمراء الصليبين، وكان الحديث يدور حول السيف الأعجوبة.. السيف الدمشقي الذي يستطيع أن يشطر الرجل إلى نصفين دون أن ينكسر أو يتثلم، بعكس سيوفهم الثقيلة والعريضة والتي كثيرًا ما تتكسر إذا تعرضت لقوة كبيرة..

وتذكر جمع القادة قصة ريتشارد قلب الأسد مع السلطان صلاح الدين الأيوبي، حيث كان "ريتشارد" قد أحضر قطعة حديد صغيرة وقطعها بسيفه وقال لصلاح الدين سنحاربكم بسيوف مثل هذه..

فأخرج صلاح الدين منديلًا حريريًا من جيبه ورماه في الهواء وهوى عليه بسيفه فقطعه إلى نصفين وهو يسبح في الهواء ثم رد على ريتشارد: ونحن سنقاتلك بسيوف مثل هذه..

انتهى اجتماع القادة الصليبين وكانت النتيجة الوحيدة التي وصلوا لها من اجتماعهم هي ازدياد دهشتهم وإعجابهم بما صنعه العرب المسلمون".. انتهت الكلمات..

يضع اللواء "محمد" تلك المخطوطة جانبًا ثم يمسك بذلك السيف الموجود في الصندوق وهو يتلمسه بدقة وشغف قائلًا:

ياللروعة.. هذا سيف عربي دمشقي أصيل!!

ويتابع قائلًا: لقد كان صناع السيوف الدمشقيون يقومون بصنع آلاف القطع من هذه السيوف، وكذلك خناجر دمشقية من نفس المعدن للجيوش الإسلامية، وذلك لعقود طويلة من الزمن، وقد حاول الأوربيون محاولات كثيرة لمعرفة سر السيف الدمشقي، وبالرغم من حصولهم على بعض هذه السيوف وتقديم عينات منها لأشهر صناع السيوف الأوربيون إلا أنهم فشلوا، وحاولوا رشوة بعض الصناع المسلمون لإكتشاف سر السيف الدمشقي إلا أنهم فشلوا أيضًا، وبعد فشلهم المتكرر في صناعة السيف الدمشقي واكتشاف سره، أطلق الأوربيون على معدن السيف الدمشقي اسم المعدن الأسطوري..

تقول "ماريا" بتعجب: شيء مدهش فعلًا!!

يتابع اللواء "محمد" قائلًا: نعم.. لقد صُنعت السيوف الدمشقية من فولاذ خاص يحتوي على نسبة عالية من الكربون تتم معالجتها لفترات طويلة وبطرق لم يكشف سرها حتى يومنا هذا، ويكون ناتج تلك المعالجة فولاذ ذو بنية ليفية تظهر عليها خطوط دقيقة وجميلة..

ومع تقدم العلم في العصر الحديث تم اكتشاف بعض أسرار السيف الدمشقي، ففي عام ٢٠٠٦م نشر فريق بحث ألماني بحثًا كنت قد اطلعت عليه حيث يقول ذلك البحث: أن معدن السيف الأسطوري هو عبارة عن أسلاك وأنابيب الكربون النانوية لكن ما أذهلهم وما جهلوه هو كيف استطاع صناع دمشق الوصول لهذه الدقة المتناهية في ذلك الزمن..

فسر ذلك قد مات مع صانعوه وحتى يومنا هذا لا يوجد خبر مؤكد عن ذلك، وبين الفترة والأخرى يخرج لنا باحث ويعلن أنه اكتشف سر صناعة السيف الدمشقي، ويشرح آلية معينة، ولكنها تبقى في إطار التوقعات..

يقول "ميشيل" معقبًا على حديث الجنرال: نعم حضرة الجنرال.. وأذكر أننا كنا قد أجرينا بحثًا في جامعة باريس مؤخرًا حول موضوع تاريخ السيوف وارتباط ذلك بالأحداث التاريخية..

وحقيقة تاريخية مهمة يجب أن أذكرها هنا وهي أن السيف الدمشقي قد شكّل عبر القرون الماضية لغزًا مستعصيًا على الحل في الصناعة الحربية، وقد رُويت عنه الأساطير وَقيل أن الشعرة كانت تنشطر إلى نصفين لدي سقوطها على نصله، وأنه كان من عوامل انتصار "صلاح الدين الأيوبي" على الصليبيين في المعارك التي خاضها ضدهم، وَأن القادة الأوروبيين كانوا يرسلون التجار إلى دمشق لشراء تلك السيوف المميزة وَبأغلى الأثمان للتباهي بها، وَاستخدامها في المبارزات وفي المعارك الهامة..

وقد رُويَ كذلك أن الإسكندر الأكبر ما كان ليقطع عقدة (غورديان) لو لم يمتلك سيفًا دمشقيًا، وَرغم محاولة الحرفيين الغربيين تقليده عبر العصور فإن صناعته ظلت لغزًا حتى يومنا هذا..

ويتابع ميشيل حديثه قائلًا: لكن بعد سبعة قرون من الحيرة والاختبارات الفاشلة، نجح عالمان أمريكيان من جامعة "ستانفورد" في الولايات المتحدة الأمريكية في التوصل إلى معرفة سر السيف العربي بعد أن بذلا جهدًا مضنيًا خلال ما لا يقل عن ست سنوات في المختبرات..

تنظر ماريا لميشيل وتقول متسائلة: وإلى ماذا توصلا هذان العالمان، وهل توصل هذا البحث في الكشف عن سر ذلك السيف؟؟

يجيب ميشيل: في الحقيقة لقد بدأ العالمان الأمريكيان اختباراتهما بالبحث عن سر المرونة الفائقة في السبائك المعدنية وكيفية تحقيقها في الفولاذ بشكل خاص.. العالم الأول هو (أوليغ شيربي) الذي يعمل أستاذًا في علم المعادن والهندسة في جامعة "ستانفورد"، والثاني هو (هيفري وادسورث) وَيعمل في مختبرات شركة (لوكهيد) للصناعة الحربية في "بالوالتو".. والواقع أن المرونة الفائقة تتوفر عادة في عدد ضئيل من السبائك المعدنية، وَلها ميزة التكيف مع المتطلبات الصناعية في أخذ الشكل المطلوب دون الحاجة إلى التقطيع وَاستخدام أسلوب الوصل في ما بين القطع، وَهذا النوع من السبائك لا يفقد صلابته بعد تبريده، كما يحافظ على شكله المصقول ولا تظهر فيه البقع والحبيبات الصغيرة بعد صناعته..

وَلكن لا تمتلك المعادن جميعها مثل هذه الخاصية، كما أن أهم معدن يستخدم في تلك الصناعة وَهو الفولاذ، لا تزال سبيكته الساخنة صعبة التكيف وممتنعة جزئيًا عن التشكيل..

ويتابع "ميشيل" حديثه وهو يمسك بالسيف الذي وجدوه في الخزنة الحجرية قائلًا: إلى أن أعلن (بيتر بوفلر) الباحث في الجامعة التكنولوجية بمدينة "دريسدن" الألمانية أن الفريق البحثي قد اكتشف عند تحليله لواحد من شفرات السيوف الدمشقية دقيقة التكوين عن وجود آثار لأنابيب متناهية الصغر عبارة عن إسطوانات دقيقة من الكربون ذات مواصفات خاصة..

وأضاف (بوفلر) أن تلك الأنابيب متناهية الصغر المصنوعة من الكربون صارت اليوم قمة تكنولوجيا النانو أو علم المواد متناهية الصغر، كما وُجدت بقايا الأسلاك متناهية في الصغر من الكربيد، هذه الأسلاك المصنوعة من مادة شديدة الصلابة ربما إحتوت داخلها على أنابيب متناهية

الصغر من الكربون و هي التي أعطت هذا السيف قوته غير الطبيعية و شكله الأخاذ..

وقد قيل بأن الحدادين والصناع الدمشقيون قد استطاعوا من خلال تطوير معالجة الشفرة لأقصى حد ممكن وصنع أنابيب متناهية في الصغر قبل أكثر من ١٠٠٠ سنة، مما يمكن للعلماء بمزيد من الدراسة لتركيبة السيف القدرة على إعادة إنتاج هذه الوصفة التي طال نسيانها للصلب الدمشقي، والتي ظلت الكيفية التي تمكن بها حدادو العصور الوسطى من التغلب على ضعف المادة الصلبة لإخراج هذا المنتج النهائي القوي سرًا من الأسرار حتى الآن..

تفكر "ماريا" بما يقوله "ميشيل" وهي منصتة بتركيز ثم تقول:

إذًا فوجود هذا السيف في هذه الخزنة الحجرية المخبأة والتي توصلنا إليها بعد تحليل وتتبع كلمات وصية ورسالة السلطان "صلاح الدين" التي كانت موجودة في قطعة خشبية من منبر الأقصى الشهير، لم يكن من الممكن الوصول إلى مكان هذه الخزنة لو بقي المنبر في مكانه..

اللواء "محمد" مقاطعًا "ماريا": بل تقصدين أنه لم يكن من الممكن الوصول إلى هذه الخزنة ومعرفة محتوياتها لو استمر نصر "صلاح الدين" الذي جعل القدس مدينة محررة من الاحتلال..

يرد "ميشيل" متابعًا: أعتقد ذلك حضرة الجنرال، ولذلك أرى أن المقصود في كلمات نهاية الوصية أو كتاب السلطان "صلاح الدين" وخاصة عبارة "وبسر شعار رايتنا العقاب و جناحيه" كان تعريفه وتذكيره بأسرار النصر للأجيال التي ستأتي من بعده، ويقصد هنا التوحد والقوة..

"هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار التي ستحوم حول شعار رايتي وقبري" أي تقنية السيف والمخططات العسكرية والتوثيقات التاريخية لعلوم سياسية تفيد في تحقيق النصر الضائع..

يقول اللواء "محمد" وهو يمسك السيف الذي وجدوه في الصندوق:

تحليلك دقيق وفي محله صديقي البروفيسور..

وكذلك يبقى سر هذا السيف الدمشقي تحديًا تركه صانعوه واستعصى على من بعدهم على مر العصور..

ماريا: إذًا من كل هذه المعلومات والدراسات هل فعلًا يمكن أن يكون سيف "صلاح الدين الأيوبي" سيف بتقنية النانو!!

ينظر اللواء "محمد" إلى "ماريا " مبتسمًا وهو يقول:

بعد كل ما حدث معكما وما رأيناه الآن معًا يصبح كل شيء ممكنًا.. والسيف الدمشقي كان معروفًا ومشهورًا بقطع سيوف الأعداء، وكان سر من أسرار قوة جيوش "صلاح الدين الأيوبي" التي هزم بها الصليبيين.. وقد اكتشفت بعض أسرار هذا السيف بعد قرون طويلة وليس هذا فحسب، إنما ذهب العلماء إلى أن العرب المسلمين هم أول من استخدم علم النانو تكنولوجي بصناعة هذا السيف..

ميشيل: إذًا أعتقد أن هذا كان ما يقصده السلطان" صلاح الدين" في كتابه الذي وجدناه في القدس.. وأخذ ميشيل يردد كلمات الوصية:

"أدعو الله العلي القدير أن يغفر زلتكم ويعيديكم إلى ما هجرتموه ومدكم بسر القوة وبسر النصر الذي كان بالإيمان وتحقق بالتسامح والعزم.. وبسر شعار رايتنا العقاب وجناحيه.. هذا النصر الذي يتحقق بهذه الأسرار التي ستحوم حول شعار رايتي و قبري..

وذكّر عسى الذكرى تنفع المؤمنين، ولاحول ولا قوة إلا بالله..

الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب"

يهز اللواء "محمد" رأسه بتأثر: في الحقيقة إنه كشف تاريخي جديد ويكاد يكون معجزة حقيقة وبكل المعاني التي أراد السلطان "صلاح الدين الأيوبي" أن ينقلها لمن بعده لنكتشفها الآن بعد ٨٠٠ عام وأكثر.

ماريا: هل يمكن أن توضح ذلك حضرة الجنرال؟؟

اللواء محمد: نعم بكل تأكيد، فإيجادكم بداية لقطعة المنبر الخشبية التي كانت مخبأة تحت أرضية الحرم القدسي الحجرية والكتاب الذي وجدتموه بختم "صلاح الدين" والذي يقول في بدايته:

"بما أنكم تقرأون هذا الكتاب فيعني ذلك أن المنبر قد أزيح من مكانه.." والمنبر كما عرفتم أصدقائي تم وضعه في المسجد الأقصى بعد سنوات طويلة من الانتظار، حتى تم النصر على الصليبين وله رمزية ذلك النصر الذي ضحى من أجله الكثير من الأجيال والشهداء..

ووضع "صلاح الدين" لذلك الكتاب ضمن إحدى قطع المنبر الخشبية والذي له من أسرار بنائه المتقن ما عرفتم عنه في القدس، وبأنه لا يمكن فك قطعة لوحدها من ذلك المنبر.. فكل المنبر متشابك ومُعَشَّق مع بعضه البعض بطريقة عجيبة..

لذلك فالكتاب أو وصية "صلاح الدين" التي وجدتموها في قطعة المنبر الخشبية التي كانت مخبأة تحت أرضية المسجد الأقصى الحجرية لا يمكن أن يراها أو يقرأها أحد إلا إذا أُزيل المنبر من مكانه، بمعنى حدوث سوء للمسجد أو لمدينة القدس..

وعليه كتب "صلاح الدين" كتاب يذكِّر فيه أمته بأسباب النصر ويذكرهم بالعهدة العمرية كناية لمفهوم التسامح، وأن مدينة القدس هي مدينة سلام ومهد الديانات السماوية.. ويجب أن تبقى كذلك..

ميشيل: نعم، أرى أن كل ما تقوله حضرة الجنرال صحيح ومنطقي مائة في المائة وتتمة لذلك أعتقد أن السلطان كان يريد ممن يقرأ الكتاب أن يتلمس أيضًا أسرار النصر بسر شعار راية العقاب وجناحيه وهذه الأسرار التي تحوم حول قبره وشعار رايته..

ولهذا تتبعنا تلك الكلمات التي أخذتنا إلى القاهرة لنكتشف الآن ما كان مخفيًا خلف شعار راية العقاب لقرون ولنكتشف معنى الجناحين اللذين يرمزان بأن القوة والنصر تتحقق بالوحدة، ولنكتشف كذلك مخطوطات الخزنة والتي تحتوي تدوينات وتوثيقات سياسية في عصره وخطط عسكرية، وكذلك سيف النصر الدمشقي..

ماريا: يا إلهي كم هذا مدهش.. ويا لها من معانٍ عميقة!!

اللواء محمد: نعم، هذا هو "صلاح الدين الأيوبي".. إنه قائد عظيم فكر بأمته حتى بعد موته ليبقى ناصحًا مذكّرًا بأسباب النصر..

ويلتفت نحو "ميشيل" و"ماريا" ويتابع قائلًا: وحقيقة كم سيذكركما التاريخ أصدقائي بأنكما قد ساعدتم في الوصول إلى هذا الكشف التاريخي الهام..

وكذلك ستبقى شعوب هذه المنطقة تشكركما لما قمتم به من جهود مضنية في بحثكم الدؤوب عن براءة صديقكم وابن هذه المنطقة من جريمة قتل الحاخام اليهودي المسيو "عازر موسان"..

ماريا: أشكر لطفك حضرة الجنرال، وفي الحقيقة تؤكد لنا كل خطوة نخطوها في هذا البحث أن "أحمد" فعلا بريء من تلك الجريمة..

يصمت "ميشيل" وهو يتأمل في تلك الخزنة وما وجدوه فيها ثم يقول:

نعم صحيح كل ما تقولونه.. لكن المدهش حقًا هل كان يعلم الأب "باولو" كل هذا؟؟

اللواء محمد : في الحقيقة سؤال مهم..

واسمحوا لي أن نتعاون معًا في البحث في ذلك، وخاصة بعد الذي اكتشفناه الآن ودعونا نعيد ترتيب تلك المعاني علَّنا نستطيع أن نصل لحقائق مهمة أخرى..

يجيب "ميشيل" قائلًا: طبعًا صديقي الجنرال بكل سرور.

تقف "ماريا" وهي تشعر بالإرهاق قائلة:

ممتاز، إذًا دعونا نأخذ استراحة بداية.. ونعيد معًا ترتيب تسلسل تلك الأحداث ومتابعة البحث حول باقي كلمات رسالة الأب "باولو" التي أرسلها إلى المسيو "عازر"..

يبتسم اللواء "محمد" وهو يقول: طبعا آنستي سنأخذ استراحة فورًا..

لكن بعد أن أقوم بتكليف فريق متخصص لجرد وتوثيق محتويات خزنة راية العقاب هذه..

الفصل الرابع والثلاثون

في ذات الأثناء، وفي إحدى ضواحي باريس الهادئة حيث منزل البروفيسور "ميشيل" يجلس "أحمد" في غرفة المكتبة وهو يقوم بمراجعة عدد من الكتب الكثيرة أمامه ..

ويمسك بأحد تلك الكتب شاردا في أفكاره وهو يسترجع كل ما حصل معه في سورية ويستذكر لقاءه الأخير مع الأب "باولو" وأمانته التي أمّنه بأن يوصلها للحاخام اليهودي "عازر موسان".. ويقول في نفسه:

أين أنت الآن أيها الأب "باولو".. ماذا فعلوا بك؟؟

وهل أخذني القدر إليك حتى تقول لي كلمات تلك الرسالة وتختفي؟؟ وماذا كان يحويه ذلك المغلف المفقود يا ترى؟؟

يفكر "أحمد" بكل ذلك وهو يستذكر كل ما مر به ليشرد بين صور رحلته القاسية للوصول إلى باريس وهو يعبر البحر والجبال والحدود. والأناس الذين رآهم يموتون في الطريق.. فيصيح قائلًا:

لِمَ كل هذا العنف؟؟ وماذنب كل هؤلاء الأبرياء!!

ثم يقف أمام أحد نوافذ غرفة المكتبة ليرى انعكاس صورته على زجاج النافذة ويتمتم قائلًا:

ولكن هل أنا في وضع أحسن؟؟

آه.. فما زلت أحمل وزر جريمة لم أرتكبها.. لماذا يحدث كل ذلك؟؟ ومن قتل ذلك الحاخام اليهودي.. ولماذا؟؟

يتأمل "أحمد" في صورة انعكاس وجهه على زجاج النافذة ثم يفكر بصمت قليلًا، هبط الظلام وانقلب لون السماء قرمزيًا فكأن الليل قد جاء يحمل له أحجية يتعين عليه إيجاد حل لها..

فيعود فجأة إلى طاولة المكتب ويتصفح الكتاب الذي كان بيديه وهو يقول: لا بد أن لكلمات تلك الرسالة وما وجدناه في دفتر مدونات المسيو "عازر" شيء ما يربط ويكشف كل ما قد حدث..

ويجب عليَّ أن أتابع البحث بجد أكثر حيث "ماريا" و"ميشيل" قد قطعوا الآلاف من الأميال بحثًا عن تلك الحقيقة من أجل إثبات براءتي..

وعاد "أحمد" ليسجل أهم الملاحظات فيما يقوم به من بحث.. لتمر ساعات وساعات وهو مستغرق في البحث بين الكتب وعلى شبكة الإنترنت، وهو يكتب كل ما يمكن أن يتمكن من معرفته والوصول إليه من معلومات قد تفيد في البحث الذي يقوم به ويسجلها ويعيد قراءتها مرات ومرات..

تدخل "فيرونيكا" مدبرة منزل البروفيسور "ميشيل" غرفة المكتبة وتنظر نحو "أحمد" قائلة: سيدي لقد حلّ الليل وأنت كعادتك نسيت أن تأكل شيئًا مما أحضرته لك..

يلتفت "أحمد" منتبهًا إلى ما تقوله "فيرونيكا" ثم ينظر إلى ساعته ويتفاجأ من بقائه ساعات طوال في البحث، ثم ينظر متأملًا بما سجله من معلومات وتلمع عيناه وهو يقول مبتسمًا:

نعم، لقد أمضيت وقتا طويلًا لكن المهم أني توصلت لتفاصيل وأسرار هامة حول ما يقوم به أتباع "راؤول".. ويجب أن أتصل بـ"ماريا" و"ميشيل" فورًا..

الفصل الخامس والثلاثون

أما في القاهرة، وفي مكتب اللواء "محمد" يجلسون سويًا لأخذ استراحة بعد الزيارة التي قاموا بها إلى قلعة "صلاح الدين الأيوبي" في القاهرة وما تم اكتشافه في القلعة بعد جولة استثنائية في أرجائها..

واللواء "محمد" ما يزال مذهولا ولا يكاد يصدق ما تم اكتشافه في تلك الخزنة الحجرية التي كانت مخبأة خلف رسم جناحي العقاب الحجري شعار راية "صلاح الدين"، والموجود على أحد جدران قلعته الحجرية الضخمة..

ويجلس منصتًا بتركيز شديد لما يحدثه به "ميشيل" و"ماريا" وهو يستمع إليهما، للتفاصيل والأحداث التي مرت عليهما منذ أن قررا البدء في البحث مع "أحمد عيسى" عن دليل براءته من جريمة مقتل المسيو "عازر موسان" في باريس..

ينظر اللواء "محمد" نحو "ميشيل" و"ماريا" بعد أن انتهيا من حديثهما ثم يقول: إذًا فلقد تتبعتما كلمات رسالة الأب "باولو" واتجهتم نحو الطريق التي أخذتكم إليها كلماتها الأولى، وتتبعتما أثر وإرث ذلك الحارس العثماني التي قادتكما للكشف عن كتاب من "صلاح الدين الأيوبي" وخاتم حديدي ذو دائرة مسننة عليها شعار راية العقاب حيث كان مخبأً ضمن قطعة خشبية من بقايا منبر المسجد الأقصى الذي احترق نتيجة عمل إرهابي قام به يهودي متطرف..

ثم أخذتكما كلمات الكتاب الوصية إلى القاهرة لتبحثوا عن شعار راية "صلاح الدين" في قلعته ولنجد بعد البحث الدقيق أن خلف جناحي شعار الراية العقاب كنزًا من المخطوطات القديمة وسيف "صلاح الدين الأيوبي" والتي كان قد وضعها في خزنة سرية خلف شعار راية العقاب

لترشد من يأتي بعده لسلوك طريق النصر الذي أعاد به القدس من يد الصليبيين..

تقول ماريا: تمامًا سيدي..

يتابع اللواء محمد معقبًا: في الحقيقة لقد قمتما بجهد كبير وواضح أنه لم يخلو من المخاطرة.. ولكن السؤال الهام الآن والذي يفرض نفسه حاليًا.. ماهو الرابط الذي يربط كل ذلك مع أهميته، بجريمة مقتل المسيو "عازر موسان" في باريس؟؟

يجيب "ميشيل" قائلًا: نعم، سؤال مهم صديقي الجنرال..

وأعتقد أن لكل تلك المعاني رابطًا لا بد من أن يجمع فيما بينها مفسرًا لكل ما جرى ويجري عند اكتمال البحث..

فمثلًا وفي عودة لكلمات رسالة الأب "باولو" إلى المسيو "عازر" كان قد جاء في الجملة الثانية الكلمات التالية :

"الإصحاح الأول في سفر التكوين هو الله الواحد الأحد، وليس إيلوهيم راؤول"

ينصت اللواء "محمد" لما يقوله ميشيل محاولًا استيعاب ما يقصده وهو يقول: "ايلوهيم" .."راؤول" .!!!. ماذا يعني ذلك؟؟

ينظر "ميشيل" نحو الجنرال "محمد" مجيبًا على سؤاله: في الحقيقة حضرة الجنرال لم نكن نعي شيئًا من كلمات هذه الجملة إلى أن توصل "أحمد" في بحثه حول ذلك إلى أن "راؤول" أو "رائيل" هو رئيس طائفة تطلق على نفسها اسم الرائليين..

ف"راؤول" أو "رائيل" هو الاسم الذي أطلقه على نفسه الصحفي الفرنسي "كلاود فوريلهون".. ويقص عليه قصته وما توصل إليه أحمد في بحثه..

فيقاطعه اللواء محمد: إنها تكاد تكون هرطقة لا أصل لها!!

يجيب "ميشيل" : من الممكن ذلك.. ولكن "راؤول" وطائفته المزعومة لم يقفوا عند ذلك بل يسعون بتكليف مزعوم من " الإيلوهيم" المخلوقات الفضائية التي خلقت البشر وفق اعتقادهم على إقامة سفارة لتلك المخلوقات الفضائية (الإيلوهيم) في القدس التي تسيطر عليها إسرائيل، والذي وفق عقيدتهم يعتقدون بأن المعبد اليهودي الأول الذي بني في القدس منذ القدم وقبل هدمه كان في الأساس سفارة " للإيلوهيم" الذين خلقوا اليهود كأول الخلق وأنهم الشعب المختار كما يزعم "الإيلوهيم"..

يهز اللواء "محمد" رأسه وهو يقول: نعم لقد أصبحت الصورة الأن أوضح..

تتابع "ماريا" قائلة: وبالتقاطع مع الكلمات التي وجدت في مدونة المسيو "عازر" وجدنا كلمات مثل: "أساطير غارودي" وبمراجعتنا لتلك الأساطير التي أوردها الكاتب الفرنسي "روجيه غارودي" في كتابه المثير للجدل أن من الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية هو اعتقادهم بأنهم العرق الأنقى وأنهم شعب الله المختار..

يضيف "ميشيل" على ما تقوله "ماريا" معقبًا ويقول:

وأعتقد بعد كل ما توصلنا إليه حتى الآن، ومن ملابسات الجريمة الغامضة، أن مقتل المسيو "عازر" كان بسبب منعه من الإفصاح عن كل هذه المعلومات والأبحاث التي كان يخطط المسيو "عازر موسان" للإفصاح عنها في مؤتمر كان يعمل على عقده في باريس بعد خمسة عشر يومًا من لقائه بأحمد، ووفق ما أخبر به "أحمد" أيضًا.

يسأل اللواء "محمد" "ميشيل" مستغربًا:

ولكن ما مصلحة المسيو "عازر" في ذلك وهو حاخام يهودي؟

يجيب "ميشيل": تمامًا، إنه سؤال ذكي حضرة الجنرال.. فلقد وجدنا من معلومات التحقيقات الأولية أن المسيو "عازر" حاخام يهودي يناهض أفكار الصهيونية كفرد، وأنه مقرب من جماعة "ناطوري كارتا" اليهودية.

اللواء محمد: "ناطوري كارتا"!! نعم إنهم من المعارضين وفق معتقداتهم لإقامة دولة إسرائيل أساسًا رغم أنهم يهود، ولكنهم ليسوا صهاينة..

ميشيل: تمامًا.. هذا ما كنت أقصده..

تقول ماريا: إذًا فمن المؤكد أن من قتل المسيو "عازر" كان يود منع الحاخام عازر من إقامة ذلك المؤتمر.

اللواء محمد: إذًا الآن الدافع الحقيقي للجريمة قد أصبح واضحًا..

ماريا: نعم نظن ذلك أيضًا، ولكن للأسف تم إلصاق التهمة بأحمد الذي أخذه القدر للقاء المسيو "عازر" وظهرت الجريمة من الصورة الأولى لها بأنها ذات دافع عنصري وكراهية من عربي مسلم ضد يهودي..

اللواء محمد: نعم للأسف..

يتابع "ميشيل" قائلًا: لكن الغريب هنا في ملابسات الجريمة هو اختفاء ذلك المغلف الورقي الذي سلمه "أحمد" للمسيو "عازر" عند لقائه القصير معه.. حيث اختفى بمقتله..

تقول ماريا: تمامًا، وأظن أنه وفقًا لما بدأنا نتفهمه وبعد كل ما جرى معنا في بحثنا وكل ما اكتشفناه حتى الآن.. أن ذلك المغلف قد يحتوي من ضمن الملفات التي كانت بداخله، بحثًا "لاهوتيًا" أجراه الأب "باولو" يتناول معاني "الإيلوهيم" ومعتقدات الرائليين وما يخططون له..

ينصت اللواء "محمد" لما تقوله "ماريا" بتركيز وهو يكرر بصوت خفيف:

الرائليين..الرائليين.. أعتقد أنه هذه الكلمة ليست بغريبة عني، وأظن أنها وردت إلينا مؤخرًا ضمن أحد التقارير..

يقف اللواء "محمد" فجأة أمام طاولة مكتبه ويمسك بسماعة الهاتف متحدثًا لأحد الضباط قائلًا:

نقيب "سامح"، إرجع إلى التقارير التي وردتنا منذ ثلاثة أشهر حتى اليوم حول جماعة تدعى الرائليين واجمع لي كل المعلومات التي تتعلق بهم أو بالمدعو "راؤول" أو "رائيل"..

النقيب سامح : كما تأمر سيدي.

اللواء محمد : شكرًا، لا تتأخر.

تنظر "ماريا" نحو الجنرال "محمد" بدهشة وهي تقول:

هل من الممكن أن يكون للرائليين تواجد أيضًا في مصر؟!

يجيب اللواء محمد: في عملنا آنستي قد تعلمنا أن كل شيء قد يكون ممكنًا أيضًا ومن المهم أن نهتم ونتابع كل تفصيل..

وتابع ضاحكًا وهو يقول: رغم أنكما قد أثبتما أنكما لا تقلون عنا اهتمامًا بالتفاصيل والمتابعة..

يرد "ميشيل" مبتسمًا: لكن ليس بمثل مهارتكم حضرة الجنرال..

وتعود "ماريا" لمتابعة حديثها: ورغم كل ذلك مايزال أمر ذلك المغلف المختفي وما يحتويه يشغل بالي..

ميشيل: معك حق "ماريا"، ونحن نعمل على كشف ذلك، وكذلك ننتظر نتائج البحث الذي يقوم به أحمد في باريس، وإلى ما يمكن أن توصلنا إليه نتائج البحث..

تهز "ماريا" رأسها موافقة ليقطع الحديث رنين هاتف "ماريا" الذي أخذ يرن فجأة، فتنظر إلى هاتفها وتبتسم قائلة:

إنه أحمد..

اسمحوا لي أن أرد على مكالمته، فلعل لديه شيئًا جديدًا يريد أن يعلمنا به، أو أن يكون قد توصل إلى أمر هام..

تمسك "ماريا "بهاتفها وتتلقى تلك المكالمة

أحمد: آلو.. مرحبا "ماريا" كيف حالك؟

ماريا: أهلًا "أحمد".. كنا نتحدث مع الجنرال "محمد" عنك..

يرد "أحمد" متسائلًا: من الجنرال محمد؟؟

ماريا: إنه صديق عزيز، وقد ساعدنا في الكشف عن مخطوطات ثمينة وسيف "صلاح الدين" في الخزنة التي كانت مخفية لعصور خلت خلف الرسم الحجري لشعار راية "صلاح الدين" على جدران قلعة "صلاح الدين" في القاهرة.

يجيب "أحمد" بدهشة: تقصدين راية العقاب؟!

ماريا: نعم، فلقد ظهرت خلف كلمات رسالة الأب "باولو" اكتشافات ومعلومات تاريخية مهمة..

أحمد: لا أشك في ذلك، ولعل ذلك سيساعدنا في الوصول إلى الحقيقة وكشف حقائق عديدة.

ماريا: تمامًا وسأرسل لك تفاصيل ما جرى معنا حتى الآن لاحقًا.. لكن هل من جديد لديك؟؟

أحمد: نعم، فمازات أتابع في بحثي حول جماعة الرائليين..

وقد وجدت بعد الذي كنت قد أخبرتكما به من قبل من أن تلك الجماعة بالإضافة إلى زعمهم بأن الكائنات الفضائية (الإيلوهيم) أخبرت "فوريلهون" أو "راؤول" بضرورة نشر كلمة "الإيلوهيم" على الأرض تحضيرًا لعودتهم وإقامة سفارة لهم على أرض إسرائيل..

وجدت شيئًا جديدًا ومثيرًا، وقد توصلت إليه الآن، وهو بأنهم يعتقدون أن المفتاح للحياة الأبدية ليس النفس البشرية ولكن بإعادة صنع الأفراد من الحمض النووي(DNA).. وذلك يفسر اهتمام الرائيليين بنظرية الاستنساخ، لاعتقادهم بأن النفس البشرية تفنى عندما يموت الجسد..

ففي عام ١٩٩٧ أسست جماعة الرائيليين مؤسسة "كلوناید" وزعمت أنها استنسخت أول مخلوق بشري.. وقد أرسلت لكم تقريرًا مفصلًا مهمًّا حول ذلك "ماريا".

ترد "ماريا" باهتمام: حسنًا "أحمد"، سنقوم بالاطلاع عليه فورًا وسنتابع معك آخر المستجدات.

أحمد: حسنًا ولنبقى على تواصل، وكونوا بخير.

ماريا: اتفقنا.. إلى اللقاء.

يلتفت "ميشيل" نحو "ماريا" متسائلًا: هل توصل أحمد لجديد؟

ماريا: نعم هناك معلومات مهمة ومثيرة، ولقد أرسل لنا تقريرًا مفصلًا حول ذلك..

تلتفت "ماريا" نحو الجنرال "محمد" وهي تقول: هل يمكن أن نستخدم جهاز الكمبيوتر الموجود في مكتبك حضرة الجنرال؟؟

يجيب اللواء "محمد" مبتسمًا: طبعًا طبعًا.. تفضلي آنستي..

وتجلس "ماريا" أمام جهاز الكمبيوتر لتطَّلع على بريدها الإلكتروني وتستلم عبره رسالة "أحمد" الأخيرة التي أرسلها من باريس والتي بدأت تقرأها وعيناها أخذت تجحظ مندهشة مما تقرؤه..

ينظر ميشيل إلى وجه ماريا ويسأل مستغربًا لحالها:

ماريا.. ماذا وجدت في تقرير "أحمد" ويدعوك للدهشة هكذا؟!

ماريا: إنها معلومات غريبة فعلًا وخطيرة كذلك..

وتتابع قائلة: اسمعوا أصدقائي ماذا جاء في تقرير أحمد..

اللواء محمد: تفضلي ماريا..

ماريا: الجديد هنا هو معلومات مثيرة وغريبة حول الرائليين، فبالإضافة لما عرفناه عنهم، فهم يعتقدون كما أخبرني أحمد منذ قليل أن المفتاح للحياة الأبدية ليس هو النفس البشرية.. ولكن بإعادة صنع الأفراد من الحمض النووي DNA..

لذلك يعود اهتمام الرائيليين في الاستنساخ إلى اعتقادهم بأن النفس البشرية تفنى عندما يموت الجسد.

ففي عام ١٩٩٧م أسست جماعة الرائيليين مؤسسة "كلوناید" وزعمت أنها استنسخت أول مخلوق بشري.. وفي تقرير "أحمد" الطويل حول ذلك بحث مرفق يتضمن بعض الأخبار التي جمعها عبر بحثه المضني في شبكة الإنترنت حول هذا الموضوع..

اللواء محمد: هذا مثير للاهتمام فعلًا!!

ميشيل: شيء غريب فعلًا!!

تتصفح "ماريا" في البحث الذي أرسله "أحمد" من باريس ثم تتوقف وهي تقول: اسمعوا لما يقوله هذا الخبر مثلًا.. وتقرأ بعضًا مما جاء في ذلك البحث المرفق قائلة:

(ينعت "راؤول" مزاولة البشر للعبادات الدّينيّة بالغباء، وينعت الدّيانات البشريّة باستثناء اليهوديّة بالباطلة والمجرمة، نتيجة التّحريف والتشويه الّذي ألمّ بها بفعل التأخّر في تدوينها وفقدانها للغة الأصلية الّتي نزلت بها وترجمتها للغات أجنبيّة متعدّدة، وعلى الرغم من عدم انطباق ذلك على القرآن كتاب المسلمين الذي نزل بلغته الأصلية ولم يفتقدها حتى يومنا هذا، وتدوينه في الفترة الزمنية التي عاصر نزوله إياها، فإن رسول "الإيلوهيم" "راؤول" يسوق الكثير من الأمثلة والشواهد من التوراة الفاقد للغته الأصلية التي نزل بها على النبي "موسى"، والذي جرى تدوينه بعد مضيّ عدة قرون على نزوله وإضافة الكثير من الروايات التاريخية التي حصلت بعد وفاة النبي "موسى" إليه، وتعرضه للتشويه والافتراء نتيجة عبث الأحبار به..

ثم تتابع ماريا القراءة مما جاء في خبر آخر وتقول:

(وأخيرًا في مقابل دعوة "راؤول" لتطبيق قيم الديمقراطيّة والمشاركة والمحبة والسلام والحرية والفردية والاحترام ومكافحة الحروب والفقر والأمراض وهي قيمٌ إنسانيةٌ نبيلة من حيث الجوهر، نجده ينثر بذور الهلاك للبشرية، بإطلاق العنان للشهوة وطلب اللذة والمتعة بمعزل عن الضوابط الأخلاقية والإجتماعية والثقافية والدينية، وإنكار وجود الله والعودة بالإنسان لعبادة آلهةٍ متعدّدةٍ هم سكّان الفضاء "الإيلوهيم"، فمثل هذه التعاليم تسهم في خلق الشروط الضرورية اللازمة لهلاك البشرية وتدميرها ليس بواسطة الحروب والمحارق والمخدرات والفقر والأمراض التي لا سبيل لمنع حدوثها بمقتضى التعاليم الرائيلية فحسب إنما بتدمير القيم الإنسانية والأخلاقية

الجوهرية والأصيلة الّتي تحقّق للإنسان بواسطتها، الكرامة والأمن والتقدم والازدهار في كثيرٍ من أصقاع العالم)..

يعقّب اللواء "محمد" على ما تقرؤه ماريا:

وفقًا إذًا لما تُحدثنا به بعض التقارير الصحفية عن الرائليين أنهم يتسترون بشعارات مضللة يضللون بها العالم!!

ماريا: نعم، وتتابع "ماريا" قراءتها للبريد المرسل من أحمد:

بل هناك الأكثر غرابة من كل ذلك أيها السادة..

فهذا خبر سابق حول إعلان نجاح أول عملية استنساخ للإنسان والذي أعلنت عنه شركة أمريكية بكثير من القلق والخوف واستنكرته السلطات الرسمية في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا..

ويقول الخبر: "استقبل الرئيس الامريكي "جورج بوش" خبر إعلان نبأ أول عملية استنساخ للإنسان بتعبيره عن انزعاج شديد من جهود استنساخ البشر، وكان الرئيس "بوش" قد طلب من "الكونجرس" حظر استنساخ البشر وحظر استنساخ الأجنة البشرية لأغراض البحث العلمي، وأقر مجلس النواب بالفعل هذا الحظر، لكن مشروع القانون تعثر في مجلس الشيوخ بعدما جادل ناشطو بحوث بأن من شأنه أن يعوق البحث العلمي..

وكذلك انتقد الرئيس الفرنسي "جاك شيراك" بشدة هذه الجهود وناشد الدول في شتى أنحاء العالم بتجريم وإنزال أشد العقوبات على أي محاولة لاستنساخ الإنسان.. وكانت شركة "كلونيد" التي تتخذ من الولايات المتحدة مقرًا لها قد أعلنت منذ سنوات أنها نجحت في استنساخ إنسان لأول مرة، وينظر الخبراء بريبة إلى تلك المزاعم..

وتتابع ماريا:

وبعد كل ماورد، أجرى أحمد بحثًا دقيقًا حول ذلك الأمر ووجد أمرًا خطيرًا، وهو أن شركة "كلونيد" الشركة الأمريكية المثيرة للجدل مرتبطة بطائفة "راؤول" المهووسة بهذه الاعتقادات الضالة.

وقد أعلنت "بريجيت بويسيلييه" مديرة هذه الشركة أن الطفلة المستنسخة استنسخت من خلايا امرأة أمريكية في الحادية والثلاثين من عمرها وهي التي حملتها وولدتها..

وفي بريطانيا سكتت السلطات الرسمية ذات الميول العمالية عن إدانة ذلك الحدث، لكن عالم بريطاني أدان الحادثة ووصفها بأنها مثال على الأعماق السحيقة التي سيتردى فيها بعض الأطباء، وقد قال "باتريك ديكسون" وهو خبير بريطاني في مجال أخلاقيات الاستنساخ البشري أن هذا الإعلان سوف يثير النفور والاشمئزاز في كل أنحاء العالم..

غير أن "ديكسون" وصف الأنباء بأنها لامناص منها بالمرة، محذرًا من أنها تمثل علامة بارزة يدرك العالم عندها فجأة أن العلم يمكن أن يخرج عن نطاق السيطرة..

وقال "ديكسون" كذلك أن هناك سباق عالمي بين العلماء المارقين لإنتاج البشر من خلال الاستنساخ، تدفعهم إلى ذلك الشهرة والأموال والمعتقدات الضالة والملتوية..

وتتابع ماريا قائلة:

وقد أثار "ديكسون" قضايا حول علاقة الطفلة بأعضاء الأسرة الآخرين متسائلًا ماذا ستفعل بشأن إحساسها بالهوية الشخصية مع إدراكها أنها ليست أكثر من نسخة من شخص آخر أكبر منها بكثير؟!

وأثار المخاوف من أنه على الرغم من أن الطفلة لم تولد في بريطانيا، إلا أنه من المرجح أن تكون التكنولوجيا البريطانية هي التي استُخدمت في العملية،

بعد استنساخ النعجة "دوللي" في اسكوتلندا منذ بضع سنوات، والبيئة البحثية المواتية إلى حد كبير في هذا المجال في بريطانيا..

وفي رد معلن عنه قال أيضًا: كان يجب أن يقوم علماء بوضع الخريطة الجينية للطفل المستنسخ والخريطة الجينية للشخص الذي استنسخ عنه الطفل وأن يثبتوا تطابق الخريطتين..

وشدد على أن التقنية لم تنجح حتى الآن لدى القردة والإنسان.

تتابع ماريا قراءة الخبر قائلة:

ويتساءل ذلك الباحث هل كان الرائيليون أول من تمكن من إنجاحها؟ ويؤكد مجددًا أنه لا يوجد أي عنصر يثبت ذلك في الوقت الحاضر..

فقد أضاف الخبير العالمي "بريذر" متسائلًا:

هل هذا ممكن في البشر؟! ربما..

هل شهدنا مشكلات في استنساخ الحيوانات الأليفة؟! نعم..

هل نفهم سبب هذه المشكلات؟! لا..

لذا يجب علينا ألا نفعل ذلك!!

وفي خبر آخر مرفق عن تلك الشركة التي قامت بعملية الاستنساخ يقول أن الطفلة تزن سبعة أرطال (١٨ر٣ كيلوجرام) وأطلق عليها اسم "إيف" (أي حواء) وأنه تمت ولادتها من الحامض النووي لخلايا الجلد في المرأة التي حملت بها، مما يجعل الاثنتين توأمين متماثلين.

ينهض "ميشيل" من مكانه وهو يقول:

إنها معلومات خطيرة.. وتهدد تركيب البشر وبناءهم التكويني والنفسي!!

اللواء محمد: تمامًا.. وأظن أن ما يثبت ارتباط هذه الشركة بطائفة "راؤول" ومعتقداتهم الغريبة والمستهجنة، وما يقومون به، من الممكن أن يكون من ضمن المعلومات التي كانت موجودة في المغلف الورقي المفقود الذي سلَّمه "أحمد" للمسيو "عازر" بتكليف من الأب "باولو".. وهذه أسباب جديدة تدفعنا لمعرفة الدافع وراء مقتل المسيو "عازر"!!

يقول "ميشيل" موافقًا لما يقوله الجنرال محمد: تمامًا.. وبالإضافة لذلك هو توقيت اختفاء ذلك المغلف، والذي من المؤكد أنه كان يحتوي معلومات وبحثًا مهمًّا قام به الأب "باولو" يتعلق ويدور حول ما نتوصل إليه من معلومات مهمة كل يوم في بحثنا الذي نقوم به لمعرفة الدافع والمجرم الحقيقي لجريمة مقتل المسيو "عازر"..

ماريا: تمامًا.. وأنا أعتقد كذلك أيضًا ميشيل..

فجأة يقطع طرق أحدهم على باب مكتب اللواء "محمد" الحديث ويلتفت اللواء "محمد" نحو باب مكتبه وهو يصيح: تفضل ادخل..

يدخل النقيب "سامح" المكتب وهو يتوجه مسرعًا نحو اللواء "محمد"

ينظر اللواء "محمد" للنقيب "سامح" وهو يقول:

ماذا لديك نقيب سامح؟

النقيب سامح: نعم سيادة اللواء.. لقد قمنا بمراجعة كل التقارير الوارد فيها اسم "راؤول" وجماعته كما أمرتم سيدي.

اللواء محمد: جيد.. ماذا وجدتم؟؟

يجيب النقيب سامح: في الحقيقة سيدي لقد وجدنا معلومات غير مفهومة تتحدث عن مجموعة غريبة تطلق على نفسها اسم الرائليين وتعتقد..

يقطع ميشيل حديث النقيب سامح قائلًا: ..وتعتقد بأن مخلوقات فضائية تدعى "الإيلوهيم" هي من خلقت العنصر البشري..

يلتفت النقيب سامح نحو ميشيل باندهاش ويقول:

تمامًا.. هي كما تقول سيدي!!

ويتابع النقيب سامح حديثه: وتقول تقاريرنا كذلك بأن طائفة (الرائيليين) التي تؤمن بأن الحياة على كوكب الأرض نشأت بفضل كائنات فضائية وصلت إليه في طبق طائر منذ ٢٥ ألف عام، وأن البشر ولدوا عبر الاستنساخ..

والأهم هنا ماجاء في تقرير جديد وردنا في الأمس بأن تلك الجماعة قد اتخذت مقرًا لها في مصر مؤخرًا، وأصبحت بذلك أرض الكنانة الدولة رقم ٨٥ من مجموع الدول المنتشرة فيها تلك الطائفة، البالغ عدد أعضائها ٥٥ ألفًا..

يلتفت اللواء "محمد" نحو النقيب "سامح" مندهشًا: ماذا تقول!!

يتابع النقيب سامح قائلًا: نعم سيدي.. والتحريات تقول أن مقر هذه الطائفة يقع في إحدى المدن الساحلية المصرية، القريبة من الحدود الفلسطينية، لكنه لا يعلم به سوى أفراد قليلين، وهو عبارة عن منزل كبير ظاهره شركة وباطنه معمل لإجراء تجارب علمية..

وفي التقرير المرفق سيدي اللواء أن الرائيليون قد أعلنوا في عام ١٩٩٧م عن إنشاء مؤسسة (كلونيد)، وهي أول مؤسسة للاستنساخ البشري، وقد أعلنت في نهاية عام ٢٠٠٢م أنها بدأت العمل لاستنساخ أول كائن بشري في مكان سّري بالولايات المتحدة، وهذا التقرير يؤكد أن تجارب هذه الشركة قد امتدت إلى داخل الأراضي المصرية..

كما يذكر التقرير أن مؤسس الطائفة وهو صحفي فرنسي سابق يدعى (كلود فوريهلون) أطلق على نفسه اسم (راؤول أو رائيل) ويعيش في مقاطعة "كيبيك" بكندا، ويزعم أنه نبي..

تستمع ماريا لما يقوله النقيب سامح وتقول مذهولة:

ماذا.. لقد أصبحوا في مصر أيضًا!!

يقف اللواء "محمد" متوجهًا نحو ميشيل وماريا وهو يقول: أظن كذلك وبعد البحث الذي أجراه "أحمد" أن التجارب العلمية التي يقومون بها في مصر حول..

ميشيل مقاطعًا الجنرال: حول الاستنساخ البشري!!

اللواء محمد: تمامًا.. هذا ما أقصده، وهذا أيضًا ما يثير مخاوفي حقيقة"..

ينظر الجميع إلى بعضهم البعض باندهاش وذهول بعد أن اكتملت الصورة لديهم حول ما تقوم به جماعة الرائليين في مصر وفق البحث الذي أرسله "أحمد" من باريس، والتحريات والتقارير الواردة حول هذه الجماعة في مصر..

يرفع النقيب سامح حاجبيه معبرًا عن عدم استيعابه الكامل لما يقصده اللواء محمد وأصدقائه ويقول:

رغم أنني لم أفهم ماذا تقصدون.. لكن بماذا تأمر سيادة اللواء؟

يجيب اللواء محمد: نعم نقيب "سامح" قم فورًا بإعداد فريق مداهمة بمرافقة الطبيب "حامد" من إدارة البحث العلمي، فلدينا زيارة هامة لذلك المقر المزعوم..

النقيب سامح: أمرك سيدي

ينظر ميشيل نحو الجنرال محمد" ويقول متسائلًا: ماذا تفعل تلك الجماعة في مصر برأيك حضرة الجنرال؟؟

يجيب اللواء "محمد" وهو يفكر: سنذهب ونرى..

عندها تتابع ماريا طباعة تقرير أحمد الذي يعيد ميشيل والجنرال محمد قراءته بدقة لكل ما ورد فيه..

وبعد عدة دقائق يدخل النقيب "سامح" مكتب اللواء "محمد" مسرعًا وهو يقول: سيادة اللواء فرقة المداهمة جاهزة وبعد تكثيف التحريات وصلتنا أيضًا معلومة جديدة هامة..

يرد اللواء محمد على النقيب سامح قائلًا: ما هي تلك المعلومة؟؟

سامح: المعلومة تقول أن مؤسس هذه الطائفة هو صحفي فرنسي سابق يدعى (كلود فوريلهون) والذي أطلق على نفسه اسم (راؤول أو رائيل) حصل خلال السنوات الماضية على ٢٠٠ ألف دولار من عدد من الراغبين في استنساخ أنفسهم، ومن بينهم خمسة مصريين أحدهم رجل أعمال توفي مؤخرًا"..

وتابع النقيب "سامح" قائلًا: ووفق التقارير أنه قد حضرت بروفيسور تدعى (بريجيت بواسوليه) وهي إحدى أساقفة الطائفة الرائيلية والمدير العلمي لشركة (كلونيد) إلى مقر الطائفة في مصر الشهر الماضي..

ماريا: يا للعجب!!

اللواء محمد: إذًا هيا بنا لنرى ماذا يفعلون هؤلاء المجانين في مصر..

ويلتفت نحو ميشيل وماريا متسائلا هل تودون مرافقتنا أصدقائي؟

يرد ميشيل: بالطبع إن لم يكن لديكم مانع حضرة الجنرال.

اللواء محمد: إذًا هيا بنا.

ويستقل ميشيل وماريا سيارة اللواء محمد بمرافقة مجموعة من سيارات قوى فرقة المداهمة سالكين العديد من الطرق لبضعة ساعات..

ليصلوا إلى طريق صحراوي يسيرون فيه لمدة تجاوزت الساعة حسب الإحداثيات التي جاءت في التحريات حول المكان الذي تتخذ منه مجموعة الرائليين مقرًا سريًا لهم..

يقول اللواء محمد: وفق الإحداثيات والتحريات التي لدينا الأن أعتقد أننا قد وصلنا إلى المقر المزعوم.

ويمسك اللواء محمد بجهاز اللاسلكي مخاطبًا النقيب سامح:

نقيب سامح.. هل هذا هو المكان المحدد؟

النقيب سامح: نعم سيدي هذا المكان وفق الإحداثيات الواردة في التقارير..

اللواء محمد: إذًا اعطِ الأمر لعناصر القوة المرافقة للمداهمة بعد تأمين المكان، وحاولوا أن تنهوا المداهمة بدون أية خسائر..

النقيب سامح: أمرك سيدي، وجاري التنفيذ.

وتتقدم القوة الأمنية المداهمة لتحاصر المكان حيث يستطيع أفرادها التسلل بهدوء ومفاجئة وضبط كل الموجودين في ذلك المقر السري المشبوه..

وبعد تأمين المكان يتوجه النقيب سامح نحو اللواء محمد وهو يقول: سيادة اللواء، تم اقتحام المقر وضبط عدد من الأشخاص دون مقاومة وقد تم تأمين المكان وفق المتبع.

يجيب اللواء محمد وهو ينظر نحوميشيل وماريا ويقول: إذًا هيا بنا لنرى ماذا يحتوي هذا المقر وماذا يفعل هؤلاء الغرباء هنا؟!

ويدخل اللواء محمد المقر السري الذي تمت مداهمته برفقة ميشيل وماريا.. ويتوجه اللواء نحو الدكتور حامد من إدارة البحث العلمي الذي رافق مجموعة المداهمة وهو يقول: دكتور حامد، ماذا وجدتم هنا؟؟

يجيب الدكتور حامد قائلًا: في الحقيقة سيدي.. لقد وجدنا أنفسنا ضمن مقر يبدو أنه قد حُول إلى مركز علمي وصحي وكان من بين المتواجدين فيه بروفيسور تدعى..

يقاطع اللواء محمد لما يخبره به الدكتور حامد قائلًا: تدعى "بريجيت بواسوليه"..

يرد الدكتور "حامد" متعجبًا : تمامًا سيادة اللواء..

لكن الأغرب هو ما يحاولون القيام به هنا!!

يقول ميشيل موجهًا حديثه للدكتور حامد: هل وجدتم أي أدلة عن وجود أجهزة عمليات استنساخ هنا دكتور؟؟

يجيب الدكتور حامد مندهشًا: تمامًا..

ويتابع قائلًا: لا بل كان هناك محاولة للقيام بعملية استنساخ فعلًا!!

يهز اللواء محمد برأسه قائلًا: توقعنا ذلك..

يتابع الدكتور حامد قائلًا:

لكنكم ستذهلون مثلي لما يحاول هؤلاء القيام به..

إنهم هنا ليس للإشراف على العملية النهائية لأول حالة استنساخ في مصر دون تصريح أو مخالفة للقوانين فقط!!

ماريا متسائلة: ماذا تقصد دكتور؟؟

يجيب الدكتور حامد: وفقًا لما رأيناه هنا فقد وجدنا بأنهم يحاولون القيام بعملية استنساخ جيني للسيدة (مريم العذراء – عليها السلام)!!

يلتفت اللواء محمد نحو الدكتور حامد مذهولًا لما يسمعه منه:

ماذا تقول!! هذه هرطقة وجنون فعلًا!!

يقول ميشيل وماريا وهما لا يصدقان ما سمعاه: إنهم فعلًا مجانين!!

يتابع الدكتور حامد كلامه قائلًا:

نعم هذا ما وجدناه فعلًا.. فبعد فحصنا لمحتويات هذا المقر ووفقًا لما رأيناه وضبطناه، والمؤشرات الأولية، أن هذه المجموعة من شركة تدعى "كلونيد"..

ويزعمون أن الشركة قد حصلت على ما يعتقد أنه الحامض النووي (**DNA**) (للسيدة العذراء) عليها السلام..

وذلك بعد مراسلة عدد من الكنائس التي يتواجد فيها أقمشة أثرية تخص السيدة (مريم العذراء) عليها السلام..

وبالفعل فقد اهتدوا إلى قطعة قماش حسب زعم أحدهم في كنيسة بمدينة "تورين" الإيطالية وطولها ٣ أمتار و٦٢ سنتيمتر وعرضها مترًا و١٠ سم، وقد تم إرسالها إلى اسكتلندا، وبعد انتهاء التجارب تم استقدامها إلى هنا في مصر..

وفضلًا عن ذلك، وجدنا بين الأوراق المضبوطة قائمة وضعتها تلك الطائفة بأسماء رجال دين وسياسيين لاستنساخهم ومنهم "بولس" الرسول.. "موسوليني".. وغيرهم..

ميشيل وقد ازداد اندهاشه: ماذا تقول!!

يلتفت اللواء محمد إلى ميشيل وماريا وهو يقول:

أعتقد أن زيارتكما الهامة للقاهرة أصدقائي قد أوصلتنا لمعرفة هذه الأمور الغريبة بشكل جيد وسريع..

ثم يتوجه بالحديث للدكتور حامد قائلًا: شكرًا دكتور حامد لجهودك وأرجو منك كتابة تقرير مفصل حول ما وجدتموه هنا وأن ترسلونه إلى مكتبي في أسرع وقت.

ويتابع حديثه متوجهًا للنقيب سامح وهو يقول: عمل جيد نقيب سامح قم بمساعدة الدكتور حامد في إجراء التقرير.. وصادروا كل الموجودات وأرسلوا نسخة من التقرير مع الموجودات والأشخاص الذين تم اعتقالهم إلى مكتب النائب العام للقيام بالإجراءات القانونية..

النقيب سامح: حاضر سيدي..

ويخرج الجميع من ذلك المكان الغريب.. ويستقل ميشيل وماريا برفقة اللواء محمد سيارته، والتي بدأت المسير في طريق العودة نحو القاهرة.

الفصل السادس والثلاثون

في طريق العودة من موقع المقر السري الذي تمت مداهمته من قبل قوات الأمن بقيادة اللواء "محمد"، والذي كان أعضاء من جماعة "الرائليين" يقومون فيه بمحاولة القيام بعمليات استنساخ بشري والقيام بمحاولة استنساخ للسيدة (مريم العذراء) عليها السلام بعد الحصول وفق مزاعمهم على الحمض النووي الخاص بها..

يقود اللواء محمد سيارته برفقة ميشيل وماريا متجهين نحو الطريق المؤدية إلى مدينة القاهرة، وماريا تنظر عبر نافذة السيارة وهي تفكر فيما شاهدته في ذلك المقر السري، ثم تلتفت نحو الجنرال محمد وميشيل وتقول:

أشعر بعد كل ما حدث معنا خلال الأيام الأخيرة، وما رأيناه اليوم وكأنني ضمن فيلم من عالم الخيال..

يجيب اللواء محمد: أتفهمك تمامًا آنسة ماريا، فبكثير من الأحيان تكون المسافة بين الخيال والواقع لا تتجاوز شعرة..

وبعد حديثنا الأول في مكتبي ومعرفتي للسبب الذي جعلكما تقومان بهذه الرحلة المجهدة والتي تسير وفق خط سير يتتبع بضعة كلمات، وما توصلتما إليه في القدس، وما توصلنا إليه هنا في القاهرة وما رأيناه قبل قليل أيضًا وضبطناه في ذلك المقر المشبوه.. أعتقد أن الأمر تجاوز أبعاد مقتل المسيو "عازر موسان" وكذلك اختطاف وتغييب الأب "باولو" من قبل مجموعة إرهابية متطرفة لأني أرى أن كل هذا التطرف يتوافق وخطورة الأفكار الرّائيليّة التي عرفناها اليوم وكذلك كل الجماعات المتطرفة والشاذة..

يقول ميشيل موافقًا: أوافقك الرأي حضرة الجنرال..

فهذه الأفكار تنطوي على خطورةٍ بالغةٍ أبرزها الارتداد بالبشرية إلى مستوى أدنى من التطور، وهو المستوى البيولوجي الذي لم يكن يخضع هنا لأيّ ضابط أخلاقي حضاري في التعبير عن الشهوات والغرائز الطبيعية وممارسة المتعة واللّذة على نحوٍ مشاعيّ بدائي، فالتأمل الشهواني بطريق التفتح الذهني من شأنه إسباغ المشروعيّة على الشهوة والممارسات المرتبطة بها..

يقول اللواء "محمد" معقبًا: نعم وهذا أيضًا هو تحدٍّ سافر للضوابط الأخلاقية والإجتماعية والدينية والثقافية والقانونية المتوارثة والمعمول بها عبر الأجيال المختلفة، الأمر الذي من شأنه بعث الحياة البدائية للكثير من العادات والممارسات الشهوانية البيولوجية المندثرة والمرفوضة اجتماعيًا وأخلاقيًا وثقافيًا ودينيًا تلبيّة لمطلب التأمل الشهواني وتحصيلًا للمتعة واللذة الحيوانية..

ويتابع ميشيل قائلًا: تمامًا ومن قراءتي التاريخية فهذا الفكر الذي رأينا بعض ممارساته قبل قليل يماثل فكر ممارسة اللواطة التي كانت منتشرة بين كثيرٍ من الأقوام والشعوب كقوم "لوط" مثلًا، وإباحة الممارسة الجنسيّة بين أفراد المجتمع ذكورًا وإناثًا دون اعتبار لشكل الروابط الاجتماعية التي تربط بينهم، تمامًا على نحو ما فعلته ابنتا "لوط" بأبيهم وما فعله "رأوبين" بن "يعقوب" بـ"بلهة" زوجة أبيه، و"يهوذا" بكنّته "تامار"، و"داود" بـ"بتشابع" امرأة "أوريا الحثّي"، وابنه "أمنون" بأخته "تامار"، وابنه "أبشالوم" بنساء أبيه، و"راعوت"، و"يهوديت"، و"إستير" بقادة الجند والملوك وفقًا للروايات في العهد القديم.

وإنَّ من شأن التأمل الشهواني والبحث عن اللذة، الإطاحة بالروابط الأخلاقية وبالمؤسسات الأسرية والاجتماعية والإنسانية، حيث يعمّ العهر والزنا..

وتتابع ماريا: وهنا يكثر اللقطاء، فلا يعود مولودٌ يعرف من والده ولا أمٌّ ابنها ولا ابنةٌ أبوها ولا أخٌ أخته، ولا أختٌ أخوها، وتكثر الأوبئة والأمراض الفتّاكة في المجتمع ويعمّ الفساد والدّمار حياة البشر جميعًا.

ميشيل: تمامًا، فكما نرى من فكر هذه الجماعة مثلًا أنَّ التعاليم والتأملات والتمارين الشهوانية تضفي مشروعية "إلوهيمّية رائيلية" على جميع الأفعال والممارسات الشاذة لشخصيات العهد القديم التي تعدّ عارًا يندى له جبين الإنسانية المتحضرة، وعلى الممارسات الشاذّة لإنساننا المعاصر، وما زعم استنساخ مولود من امرأتين سحاقيتين إلا دليلٌ على الهوية الشهوانية للرائيلية وتنظيرها للممارسات الشاذة بين البشر..

اللواء محمد: أضف إلى ذلك إنكار وجود الله الواحد الّذي يؤمن به معظم سكان الأرض بوصفه الخالق لكلّ شيء، للكون والحياة، وإحلال "الإيلوهيم" المتعدّد ، محدود القدرة مكانه، وهو ما لا يجد سندًا له إلا وفق زعمهم في الروايات التوراتية التي كتبها بعض أحبار اليهود عبر العصور.

ماريا: وهذه المزاعم ثبت تناقضها مع مفهوم الله على نحو ما ورد في سفر "التّكوين" حقيقة.. والذي أكده الأب "باولو" في رسالته للمسيو "عازر"، والذي أصبحت كلماته الآن مفسرة تمامًا حين قال في رسالته:

"الإصحاح الأول من سفر التكوين هو الله الواحد.. وليس إيلوهيم راؤول".

تمامًا ماريا.. يقول ميشيل موافقًا..

اللواء محمد: إن بشريةً شهوانيةً إباحيةً ملحدةً وفقًا للتصوّر الرائيلي للشهوة آيلة للانتحار والسقوط لا محالة.. الأمر الذي يدعو إلى ضرورة تبصير البشرية بخطورة تلك التعاليم والآثار الكارثية الناجمة عن العمل بها في حال انتشارها على نطاقٍ واسع في المجتمعات الإنسانية، وعلى هذه

المهمّة ينبغي أن يلتقي العلماء والمفكرون والفلاسفة ورجال السياسة والدين وعامة الناس حمايةً لوجودهم في الحاضر والمستقبل..

يتابع ميشيل: وأعتقد أن ذلك ما كان يقوم به الأب "باولو" في سعيه الدؤوب وفي إنشائه مراكز وندوات لحوار الأديان وتركيزه على مفهوم السلام، فكم كان قريبًا ومحبوبًا من المسلمين والمسيحيين واليهود..

اللواء محمد: لذلك فإن من قام باختطاف الأب "باولو" ويسعى لزرع التطرف في المنطقة والعالم ليس ببعيد عن من قام بجريمة قتل المسيو "عازر"..

يهز "ميشيل" رأسه موافقًا لما يقوله الجنرال ويقول: أتفق معك تمامًا حضرة الجنرال.. وأعتقد أن المسيو "عازر" قد كان بصدد فضح كل هذه المعلومات في المؤتمر الذي كان يريد إقامته، إلا أن قتله قد منع ذلك.

ماريا: وأعتقد أيضًا أننا في هذا التحليل وربط الأحداث المتتالية وما نتوصل إليه في كل خطوة نخطوها في رحلة البحث عن الحقيقة قد توصلنا للربط بين الكثير من الحقائق والدوافع، وأظن أن الجملة الأخيرة التي قالها الأب "باولو" في رسالته تتوافق والكلام الذي يقوله حضرة الجنرال الآن..

اللواء محمد متسائلًا: عن أي جملة تتحدثين آنسة "ماريا"؟؟

يجيب ميشيل: إنها تتحدث عن قصيدة..

ينظر اللواء "محمد" نحو "ميشيل" متبسمًا ويقول: قصيدة!! أظن أنكما لن تجدا خيرًا منا في الشعر والقصائد، فنحن أهل الشعر..

يرد ميشيل: أعرف أنك حضرة الجنرال من محبي الشعر، لذلك لا بد لنا أن نطلب منك المساعدة في البحث عن قصيدة ذكر الأب "باولو" اسم شاعرها في رسالته للمسيو "عازر موسان".

يجيب اللواء "محمد" ضاحكًا: وهل جئتما أيضًا في رحلة بحث حول قصائد الشعر والشعراء؟؟

يقول ميشيل: نعم صديقي، فالبحث عن الحقيقة يقودنا لذلك، ففي آخر كلمات رسالة الأب "باولو" الشفهية للمسيو "عازر" والتي نقلها أحمد كان يقول فيها:

"وبشأن القصيدة المنسوبة لابن يوسف الموصلي المسعودي، لا أصل لها ولا نسبة لصاحبها، بل نُظمت حديثًا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم"

ماريا: تمامًا.. هذا ما ورد في آخر الرسالة.

ينظر اللواء محمد نحو ميشيل وماريا قائلًا: إذا كان البحث حول قصائد الشعر العربي، فلا داعي للقلق.. فأنتم قد أصبحتم في رحابه هنا يا أصدقائي..

لذلك دعونا نتعرف عن ما كان يقصده الأب "باولو" في هذه الكلمات غدًا.. فالوقت قد تأخر الآن وأعتقد كذلك أن يومنا كان حافلًا جدًا، وأن الجميع بحاجة للراحة..

تبتسم ماريا وهي تقول: أووه.. نعم نكاد ننسى هذه الكلمة، الراحة..

يتابع ميشيل معقبًا وهو يبتسم: صدقت فعلًا فيما تقوله، ولمن دواعي سرورنا أن تقلنا إلى الفندق مشكورًا حضرة الجنرال..

يجيب اللواء محمد مبتسمًا: وها قد اقتربنا من الفندق وسأدعكم ترتاحون بما تبقى من الليل من عناء هذا اليوم الطويل، وغدًا لنا موعد لنشرب القهوة سويًا في رحاب الشعر وعالمه..

ينظر ميشيل نحو الجنرال محمد موافقًا ومبتسمًا ويودعه وماريا، شاكرين مساعدته وكرم ضيافته.. على أن يلتقوا مجددًا صباح الغد..

الفصل السابع والثلاثون

في ذات الأثناء وفي مركز الشرطة في باريس يجلس المحقق "برنار" في مكتبه وهو يراجع ملف قضية مقتل المسيو "عازر موسان" الذي قتل منذ حوالي أسبوع وتم توجيه الاتهام إلى الشاب السوري "أحمد عيسى" بدوافعٍ وُصِفت بالكراهية والعنصرية..

ويتأمل المحقق "برنار" في ملف "أحمد عيسى" الذي دخل إلى فرنسا لاجئًا وقام بتقديم بياناته قبل حدوث الجريمة بأسبوع، وأخذ يقول في نفسه: فعلًا ليس من المنطق أن يكون أحمد قد خطط للقيام بهذه الجريمة ويقوم قبلها بأيام بتسجيل بياناته التي لم تكن موجودة لدى السلطات من قبل!!

ولو لم يقم بتسجيل تلك البيانات لم يكن من السهل التعرف عليه حتى لو سجلت كاميرات مراقبة موقع الجريمة وجوده في الموقع وقت ارتكاب الجريمة..

ويعود المحقق "برنار" ليشاهد تسجيلات كاميرات المراقبة لموقع الجريمة من جديد ويبدأ بالتمعن في تلك المشاهد، وكيف التقى "أحمد" مع المسيو "عازر"، وكان من الواضح على وجه "أحمد" أنه قد التقى بالمسيو "عازر" للمرة الأولى في حياته من أثر المفاجأة الواضحة بالنسبة لأحمد عندما أيقن أن المسيو "عازر" ما هو إلا حاخام يهودي..

ويتابع المحقق "برنار" إعادة التمعن في تلك التسجيلات بدقة وهو يشاهد كيف يسلم "أحمد" المسيو "عازر" ذلك المغلف الورقي ثم يقول له بضعة كلمات ومن ثم يتبادل "أحمد" والمسيو "عازر" الحديث لمدة لا تزيد عن دقيقتين ويصافح المسيو "عازر" "أحمد" مبتسمًا ويلوح لأحمد مودعًا.. وتظهر التسجيلات مغادرة "أحمد" لمحطة المترو حيث مكان اللقاء..

بينما يدخل المسيو "عازر" ضمن مجموعة من الناس ليُشاهد بعد مرورهم وهو ملقى على الأرض مضرجًا بدمائه..

يعيد المحقق "برنار" تلك المشاهد مرارًا و تكرارًا في سبيل الوصول إلى شيء جديد.. لكن دون جدوى!!

ليعود للتأمل بملف تلك القضية وتسجيل فقدان ذلك المغلف فقط دونًا عن متعلقات المسيو "عازر" الشخصية الأخرى من محفظة نقوده أو ساعته أو حقيبته التي كانت معه وقت ارتكاب تلك الجريمة..

ويراجع المحقق "برنار" باقي التحقيقات ومنها إفادة مدير فندق "رويال موريس"، حيث أخبر المسيو "عازر" "أحمد" بعزمه على عقد مؤتمر في ذلك الفندق بعد خمسة عشر يومًا ودعاه إلى حضوره.

لكن بمراجعة الشرطة لتلك المعلومة نفت إدارة الفندق وجود أي حجز باسم المسيو "عازر موسان" خلال هذا الشهر..

هناك حلقة مفقودة فعلًا!!

جملة يرددها المحقق "برنار" وهو ينهض من مكانه مغادرًا مكتبه وهو يفكر في تلك القضية ويقول: لا بد من الحصول على إفادة "أحمد عيسى" بشكل مباشر، أو أن يجد دليل براءة دامغ يوجه طريق البحث عن المجرم الحقيقي باتجاه الطريق الصحيح.

الفصل الثامن والثلاثون

في صباح اليوم التالي تشرق الشمس بأشعتها الذهبية في سماء مدينة القاهرة تلك المدينة التي لا تنام ولا تهدأ شوارعها حيث يقف ميشيل وماريا وهما يتأملان حركة الحياة المفعمة في تلك الشوراع من نافذة الفندق الذي يقيمان فيه في القاهرة..

ثم يجلسان بعد أن تناولا فطورهما في بهو الفندق بانتظار وصول الجنرال "محمد" الذي اتصل بميشيل عند استيقاظه باكرًا وأخبره بأن سيكون عندهم في تمام الساعة العاشرة لأخذهم إلى لقاء شخص مهم..

تنظرماريا نحو ميشيل قائلة: لقد كان يوم أمس يومًا طويلًا ومتعبًا فعلًا رغم كل النتائج المهمة التي توصلنا إليها.. لدرجة أني لم أشعر بنفسي إلا وقد استلقيت على السرير ليغلبني النوم حتى صباح هذا اليوم وأنت تطرق باب غرفتي لتوقظني كالعادة..

يرد ميشيل ضاحكًا: بل تقصدين الأشخاص الذين طرقوا باب غرفتك لإيقاظك..

تحدق ماريا بميشيل وهي تبتسم قائلة: ماذا تقول!! أنا نومي خفيف جدًا، لكن أعتقد أن طرقاتكم على الباب كانت أخف من أن أسمعها.

ينظر ميشيل بوجه ماريا ضاحكًا ثم يقول: نعم ربما طرقاتنا على الباب كانت خفيفة جدًا لدرجة أنها أيقظت نزلاء الغرف المجاورة لغرفتك..

ماريا: نعم ربما..

ثم تنظر "ماريا" في ساعتها وتقول لميشيل متسائلة: ألم يقل لك الجنرال "محمد" إلى أين سيصطحبنا اليوم ومن هو الرجل المهم الذي سنقابله؟؟

ميشيل: في الحقيقة لا.. لكن دقائق وسيصل الجنرال محمد ونعرف ذلك منه.

ماريا: امم حسنًا ..وتبتسم وتتابع حديثها لميشيل:

إذًا هل لي أن أنام خلال هذه الدقائق؟؟

يجيب ميشيل ضاحكًا: في الواقع لا يمكنك ذلك.. فها هي سيارة الجنرال محمد قد وصلت إلى أمام باب الفندق.

تنهض ماريا مبتسمة وتقول: حسنًا إذًا هيا بنا قبل أن تنام..

يضحك ميشيل وهو ينهض من مكانه قائلًا: فعلًا هيا بنا إذًا..

ويتوجهان مباشرة نحو باب الفندق ليستقلا سيارة اللواء محمد الذي وصل للتو، والذي يلتفت إليهما وهو يقول مُرحّبًا بهما:

صباح الخير أصدقائي.. كيف كانت ليلتكما؟؟

ماريا: صباح الخير حضرة الجنرال..

ميشيل مبتسمًا: كل شيء تحت السيطرة صديقي، وأعتقد أن ماريا قد نامت بشكل جيد.

يجيب اللواء محمد ضاحكًا: جيد جدًا، فماريا تستحق قسطًا من الراحة بعد جهد يوم أمس الاستثنائي.

ترد ماريا: صدقت حضرة الجنرال..

وبما أننا قد استعدنا نشاطنا، لنبدأ يوم جديد.. هل لي أن أسأل إلى أين سنذهب ومن هو الشخص المهم الذي سنقابله اليوم؟

يجيب اللواء محمد قائلًا: نعم طبعًا..

سنذهب لمقابلة الدكتور "عماد" عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة وهو صديق عزيز ومن الشعراء والأدباء المشهود لهم وقد نشأ على أشعاره وكتبه أجيال وأجيال..

يقول ميشيل: فكرة جيدة ومثيرة..

تسير سيارة اللواء محمد في شوارع مدينة القاهرة باتجاه مقر مجمع اللغة العربية والذي يقع في شارع "عزيز أباظة" أحد شوارع منطقة الزمالك العريقة وماريا وميشيل يتأملان في شوارع القاهرة، ومشهد مجرى نهر النيل الذي تغنى به شعراء كثيرون وغنى له عمالقة المطربين..

ويتابع اللواء محمد حديثه قائلًا: ها نحن نقترب من مجمع اللغة العربية في القاهرة والذي تأسس في عام ١٩٣٢م في عهد الملك "فؤاد الأول"، وبدأ العمل فيه سنة ١٩٣٤م، وقد نص مرسوم إنشائه على أن يتكون المجمع من ٢٠ عضوًا من العلماء المعروفين بتبحرهم في اللغة العربية، نصفهم من المصريين، ونصفهم الآخر من العرب والمستشرقين؛ وهو ما يعني أن المجمع عالمي التكوين، لا يتقيد بجنسية معينة ولا بدين معين، وأن معيار الاختيار هو القدرة والكفاءة والتبحر في معاني اللغة العربية في كل المجالات اللغوية والأدبية..

يعقب ميشيل على حديث الجنرال قائلًا: معيار الكفاءة دومًا هو الكفيل بإنجاح أي فكرة..

بعد عدة دقائق يتوقف اللواء محمد بسيارته أمام أحد المباني ويتوجه لميشيل قائلًا: تمامًا صديقي..

وهاقد وصلنا إلى مقر مجمع اللغة العربية العريق في القاهرة..

تبتسم ماريا: وصلنا بهذه السرعة.. ممتاز لم يكن المقر بعيدًا عن الفندق..

يجيب اللواء "محمد" ضاحكًا: إذًا يجب أن تتفاءلي آنستي فذلك لا يحدث دومًا في ظل زحام هذه المدينة..

ويتابع قائلًا: هيا بنا إذًا لندخل المجمع ونلتقي بصديقنا الذي ينتظرنا..

يترجل الجميع من السيارة ويتوجه اللواء محمد برفقة ميشيل وماريا متوجهين نحو مدخل مبنى مجمع اللغة العربية في القاهرة حيث يقف في استقبالهم عند مدخل المبنى رجل أنيق الملبس ذو شعر أبيض، ويبدو من ملامحه أنه قد تجاوز الستين من العمر، والذي يقترب من اللواء وصحبه مبتسمًا وهو يقول مرحبًا:

سيادة اللواء الغالي في رحابنا.. أهلًا وسهلًا بك!!

اللواء محمد: أديبنا الشاعر العظيم دكتور عماد كيف حالك..

يجيب الدكتور عماد ضاحكًا: صامدون كما الكلمات..

يبادر اللواء محمد قائلًا: اسمح لي دكتور عماد أن أعرفك بأصدقائي وضيوفي البروفسيور ميشيل من جامعة السوربون في باريس والمتخصص والمحاضر في علوم الفن والتاريخ، والآنسة "ماريا" صحفية مثابرة ومعدة لأهم البرامج والتقارير الصحفية في فرنسا.

ميشيل وهو يصافح الدكتور عماد: شرف لي أن أتعرف إلى حضرتك وأزور هذا الصرح الأدبي الهام.

يقول الدكتور عماد مبتسما: الشرف لي أن أتعرف على باحث في الفن والتاريخ فما زلنا بحاجة لمن يصحح أخطاء التاريخ المتراكمة عبر العصور..

تصافح ماريا الدكتور عماد مبتسمة وهي تقول: وهذا دورنا كصحفيين.. تشرفنا بك دكتور عماد..

الدكتور عماد: صدقتِ آنستي، فلولا السلطة الرابعة لبقينا في خبر كان مثل التاريخ.. تفضلوا رجاءً إلى مكتبي..

ويسير ميشيل وماريا واللواء محمد برفقة الدكتور عماد بضعة خطوات متجهين نحو مكتب الدكتور عماد في مجمع اللغة العربية في القاهرة والذي يتقدمهم ليفتح باب غرفة تطل على مكتب واسع تكاد لا تظهر جدارنه من تراصف الكتب التي تراكمت فوق أرفف أحاطت بكل أرجاء تلك الغرفة في مشهد مهيب يجمع التاريخ والأدب ضمن صفحات تلك الكتب الكثيرة..

يدخل الجميع مكتب الدكتور عماد، وميشيل وماريا ينظران بتأمل إلى جدارن تلك الغرفة التي امتلأت بالكتب من كل جانب وكذلك فوق ذلك المكتب الكبير الذي توضع في وسط الغرفة..

ويلتفت اللواء محمد نحو الدكتور عماد مبتسمًا ويقول: في الحقيقة بداية اسمح لي أن أشكرك أديبنا الفاضل لاستقبالنا في مكتبكم الكريم في موعد سريع مفاجيء..

يقول الدكتور عماد: لا شكر على واجب سيادة اللواء.. فزيارتكم شرف لي.. تفضلوا بالجلوس رجاءً، ولتخبروني ما هو الشيء المهم الذي طلبتم لقائي من أجله على وجه السرعة..

يجيب اللواء محمد:

في الحقيقة جئنا نسألك عن أصل إحدى القصائد..

يهز ميشيل برأسه وهو ينظر إلى الدكتور عماد: نعم سيدي..

الدكتور عماد: جميل أن تجتمع هذه الوجوه النيرة في بحث عن قصيدة..

ماريا: نعم سيدي.. فلذلك أهمية خاصة كذلك..

ينظر الدكتور عماد نحو ماريا وهو يتمعن فيما تقوله:

حسنا.. وما هي القصيدة التي تريدون البحث فيها ومن هو شاعرها..

يجيب اللواء محمد قائلًا: كل ما نعرفه حول القصيدة أنها لشاعر يدعى "ابن يوسف الموصلي المسعودي"..

ينظر الدكتور"عماد" في وجوه ضيوفه ثم يقول ضاحكًا: وطبعًا تبحثون في تلك القصيدة الوحيدة المنسوبة له..

ترد ماريا باهتمام: هل عرفت القصيدة التي نسأل عنها سيدي؟؟

يلتفت الدكتور عماد نحو ماريا مبتسمًا وهو يقول: أنت في رحاب أهل الشعر والأدب العربي آنستي.

ثم يتابع قائلًا: نعم، وأعتقد أني فهمت المقصود من سؤالكما..

ميشيل: فهل لنا أن نعرف شيئًا عن القصيدة وصاحبها سيدي؟؟

الدكتور عماد: نعم، في الحقيقة لقد انتشرت مؤخرًا، وخاصة على مواقع التواصل الاجتماعي، قصيدة لشاعر يدعى "ابن يوسف الموصلي المسعودي"، وفي رواية أخرى "خويلد بن سعود الصليمي الهذلي"، ويزعم من نشر القصيدة أنها قد نظمت عام ٧٤٥ هجرية، أي قبل ٧٠٠ عام تقريبًا، وفيها يتنبأ شاعرها بظهور تنظيم متطرف ظلامي اسمه "داعش"..

يقول ميشيل باهتمام: هل يمكن أن تطلعنا على كلمات القصيدة ومعانيها دكتور عماد؟؟

يجيب الدكتور عماد: بكل سرور..

وينهض الدكتور عماد ليبدأ بتصفح بعض الكراسات التي التقطها من أحد أرفف مكتبته الضخمة ثم يقول: ها هي.. اسمعوا أيها السادة ماذا تقول كلمات تلك القصيدة:

تعيشونَ دهرًا ترونَّ الرِّيَبْ

ولا يدفعُ المرءُ هَولَ الخُطَبْ

ويستَعمِرُ الشآمَ سفَّاحُها

ويجني رؤوسَ الورى كالعنبْ

ويبقى بها خمسةٌ كاملة

سنينًا طوالًا يجُزُّ العربْ

وآهٍ على موصلي والعراق

يجيءُ ظلامٌ شديدُ الرَّهَبْ

ويفترقُ الناسُ فيهِ افتراق

كموجٍ تلاطمَ ثُمَّ اضطربْ

ويخرجُ "دائشُ" من بينهم

ليقلبهم وهْوَ فيها انقلبْ

ويقتلُ منهم مِئاتُ المِئات

وضيعًا حقيرًا رفيعَ النسبْ

وتغرقكم فتنَةٌ جامِعة

فتأكُلُكُم مثل نارِ الحطبْ

وترمي اليهودُ عليكم سهام

من النارِ فيها شديدُ العطبْ

وتنحركم مثل نحرِ النعاجْ

وأنتم جلوسٌ فيالَ العجبْ

وكِسرَى من الشرق يأتي لكم

وقد كاد كيدًا شديد الغضب

هو الرأسُ والسمُّ في شدقِهِ

ويتبعهُ الموتُ مثلُ الذَّنَبْ

ويزداد فيكم سواد السنين

تهيمون وسط الغنا والطربْ

وفيكم سَيَكثُرُ نسلُ البنات

ويحلقُ كلُّ الذكور الشَّنَبْ

فلله نبرأُ من وقتكم

ولله نبرأُ منكم عرب

يستمع اللواء محمد مذهولًا لما يقرأه الدكتور عماد من تلك القصيدة ويقول:

هل هذه قصيدة أم نبوءة!!

ثم يتابع قائلًا: لقد أخبرتنا دكتور عماد منذ قليل أن القصيدة كتبت قبل ٧٠٠ عام، ألا تلاحظ أنها قد تنبأت ببعض الأحداث التي تحصل في يومنا هذا؟؟

يهز الدكتور عماد رأسه ويجيب: تقصد عندما وردت كلمة "دائش".. في مقاربة للعصابة الظلامية التي تسمى "داعش".. وذكر بعض الأحداث التي تعصف في بعض مناطق عالمنا العربي ..

يجيب اللواء محمد: تمامًا

يقول ميشيل مقاطعًا:

هل هذا صحيح؟؟ هل من المعقول ذلك؟!

تتابع ماريا قائلة:

أكاد لا أصدق ما أسمع.. هل هذه القصيدة هي نبوءة فعلًا؟!

يجيب الدكتور عماد: في الحقيقة لقد درست وقرأت تلك والقصيدة عدة مرات، ومن خبرتي الأدبية ومعرفتي بأصول الشعر والشعراء العرب في كل العصور أشكك تمامًا في صحة هذه القصيدة وأنها أي القصيدة قد وضعت حديثًا..

اللواء محمد متسائلًا: وكيف ذلك؟؟

يجيب الدكتور عماد على سؤال اللواء قائلًا: ذلك لأسباب كثيرة حضرة اللواء وأولها لوجود بعض المفردات اللغوية في القصيدة ليس لها وجود في اللغة العربية، ومخالفة لطريقة الشعراء والقصائد في ذلك الوقت من الزمن أي قبل ٧٠٠ عام كما يزعم المجهول الذي نشرها..

وأعتقد من أول نظرة وقراءة لهذه القصيدة، بأنها قصيدة حديثة النظم، وللتأكد أجريت بحثًا سريعًا.. ولم أجد لها أو لناظمها أثرًا، وهذا يؤيد ما ذهبتُ إليه.. فالقصيدة موضوعة أو منسوبة لشاعر وهمي، وكذلك لايوجد أي سند أو رابط أو مرجع لهذه القصيدة..

ماريا: تقصد الشاعر الذي يدعى بالمسعودي؟؟

يجيب الدكتور عماد: نعم، فالشاعر المنسوبة إليه القصيدة كما قيل هو "ابن يوسف الموصلي المسعودي" والذي ليس له أثر في عالم الشعر العربي.. والاسم الأقرب له وفق بحثي الذي أجريته هو "يوسف ابن دانيال

الموصلي" وله ديوان واحد ولاتوجد فيه هذه القصيدة الملفقة.. عدا أنه قد توفي سنة ٧١٠ هجرية فكيف كتبها سنه ٧٤٥ هجرية!!

وكذلك بعض العبارات والكلمات المستخدمة في النظم ليس فيها قوة الكلمات المستخدمة في الشعر قبل ٧٠٠ سنة.. خذوا مثلًا كلمة "الشنب" والمعروف بأن التسمية الصحيحة هي "الشارب"..

وعليه نستطيع أن نقول بيقين أن هذه القصيدة حديثة ومفبركة وركيكة، ويتبين لنا أنها كتبت منذ عهد قريب ليسخروا بها على العقول البسيطة ويراد بها وبكلماتها أن يصدق الناس وتترسخ في عقولهم ما قد جاء فيها..

يقول ميشيل: وأظن وبعد الذي سمعناه الآن.. أنه قد أصبح واضحًا ما كان يقصده الأب "باولو" في رسالته وكلماته للمسيو "عازر" حين قال:

"وبشأن القصيدة المنسوبة لابن يوسف الموصلي المسعودي لا أصل لها ولا نسبة لصاحبها بل نظمت حديثًا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضده".

ووصف وضع تلك القصيدة من قبل الأب "باوبو" جاء مطابقًا تمامًا لما يقوله الدكتور عماد الآن..

يتابع اللواء محمد وهو يقول: نعم فمن الواضح وبعد ما سمعناه من أديبنا الكبير الدكتور عماد الآن، أن هذه القصيدة فعلًا قد نظمت حديثًا والهدف منها تحقيق أغراض سياسية..

ينظر الدكتور عماد إلى اللواء محمد ويقول مقاطعًا:

عفوًا لم أفهم عن أي رسالة تتحدث؟

يبتسم اللواء محمد في وجه الدكتور عماد وهو يقول: أنها قصة طويلة دكتور عماد وسيأتي يوم قريب وأطلعك عليها كاملة أديبنا الغالي..

ثم ينهض اللواء من مكانه قائلًا: وأرى أننا قد أخذنا من وقتك الثمين ما يكفي هذا الصباح..

يرد الدكتور عماد مبتسمًا: على الرحب والسعة دومًا..

ويصافح ميشيل الدكتور عماد وهو يقول: تشرفت بالتعرف على حضرتك دكتور عماد وأتمنى أن ألتقي بكم مجددًا فالحديث معكم ممتع وغني.

ينظر الدكتور "عماد" في وجه "ميشيل" ضاحكًا: ولكن ليس بمتعة التاريخ الذي تُدرسه.. الشرف لي بروفيسور ميشيل..

تصافح ماريا الدكتور عماد مودعة وتقول: شكرًا جزيلًا دكتور لهذا اللقاء الجميل الذي لن أنساه.

ويودع الدكتور عماد ضيوفه باسمًا كما استقبلهم من أمام مدخل مجمع اللغة العربية، ليستقل ميشيل وماريا سيارة اللواء محمد الذي يسير بسيارته سالكا طريقا يحاذي مجرى نهر النيل وميشيل وماريا ينظران نحو النيل من النافذة وهما يتأملان من جديد روعة ذلك المشهد وجريان نهر النيل الذي لم يتوقف منذ آلاف السنين.. كيف لا ومصر هي هبة النيل.

ماريا: ما أروع هذا المنظر

ميشيل: نعم إنه النيل.. فكم تغنى به شعراء وعشاق.

يعقب اللواء محمد قائلًا: نعم فمصر بكل عظمة تاريخها هي هبة هذا النهر العظيم..

تلتفت ماريا نحو الجنرال محمد وهي تقول: لقد تأثرنا جدًا بشخصية الدكتور عماد ومعرفته العميقة في عالم الشعر والأدب.. شكرًا جزيلًا حضرة الجنرال على هذه الزيارة التي اصطحبتنا بها..

يتوجه ميشيل بسؤال للجنرال محمد ويقول: مارأيك حضرة الجنرال فيما قاله الدكتور عماد حول تلك القصيدة؟؟

يجيب اللواء محمد قائلًا: إن ما عرفناه اليوم حول تلك القصيدة المزعومة لا يختلف عما نراه من تزوير للتاريخ في مواقع عديدة ولأغراض مشبوهة تهدف إلى خلق صراعات بين الحضارات بدلًا من أن تتحاور خدمةً للبشرية جمعاء ولتحقيق سعادتها..

ماريا: تمامًا وهذا ما قصده الأب "باولو" في آخر كلمات رسالته للمسيو "عازر" حين قال حرفيًا:

"وبشأن القصيدة المنسوبة.. لا أصل لها ولا نسبة لصاحبها بل نظمت حديثًا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم"

يقف اللواء محمد بسيارته فجأة في وسط الطريق بعد ترديد "ماريا" للمقطع الأخير من رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر موسان"..

و"ماريا" تنظر نحو الجنرال وهي مندهشة من وقوفه المفاجيء هذا وتقول: خيرًا ماذا حصل!!

يجيب اللواء محمد قائلًا: ألم تلاحظوا شيئًا مهما في آخر تلك الجملة؟

يقول ميشيل: ماذا تقصد حضرة الجنرال؟؟

يجيب اللواء محمد: ألم تلاحظوا شيئًا فيما قاله الأب "باولو" للمسيو "عازر موسان" في رسالته حول تلك القصيدة بقوله:

"بل نظمت حديثًا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم".

ويعيد اللواء محمد مكررًا لجملة:

"بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم"..

يقول "ميشيل" معقبًا على كلام الجنرال: وفق المعلومات التي لدينا أن تنظيم "داعش" المتطرف هو من خطف الأب "باولو"..

يجيب اللواء "محمد": تمامًا.. وقد قال الأب "باولو" للمسيو "عازر" بالضبط:

"القصيدة نظمت حديثًا لأغراض سياسية بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم"!!

يتأمل "ميشيل" في كلام الجنرال وقد تفّهم ما يقصده ثم يقول:

والمسيو "عازر موسان" هو حاخام يهودي مناهض لأفكار الصهيونية!!

تسرح "ماريا " وهي تفكر متأملة في ذلك الحديث وتكرر تلك الجملة من رسالة الأب "باولو" بصوت منخفض:

"بتوجيه من يدعم من خطفني ومن تقف ضدهم"..

ثم تصيح مذهولة وهي تنظر نحو "ميشيل" ويبدو أنها قد استوعبت ما كان يقصده الأب "باولو" في كلماته للمسيو "عازر":

أووه يا إلهي.. ماكل هذا الشر!!

ليسود بعد ذلك الحديث صمت مطبق من الجميع وهم يتأملون في الحقيقة التي تراءت للجميع واضحة كعين الشمس..

ويتابع اللواء محمد قيادة السيارة بهدوء باتجاه الفندق الذي يقيم فيه ميشيل وماريا في القاهرة..

الفصل التاسع والثلاثون

في فرنسا وفي الصباح الباكر من ذات اليوم وفي منزل البروفيسور "ميشيل" في أحد ضواحي باريس الهادئة يقف "أحمد" أمام نافذة غرفة المكتبة، وهو ينظر عبرها إلى تلك الأشجار المتراصفة على جانبي الطريق الخالي من أي حركة في تلك المنطقة الهادئة إلا من حركة بطيئة لذلك الضباب الذي تشّكل باكرًا محيطًا بتلك الأشجار..

فينظر "أحمد" وهو يتأمل بعمق في ذلك المشهد ليشرد سارحًا في تأمله لذلك الشارع الشديد الهدوء ليعود بذاكرته إلى العام ٢٠١٢م حيث كان يقف بحذر من أمام فتحة صغيرة في جدار أحد الملاجىء في مدينته حمص التي لجأ إليها الأهالي من شدة القصف على المدينة، وهو ينظر متأملًا في ذلك الشارع الخالي من أي حياة بعد قصف ليلي شديد..

ثم ينظر من حوله في أرجاء المكان حيث الملجأ الذي يقف فيه، ويحدّث نفسه:

حظر تجول..

صمت غير معهود في بلدٍ يميزه الصخب..

أطفال مشتتين يتشاركون الفراش..

الكل نيام، والمكان لا يتسع لنازحين جدد..

ثم يعود ليجلس وقد تكوّر على كنبة مهملة في إحدى الزوايا في انتظار خبر ما..

الجو حار منذ ساعات الصباح الأولى حيث النسيم الليلي قد مر خجلًا..

ويعود لينهض مجددًا ويمسك بكأس الشاي البارد وهو يفتح المذياع عسى أن يسمع خبرًا مفيدًا..

لكن للأسف فكل مذيع يتفوه بأكاذيب تزيد في انقباض القلب..

فينظر مجددًا إلى تلك الفتحة في ذلك الجدار ثم يرفع بعينيه نحو سقف ذلك الملجأ.. وهو يقول يا ترى ماذا سيحمل لنا الغد؟؟

مسيو أحمد.. مسيو "أحمد".. صباح الخير

يصحو "أحمد" فجأة من شروده على صوت ونداء "فيرونيكا" مدبرة المنزل التي تقدم له قهوة الصباح وهي تبتسم وتقول:

أراك تنظر كثيرًا عبر تلك النافذة متأملا في سكون الطبيعة الجميلة من حولنا..

يلتفت أحمد نحو فيرونيكا وينظر لها بابتسامة لطيفة تعبيرًا عن شكره وهو يأخذ منها فنجان قهوته الصباحية التي أعدتها له..

تقترب "فيرونيكا" من تلك النافذة وتتأمل في ذلك المشهد وتقول: رغم أجواء الشتاء وهذا الضباب الذي يتشكل باكرًا إلا أن الشمس لا بد لها من أن تسطع بآشعتها الذهبية الدافئة لتنير لنا يومًا جديدًا..

لذلك يجب أن نبدأ يومنا ونحن نتأمل بيقين في أن يكون جميلًا.. فبقدر ما سيكون حاضرنا جميلًا سيكون غدنا أجمل..

يستمع أحمد لما تقوله فيرونيكا وهو ينصت بتمعن شديد لكل كلمة تقولها وبينما كان ينظر إلى أعلى ذاب لون أوراق الشجر الأخضر وامتزج بالزرقة الممتدة في الأفق من بين الضباب، ثم يقف وهو يعيد التأمل في تلك الكلمات ويقوم بتكرارها..

ويبدو أن كلمات "فيرونيكا" تلك قد أوحت له بفكرة جديدة، فينظر إليها وقد ارتسمت على وجه ابتسامة عريضة ثم يتوجه بخطوات سريعة نحو ذلك المكتب في وسط تلك الغرفة حيث يضع أوراقه التي يكتب فيها كل ما يقوم به من بحث وقراءة.. وهو يقول:

نعم فيرونيكا لقد صدقتي في كل كلمة نطقتها قبل قليل، ورغم أن الليل كان طويلًا لكن الشمس ستسطع من جديد لتبدد كل ذلك الظلام وذلك الضباب الذي يعيق رؤية الطريق..

ولا بد من أن نبدأ يومنا بأمل قوي وبأن يكون جميلا لكي نصنع حاضرا مشرقا يبعد عنا ذكريات الماضي السوداء.. فحاضرنا هو من سيرسم ملامح غدنا..

شكرا لك فيرونيكا لتلك الكلمات وما أوحته لي..

تنظر فيرونيكا لأحمد وهي لم تستوعب ما الذي يريد أن يقوله لها بالضبط، لكنها حينما رأته بتلك الطاقة المفعمة بالفرح والأمل ابتسمت له وهي تغادر غرفة المكتبة لتتابع ما عليها من أعمال وهي تقول له:

فليكن يومك جميلًا سيدي..

ويجلس أحمد متحفزًا على تلك الطاولة وهو يهّم في كتابة بضعة أسطر بدت كملاحظات سريعة أو ربما خطوط عامة لعنوان ما.. ثم يقول في نفسه:

لقد قررت أن أكتب كل شيء رأيته ومرّ معي حتى لا أفقد الأمل..

سأبدأ بكتابة تلك الأحلام التي لم تستطع رصاصة غادرة قتلها، ولا لموجة عالية أن تغرقها..

وسأكتب عن أصوات الأطفال الحالمة وعن أحلام كل من قضى على تلك الأرض بريئا من ذنب حبه للحياة..

سأكتب عن كل من دافع عن معنى حرية الإنسان وحريته في كل ما يؤمن به، سأكتب كل ذلك وضد كل من نصّب نفسه وصيًا على أفكاره وقلبه.. وضد كل من تخفّى في رداء دين ما معتقدًا بأن الوحي هو له فقط، وأن كل ما يأتي من السماء سيكون من خلاله..

نعم قررت أن أكتب كل ذلك في رواية تتحدث عن تلك الأحلام وعن ذلك الأمل.. فلديّ ما يَكفي من العابرين لأصنَع هذا النّص، ولديّ ما يكفي من الحكايات عن أحلام قضت..

لدي مايكفي من الأسرار لأصنع بيتًا لهذا الشتاء.. ولديّ ما يكفي من الحزنِ لأصنع منه خُبزًا وأعطيه للمارّة..

ولديّ مايكفي كذلك من الأصوات لأخترع "صولا" خاصتي.. فهذه الضِحكة ليست فرحًا إنّما أصوات العالقين داخلي..

وهذا الدمع ليس بكاءً.. إنّه شخص يُحاول الهروب من ذلك البابِ المُغلق.. ففي كل مرة أتنفّس من فمي يدخُل أخرون مع الهواء..

ثم يتأمل "أحمد" في تلك الأوراق التي كان قد كتب فيها نتائج ما يقوم به من بحث في معاني كلمات الأب "باولو" ويلتفت إلى صورته من بين تلك الأوراق وكأنه يستمع إلى صوته الآن..

فينهض من جديد وهو يقول في نفسه:

نعم وسأكتب كذلك عن رجل سعى بين أهل بلد.. حين اشتعلت الفتن وبدأت الدماء تنزف هناك..

سأكتب أننا وفي هذا الليل الطويل لا نعرف حقيقة مصيره حتى الأن منذ أن غيّبه طيور الظلام..

فكل الأزهار تذبل فى الخريف إلا زهرتي أزهرت بعد ذبولها على يده فقد فعل بي معجزة وسقى زهرتي وأحياها من جديد..

سأكتب عنه وعن كل من ضحى في سبيل نشر رسالة السلام والحوار بين الشعوب وأن جوهر الدين الحقيقي لا تطرف فيه ولا عنف..

وسأكتب إلى كل ضحايا التطرف والعنف وإلى الأبرياء في كل بقعة من العالم لأقول لهم جميعًا لا تخشوا طيور الظلام.. فهي تخاف من نقاء أرواحكم..

وكل الروايات العظيمة ما هي إلا حروف وكلمات.. إلا أنها قد حفرت أخدودًا في داخلنا يدفعنا لأن نقاوم طيور الظلام تلك التي تريد أن تبني في داخلنا نفقا من السواد..

وسأكتب من جديد لنقول نحن المنتصرون..

يقف "أحمد" من جديد أمام تلك النافذة متأملًا وقلبه ينبض بقوة كحالة ثورة قررت أن تثور على تلك الحروف الصامتة والمنومة منذ زمن بعيد.. فيشعر بتلك الحروف وهو يوقظها ويصيح أن استيقظي فهناك قصيدة لا تكتب إلا بتلك الحروف الثائرة..

ثم يلتفت نحو تلك الأوراق حيث وضع قلمه وهو يقول في نفسه:

لنكتب إذًا.. ولن أفقد الأمل.. نعم فالنصر يبدأ بقلمك ويكتمل بصبرك ويسود بإصرارك..

الفصل الأربعون

في المساء وفي بهو أحد الفنادق حيث يقيم ميشيل وماريا خلال أيام مهمتهما في القاهرة..

وفي جلسة وداعية مسائية يجلس "ميشيل" و"ماريا" مع اللواء "محمد" الذي يبدأ حديثه وهو يرتشف من فنجان قهوته قائلًا:

إذا قررتما السفر إلى باريس في الصباح الباكر؟؟

يرد ميشيل: في الحقيقة نعم، ولكن ليس إلى باريس مباشرة، وكنا نود أن نبقى هنا أكثر فهناك أماكن مهمة كنت أود أن أزورها لكن الوقت لم يكن حليفنا في هذه الزيارة.

يلتفت اللواء محمد إلى ميشيل متعجبًا ويقول:

ألن تعودا إلى باريس مباشرة لمتابعة قضية أحمد؟؟

يجيب ميشيل: نعم سنعود.. لكن بعد القيام بزيارة مهمة ورحلة سريعة

اللواء محمد: إلى أين؟؟

يرد ميشيل: إلى دمشق..

يقول اللواء "محمد" متفاجئًا:

إلى دمشق!! وفي هذه الظروف!!

يجيب "ميشيل" قائلًا : نعم صديقي، فهناك شيء يشغل بالي أريد أن أتحقق منه شخصيًا في دمشق قبل العودة إلى باريس.

اللواء محمد: وإلى أين ستأخذك الزيارة في دمشق؟؟

يقول "ميشيل": إلى حيث السلطان "صلاح الدين الأيوبي"..

ينظر اللواء "محمد" إلى "ميشيل" متعجبًا ويقول: السلطان "صلاح الدين"!!

يجيب ميشيل: نعم.. حيث أجد أنه لا بد من أن نزور ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي" لأسباب كثيرة، وأهمها أنه قد ورد ذكر قبر "صلاح الدين" في الكتاب الرسالة الذي وجدناه مخبأ ضمن قطعة المنبر الخشبية في القدس، وبالرغم من أن كلمة القبر قد تكون ذكرت مجازيًا.. إلا أنه من الممكن أيضًا أن يكون لذلك معنى مهم، وبالإضافة لشيء ما يأخذني إليه حدسي لزيارة الضريح أود أن أتأكد منه هناك على أرض الواقع..

اللواء محمد: لكن الظروف الحالية قد تكون غير آمنة فكيف ستصلون إلى دمشق؟

تجيب "ماريا": أظن أنه من الأفضل أن نهبط في مطار بيروت ثم نسلك الحدود البرية نحو دمشق.

كما يوجد لنا بعض الأصدقاء في منظمة "الصليب الأحمر" سيقدمون لنا المساعدة في ذلك والدخول إلى سورية كموظفين من "الصليب الأحمر"..

اللواء محمد: لكن أليس في ذلك مخاطرة وعناء؟

ترد ماريا: معك حق حضرة الجنرال لكن كما تعلم فهناك حياة إنسان بريء تحتاج منا التركيز في كل تفصيل يخطر في بالنا والقيام بما يجب القيام به..

يهز ميشيل برأسه موافقًا: تمامًا ماريا..

يبتسم اللواء محمد وهو ينظر نحو ماريا وميشيل ويقول: في الحقيقة كان شرف لي معرفتك آنسة "ماريا" وشرف لي زيارتك الكريمة صديقي الغالي "ميشيل"، وفي الحقيقة أحترم جهودكما في مساعدة إنسان بريء تأكدت

معكما ومن الأحداث التي كنت شاهدًا عليها من براءته من جريمة لم يرتكبها وبملابسات غامضة أدت لإلصاق التهمة به خطأً..

ويتابع اللواء حديثه وهو ينظر نحو ميشيل وماريا قائلًا: ولكن إذا ما رتبنا كل ما توصلنا إليه حتى الآن..كيف يمكن أن تلخصا ذلك بما يخدم المهمة التي جئتما من أجلها؟

يجيب ميشيل: بداية ومن معرفتنا بجهود ورحلات الأب "باولو" الكثيرة في سبيل تحقيق رسالته التي كان يؤمن بها عبر إقامة حوار حقيقي بين الأديان السماوية يفضي إلى قراءة ومراجعة دينية وتاريخية تصل لإرساء قيم السلام والتسامح، وبعد رحلتنا التي قمنا بها إلى القدس وما اكتشفناه هناك.. أظن أنه من الممكن جدًا أن يكون الأب "باولو" قد التقى بالحارس العثماني الأخير للمسجد الأقصى "حسن الإغدرلي" في زيارته للقدس التي قام بها في الثمانينيات من القرن الماضي، ولسبب ما أفضى ذلك الحارس العثماني للأب "باولو" بسر ما يقوم بحراسته خلال السنوات الطويلة التي نسيه فيها العالم..

وكان الأب "باولو" يتابع عن كثب كل ما يحصل ويجري من أحداث وتطورات في المنطقة قد تفضي إلى إشعال نار الحروب والفتنة، لذلك بدأ بإجراء الأبحاث والدراسات والسعي بكل السبل التي تساهم في ترسيخ السلام في هذه المنطقة وإنشاء حوار حقيقي بين الأديان والحضارات، حوار يسوده روح التآخي والمحبة ويشاركه في ذلك علماء دين ومفكرين مسلمين ومسيحيين ويهود آمنوا بنفس رسالته..

تتابع ماريا ما بدأ به ميشيل وتقول:

وللأسف تتابعت الأحداث لتجر المنطقة إلى بركان من العنف والفوضى في السنوات الأخيرة، ووصل تأثير تلك الفوضى وذلك العنف للأب "باولو" شخصيًا حيث تم اختطافه وحجز حريته وقد أدرك الأب "باولو" أثناء

اختطافه أنه ربما سيتم تصفيته أو إخفاؤه، فأسرَّ برسالته وأمانته التي كان يريدها أن تصل للمسيو "عازر موسان" إلى "أحمد عيسى" الذي أرسله له القدر ليوصل تلك الأمانة للمسيو "عازر موسان"..

اللواء محمد: وكان هذا واضح من كلماته الأخيرة حول القصيدة المزعومة والتي بعد التدقيق والبحث من مختصين مثل الدكتور "عماد" من مجمع اللغة العربية أكدوا عدم صحتها، وأنها لا تخرج عن كونها قد صيغت لأغراض سياسية تضليلية يقف وراءها من يدعم هذه الفوضى في المنطقة، ويريد أن يكون العنف والقتل هو سيد الموقف، وربما قد أدرك الأب "باولو" مما لمسه شخصيًا من أن من يقف وراء فكر هؤلاء الظلاميين هو نفسه من يقف المسيو "عازر" ضدهم وضد أفكارهم..

ماريا: تمامًا.. وعندما تتبعنا كلمات رسالة الأب "باولو" واتبعنا أثر ذلك المنبر العجيب في صنعته وإرث وأثر آخر حراس المسجد الأقصى من العثمانيين ووصلنا بمساعدة الشيخ "عمر" مدير المسجد الأقصى والعم "مصطفى" لكشف تاريخي والعثور على كتاب كان أشبه بوصية من السلطان "صلاح الدين الأيوبي" وفي أجواء لم تخلو من الخطر حيث تعرضنا فيها لإطلاق نار من مجهول..

تصمت "ماريا" قليلًا ثم تقول: ولكن يبقى الغريب هنا والمثير للتساؤل هو لماذا أراد الأب "باولو" أن ينقل ذلك السر وكل تلك المعلومات لحاخام يهودي من بين كل من عرفهم..

ميشيل: نعم إنه أمر ملفتٌ للنظر فعلًا.. ويؤكد ثقة الأب "باولو" الكبيرة بالمسيو "عازر"..

اللواء محمد: ربما.. ولا تنسى أنكما قد أخبرتماني أن للمسيو "عازر" أصل عربي، فهو من أم دمشقية يهودية، بالإضافة إلى كونه يهودي يناهض

الصهيونية، وهناك فرق كما تعرفون بين اليهودية كدين والصهيونية كفكر، فليس كل اليهود هم صهاينة..

ماريا: نعم أوافقك الرأي في هذا سيادة الجنرال، وقد أكد الشيخ "عمر" مدير المسجد الأقصى معرفته للمسيو "عازر" وجهوده التي كان يسعى بها لمساعدة الأب "باولو" في تحقيق رسالته ولقاؤه به في القدس كذلك..

اللواء محمد: ربما ذلك ينسجم مع ما جاء في وصية السلطان "صلاح الدين" من تذكيره بأهمية التسامح في القدس ليعم السلام على هذه الأرض مهد الديانات، وتاريخيًا تذكر الكتب التي وثّقت تاريخ القدس أنه عندما حررها "صلاح الدين" من الصليبيين كان قد سمح ليهود عسقلان بالانتقال والعيش في القدس بعد أن طرد الصليبين اليهود من القدس عندما احتلوا المدينة ..

ميشيل: تمامًا، وقد لمست شخصيًا مما درستّه في التاريخ من احترام قادة أوروبا من المسيحيين لتسامح "صلاح الدين" وتجلى ذلك مما كُتب عن زيارة إمبراطور ألمانيا "ويليام الثاني" لضريح "صلاح الدين" في أثناء زيارته إلى دمشق بدعوة من السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني" آنذاك..

تتابع ماريا: إذًا فكل تلك التحليلات تأخذنا إلى فرضية تقول أن الأب "باولو" أراد أن يكمل بحثًا ما، بدأه مع المسيو "عازر" وآخرين..

وكانت كلمات رسالته "اتبع أثر المنبر.." وكل ما ورد فيها من كلمات أخرى بمثابة إشارات للوصول لكتاب ووصية "صلاح الدين الأيوبي" التي كان يحرسها العريف "حسن الإغدرلي" لسنين طويلة، وكان الأب "باولو" يهدف من ذلك إلى التذكير بأهمية المحافظة على التسامح وخير مثال ما جاء في العهدة العمرية التي تعهد بها "عمر بن الخطاب" لبطريرك القدس "صفرونيوس" عندما سلّمه مفاتيح القدس..

يتابع اللواء محمد قائلًا: وبفضل ذلك وما تم اكتشافه في القدس وما كانت تحتويه قطعة المنبر الخشبية المخبأة تحت أرضية حرم المسجد الأقصى، توصلنا هنا في القاهرة بجهودكما لكشف وتوثيق تاريخي جديد عن فكر "صلاح الدين" الإستراتيجي والسياسي في تحرير المنطقة من الاحتلال عبر ما وجدناه في الخزنة المخبأة خلف جناحي رسم راية العقاب الحجري في قلعة "صلاح الدين" في القاهرة..

ميشيل: نعم.. وبالإضافة لما تم كشفه، هناك أيضًا النتائج المهمة التي توصلنا إليها بعد القيام بدراسات وأبحاث كثيرة لتفسير وتتبع معاني كلمات الأب "باولو" عند قوله في الرسالة الشفهية الموجهة للمسيو "عازر" حول ماجاء في الإصحاح الأول من سفر "التكوين" أن المقصود الحقيقي هو الله الواحد وليس "إيلوهيم راؤول"..

اللواء محمد: تمامًا، وبفضل تلك النتائج والبحث المستمر استطعنا أن نتعرف على فكر غريب كفكر جماعة "راؤول"، والذين يروّجون وفق ما شهدناه معًا لمعتقدات غريبة هدفها الانحلال وتفكيك المجتمع وغيره من الأهداف المشبوهة، مما يؤثر سلبًا في بنية المجتمعات وتماسكها متخذين من أسطورة شعب الله المختار مبدأ وعقيدة..

ماريا: وأعتقد الآن، وبعد كل ما عرفناه وتوصلنا إليه وللروابط المشتركة للأبحاث التي أجريت أن المغلف الورقي المفقود والذي سلمه "أحمد" للمسيو "عازر" كان يحتوي على ملفات هامة تتضمن فيما يتضمنه بحثًا ما عن مجموعات متطرفة تسعى إلى إشعال الفتن والحروب وتفكك المجتمعات بأساليب تضليلة عميقة.. يقف وراءها..

يتابع اللواء محمد مقاطعًا ماريا: يقف وراءها كما قال الأب "باولو" من يدعم خاطفي الأب "باولو" ومن يقف ضدهم المسيو "عازر"..

ميشيل: تمامًا ومن أجل كل هذا تم قتل المسيو "عازر موسان" حتى يعيقوا إتمام ما بدأه الأب "باولو" والمؤمنون بذات القيم ومنعهم من إعلان كل ذلك للعالم أجمع..

تتأمل "ماريا" فيما يقوله "ميشيل" لدقائق.. ثم تصيح فجأة: نعم، إن قتل المسيو "عازر" كان هدفه الأساسي منع إقامة ذلك المؤتمر!!

ينظر اللواء "محمد" نحو "ماريا" بدهشة: أي مؤتمر؟!

يجيب "ميشيل" على سؤال اللواء قائلًا: تقصد ماريا حضرة الجنرال أنه عندما التقى "أحمد" بالمسيو "عازر" لتسليمه أمانة الأب"باولو"، كان المسيو "عازر موسان" قد أبلغ "أحمد" عن عزمه لعقد مؤتمر يخص شيئًا يتعلق في الإعلان عن ما يحتويه ذلك المغلف الذي سلمه إياه "أحمد" مع رسالة الأب "باولو" الشفهية..

تتابع ماريا مكمّلة لما يقوله "ميشيل" وتقول: نعم، وقد أخبر المسيو "عازر" "أحمد" بأنه سيعقد ذلك المؤتمر بعد ١٥ يومًا من تاريخ لقائه به في أحد فنادق باريس وقد دعاه لحضوره..

ميشيل: تمامًا.. فقد وجدنا تاريخ ذلك المؤتمر مسجلًا فعلًا على دفتر ملاحظات المسيو "عازر" الموجود في عهدة شرطة باريس التي ما زالت تجري التحقيقات حول جريمة مقتل المسيو "عازر".

وكنت قد أعلمت المحقق "برنار" في آخر حديث معه باسم الفندق حيث كان المسيو "عازر" قد حجز فيه قاعة لإقامة المؤتمر وأخبرني بأنه سيجري التحقيقات اللازمة حول ذلك المؤتمر ومكان انعقاده.

وسأتواصل معه قريبًا لمعرفة أي جديد في هذا الخصوص..

اللواء محمد: إذًا كان كل ما تقولونه دقيقًا فإنه يكون من المنطقي والواضح أن من قتل المسيو "عازر موسان" كان هدفه عرقلة إقامة ذلك المؤتمر..

ماريا: تمامًا.. هذا ما يبدو من واقع الأحداث!!

ويتابع ميشيل ويقول: وكل ما توصلنا إليه وحادثة إطلاق النار التي تعرضنا لها في القدس يؤكد هذه الفرضية..

يقول اللواء محمد: إذًا لقد عدتم في بحثكم من جديد إلى موقع الجريمة في باريس..

يجيب ميشيل: تمامًا حضرة الجنرال، لذلك لابد من العودة سريعًا إلى باريس.. لكن بعد القيام بزيارة خاطفة إلى دمشق..

تقول ماريا وهي تستمع لما يقوله اللواء محمد و ميشيل:

أوافقكم الرأي في كل ما تقولانه..

ثم تتابع قائلة: وكذلك يجب أن أتصل بأحمد في باريس لأعلمه بآخر المستجدات قبل إقلاع الطائرة..

ينظر اللواء محمد نحو ميشيل وماريا قائلًا: حسنًا.. لا بد لي الآن إذًا من أن أودعكما على أمل لقاء قريب، ومع كامل تمنياتي بأن تتكلل جهود مهمتكما بالنجاح..

ويتابع ويقول: وكذلك سيكون سائقي عندكم في الموعد المحدد قبل حلول الفجر ليقوم بإيصالكما إلى المطار وفق تاريخ رحلتكما.

ثم ينهض اللواء محمد من مكانه ليقول مبتسمًا قبل أن يغادر مودعًا: على فكرة قبل أن أنسى.. فهناك كتاب شكر لكما من حكومة بلادي لجهودكما المقدرة في المساعدة على اكتشاف كنز قلعة "صلاح الدين" التاريخي..

تبتسم ماريا وهي تقول: بل الشكر لك حضرة اللواء على سعة صدرك وإيمانك بما نقوم به لإثبات براءة إنسان اتُّهم ظلمًا بجريمة لم يرتكبها..

يجيب اللواء "محمد" قائلًا: هذه التهمة سيخرج منها "أحمد" سالما إن شاء الله وسيدخل حياة جديدة أمنة ونتمنى أن يأتي معكما في زيارة قريبة لنا في مصر آمنًا مطمئنًا..

ويتابع مبتسمًا وهو يقول: وسيقرأ بنفسه لكما ويترجم أول عبارة يقرؤها القادمون والمغادرون، والتي كتبت على اللافتة الموجودة فوق مدخل مطار القاهرة..

ثم يصافح اللواء محمد ميشيل وماريا متمنيًا لهما رحلة موفقة ونجاح للمهمة التي يقومون بها، ويسير مغادرًا الفندق وهو يلوح لصديقيه مودعًا..

الفصل الواحد والأربعون

بعد عدة ساعات، وقبل بزوغ شمس اليوم التالي يستقل ميشيل وماريا السيارة التي ستقلهما نحو مطار القاهرة مغادرين للتوجه إلى مدينة دمشق عبر مطار بيروت..

تنظر ماريا عبر النافذة بتأمل وهي تشاهد مشهد نهر النيل الذي يجري في طريقه الذي حفره منذ آلاف السنين ليشكل نبض الحياة لهذه البلاد وحياة الناس التي تعيش على هذه الأرض..

ثم تلتفت نحو ميشيل الذي يتأمل بذات المشهد وتقطع تأمله قائلة:

هل استهواك هذا المشهد أيضًا؟

يجيب "ميشيل" قائلًا: نعم ماريا.. وكيف لا وقد شكل هذا النهر العظيم منذ آلاف السنين أساس الحياة لحضارة إنسانية عريقة مازلنا كل يوم نكتشف إبداعها وآثارها الخالدة..

ويصمت ميشيل قليلًا ثم يتابع ويقول:

لاحظي ماريا أيضًا كيف أن الحياة لم تتوقف من على هذه الأرض منذ تاريخ وجود أول إنسان عليها، والتي شكلت مع البلدان المجاورة والثقافات المتداخلة فيما بينها تاريخيًا وجغرافيًا مهدًا للحضارات الإنسانية الأولى ومهدًا ووطنًا للديانات السماوية..

وأظن أن كل هذه الأسباب قد دعت إنسانًا حالمًا وساعيًا في طريق الحب مثل الأب "باولو" إلى ترك وطنه إيطاليا حيث وُلد للتوجه إلى هذه المنطقة والعيش فيها والتنقل بين مدنها وقراها بحثًا وسعيًا نحو المعرفة والسلام الروحي..

ماريا: نعم، معك حق ميشيل.. وربما ونحن في طريق سعينا للبحث عن ما يثبت براءة "أحمد" من جريمة لم يرتكبها، وتنقلنا في هذه البقعة من الأرض وفي عدد من الرحلات بين بلدان هذه المنطقة التي تقع في قلب العالم، قد تتبعنا أيضًا خط سير التاريخ والفكر الإنساني في بحث لا يخلو من الإثارة حقيقةً، وأعطى لنا فرصة لنتعرف عن كثب على هذه الأرض وحضاراتها وتاريخ وفكر أهلها والذي أثّر في مسيرة الحضارة الإنسانية منذ القدم..

يقول ميشيل: صدقت ماريا.. فأنا أدرّس التاريخ وتأثيره على الفنون لطلابي منذ سنين.. ولكن منذ البدء في رحلتنا هذه والتي فرضها حدثًا جرى في باريس مع شاب من أهل هذه البلاد اتُّهم بجريمة لم يقترفها.. أجد نفسي الآن أقف هنا كطالب من جديد، حيث أقرأ التاريخ في مهده وتدعوني هذه الأماكن للتعلم والتعرف على الحضارة من جديد..

ماريا: ما أجمل ما تقوله ميشيل وما أجمل هذه الكلمات التي تدعونا للمضي بقوة في ما نقوم به ولتظهر الحقيقة ساطعة كأشعة الشمس التي بدأ ضوؤها يظهر أمامنا الآن..

يجيب ميشيل وهو ينظر نحو الطريق متأملًا: نعم صحيح ما تقولينه..

ثم يلتفت إلى ماريا قائلًا:

في عودتنا لمهمتنا التي نقوم بها، هل اتصلتِ بأحمد في باريس؟؟

تبتسم "ماريا" وهي تمسك بهاتفها وتقول: في الحقيقة هذا ما سأقوم به الآن ومن المؤكد أن يكون أحمد مستيقظًا كعادته وغارقًا في بحثه بين الكتب والمراجع.. وها أنا أقوم بالاتصال على هاتفه..

على بعد ألاف الكليومترات وفي ضواحي باريس حيث يقع منزل البروفيسور ميشيل يجلس أحمد في غرفة المكتبة وهو منهمك في تسجيل وترتيب نتائج الأبحاث التي قام بها، وكذلك نتائج البحث الميداني في

رحلات ميشيل وماريا والتي يقومان بها في هذه الأثناء متنقلين بين مدينة وأخرى في سبيل تحليل ومعرفة معاني كلمات رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر" وإيجاد أي رابط فيما بينها وبين الكلمات التي وجدت في دفتر ملاحظات المسيو "عازر موسان" وبالتالي ما يمكنه تحقيقه من إثبات براءة "أحمد"..

وكذلك فهو الآن أيضا يبدأ في الإعداد لكتابة روايته التي سيسجل فيها كل تلك المعاني التي عايشها في السنوات الأخيرة وانعكاسات ما جرى معه في طريق البحث عن تلك الحقيقة..

فجأة يسمع أحمد رنين هاتفه الجوال والذي يهتز بين تلك الأوراق المكدسة من أمامه على طاولة المكتب، فينظر متمعنًا لرقم المتصل ثم يبتسم وهو يرى رقم هاتف ماريا التي تتصل به، فيمسك بهاتفه ويجيب على ذلك الاتصال بلهفة..

آلو.. ماريا، صباح الخير

تبتسم ماريا وهي تستمع لصوت أحمد:

صباح الخير أحمد كيف حالك؟؟ كنت متأكدة من أنك ستكون مستيقظًا في هذا الوقت، وأحادثك الآن ونحن في طريقنا إلى مطار القاهرة..

أحمد: أهلًا "ماريا" أنا في صحة جيدة، كيف حالكما؟ هل قررتما العودة إلى باريس أخيرًا؟؟

تجيب ماريا: نعم قريبًا.. لكننا الآن سنتوجه إلى مدينة بيروت..

يرد أحمد متعجبًا: بيروت!! لماذا بيروت؟!

ماريا: لأننا سنقوم بزيارة خاطفة إلى دمشق عبر الحدود البرية..

يجيب "أحمد" بذهول: دمشق؟!

وفي هذه الظروف ألا ترون أنها قد تكون رحلة فيها شيء من الخطر؟!

ماريا: لا تقلق فستكون زيارتنا قصيرة، وقد أخبرونا أن الطرق آمنة هذه الفترة رغم أن ما نبحث عنه أدخلنا جميعًا في دائرة الخطر..

يرد "أحمد" قائلًا: لقد بدأت في القلق عليكما ماريا!!

ماريا وهي تبتسم: لا تقلق أحمد.. لقد اتصلنا لنخبرك بأن زيارتنا للقاهرة كانت مفيدة وموفقة، وسنخبرك من بيروت بتلك التفاصيل والنتائج..

أحمد: حسنًا إذًا، ليكن الله معكما ولتصلا بالسلامة..

يصمت أحمد قليلًا، ثم يتابع قائلًا: ماريا..

ماريا: نعم أحمد..

يجيب "أحمد" بشوق لا يخلو من القلق: كوني على حذر أرجوكِ، وكوني بخير.. ولنبقى على تواصل دائم بأي مستجدات..

تجيب ماريا وهي تبتسم:

نعم أحمد، وأنت كذلك كن بخير دومًا.. وداعًا الآن.

أحمد: إلى اللقاء ماريا.

تغلق ماريا هاتفها وهي ما تزال تسمع في أذنها وربما في قلبها، صوت أحمد الذي اشتاقت له، وقد حرّك صوته في داخلها مشاعر جميلة لم يسمح لهما القدر بعد بالتعبير عن تلك المشاعر كما يجب، رغم كل تلك السنوات العشر التي عرفا بعضهما فيها..

تمضي قرابة النصف ساعة حتى تصل السيارة التي تقل ميشيل وماريا إلى مطار القاهرة الدولي، ويدخلان مباشرة مسرعين نحو البوابة الرئيسية لمطار القاهرة، وتقف ماريا فجأة لتنظر نحو تلك اللافتة الموجودة فوق مدخل

المطار ثم تسأل أحد الموظفين المتواجدين أمامها قائلة: لو سمحت ماذا تعني هذه الجملة التي كُتِبَت على هذه اللافتة باللغة العربية؟

ينظر الموظف إلى حيث اللافتة ليجيب على سؤال ماريا ويقوم بترجمة تلك العبارة التي كُتبت فوق مدخل مطار القاهرة ويلتفت مبتسمًا نحو ماريا قائلًا: العبارة تقول:

"ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين"

تستمع ماريا لما يقوله ذلك الموظف عن معنى تلك العبارة وهي تلتفت إلى ميشيل الذي يقف بجانبها وتقول بأمل:

نعم سنعود في زيارة قريبة ومعنا أحمد، وندخل مصر معًا إن شاء الله سالمين آمنين..

يقول ميشيل مبتسمًا: نعم ماريا لقد استوعبت معك ما كان يقصده الجنرال "محمد" في حديثه الوداعي لنا.. فما أجمل هذه البلاد وما أجمل سلامها..

ثم يتابع وهو ينظر إلى ساعته قائلًا: هيا بنا الآن إلى الطائرة..

ويسرع ميشيل وماريا في خطوات سيرهما باتجاه بوابة الطائرة التي ستقلع بهما في رحلة مباشرة إلى بيروت.. ويصعدان إلى الطائرة في الموعد المحدد ثم يجلسان على مقعدهما المخصص..

ينظر ميشيل من نافذة الطائرة والتي تبدأ في الإقلاع من مطار القاهرة ويلتفت إلى ماريا قائلًا: ها نحن نبدأ في الإقلاع من مطار القاهرة..

ثم ينظر في ساعته وهو يقول: ومن الجيد أن المسافة نحو بيروت جوًّا تأخذ تقريبًا ساعة من الزمن..

إلا أن الصراع المستمر في هذه المنطقة سيأخذنا إلى وجهتنا الرئيسية حيث مدينة دمشق في رحلة أخرى عبر البر قد تأخذ منا أكثر من أربع ساعات..

تلتفت ماريا نحو ميشيل مبتسمة: نعم.. لكن لا تقلق فلن أدعك تمل..

يسند ميشيل رأسه إلى مسند مقعد الطائرة ويجيب ضاحكًا: معك حق، فبما أنكِ مرافقتي في هذه الرحلة أيضًا فلا داعي للقلق فعلًا..

ويضحك الصديقين مع سماع صوت كابتن الطائرة الذي يعلن البدء في إقلاع الرحلة المتجهة مباشرة نحو مدينة بيروت متمنيًا للمسافرين رحلة مريحة..

الفصل الثاني والأربعون

بعد مضي ساعة وبضع دقائق تهبط الطائرة أخيرًا في مطار "رفيق الحريري" في بيروت ويخرج ميشيل وماريا من المطار ليستقلا سيارة تقلهما مباشرة من مطار بيروت إلى مدينة دمشق والتي تبعد تقريبًا ١١٠ كم برًا.

ولتنطلق تلك السيارة مسرعة باتجاه الحدود السورية اللبنانية، بينما تقوم ماريا بالاتصال بأحد أصدقائها العاملين في منظمة "الصليب الأحمر" الدولية في بيروت الذي أبدى تعاونًا كاملًا للتنسيق في تأمين دخول ماريا وميشيل إلى سوريا بشكل آمن وسريع..

وتنهي اتصالها بعد أن شكرت صديقها في منظمة "الصليب الأحمر" لتعاونه ومساعدته، ثم تلتفت نحو ميشيل وهي تبتسم وتقول:

لقد حصلنا على مساعدة أصدقائي في "الصليب الأحمر" لتأمين دخولنا إلى سوريا دون أية إعاقات أو مشاكل قد تأخرنا..

يجيب ميشيل وهو يتأمل الطريق من نافذة السيارة: ممتاز "ماريا"..

خبر جميل، وها نحن نبدأ يومنا باكرًا سالكين هذا الطريق الجميل بجمال مدينة كبيروت، هذه المدينة الرائعة النابضة بالحياة..

تنظر ماريا من النافذة قائلة: نعم إنه لطريق جميل فعلًا فهو يأخذنا من البحر إلى السهل عبر الجبل، ولابد من التفرغ يومًا ما لرؤية جمال وتاريخ هذه المدينة عن كثب..

ثم تلتفت إلى السائق متسائلة:

كم أمامنا من الوقت للوصول إلى دمشق؟

يجيب السائق: نعم سيدتي يلزمنا تقريبًا أقل من ساعة للوصول إلى نقطة الحدود السورية اللبنانية ومنها إلى دمشق العاصمة، حيث كان من المفروض أن لا تتجاوز المدة الزمنية من الحدود إلى مدينة دمشق في السابق نصف ساعة لكن بسبب الظروف الحالية التي تمر بها البلاد قد يأخذ ذلك أكثر من ساعتين من الوقت.. ولكني أرى أن الطريق اليوم هادئة فلا تقلقا..

ينظر ميشيل نحو السائق قائلًا:

نرجو ذلك فعلًا لأننا نريد أن نصل باكرًا فلدينا عمل في دمشق نريد إنجازه بسرعة ونعود مباشرة إلى بيروت بذات اليوم..

يرد السائق: حسنًا سأقوم بما يلزم سيدي..

ويتابع قائلًا: إلى أين تريدا الذهاب في دمشق سيدي؟

تجيب ماريا على سؤال السائق:

نريد أن نصل إلى أقرب نقطة من الجامع الأموي في دمشق القديمة..

يهز السائق رأسه وهو يقول: نعم فهمت كما كل السياح، فلدمشق القديمة سحرها..آه يا دمشق..كنت أعمل كدليل سياحي قبل الأزمة التي تشهدها البلاد، فالعنف والحرب أوقف كل شيء وقليل من يزور البلاد سائحًا هذه الفترة.

ويسود الصمت بعد هذا الحوار ليقود السائق سيارته مسرعًا نحو الحدود السورية اللبنانية التي يعبرها بسهولة ويسر لوجود كتاب من منظمة "الصليب الأحمر" يتضمن مساعدة مهمة وتيسير إجراءات سفر، حيث قدّم أصدقاء "ماريا" المساعدة في ذلك.

ويتوجه السائق مباشرة في الطريق من الحدود السورية اللبنانية نحو دمشق التي بدأت تظهر مشارفها من الأفق بعد مضي قرابة الساعتين..

يلتفت السائق نحو ميشيل وماريا وهو يشير نحو الأمام من نافذة السيارة وهو يقول:

ها هي مدينة دمشق أيها السادة تظهر أمامنا على مرأى النظر..

فيتوجه ميشيل وماريا بناظريهما نحو النافذة بإهتمام ليشاهدا ملامح مدينة دمشق التي بدأت تظهرعن بعد، والسائق يتابع سيره في الطريق نحو مدخل المدينة وهو يقول:

نعم هذه دمشق.. إحدى أقدم مدن العالم وتاريخ غير منقطع منذ أحد عشر ألف عام تقريبًا، وأقدم عاصمة في العالم.

تنظر ماريا نحو السائق قائلة: نعم.. لقد زرت دمشق كثيرًا من قبل وكنت أنطلق منها في رحلات استكشافية سياحية قاصدة الكنائس والأديرة القديمة التي كانت عنوانًا لتقريرٍ صحفي كنت أعده عنها من ضمن أعمالي الصحفية..

يلتفت ميشيل نحو السائق متسائلًا:

هل تعرف من أين جاء اسم دمشق تحديدًا؟

يجيب السائق على سؤال ميشيل: طبعًا لقد أخبرتكما أني كنت أعمل كدليلٍ سياحي قبل الأزمة..

كما أعلم أن هناك عدة نظريات في شرح معنى اسم دمشق، أوفرها انتشارًا كون لفظ دمشق هو لفظ سامي قديم بمعنى الأرض المسقية، ويعود ذلك لموقع المدينة الجغرافي في سهل خصيب يرويه نهر بردى وفروعه العديدة، مشكلاً بذلك غوطة دمشق؛ وأيضًا حيث يتميز موقع المدينة بوجود جبل يطل عليها يدعى قاسيون.

وقد اقتصرت تسمية دمشق على المدينة القديمة حتى القرون الوسطى، حين أخذت المدينة بالتوسع خارجها، ومن أقدم الوثائق التي ذُكرت فيها

دمشق على مرِّ التاريخ رُقم مدينة إيبلا العائدة إلى حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م، إذ وردَ ذكرها تحتَ مُسمَّى "داماسكي". كما أن ذكرها قد جاءَ أكثرَ من مرَّة في النصوص المصرية القديمة، ومن أبرزها ألواح "تحتمس" الثالث، العائدة إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، حيثُ ذكرت باسم "تيمساك".

وفي الفترات التي تبعت ذلك تعاقبت عدة أسماء عليها مع كل دولة جديدة كانت تحكم هذه المنطقة، فأطلق عليها الآشوريون دَمَشْقا وأحياناً استخدموا اسم " إيميري شو" أيضًا، والآراميون أطلقوا عليها اسم "ديماشقو"، كما ورد اسمي" دارميساك" أو "دارميسيق" في بعض النصوص الآرامية الذي قد يَعني "الدَّار/الأرض المسقية" أو "المكان الوافر بالمياه" أو "أرض الحجر الكلسي". ومنه في العصور الأنتيكية، عرف في اللغة اللاتينية، ومنها اللغات الأوروبية ببعض التحريف في النطق لتصبح باللاتينية المعاصرة **Damascus** "داماسْكُس"..

ويتابع السائق حديثه عن معاني اسم مدينة دمشق وهو يقود السيارة باتجاه دمشق العاصمة وهو يقول:

وبعد الفتح الإسلامي للشام عُرفت المدينة بالكثير من الأسماء، منها دمشق الشام تمييزًا لها عن مدينة غرناطة في الأندلس التي سُميت أيضًا دمشق العرب، وذاتَ العِماد لكثرة الأعمدة في أبنيتها، وباب الكعبة لوُجودها على طريق مكة، والفَيْحَاء لاتساعها ورائحتها الزكية، بالإضافة إلى عدة أسماء وألقاب أخرى منها جِلَّق وحصن الشام وفسطاط المسلمين، كما تُسمَّى أيضًا الشام، على طريقة تسمية الفرع باسم الأصل.

وفي الحقيقة يُوجد خلافٌ كبيرٌ وافتراضات عديدة بشأن أصل اسم دمشق نفسه وطريقة اشتقاقه في العربية، فأنصار الجذر العربي للاسم يرونه ناجمًا عن مصطلح دَمْشَق في العربية القديمة أي "إذا أسرع"، ولذلك يُقال أن المدينة سُميت باسمها لأن "أبناءها دَمْشَقوا – أي أسرعوا – في بنائها"، أما

غالب المؤرخين الذين أعادوا اللفظة لكونها سريانية، أو لاتينية، أما البعض فيرون أنه اشتق من كلمة "دُومَسْكَس" بمعنى المسك أو الرائحة الطيّبة، فيما يَرى آخرون أنها سُمّيت تيمنًا بالقائد اليونانيّ "دماس" الذي أسَّسَ المدينة، وجاء ذكر المدينة في رسائل تل العمارنة والكرنك في مصر باللغة الهيروغليفيّة تحتَ مُسمَّى دِمَشْقُوا ودَمْشَقَا، كما ساد الاعتقاد بأن الكلمة مشتقة من اسم أحد أحفاد النبي نوح "دَمَاشِق".

وفي الأيام الراهنة، تعرف دمشق في اللهجة السورية باسم الشام؛ أما أكثر ألقابها شهرة فهي مدينة الياسمين، وجلّق، والفيحاء، إلى جانب عدد من الألقاب الأقل انتشارًا مثل درة الشرق، شامة الدنيا، شام شريف والتي كانت منتشرة بشكل رسمي في الحقبة العثمانية..

يستمع ميشيل لما يقوله السائق باهتمام وهو يقول:

رائع.. جميلة ومهمة جدًا هذه المعلومات..

يرد السائق: شكرًا سيدي، ولكن ليس بجمال هذه المدينة..

ويتابع السائق قائلًا وهو يشير إلى الطريق من أمامه: وها نحن الآن ندخل مدينة دمشق وتظهر أمامنا مباشرة ساحة الأمويين.. إحدى الساحات الرئيسية في مدينة دمشق والتي نسير الآن باتجاهها وبالتوازي مع نهر بردى الذي يرافقنا في سيرنا هذا ..

تنظر "ماريا" من النافذة نحو الطريق ليلفت نظرها نصب تذكاري ضخم بجانب ساحة الأمويين فتلتفت للسائق وتقول متسائلة:

ما هذا النصب التذكاري على يميننا؟

يجيب السائق: نعم إنه نصب تذكاري يمثل السيف الدمشقي الشهير..

تلتفت "ماريا " نحو "ميشيل" بتعجب عندما ذكر السائق كلمة السيف الدمشقي وهي تقول: ميشيل إنه يتحدث عن السيف الدمشقي كالذي وجدناه وتعرفنا على قصته وسره في القاهرة.

ينظر ميشيل نحو ذلك النصب التذكاري ويتأمله قائلًا: نعم ماريا..

إننا في مدينة السيف الدمشقي الذي تحدث العالم عن صلابته، وأنه أحد أسباب النصر لمن يستخدمه..

وهو لذلك يستحق فعلًا كل هذا التكريم.

الفصل الثالث والأربعون

تتابع السيارة التي تقل ميشيل وماريا السير في شوارع مدينة دمشق التي دخلوها للتو بينما يمعنان النظر من النافذة نحو مدخل المدينة وبعض الشوارع المؤدية لها، حيث تم وضع عددٍ من الحواجز العسكرية فيها.. مع ملاحظة بعض مظاهر وآثار واضحة من اشتباكات سابقة بين متحاربين تظهر على عدد من الأبنية بشكل أثار لطلقات وقواذف نارية..

فقد اندلعت الأزمة السورية في شهر مارس من العام ٢٠١١م، وشهدت دمشق احتجاجات سلمية من الأهالي لمدة سنة كاملة، قابلتها القوات الحكومية بعنف مفرط، مما أنشأ أنواع مختلفة من الاحتجاجات المعارضة، التي تحولت إلى نزاع مسلح مع النظام، ففي ٦ يناير ٢٠١٢م انفجرت أول سيارة مفخخة في دمشق، مما أسفر عن مقتل ٢٦ شخصًا، مع احتدام المعارك الحربية في مناطق ريف دمشق، عازلة المدينة عن أجزاء واسعة من ريفها، وعن بعض ضواحيها، وأفضت لحركة نزوح واسعة إلى المدينة، وبشكل عام تكررت الاشتباكات والمعارك في ريف دمشق وبعض ضواحي المدينة ككل مناطق ومدن سورية التي تدخلت وتصارعت في أزمتها العديد من الدول والمنظمات التي أنشأتها وتديرها أجهزة مخابرات لدول عدة أصبحت تتحكم في هذا الصراع الدامي الذي تسبب في قتل وتهجير وهروب الآلاف والملايين من الناس..

أمام هذه المشاهد يقطع شرود "ميشيل" و"ماريا" فيها صوت السائق الذي يخفف السرعة وهو يقترب من أمام قلعة قديمة في وسط المدينة ليأخذ طريقًا جانبيًا ويقول مشيرًا نحو تلك القلعة:

انظروا أيها السادة.. هاهي أمامنا الآن قلعة دمشق أو قلعة "صلاح الدين الأيوبي" والذي يتوسط تمثاله شامخًا أمام مدخلها كما ترون..

ويتابع السائق قائلًا:

وتعد هذه القلعة الوحيدة في العالم التي بنيت على مستوى الأرض وهي قلعة محصنة أُنشئت في العصور الوسطى، وتعد من أهم معالم فن العمارة العسكرية والإسلامية في سوريا من العصر الأيوبي وتقع في الركن الشمالي الغربي من أسوار مدينة دمشق، بين باب الفراديس وباب الجابية، وهي جزء من مدينة دمشق القديمة وكان يحيط بها خندق عرضه حوالي ٢٠ مترًا..

ويشير المؤرخون بأن موقع القلعة الحالي قد أُنشئ في سنة ١٠٧٦م بواسطة "آتسيز بن أوق" أحد أمراء الحرب التركمان، ثم قام أمراء بوريون وزنكيون في وقت لاحق بتنفيذ بعض التعديلات وإضافة هياكل جديدة للقلعة، خلال تلك الفترة كانت المدينة والقلعة محاصرتين عدة مرات من قبل الجيوش الصليبية والإسلامية، وفي سنة ١١٧٤م وقعت القلعة في يد "صلاح الدين الأيوبي" سلطان مصر، وقد جعلها مقرًا لإقامته، ورممها وأضاف إليها أبنيةً أخرى..

ويتابع السائق حديثه وهو يقود سيارته في طريق جانبي ملاصق للقلعة مرصوف بالحجارة القديمة:

وهذا الطريق الجانبي الملاصق للقلعة والذي نسير فيه يأخذنا إلى دمشق القديمة حيث أقرب نقطة للجامع الأموي كما طلبتم..

وها نحن ندخل إلى دمشق القديمة قِدَم التاريخ، وقد اشتهرت دمشق بوصفها مدينة تجارية عريقة، تقصدها القوافل للراحة أو التبضع، فقد كانت المدينة إحدى محطات طريق الحرير، وطريق البحر، وموكب الحج الشامي، والقوافل المتجهة إلى فارس أو آسيا الصغرى أو مصر أو الجزيرة

العربية، والمدينة كانت خلال تاريخها مركزًا لعدد من الدول أهمها الدولة الأموية أكبر دولة إسلامية من حيث المساحة في التاريخ، وهنا في دمشق أقامت ودُفنت شخصيات بارزة في تاريخ الشرق مثل السلطان "صلاح الدين الأيوبي" الذي مررنا من أمام تمثاله الذي يقف فيه أمام قلعته كفارس منتصر مغوار..

يقاطع ميشيل السائق ويقول: نعم "صلاح الدين الأيوبي"..

ثم يتابع متسائلًا:

هل تعلم أين يقع قبر "صلاح الدين الأيوبي"؟!

يجيب السائق:

طبعًا سيدي، فضريح السلطان "صلاح الدين" ملاصق للجامع الأموي حيث نتجه..

تنظر ماريا إلى ميشيل وهي تبتسم قائلة: تمامًا كما أخبرونا..

بعد دقائق قليلة يقف السائق بسيارته ويلتفت نحو ميشيل وماريا وهو يقول:

ها قد وصلنا أيها السادة.. وهذه أقرب نقطة للجامع الأموي يمكن أن تصل إليها السيارات التي تدخل إلى دمشق القديمة..

ويتابع السائق وهو يشير نحو الأمام:

وها هو على بعد عدة أمتار حيث نقف يقع الجامع الأموي، وخلف تلك الحديقة بجوار الجدار اليساري للجامع الأموي يقع ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي"..

يشكر ميشيل وماريا السائق ويترجلان من السيارة ويسيران باتجاه الجامع الأموي وعيناهما ترصدان محيط المكان والذي يتمعتان فيه بروعة مشهد

وضخامة الجامع الأموي الكبير والطريق المؤدية له حيث تلاقت فيه ومن حوله حضارات عديدة منذ بدء الخليقة..

تمسك ماريا بيد ميشيل قائلة:

مارأيك ميشيل أن آخذك بجولة سريعة في رحاب الجامع الأموي فقد زرته كثيرا أثناء رحلاتي السابقة لدمشق، ومن روعة جماله وتصميم بنائه وزخرفته، لا يمكن أن تكفيك زيارة واحدة لهذا المعلم التاريخي والديني الهام..

يبتسم ميشيل قائلًا: بكل سرور عزيزتي ماريا..

ماريا: إذا هيا بنا لنكسب الوقت...

وتبدأ ماريا بالإسراع في خطواتها وهي تسحب ميشيل من يديه ليقفا أمام بوابة ضخمة و هي تقول:

من هذه البوابة دخل ملايين المصلين عبر العصور منذ أن كان هذا المكان معبد وثنيا.. ثم كنيسة.. ثم مدخلًا واحدًا لكنيسة ومسجد في آن واحد.. ثم الجامع الأموي الكبير..**Umayyad Mosque**

وها نحن نقف الآن يا صديقي وبكل فخر أمام إحدى بوابات الجامع الأموي..

ينظر ميشيل إلى عظمة ذلك المشهد ويدخل مع ماريا من تلك البوابة الضخمة إلى داخل الجامع الأموي الذي يقع في قلب المدينة القديمة، ويرفع ميشيل رأسه وهو مندهشًا لما يراه من لوحات ضخمة ورائعة الجمال من الفسيفساء على جدرانه وأسقفه، بالإضافة إلى الأعمدة الضخمة التي تحيط بساحة الجامع..

تلتفت ماريا نحو ميشيل وتقول:

أعرف أنك عاشق للفنون والتاريخ، وها نحن في رحلتنا هذه نقف أمام تحفة فنية وتاريخ غابر في القدم..

فقد كان هذا المكان في العهد القديم سوقًا، ثم تحول في العهد الروماني إلى معبد أُنشئ في القرن الأول الميلادي، ثم تحول مع الزمن إلى كنيسة، ولما دخل المسلمون إلى دمشق أصبح المكان نصفه مسجد ونصفه كنيسة، ثم قام الخليفة الأموي "الوليد بن عبد الملك" بتحويل الكنيسة إلى مسجد، وأعاد بناءه من جديد، وكساه بالفسيفساء.. وله اليوم كما تشاهد ثلاث مآذن وأربع أبواب وقبة كبيرة وثلاث قباب في صحنه، وقد استغرق بناؤه حوالي عشر سنوات، وهو أول جامع يدخله أحد باباوات روما، وكان ذلك عام ٢٠٠١ عندما قام بزيارته البابا "يوحنا بولس" الثاني.

ويُعد الجامع الأموي رابع أشهر المساجد الإسلامية بعد حرمي مكة والمدينة والمسجد الأقصى، كما يُعدُّ من أفخم المساجد الإسلامية، وأحد عجائب الإسلام السبعة في العالم.

وتتابع ماريا شرحها عن تاريخ الجامع الأموي لميشيل وهما يقفان في منتصف باحته الكبيرة قائلة:

من زياراتي المتكررة لهذا المكان في كل مرة مرة كنت أزور فيها هذه البلاد عرفت الكثير عنه، فلم يكن الجامع الأموي أول معبد أقيم على هذه الرقعة من قلب مدينة دمشق، إذ يعود تاريخ هذا الموقع إلى ١٢٠٠م سنة قبل الميلاد، حيث كشفت الدراسات التاريخية والأثرية هنا عن معبد آرامي قديم للإله السوري "حدد" إله الخصب والرعد والمطر حسب معتقدهم، والذي كان يُعبد في دمشق في الألفية الأولى قبل الميلاد، وقد كان من أعظم المعابد وأقدسها ويقصده المؤمنون من جميع أنحاء المناطق الآرامية في سورية، ولا يعرف بالضبط كيف بدأ المعبد، ولكن يُعتقد أنه اتبع النموذج المعماري الكنعاني السامي التقليدي في بنائه، ويشبه معبد القدس، وكان

يتألف من فناء مسوَّر وغرفة صغيرة للعبادة، وقد بقي حجرًا واحدًا من المعبد الآرامي يعود لحكم الملك "حازائيل"، وعقب سيطرة الرومان على دمشق في عام ٦٤م، كانت المدينة من أهم المدن ومركز هام للحضارة، حيث تحول المعبد إلى اسم معبد "جوبيتر" الدمشقي، ومن المرجح أن التغييرات عقب هذا التحول لم تكن كثيرة رغم الكتابات التي تشير إلى أنه تطور بشكل واسع في عهد السلوقيين والرومان.

ولا تزال أطلال المعبد باقية من منطقة السوق المقابل للجامع الأموي من وحتى منطقة القيمرية أحد أحياء دمشق القديمة ..

وأصبح المعبد الروماني الجديد السلطة التشريعية الدينية في مدينة دمشق بسبب حجمه الكبير، وكان الغرض من تشييد المعبد الروماني الذي أصبح فيما بعد المركز الرئيسي للعبادة في الإمبراطورية الرومانية أن يكون منافسًا للمعبد العبري في مدينة القدس..

وفي نهاية القرن الرابع الميلادي تم تحويل معبد جوبيتر إلى كاتدرائية القديس "يوحنا" بأمر من الإمبراطور "ثيودوسيوس" الأول..

لكن هذه الكاتدرائية المسيحية لم تكن مكرسة مباشرة ليوحنا المعمدان – الذي يطلق عليه المسلمون اسم النبي يحيى– وقد تم تكريسها في وقت لاحق من القرن السادس الميلادي، وتشير الأسطورة المحلية أن رأس "يوحنا المعمدان" –النبي يحيى– دُفِن هناك وكانت كذلك بمثابة مقر أسقف دمشق.

وتتابع ماريا حديثها إلى ميشيل وهما يتجولان في باحة الجامع الأموي الكبير وتقول:

وفي عام ٦٣٤م، تمت محاصرة دمشق من طرف الجيوش الإسلامية بقيادة "خالد بن الوليد"، ونجح خالد بضمها للأراضي الإسلامية صلحًا، وبعد

عقود من فتح دمشق أصبحت الخلافة الإسلامية تحت حكم السلالة الأموية، الذين اختاروا دمشق لتكون العاصمة الإدارية للعالم الإسلامي.

وقد كلف الخليفة الأموي السادس "الوليد بن عبد الملك" الصناع والمهندسين، ببناء المسجد في موقع الكاتدرائية البيزنطية في عام ٧٠٦م، وقبل هذا كانت الكاتدرائية لا تزال قيد الاستخدام من طرف المسيحيين المحليين، ولكن قد تم تشييد غرفة صلاة كمصلى للمسلمين في الجزء الجنوبي الشرقي من المبنى، ثم أمر الوليد باسترجاع جميع الكنائس المصادرة الأخرى في المدينة إلى المسيحيين كتعويض، وباشر الخليفة الأموي "الوليد بن عبد الملك" ببناء الجامع الأموي الكبير بدمشق، بعد أن اتفق مع أصحاب الكنيسة / الهيكل على أن يقدم لهم بديلها، فقام بإعادة كنيسة من المباني التي تم استملاكها، وهي الكنيسة المريمية إلى الأرثوذكسيين مقابل أخذه لكاتدرائية "يوحنا المعمدان" (النبي يحيى) والتي حولها فيما بعد إلى الجامع الأموي حيث قال لهم: "إننا نعوض عليكم عن كنيسة يحيى بكنيسة مريم"..

وهكذا استطاع البناؤون الاستفادة من كميات هائلة من حجارة المعبد المتراكمة، ومن أعمدته الرخامية وتيجانه لإقامة جامع ضخم يليق بعظمة الدولة الإسلامية آنذاك، ويذكر أحد المؤرخين أن العمال أثناء بناء الجامع الأموي وجدوا مغارة تعود للكنيسة البيزنطية أثناء بناء المسجد، وكانت هذه المغارة تحتوي على صندوق يوجد به رأس القديس "يوحنا المعمدان" حسب الاسم المسيحي، أو النبي "يحيى بن زكريا" كما يطلق عليه لدى المسلمين، فأمر الوليد بتركه على حاله، وجعل عمودًا قائمًا على المغارة كعلامة مميزة ثم وضع فوقه تابوت عليه اسم النبي "يحيى".

ينظر "ميشيل" نحو"ماريا" وهو يبتسم قائلًا:

أرى من سردك التاريخي القيّم لتاريخ وقصة هذا المكان أنك قد تعلمتي من "أحمد" بجدارة و تميز مهمة الدليل السياحي متأثرة به في الزيارات والجولات السابقة التي كان يجول بك فيها العديد من الأماكن التاريخية والأثرية في هذه البلاد..

وفي الحقيقة "ماريا" لقد فاجأتني وأنت تحدثينني بهذا الكم من المعلومات الدقيقة للعصور التاريخية والحقبات المتتالية التي مرت على هذا المكان التاريخي الهام..

تجيب "ماريا" وهي تضحك:

طبعًا، لا بد أنني قد تأثرت بالمعلومات التي سمعتها من "أحمد" عندما كنت أزور معه الأماكن التاريخية التي تزخر بها هذه البلاد فهو عدا عن ذلك إنسان مبدع في إيصال المعلومة بطريقة ممتعة تجعلك تستمع وكأنك ترى قصة تاريخية تتجسد أمامك حقيقة..

فلا يمكن وأنت تعيش بهذا الإحساس أن تنسى تفاصيل المكان الذي تزوره مع أحمد.. وتتابع ضاحكة:

كما لا تنسى أني صحفية والمعلومات الصادرة مني لها طعم خاص..

يرد "ميشيل" مبتسمًا: طبعًا كيف لي أن أنسى.. ويتابعان السير في أرجاء الجامع الأموي وهما ينظران بإعجاب ودهشة لما يحتويه من تاريخ عميق في القدم، فكل حجر هنا له قصة تروى عن أمم وحضارات كثيرة مرت على هذه الأرض..

وتتالت عبر تلك العصور دول وقادة حكمت هذه الأرجاء..كما دُفن حول المسجد الأموي والأماكن التي تحيط به العديد من حكام هذه الدول والقادة التي تتالت على حكم هذه المدينة..

وكان من تلك الدول الدولة الأيوبية والتي حكمها وأسسها السلطان "صلاح الدين الأيوبي" والذي كان سبب قدومهما الرئيسي إلى دمشق ليزورا ضريحه الذي دفن فيه متابعين في ذلك رحلة البحث في المهمة التي جاءوا من أجلها من باريس متتبعين كلمات رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر" وكلمات كتاب "صلاح الدين" نفسه الذي عثروا عليه في القدس للبحث عن دليل براءة "أحمد" من جريمة مقتل المسيو "عازر موسان"..

تخرج "ماريا" و"ميشيل" من مصلى الجامع الداخلي بعد أن ألقيا نظرة على ضريح "يوحنا المعمدان" أو النبي "يحيى" متجهين إلى باحة الجامع الأموي..

تشير ماريا لميشيل بنظرها نحو الأعلى وهي تقول: انظر ميشيل إلى أعلى سطح الجامع.. حيث تلك القبة..

يوجه ميشيل ناظره نحو الأعلى إلى حيث تشير ماريا ويقول:

نعم.. إنها قبة ضخمة ذات طراز خاص..

ماريا: نعم إنها تسمى قبة النسر، وهي إحدى إنجازات "الوليد بن عبد الملك"، وأكبر قبة في المسجد الأموي، وقام "صلاح الدين الأيوبي" بتجديد ركنين منها في عام ١١٧٩م، وتم استبدال القبة الخشبية الأصلية وتم بناؤها من الحجر في أعقاب الحريق الذي وقع عام ١٨٩٣م.

وتقع القبة فوق مركز قاعة الصلاة، بارتفاع ٤٥ مترًا وقطرها ١٦ مترًا، وترتكز القبة على طبقة تحتية مثمنة مع اثنين من النوافذ المقوسة على جانبيها، وتم دعمها بأعمدة الممرات الداخلية المركزية.

وأعظم ما في هذا البناء قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسط الجامع، سامية في الهواء عظيمة الاستدارة، فمن أي جهة استقبلت دمشق ترى تلك القبة في الهواء منيفة كأنها معلقة من الجو.. أما عن تسميتها بقبة النسر؛ فيقول أحد المؤرخين عنها أن الناس يشبهونها بنسرٍ طائر، فكأن القبة رأسه والغارب جؤجؤه، ونصف جدار البلاط عن يمين والنصف الثاني عن شمال جناحاه.. ولا أعلم حقيقة إن كان هناك رابط بينها وبين شعار راية "صلاح الدين الأيوبي".. العُقاب..

يقول ميشيل معقبًا على ما تقوله ماريا: فعلًا إنه لشيء رائع ماريا.. دعيني آخذ صورة لهذه القبة من هذا الموقع قبل أن نخرج..

وبعد الانتهاء من الجولة السريعة في رحاب الجامع الأموي في دمشق القديمة، يتوجهان نحو إحدى بوابات الجامع الأموي الكبير ليخرجا مغادرين ذلك المكان الغارق في القدم، وليسلكا ذلك الطريق الموازي للجدار اليساري للجامع الأموي ويصلا إلى حيث توجد حديقة خلفية تشكل مدخلًا لضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي" إلى حيث ذلك البناء البسيط ذو الطابع الأيوبي الطراز والذي تعلوه قبة محززة، يتموضع تحتها ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي" مؤسس الدولة الأيوبية، والسبب الأساسي لهذه الزيارة..

الفصل الرابع والأربعون

بعد الزيارة السريعة للجامع الأموي الكبير في دمشق توجه ميشيل وماريا مسرعين باتجاه الحديقة الملاصقة للجامع الأموي والتي تشكل مدخلًا يؤدي إلى ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي" ويتجاوزان تلك الحديقة ثم يدخلان بناءً ذا طابع أيوبي الطراز تعلوه قبة كبيرة محززة.. ليجدا نفسيهما أمام مشهدٍ مَهيب، فهما يقفان الآن مباشرةً أمام قبر الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب السلطان "صلاح الدين الأيوبي"..

يقف ميشيل وهو ينظر متأملا في ذلك الضريح والذي صُنع من خشب الجوز المنقوش بزخارف وكتابات أيوبية أصيلة، أما جدرانه فقد كُسيت بالقيشاني الأزرق من العصر العثماني حيث تشكل الألواح القيشاني في ضريح "صلاح الدين الأيوبي" أكبر لوحة مقوسة ومكتملة في دمشق كلها، فقاعدتها تبلغ ٤٧٥ سم وارتفاعها ٢٣٨ سم، وهي مؤلفة من مجموعة من البلاطات المنوعة ذات الطابع الدمشقي بأشكالها الزخرفية النباتية..

وفي أسفل تلك اللوحة الكبيرة لوح يعلو النافذة وهو عبارة عن سجادة عرضانية مؤلفة من بلاطات ذات زخارف هندسية، واللوحة مؤطرة بشريط من الأزهار المكررة، كما يتموضع مُجمل البناء ضمن ساحة جميلة تم ترميمها والعناية بها من عهدٍ قريب.

تتأمل ماريا كذلك في بناء الضريح وهي تقول لميشيل:

كنت أتساءل كثيرًا أين دُفن "صلاح الدين الأيوبي" الذي ذاع صيته أصقاع العالم وكُتبت عنه الكثير من الحكايات، وصلت إلى حد الأساطير.. وبرغم زياراتي المتكررة إلى مدينة دمشق، إلا أنه لم يخطر في بالي أني قد

مررت سابقًا من جانب هذا الضريح الهام كثيرًا دون أن أعلم من هو الساكن فيه..

لتأخذني الصدفة والأحداث بعد سنوات وفي هذه الظروف الاستثنائية لأقصد هذا المكان بشكل خاص مجددًا، ولأعرف متأخرة أن هنا يقع ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي"..!!....

وبينما يتحدثان وهما يتأملان الضريح ومحتوياته يستمعا فجأة إلى صوت قادم من الخلف يصيح باللغة الفرنسية قائلًا:

منذ بداية الحرب لم أرَ سياحًا أجانب هنا.. وفرنسيين أيضًا..

ثم يتابع ذلك الصوت قائلًا: بونجور أيها السادة!!

يلتفت "ميشيل" و"ماريا" نحو مصدر الصوت الذي يتحدث الفرنسية خلفهما ليتفاجآ برؤية رجلٍ مسن يقف بجانب باب الضريح ويرتدي سروالًا سماوي اللون وسترة من ذات اللون أو أغمق قليلًا ويمسك في يده منديلًا أبيضًا يمسح به وجهه حيث الأنف الطويل المقوس والجبين العريض المتغضن بغضون غائرة عميقًا، وينظر عبر عينيه الغائرتين الرمادية اللون كمطر الخريف تحت حاجبين أبيضين كثيفين نحو هذين الزائرين.. وفي هذا الوقت الذي قل فيه عدد الزائرين..

يتابع الرجل المسن كلامه وهو ينظر إلى ميشيل وماريا ويظهر من هيئته أنه مستخدم مسن يعمل في خدمة الضريح.. ويقول:

أنتما من الزوار القلائل هذه الأيام!

ترتبك ماريا قليلًا ثم تجيب:

نعم سيدي نحن نعمل بمنظمة الصليب الأحمر.. لكن هل تتحدث الفرنسية يا عم؟؟

يجيب الرجل المسن:

نعم يا ابنتي.. دعوني أعرفكما عن نفسي أنا اسمي "رضا الجراح" وينادونني "أبو عادل".. زوجتي الحبيبة " ليزا " فرنسية الأصل والمولد وقد جاءت مع الانتداب الفرنسي إلى سورية ولكنها لم تخرج معهم..

وتابع ضاحكًا: ويبدو أنها قد أحبت أن تمضي معي بقية العمر..حيث تعلمت العربية مني كما علمتني هي الفرنسية..

ابتسم ميشيل قائلًا: نعم فالحب يصنع المعجزات..

ينظر "رضا" الرجل المسن نحو "ميشيل" ويبتسم قائلًا:

نعم إنه الحب.. الحب الذي بقينا نحيا به أكثر من ٦٠ عامًا..

ويتابع وقد بدا على وجهه مسحة من الحزن وهو يقول:

لكن الموت فرقنا وقال كلمته.. وأظن أن رجلًا قارب الثمانين مثلي قد قرُبت أيام لقائه بحبيبته..

يتأمل "ميشيل" في ذلك الرجل وهو يمشي ببطء كشيخ مسن نحو الضريح وبيده التي ترتجف قطعة قماش بدأ يمسح بها حول الضريح..

ويتوقف العم "رضا" ليرتاح قليلًا وهو يلتفت نحو "ميشيل" و"ماريا" ثم يقول:

لقد آثرت أن أبقى بعد هذا السن متطوعًا في العناية بهذا المكان الذي عملت في أرجائه طوال عمري ويمثل لي ذكريات جميلة وأعرف تاريخه وتفاصيله كما أعرف نفسي..

ويصمت ذلك الرجل فجأة ويأخذ نفسًا عميقًا ثم يتكئ على أحد الجدران وكأنه بذلك النفس العميق قد عاد بالزمن إلى عصور مضت ليروي حكاية

هذا الضريح وهو يشاهد أحداث بنائه.. وبعد صمتٍ ممزوج بنظرة شرود يبدأ العم رضا بالحديث من جديد ويقول:

قصة هذا الضريح تبدأ حين قام "الأفضل بن صلاح الدين" بشراء منزل أحد الصالحين في حي بجانب الجامع الأموي وبنى فيه قبة لتكون مدفنًا لوالده "صلاح الدين" الذي توفي سنة (١١٩٢م-٥٨٩هـ) ودُفن بقلعة دمشق أولًا ثم نُقِل رفاته إلى هنا بعد أن كان مدفونًا في قلعة "صلاح الدين" أو كما تسمى قلعة دمشق، وعندما دخل الملك "العزيز عثمان بن صلاح الدين" دمشق سنة (١١٩٦م – ٥٩٣هـ) أمر ببناء المدرسة العزيزية إلى الشرق من القبة واتصلت بذلك المدرسة بقبة "صلاح الدين" حتى صارت وكأنها تابعة للمدرسة، وقد كسيت جدران التربة بالقيشاني الأزرق.

وبعد تعرض قسم من هذه المدرسة للخراب، جاء في أوائل القرن العشرين والي دمشق التركي "ضياء باشا"، الذي أمر بجعل المدرسة المهدمة حديقة وضمها إلى مدفن "صلاح الدين".

والخلاصة أيها السادة أن "الأفضل" بنى التربة سنة ١١٩٥م و"العزيز" بنى المدرسة سنة ١١٩٦م ولم يبقَ من المدرسة اليوم إلا المحراب وقوس المدخل الشرقي الذي أصبح حديقة.

يتقدم "ميشيل" من الرجل المسن "رضا" و هو يسأله:

ولمن هذا الضريح الرخامي بجانب ضريح السلطان "صلاح الدين"؟؟

ينظر الرجل إلى ميشيل ضاحكًا ثم يشير إلى نعش رخامي وُضع بجانب ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي " قائلًا:

تقصدون النعش الرخامي هذا.. هناك قصة مأثورة لهذا النعش..

ثم يقترب من النعش الرخامي ويتكىء على إحدى جوانبه ويتابع قائلًا:

يُحكى أنه في عام ١٨٩٨م قرر الإمبراطور الألماني "غليوم" الثاني أو "ويليام" الثاني كما يسمونه أن يقوم بزيارة تاريخية للسلطنة العثمانية بناءً على دعوة من السلطان العثماني "عبد الحميد" الثاني..

يلتفت "ميشيل" نحو "ماريا" وهو يستمع لما يقوله الرجل المسن ويقول لها هامسًا: هل تذكرين مذكرات العريف العثماني "حسن الإغدرلي" ورسالة الضابط الألماني التي تحدث فيها عن زيارة الإمبراطور "ويليام" الثاني إلى دمشق!!

تجيب ماريا باهتمام: نعم ميشيل.. أذكر ذلك تمامًا..

ينظر رضا الرجل المسن إلى "ميشيل" و"ماريا" وهو يحدق بعينيه محاولًا فهم ما يهمسونه لبعضهما.. ثم يتابع حديثه دون أن يكترث قائلًا:

وبدأت الترتيبات والتجهيزات لهذا الحدث الكبير والزيارة الهامة في جميع أرجاء السلطنة العثمانية بما فيها ولاية الشام وسنجق القدس ومتصرفية لبنان بناءً على الفرمان الصادر من الباب العالي للسلطان "عبد الحميد"..

وقرر وجهاء دمشق أن يبيت الإمبراطور الألماني "غليوم" الثاني في منزل وجيه دمشق وصدرها "أحمد باشا الشمعة" فقام الباشا "الشمعة" بتجهيز قصره في باب الجابية، وهذا القصر كان يمتد من حي القنوات إلى حي باب السريجة وباب الجابية من أحياء دمشق القديمة..

ربما لن تستوعبوا أسماء تلك الحارات لكنه كان واسعًا جدًا واشتهر بحديقته الكبيرة.. واستعد "أحمد باشا الشمعة"، وبنى جناحًا لذلك فيه قاعات كبيرة واستقدم له الثريات والفوانيس من أجمل الأنواع.. قيل أنها عشرة آلاف، كما بنى لذلك جناحًا خاصًا فيه قاعات كبيرة وله درج فخم.. وفُرشت المنطقة الممتدة بين سوق الحميدية وباب سريجة بالسجاد استعدادًا لوصول الإمبراطور للقصر، لكن الخلاف الذي وقع بين صدر دمشق "أحمد باشا

الشمعة" وبين أمير الحج الوجيه الكبير "عبد الرحمن باشا اليوسف"حول أحقية كل منهما لاستضافة الإمبراطور جعل والي الشام "حسين ناظم باشا" يقرر استضافة الإمبراطور في فندق دمشق (داماسكوس بلاس) منعاً للخلاف..

فأسرع الوالي "ناظم باشا" وهدم السجن المركزي ومهد الأرض وسواها، فصار المكان مكانًا فسيحًا لاستقبال الإمبراطور، وهدم مبنى سراي البوليس وأنشأ مكانها مبنىً ضخمًا جعله مجمعًا تجاريًا ومسرحًا وسينما ومقهى رفيع المستوى..

وأقيم للإمبراطور الألماني حفل استقبال ضخم جدًا في ساحة المرجة حيث امتطي عربة مجللة بالذهب الخالص تجرها أربعة أحصنة وخلفها مركبة زوجته.. ومائة مركبة أخرى للحاشية.. وقد زينت ساحة وأبنية ميدان المرجة كلها بالمصابيح والأعلام..

وقدّر عدد مصابيح الزيت المتقدة في تلك الليلة بمليون مصباح و٥٠ ألف شمعة، وغرقت الساحة بالأضواء، وغصت بالسكان والمستقبلين..

وقد كتب "ويليام" الثاني إلى أحد الأمراء الألمان يصف استقباله في دمشق بالقول:

"إن استقبالي في دمشق كان باهرًا ومدهشًا.. وتمنيت لو أُخذ عن دمشق كيف تستقبل الملوك!!".

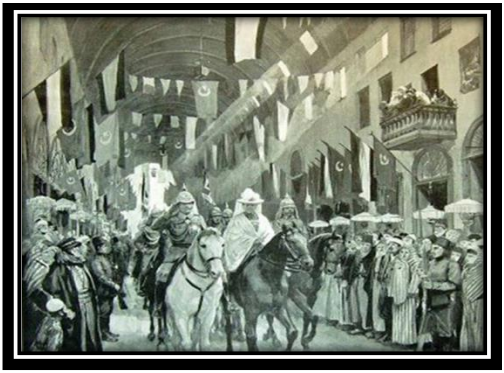

وقبل أن يتوجه الإمبراطور في اليوم الثاني لزيارة ضريح القائد البطل "صلاح الدين الأيوبي"، ألقى كلمة جميلة بالمحتشدين الذين استقبلوه بحفاوة كبيرة لكونه أول قائد غربي دخل دمشق سِلمًا..

واصطف جمهور عريض مهول من الناس لاستقبال هذا القيصر ومشاهدة إكليل البرونز المصنوع في برلين والذي حمله معه من ألمانيا إلى دمشق ليضعه على قبر "صلاح الدين الأيوبي" اعترافًا منه بأعماله الكبيرة وفروسيته النبيلة وسياسته العسكرية في تحرير بلاده وطرد الغزاة..

تقاطع "ماريا" حديث الرجل المسن متسائلة: إكليل! أين ذلك الإكليل البرونزي الذي تتحدث عنه يا عم رضا؟

ينظر رضا الرجل المسن إلى ماريا وهو يحاول أن يرفع من اعوجاج ظهره ويضحك قائلًا:

لقد بقي إكليل البرونز فوق هذا الضريح حتى دخول القوات الإنكليزية مع الأمير "فيصل" إلى دمشق، حيث استولى عليه الكولونيل "لورانس العرب" قائد القوات الإنكليزية بحجة أنه من الغنائم الحربية، فسرقه ونقله إلى بلاده..

وتابع متهكمًا وهو يقول: نعم، إنه أحد اللصوص الكثر الذين مروا على هذه الأرض..

ثم يتابع حديثه قائلًا:

المهم أيها السادة أن موكب الإمبراطور "ويليام" الثاني توجه من ساحة المرجة مودعًا الجمهور، ثم تحرك الركب مخترقًا سوق الحميدية وصولًا إلى ساحة المسكية، حيث تم استعراض المبارزة التقليدية بالسيف والترس من قبل فرقة الهجانة في سوق المسكية وأمام مدخل الجامع الأموي..

ثم دخل الإمبراطور إلى حرم الجامع الأموي، ولم يُخفِ الإمبراطور إعجابه الشديد والبالغ في هيكلة وزخارف الجامع الأموي وعظمة غارب قبة النسر..

ميشيل: نعم، معه حق في ذلك..

يقول العم رضا متابعًا:

نعم، لكن في الحقيقة كان الإمبراطور في عجلة من أمره للوصول إلى حيث ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي"..

فبعد زيارة سريعة للجامع الأموي، توجه مباشرة إلى ضريح السلطان، وأطال الوقوف هنا حيث أقف الآن أمامكم..

ثم بدأ رضا الرجل المسن يتلمس جدران مبنى الضريح وهو يقول:

لقد كان الإمبراطور يتفحص ويتمحص جدران الضريح كما أفعل.

ثم خلع غطاء رأسه وقد انحنى إجلالًا وتعظيمًا لهذا القائد الفذ الراقد في قبره، وقد سجل التاريخ والمرافقين له هذا الانحناء تعظيمًا لصلاح الدين.

ثم انتصب هنا كما أقف الآن، لكن بظهر مشدود وقام بوضع الإكليل على ضريح "صلاح الدين"، ووقف باحترام أمام هذا القائد محرر القدس من الصليبين..

ويحاول العم رضا أن يقف مشدودًا ليقلد وقفة الإمبراطور حينها أمام القبر وهو يقول مزهوًا ببعضٍ مما قاله الإمبراطور وقتها:

"مما يزيد من سروري أني موجود في بلد عاش بها من كان أعظم أبطال الملوك الغابرة بأسرها الشهم الذي تعالى قدره بتعليم أعدائه كيف تكون الشهامة، وفريد دهره شجاعة وبسالة، من كان قدوة للشهادة، الذي كانت شهرته متجلية فى الآفاق، ألا وهو القهرمان صلاح الدين الأيوبي"، ثم وضع الإمبراطور الإكليل الذي سرقه "لورنس" على قبر "صلاح الدين" وقد كتب عليها نقش معناه:

"مَلكٌ بلا خوف ولا ملامة علّم خصومه طريق الفروسية الحق"

وقد أهدى الإمبراطور الألماني نعشًا من الرخام، قدمه ليكون نعشًا للسلطان "صلاح الدين"، الإ أن أهل دمشق رفضوا أن يُخرج أو يُنبش رفات "صلاح الدين" خلافًا للعقيدة الإسلامية التي تحرم نبش القبور

والإساءة لحرمة الميت.. وتركوا هذا النعش الرخامي فارغًا بجانب هذا الضريح الخشبي الذي دُفن فيه "صلاح الدين الأيوبي"..

لكن هناك رواية أخرى تقول أن هذا الضريح الرخامي البديع قد أمر بتنفيذه السلطان "عبد الحميد الثاني" لمقام السلطان الناصر "صلاح الدين الأيُّوبي" في سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م)، وفي الحقيقة هناك تداخل غريب بين هذه الرواية وقصة زيارة الإمبراطور "ويليام" لأسباب مجهولة، ولكن بكل الأحوال لا بد من أن تظهر الحقيقة كاملة يومًا ما..

ويتابع الرجل المسن الحديث الذي بدأ فيه ويقول:

وللتاريخ أيضًا أستطيع أن أقول أن الإمبراطور "غليوم" أو "ويليام" الثاني قد أحب دمشق وعظمتها وكبرياءها وأبطالها، وقال جملته المشهورة قبل مغادرته دمشق، وكررها مرتين، حيث قال فيها:

"ما على الأرض أجمل من دمشق"

وقد حفظ أهل الشام وكذلك أمير الشعراء "أحمد شوقي" هذا الصنيع للإمبراطور الألماني "غليوم" الثاني.. وخلّده في واحدة من أروع قصائده.. ويقف الشيخ المسن رافعًا عصاه التي يتكىء عليها وهو يردد أبيات من ذلك الشعر بصوت جهوري قائلًا:

رعاك الله من ملك همام..

تعهد في الثرى ملكًا همامًا

وقفت بـه تذكره ملوكًا..

تعـود أن يلاقوه قيامًا

تساءلت البرية وهي كلمى..

أَحُبًّا كان ذاك أم انتقامًا

تستمع ماريا لما يقوله رضا الشيخ المسن بشغف ثم تعلق قائلة:

من الملفت جدًا كيف بقي لصلاح الدين أثر وحضور حتى بعد عصور من انتصاره في الحروب الصليبية، ليتذكر زيارته إمبراطور ألمانيا في القرن التاسع عشر..

يلتفت العم رضا نحو ماريا وميشيل ويبتسم ثم يقول:

بل الأغرب هو ما فعله الجنرال "هنري غورو" قائد قوات الانتداب الفرنسي، حين دخل إلى دمشق عام ١٩٢٠م، فقد توجه مباشرة نحو ضريح "صلاح الدين الأيوبي" بطل معركة حطين التي وضعت النهاية الحقيقية للحروب الصليبية وقال:

"يا صلاح الدين، أنت قلت لنا إبان حروبك الصليبية، أنكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه، وها نحن عدنا، فانهض لترانا في سورية"..

تنظر ماريا مندهشة لما يتحدث به الرجل المسن وتقول لميشيل:

يبدو أنه لم يكن الاهتمام تأثيرًا فقط على ما أظن، بل كذلك حبًّا بالثأر لدى البعض!!

يعقّب الرجل المسن رضا:

نعم من الممكن ذلك.. حيث تقول إحدى الروايات أن أحد أجداد "غورو" كان أسيرًا لدى "صلاح الدين الأيوبي" وعمل في الأسر في مطاحن القمح حيث تعلم تقنيات مهمة من العلماء العرب المسلمون وكان له أن فرّ من الأسر وعاد إلى أوروبا وبنى طواحين الهواء التي نقل تقنيتها من هنا من هذه البلاد..

وبينما يستمع ميشيل وماريا لحديث رضا الرجل المسن يعلو صوت الأذان من مآذن الجامع الأموي الملاصقة للضريح..

فينظر الرجل المسن رضا في ساعة قديمة يرتديها بتمعن دقيق ثم ينهض ويقول: إنه أذان الظهر.. سأترككما الأن تتأملون هذا المكان لأذهب إلى صلاة الظهر..

ويسير ببطء بضعة خطوات.. ويتوقف فجأة وهو ينظر إليهما من جديد، ثم يقترب من ماريا وهو يخرج من جيبه منديلًا أبيضًا مزركشًا ويقول:

قد أعود ولا أراكما مجددًا.. وقد لا أعود أبدًا، فخطواتي أقرب لنهاية العمر من أي شيء آخر.. فهل يمكن أن أطلب منك طلبًا؟؟

تجيب "ماريا" بتأثر : طبعًا تفضل ياعم..

ينظر الرجل المسن إلى ذلك المنديل الذي يمسكه بيديه التي ترتجف وهو يقوم بمحاولة فرده لتظهر من بين ثنايا ذلك المنديل عدد من ورود الياسمين المجففة ومعها بعض من بذور زهرة الياسمين..

ويتابع وهو يقول: كنا منذ سنوات طويلة قد اتفقنا أنا وحبيبتي "ليزا" أنه إذا سنحت لنا الفرصة بأن نزور باريس معًا، أننا سنقف أمام برج "إيفل" ونزرع في حديقته بذور لزهر الياسمين الذي جمعنا بعبقه أنا وهي منذ أول أيام حبنا لعقود وعقود..

إلا أن الظروف والزمن والقدر لم يسمح لنا بهذه الزيارة معًا..

والآن قد سبقتني حبيبتي إلى السماء، وأشعر أن أيام قليلة وأجتمع بها..

وربما القدر الجميل قد أرسلك لأعطيك هذا المنديل، ولتزرعي عني وعن حبيبتي "ليزا" شتلة جديدة لذلك الياسمين الذي أخرج حبنا ببياضه وعبقه من عنق الحرب منذ زمن طويل.. فهل تعديني بالقيام بذلك؟؟

تنظر ماريا في عيني العم "رضا" الغائرتين بتأثر بالغ وهي تأخذ المنديل قائلة:

أعدك بأن أزرع هذه البذور أمام برج "إيفل" كما حلمتم أنت وزوجتك المرحومة "ليزا"..

يبتسم الرجل المسن رضا ثم يقول مودعًا:

شكرًا لكما أيها السادة.. كونا بخير دومًا، وأهلًا بكما ضيوفًا أعزاء، وسأدعو لكما في صلاتي دوما ليحفظكم الله من كل مكروه.. السلام عليكم.

ينظر "ميشيل" باحترام لذلك الرجل المسن وعينا ماريا تدمعان وهي تقول له بالعربية: وعليك السلام..

ويخرج العم رضا ذلك الرجل المسن من مبنى الضريح وهو يسير ببطء متوجهًا نحو الجامع الأموي، متكئًا على تلك الجدارن التي سار أمامها كثير من الأمم والشعوب والعظماء.. ويغيب عن ناظرهما..

الفصل الخامس والأربعون

بعد أن غادر رضا الرجل المسن مبنى الضريح، وغاب عن ناظري ميشيل وماريا، يلتفت ميشيل نحو ماريا وهو يقول بتأثر:

إن هذا الرجل يمثل تاريخ بحد ذاته ممزوج بمشاعر الحب والحزن والفخر.

ويتابع وهو يتأمل في ذلك الضريح قائلًا:

وها نحن إذًا أمام قبر السلطان "صلاح الدين الأيوبي"، وإني لأشعر حقيقةً بسر تأثير حضوره على الأحياء وهو في قبره منذ أكثر من ٨٢٤ عامًا على وفاته..

إنها القوة والثبات، ونصر ساحق ما كان ليتحقق لولا الاحترام الذي تكنُّه له شعوب البلاد التي مر بها هذا القائد، لا بل تلك المحبة التي غمرت البلاد التي حكمها وانطلق منها.

وها نحن ماريا الآن في دمشق ننظر من مشهده هذا إلى القدس والقاهرة لنعرف مدى قوة هذا الرجل، ومن أين استمدها وكيف حول الحلم إلى حقيقة..

تقول ماريا متابعة لما يقوله ميشيل:

نعم، ومهما عرفنا من معلومات وقصص تؤرخ تلك الحقبة الزمنية التي عاش فيها "صلاح الدين"، سيكون من المؤكد أن هناك شيء إن لم نقل أشياء نجهلها كما الكثيرون!!

يهز ميشيل رأسه موافقًا وهو يقترب ويمعن النظر في ضريح "صلاح الدين الأيوبي" الخشبي والذي دفن فيه، ثم ينظر إلى ذلك النعش الرخامي الموجود

إلى جانبه والذي قدمه الإمبراطور "ويليام" الثاني في زيارته لضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي"..

تنظر ماريا إلى "ميشيل" وهو يمعن النظر مليًا في ضريح "صلاح الدين" الخشبي والضريح الرخامي المجاور له وتقول متسائلة:

بماذا تفكر ميشيل؟

يجيب ميشيل قائلًا:

في الحقيقة بينما أنظر إلى هذين النعشين أتذكر كلمات ذلك الرائد الألماني الذي أصيب وتوفي بعد معركة القدس ودخول الإنكليز، والذي كان مرافقًا للإمبراطور الألماني في زيارته للمنطقة ودمشق بالذات، والذي كان مكلفًا من الإمبراطور بمهمة سرية وفقًا لكلمات رسالته التي وجدناها في دفتر مذكرات العريف "حسن الإغدرلي" في القدس..

ترد ماريا:

نعم أتذكر ذلك فقد كان يتكلم عن سر أراد أن يفصح عنه قبل موته كما أذكر..

يقول ميشيل: تمامًا ماريا..

ويخرج ميشيل دفتر ملاحظاته من جيبه ويبدأ تصفحه قائلًا:

لقد كتبت ما قاله ذلك الضابط الألماني في رسالته تلك حيث قال حرفيًا: "كنت مكلفًا بمهمة سامية سرية من الإمبراطور "ويليام" الثاني أراد بها جلالة الإمبراطور تقديم عربون صداقة وعهد تاريخي لحلفائه في الدولة العثمانية، وذلك بإعادة كتاب العلم المسروق من عهد "فريدريش" الثاني إلى الأمة التي سُرقت منها تلك العلوم، وتسليمها إلى "صلاح الدين الأيوبي" حيثما يكون.. وأراد الإمبراطوار أن يعلن عن ذلك في أول انتصار

له مع حلفائه في الدولة العثمانية.. وقد قمت بمهمتي على أكمل وجه ضمن زيارة الإمبراطور "ويليام" الثاني لدمشق عام ١٨٩٨م.

ولكن الأحداث التي سبقت الحرب وما جرى من انهيارات أخّرت إعلان ذلك، ووجدت أنه من الواجب إبلاغ أصدقائنا العثمانيين عبر العريف "حسن" حارس المسجد الأقصى عن ذلك السر وتلك الأمانة.. وحيث لم يبقَ غيرنا في وقت غابت فيه الدول والملوك"..

تستمع ماريا لما يقرؤه ميشيل من كلمات رسالة ذلك الضابط الألماني ثم تقول:

ماذا كان يقصد ذلك الضابط بأنه قد قام بمهمته على أكمل وجه ضمن زيارة الإمبراطور "ويليام" الثاني لدمشق عام ١٨٩٨م؟

يجيب ميشيل:

أظن أن العم رضا قد شرح لنا باقي القصة والحلقة المفقودة..

وينظر ميشيل إلى ذلك النعش الرخامي ثم يتوجه إلى ماريا قائلًا:

برأيك ماريا، ووفقًا لتحضيرات دقيقة لزيارة مهمة وتاريخية، هل من المعقول أن تسقط لدى الإمبراطور ومن يعدّون لتلك الزيارة أنه لن يكون من الممكن نقل رفات السلطان "صلاح الدين" لهذا النعش الرخامي الذي قدمه الإمبراطور هدية للضريح؟

تجيب ماريا: في الحقيقة نعم، في هذا شيء غريب.. ومن غير المفهوم كذلك هو إصرار الإمبراطور رغم ذلك على إهداء النعش الرخامي للضريح ووضعه هنا بجانب الضريح الخشبي الذي دفن فيه السلطان "صلاح الدين" وبقي هنا لأكثر من ١١٩ عامًا!!

وكذلك تلك الرواية الغامضة التي تقول بأن السلطان "عبد الحميد" هو من قدّم هذا الضريح الرخامي، وتداخل هذه الرواية مع تفاصيل زيارة الإمبراطور الألماني "ويليام" ليشكل ذلك غموضًا ما حول من قدّم هذا النعش الرخامي للضريح ولماذا بقي هنا فارغًا؟!

يصمت ميشيل لبرهة وهو يفكر بما تحدثت به ماريا،ثم يتفحص النعش الرخامي وهو يردد كلمات الجندي الألماني ويقول:

"كانت المهمة هي إعادة كتاب العلم المسروق من عهد فريدريش الثاني إلى الأمة التي سرقت منها تلك العلوم، وتسليمها إلى صلاح الدين الأيوبي حيثما يكون"..

ثم يتوقف قليلًا وهو يفكر بعمق، ليتابع ترديد باقي كلمات رسالة الجندي الألماني: "وقد قمت بمهمتي على أكمل وجه ضمن زيارة الإمبراطور "ويليام" الثاني لدمشق عام ١٨٩٨م"..

يلتفت ميشيل فجأة نحو ماريا ويقول:

هل من الممكن أن يكون الموضوع هو إعادة أمانة بشيء أشبه بصندوق ضمن مفهوم إعادة رمزية..

تنظر ماريا متعجبة وتقول: ماذا تقصد؟ لم أفهم!!

يرد ميشيل: أقصد هل يمكن أن يكون هذا النعش الرخامي هو مجرد صندوق قد أُخفيَ بداخله شيء ما؟؟

تحدق ماريا بعينيها وتقول:

تقصد كتاب العلم المسروق الذي تحدث عنه الجندي الألماني!!

يجيب ميشيل: تمامًا ماريا هذا ما أقصده بالضبط.

ويقف ميشيل ملاصقًا لحافة النعش الرخامي وهو يحاول جاهدًا أن يمد برأسه فوق سطح النعش ليعاين عن قرب تلك التيجان الأربع المتموضعة على زوايا ذلك النعش الرخامي.

وتسأله ماريا قائلة: ماذا تفعل ميشيل؟؟

يجيب ميشيل:

دعينا نفكر معًا بصوت عالٍ ماريا.. هل يمكن أن تكون هذه التيجان الأربع والمتوزعة على الزوايا الأربع للنعش الرخامي هي بمثابة المؤشرات المسننة لقفل صمم من ذلك العصر؟؟

تجيب ماريا وهي تحدق بميشيل والنعش الرخامي بذهول:

تعني كقفل صندوق العريف "حسن الإغدرلي" الذي وجدناه في القدس!!

هل يمكن فعلًا أن تكون تلك التيجان الأربعة هي بمثابة المؤشرات المسننة لقفل صُمم تقنيته العالم "القزازي" الذي حدثنا عنه الشيخ "عمر" مدير المسجد الأقصى، ولم ينتبه لذلك أحد بعد كل هذه السنين الطويلة!!

يرد ميشيل: كما قلت لك من قبل عزيزتي، في التاريخ وفي مسيرة علوم البحث كل شيء ممكن.

ماريا: لكن على فرض أن هذه التيجان هي المؤشرات المسننة كيف سنعرف رموز وشيفرات تلك المسننات لفتح الصندوق؟؟

يفكر ميشيل قليلًا ويقول: سؤال مهم جدًا..

ويصمت قليلًا وهو يفكر ثم يتابع قائلًا:

إن كانت هذه التيجان الأربعة هي مؤشرات تعمل بنفس تقنية قفل الصندوق الذي وجدناه في غرفة العريف "حسن الإغدرلي" في القدس

ووجدنا فيه كمًّا من المعلومات المهمة والتي قادتنا إلى القاهرة وإلى دمشق حيث نقف هنا الآن..

فلا بد أن تكون أحرف ورمز فتح القفل هي..

ويصمت قليلا محاولًا التركيز، ثم يصيح فجأة وكأنه قد تذكر شيئًا وهو يقول: هل تذكرين المخطوطة التي وجدناها في غرفة العريف "حسن" في القدس؟ لقد كانت المؤشرات تدل على أربعة أحرف..

تسأل ماريا ميشيل: عن أي مخطوطة تتحدث؟؟

يجيب ميشيل قائلًا: عن المخطوطة التي وجدناها مخبأة تحت سرير العريف "حسن" واستطعنا أن نعرف عبرها رموز فتح قفل صندوق العريف "حسن الإغدرلي"..

ماريا: لكن هنا لا توجد أية رموز أمام أو داخل هذه التيجان إن كانت فعلًا هي بمثابة المؤشرات المسننة كما تقول..

يتأمل ميشيل بدقة في النعش الرخامي وهو يعيد تفحص تفاصيل أحد تيجان النعش الأربعة، ثم يقول وهو يخرج ورقة كبيرة من جيب سترته:

لنجرب إذًا إن كانت تلك المخطوطة يمكن استخدامها كخريطة للرموز..

ثم يفرد تلك المخطوطة على سطح النعش ويتابع وهو يقول:

أو قد تكون هذه المخطوطة هي الخريطة الأساسية لفتح هذا النعش الرخامي أو الصندوق الكبير الذي أمامنا..

تنظر ماريامندهشة لما يقوله ميشيل وهي تتأمل في تلك المخطوطة ثم تقول: هذه المخطوطة! إنها تلك المخطوطة التي وجدناها مخبأة أسفل فراش العريف "حسن" وعرفنا عبرها رموز فتح قفل صندوق العريف "حسن" العثماني في القدس!!

يجيب ميشيل قائلًا: تمامًا ماريا..

وأعتقد أن من وضعها في غرفة "حسن الإغدرلي" هو ذلك الضابط الألماني، وهي كما أعتقد أيضًا قد كُتبت ورُسمت من وحي علوم كتاب العلم المسروق والذي صممها ذلك الضابط الألماني في الأساس كشيفرة قفل هذا الصندوق، والذي هو أمامنا الآن على شكل نعش رخامي قبل أن يصنع العريف "حسن" صندوقه وفقًا لهذه التقنية.

ثم ينظر "ميشيل" بدقة إلى تلك المخطوطة التي فردها على سطح النعش الرخامي وهو يقول لماريا:

انظري إلى هذه المخطوطة المستطيلة حيث يوجد أربع أقفال بمؤشرات مسننة وأمام كل قفل أحرف ورموز..

ثم يقف أمام أحد تيجان النعش الرخامي وهو يقول:

إن كان ما أفكر فيه صحيحًا فسيكون الحرف الأول أو الرمز الأول هوحرف (ص) ويقوم بمحاولة تدوير ذلك التاج المزخرف باتجاه الحرف (ص) الموازي له في المخطوطة التي وضعها على سطح ذلك النعش الرخامي لتناظر التيجان الأربعة الموجودة عند زوايا النعش المستطيل..

ويتابع وقد أدار ذلك التاج نحو جهة الحرف (ص) المرسوم في المخطوطة.. لينتقل بعدها نحو التاج الثاني والذي هو بمثابة المؤشر الثاني ويديره قائلًا:

وهذا التاج أو المؤشر الثاني يجب أن يوجه نحو حرف (اللام).. ثم يتابع التوجه نحو التاج أو المؤشر الثالث ويقوم بتوجيهه وتدويره وهو يقول:

وهذا التاج نوجهه نحو حرف (الألف)..

ثم يتابع مسرعًا نحو التاج الرابع والأخير وهو يقول:

وهذا لا بد أن يكون نحو الحرف (ح)..

وفجأة وبعد توجيه التاج الرابع نحو الرمز الموازي له في تلك المخطوطة يصدر صوت احتكاك مسننات حديدية قوي ثم يتبعه صوت شيء وكأنه قد سقط من داخل النعش الرخامي..

تشهق ماريا بذهول وهي تقول:

هل من المعقول أن تكون الأحرف ورموز القفل في النعش الرخامي هي نفسها الرموز الخاصة بقفل صندوق العريف "حسن" والتي تكون (ص، ل، ا، ح)!!

يجيب ميشيل بثقة: بل تستطيعين الآن أن تقولي بثقة أن تلك الأحرف تشكل كلمة (صلاح).. الاسم الأول للسلطان "صلاح الدين الأيوبي"..

وأعتقد أن من وضع وصمم هذه الرموز هو نفسه ذلك الضابط الألماني الذي وجدنا رسالته في القدس والتي يخبرنا فيها عن هذا السر في دفتر مذكرات العريف "حسن" وضمن صندوق الحارس العثماني الذي تم صنع القفل الخاص به بذات التقنية، والتي أخذت أساسًا من كتاب العلم المسروق الذي تحدث عن إعادته ذلك الضابط الألماني بتكليف من الإمبراطور "ويليام "الثاني في عام ١٨٩٨م..

ويتابع ميشيل حديثه إلى ماريا وهو يتبع مصدر الصوت الذي سمعه يخرج من ذلك النعش الرخامي ليصمت ويتسمَّر في مكانه فجأة وهو يرى أمامه

قطعة رخامية قد بزرت من أعلى النعش الرخامي وكأنها واجهة لدرج سري أُخفي في داخل النعش الرخامي..

ويصيح مناديًا لماريا بفرح والتي تقترب وهي تنظر معه إلى تلك القطعة التي خرجت من النعش الرخامي مذهولة..

ليقوم ميشيل بسحب ذلك الدُرج السري الذي ظهر من داخل النعش الرخامي بعناية شديدة نحو الخارج.. وهو يقول مزهوًا بما يقوم به:

وهذا النعش يا صديقتي كان كذلك عبارة عن صندوق مغلق بتقنية العالم المسلم "القزازي"، وفيه تم وضع كتاب العلم المسروق كما جاء في رسالة الضابط الألماني "ألفريد غيرد" منذ الحرب العالمية الأولى..

يمد ميشيل يديه إلى داخل ذلك الدرج السري الذي كان مخفيًا داخل النعش الرخامي ويخرجها وهو يمسك بكتاب كبير مغلف بجلد غزال قديم، وأوراق سمكية يظهر عليها شدة الاصفرار من مرور الزمن..

تشهق ماريا بذهول: إنه إذًا الكتاب!!

يجيب ميشيل: نعم إنه كتاب العلم المسروق من عهد "فريدرتش" الثاني.. وبهذا يصبح من المنطقي تفسير سبب إصرار الإمبراطور "ويليام" الثاني على إهداء هذا النعش الرخامي ليبقى فارغًا كل هذه السنين، وأن يبقى ملاصقًا وبقرب ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي" حيث دُفن..

تتصفح "ماريا" و"ميشيل" بطريقة سريعة بعض صفحات ذلك الكتاب التاريخي القيّم ويشاهدا بعض ما كتب فيه من مخطوطات لتقنيات علمية مع شرح لها باللغة العربية..

وينظر ميشيل بذهول إلى إحدى الصفحات وهو يقول:

انظري مثلًا إلى هذه الصفحة "ماريا" ماذا كُتب ورُسم عليها.. إنها مخطوطة ورسم قديم لجهاز تم صنعه لقياس كمية الدم من القرن الثاني عشر، ويتابع وهو يشرح ذلك الرسم العلمي قائلًا:

حيث يُصب الدم في هذا الوعاء الصغير، ثم يصل الدم إلى هذا الوعاء الاسطواني في الأسفل الذي يحتوي على عوّام يحرك هذا النظام مع ارتفاعه كما في الرسم.

وهذه المؤشرات التي بُنيت على شكل دُمى في أعلى الجهاز تساعد في تسلية المريض وتعمل أيضًا كمؤشر لكمية الدم المعطية..

ويتابع ميشيل تصفح الكتاب ويقول: وهنا في هذه الصفحة نرى نموذجًا لساعة دقيقة من القرن الثاني عشر أيضًا، حيث تقسم الساعة إلى عدة أجزاء ليكون بإمكان المرء قياس أجزاء الساعة، أي قياس الدقائق وأجزائها أيضًا، ويعمل وفق الشكل التالي المرسوم هنا حيث يملأ هذا الوعاء بالماء الذي يخرج منه خلال ساعة من خلال ثقب في أسفله وعن طريق نقصان الوزن في الجهة اليسرى يتم ضبط الوقت عن طريق مؤشر في الجهة اليمنى..

تقول ماريا وهي مندهشة لما تراه أمامها: إذًا لقد أراد الإمبراطور الألماني "ويليام" الثاني أن يعيد كتاب العلم المسروق من عهد الإمبراطور "فريدرتش" الثاني الذي تم سرقته من حوالي ٨٠٠ عام، والذي احتوى على نظريات واختراعات واكتشافات علمية لعلماء عرب ومسلمين من ذلك العهد، كاعتذار رمزي على سرقة تلك العلوم وطمس أسماء أصحابها الحقيقيين وأعادها لضريح "صلاح الدين" هنا حيث دُفِن..

وكونه هو من أسس لعهد الانفتاح والحوار بين الحضارات بسياسته وحكمته، وأدى ذلك لتطور العلوم في أوروبا..

يجيب ميشيل: تمامًا ماريا..

وأظن أن كلمات رسالة الضابط الألماني التي تركها مع العريف "حسن" قد ساعدتنا كثيرًا للوصول ومعرفة هذا السر الهام..

ويتابع ميشيل قائلًا: وأعتقد أن غيرنا قد حاول البحث عن هذا السر والوصول لهذا الكتاب، وأظن أن "لورنس" ضابط المخابرات الإنكليزي قد اعتقد أو شكَّ بأن ذلك الكتاب قد يكون خُبِّيء في الإكليل البرونزي بشكلٍ ما، لذلك قام بسرقة ذلك الإكليل لهذا السبب أو لأسباب نجهلها..

تجيب ماريا: ربما فعلًا قد يكون ما تقوله صحيح.. ثم تصمت وقد تذكرت شيئًا لتعود وتقول بشيء من الذهول:

وأعتقد الآن أن ذلك يفسر معنى عبارة كتب "العلم الضائعة "التي وُجِدت في دفتر ملاحظات المسيو "عازر موسان"!!

يرد ميشيل: تمامًا.. أحسنتِ ماريا، هو كما تقولين.

وتتابع ماريا وهي تسأل ميشيل:

لكن الآن ماذا سنفعل بهذا الكتاب؟؟

يجيب ميشيل: طبعًا لن نسرقه من أصحابه الذين تم إعادته إليهم بعد كل هذه العصور، ولكننا سنستعيره لفترة قصيرة ليكون ضمن أدلة براءة "أحمد عيسى" والذي سنسلمه له فيما بعد ليعيده إلى مكانه بعد أن تهدأ ظروف الصراع هنا..

تقول ماريا: معك حق ميشيل، فحياة إنسان بريء تتوقف على جمع كل هذه المعلومات والدوافع التي ستفيدنا في إثبات براءته..

يتابع ميشيل قائلًا:

نأمل ذلك عزيزتي، وبكل الأحوال أظن أن مهمتنا السريعة في دمشق قد انتهت.. فدعينا الآن لنخرج من هنا ونودع صاحب هذا الضريح العظيم.. ولنتجه عائدين إلى بيروت بسرعة ومنها نقوم بترتيب سفرنا إلى فرنسا على أول طائرة متوجهة إلى باريس..

تنظر ماريا إلى ميشيل وقدا بدا على وجهها ملامح التعب:

نعم أوافقك الرأي.. ويبدو أننا أصبحنا بحاجة إلى بعض الراحة أيضًا، فلنبيت الليلة في بيروت إذًا..

يجيب ميشيل مبتسمًا: أوافقك الرأي أيضًا.. لكن دعينا نخرج من هنا بأمان أولًا..

ويقوم ميشيل بوضع ذلك الكتاب القديم ضمن قطعة من القماش والذي يلفها به بعناية شديدة ويضعه في حقيبته.. ثم يخرج مع ماريا من الضريح مسرعين بعد أن وقفا تحية احترام مودعين ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي"..

ويتجها نحو السيارة المنتظرة في ركن قريب من حارات دمشق القديمة والتي جاءوا بها من بيروت ويستقلانها، لتنطلق بهما مباشرة في طريق العودة من دمشق إلى بيروت..

الفصل السادس والأربعون

بعد بضع ساعات، ومع حلول مساء ذات اليوم، يصل ميشيل وماريا إلى بيروت قادمين من دمشق عبر الطريق البري بعد زيارة سريعة ومثيرة لمدينة دمشق زارا فيها الجامع الأموي، وضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي"، والذي اكتشفا فيه سر ذلك النعش الرخامي الذي أهداه الإمبراطور الألماني "ويليام "الثاني للضريح أثناء زيارته لدمشق عام ١٨٩٨م.

يدخل ميشيل وماريا إلى الفندق الذي سيبيتان فيه ليلتهما في بيروت بعد يوم طويل وسفر شاق..

وتجلس ماريا أخيرًا لتستريح في غرفة ميشيل وقد ظهر على وجهها التعب والإرهاق وتنظر نحو ميشيل وتقول:

أخيرًا وصلنا إلى الفندق.. فبقدر ما كان هذا اليوم جميلًا ومهمًا جدًا بما توصلنا إليه، بقدر ما كان متعبًا جدًا حيث سفر متواصل منذ طلوع الشمس حتى هذه الساعة..

يرد ميشيل: نعم معك حق ماريا، لكنها كانت زيارة مهمة وتستحق كل هذا العناء.. ثم يضع حقيبته على الطاولة الموجودة في الغرفة ويخرج منها بعناية ذلك الكتاب القديم القيّم الذي وجداه في النعش الرخامي الموجود في ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي" وينظر إليه بتمعن شديد ثم يقول:

وكذلك فالوصول لهذا الاكتشاف ولهذا الكتاب العلمي القديم، ومع كل المعلومات التاريخية التي تعرفنا عليها في زيارتنا السريعة إلى دمشق، يؤكد لنا أهمية البحث الذي نقوم به، وتزداد معه ملامح براءة "أحمد" التي نعمل جميعنا لتحقيقها..

تجيب ماريا قائلة: نعم صدقت يا صديقي، وحقيقةً لولا بحثنا عن إثبات تلك البراءة لما توصلنا لكل ما اكتشفناه، وما تعرفنا على كل تلك الأشياء والحقائق المهمة والأناس الطيبون الذين قابلناهم في القدس والقاهرة ودمشق..

يتابع ميشيل ويقول: في الحقيقة لقد تعرفنا على الكثير من المعلومات التي لو عرفها كل العالم ورآها بالعين التي رأيناها بها لتغيرت كثير من الحقائق التي كنا وغيرنا نعتقد بها..

ولاستطعنا تحقيق حوار حضارات حقيقي بين شعوب العالم يرسخ معنى قيم السلام والفكر والعلم والتقدم لصالح أهل الأرض..

يشد انتباه ماريا الكلمات التي يقولها ميشيل فتنتبه من استرخائها على الأريكة التي تجلس عليها وهي تقول:

ميشيل، إن ما تقوله فيه كل الصحة.. وأعتقد أن هذا ماكان يريد أن يصل إليه الأب "باولو" وأصدقاؤه، ولكن كانت هناك قوى خفية تحاول منع ذلك..

ميشيل: تمامًا، أنا معك في ما تقولينه..

ماريا: ومن المؤكد أن "أحمد" على شوق لمعرفة أخر التطورات..

تخرج ماريا هاتفها من حقيبتها وتقول:

سأتصل بأحمد في باريس، ولو أن الوقت تأخَّر، لكن من الطبيعي أن يكون وضعه كحالنا يعمل في البحث ليل نهار..

وعلى الطرف الأخر حيث مدينة باريس يجلس "أحمد" بين عدد من الكتب في مكتبة منزل ميشيل منهمكًا في تسجيل وكتابة بعض المعلومات لينتبه فجأة لهاتفه الذي بدأ يهتز منبهًا لورود اتصال، وقد ظهر على شاشته رقم

يفرح حين يراه كثيرًا، فينهض فرحًا وهو يمسك بهاتفه ليتلقى الاتصال ويقول بفرح:

ماريا.. أخيرًا، كيف أنتِ؟ وكيف حال ميشيل؟ أين أصبحتما الآن؟

تجيب ماريا: مساء الخير "أحمد"!! نحن بخير وصحتنا جيدة فيما عدا بعض الإرهاق، وقد عدنا مساءً من دمشق بعد زيارة سريعة، لكنها كانت مهمة ومثيرة جدًا، وسنبيت الليلة في بيروت لنعود غدًا على أول طائرة إلى باريس..

يجيب أحمد فرحًا:

رائع ما أسمع!! وهل توصلتم إلى شيء جديد؟؟

ترد ماريا: بالتأكيد فقد وجدنا الكتاب المسروق منذ القرن الثاني عشر!!

يقول أحمد مستغربًا: كتاب!! أي كتاب؟؟

تجيب ماريا: سنخبرك بكل شيء بالتفصيل عندما نراك غدًا، فلدينا الكثير يجب أن نتحدث به ونناقشه معًا..

يرد أحمد: إذًا على أمل اللقاء بكما غدًا.. كونا بخير.. سأنتظركما بفارغ الصبر، وقد اشتقت لك بالفعل ماريا..

تجيب ماريا: نعم.. وأنا كذلك أحمد..

يلتفت ميشيل مبتسمًا نحو ماريا التي انتبهت لمغزى ابتسامة ميشيل..

فتتابع حديثها مع أحمد وهي تبتسم وقد احمرّت وجنتيها بعض الشيء وتقول: ونحن اشتقنا لك أيضًا وميشيل كذلك..

وتتابع قائلة: حسنًا سأودعك الآن، على أمل اللقاء بك غدًا في باريس.

أحمد: نعم ماريا.. خذا قسطًا من الراحة، ولترافقكما السلامة في رحلة العودة إلى باريس.

ماريا: حسنًا، تصبح على خير أحمد.. إلى اللقاء.

وتغلق ماريا هاتفها وتنهض لتغادر إلى غرفتها وهي تبتسم وتقول لميشيل:

لا تقل لي أنك لم تشتاق لأحمد أيضًا!!

يرد ميشيل ضاحكًا: طبعًا اشتقت له.. لكن ليس كشوقك..

تجيب ماريا ضاحكة: إذًا تصبح على خير الآن، ولا تنسى أن توقظني باكرًا كعادتك..

وتخرج من غرفة ميشيل باتجاه غرفتها، وتضع يدها في جيبها لتبتسم وقد خفق قلبها وهي تتحسس وتمسك بذلك المنديل الذي أعطاها إياه العم رضا في دمشق، وأمنّها بأن تزرع بذور زهرة الياسمين في باريس قرب برج "إيفل" عندما تعود إلى باريس تخليدًا لحبه لزوجته "ليزا" ولذلك الياسمين الذي أحبه العم رضا وليزا كحبهما لدمشق مدينة الياسمين..

وتقول في نفسها وهي تبتسم بفرح: سنزرع هذه البذور أنا وأحمد أيضًا.

وتنطلق نحو غرفتها لترتاح من تعب ذلك اليوم الطويل، لتستعد للعودة مع ميشيل إلى باريس مع إشراقة صباح الغد..

الفصل السابع والأربعون

وأخيرًا و في مساء اليوم التالي، وبعد غياب وسفر لعدة أيام..

وفي غرفة المكتبة في منزل البروفيسور ميشيل في أحد ضواحي باريس الهادئة، يجتمع أحمد بماريا وميشيل من جديد، بعد أن عادا من رحلة البحث المكوكية التي أخذتهما إلى قلب العالم القديم، حيث زارا القدس والقاهرة ودمشق.

واستطاعا عبر تتبعهما لكلمات رسالة الأب "باولو" للمسيو "عازر" ومساعدة بعض الأصدقاء هناك من تحليل كلمات تلك الرسالة عبر البحث التاريخي والتحليل العلمي، وأن يتوصلا للكشف عن كثير من الأمور والأسرار التاريخية التي كانت مخبأة منذ أكثر من ٨٠٠ عام..

ويُطلِع ميشيل وماريا أحمد على تفاصيل رحلتهما إلى القدس ودمشق والقاهرة وما قاما به من تحليل وبحث عن كل ما يمكن أن يربط بين كلمات رسالة الأب "باولو" وسبب مقتل المسيو "عازر موسان" وإيجاد أي دليل لبراءة "أحمد" من تلك الجريمة التي اتُّهم بها ظلمًا..

وأحمد يستمع إليهما باهتمام، مذهولًا بما اكتشفاه وتوصلا إليه..

ثم ينظر إلى ميشيل وماريا قائلًا:

يا إلهي كل هذا حدث معكما خلال بضعة أيام!!

ويتابع قائلًا: لكن الغريب والمدهش فعلًا، كيف استطاع الأب "باولو" من أن يلخّص بكلمات رسالة قصيرة بحثًا أخذ عصورًا من الزمن لتتشكل حقيقته وتتراءى أمامنا بهذا الوضوح!!

تجيب ماريا: نعم أحمد.. كذلك لا تنسى دور القدر في مساعدتنا في رحلة البحث هذه، والتي لم تخلُ من الغرابة.. وأحيانًا الخطر، وقد أخذتنا مع الكلمات والتاريخ والألغاز إلى القدس ودمشق والقاهرة والبحث في طرق متشعبة وأزمان متعاقبة..

لكنها أعادتنا في دمشق إلى طريق ومعنى واحد..

يقول أحمد متأثرًا: آه يا دمشق، كيف وجدتما دمشق؟ كم اشتقت لها..

يجيب ميشيل:

وجدناها عبر التاريخ الذي رأيناه في كل جنباتها بأنها مازالت تدافع عن ذاتها وتحرص على هويتها..

تتابع ماريا: صدقت ميشيل، كانت كذلك..

ثم تتجه نحو أحمد وتتابع قائلة:

وفي عودة لنتائج تلك الرحلة ونتائج البحث الذي قمت به، تشكلت لدينا دوافع قوية جديدة لجريمة مقتل المسيو "عازر موسان"، أهمها منعه من إعلان المعلومات الهامة التي لديه للرأي العام العالمي، وكل الطرق نحو إثبات براءتك أعادتنا إلى باريس لمعرفة من الذي أراد منع المسيو "عازر" من إقامة ذلك المؤتمر!!

يجيب أحمد: تقصدين من كل هذا، أن من قتل المسيو "عازر" كان يراقب تحركاته.. وجلبني القدر لأقابله قبل مقتله بدقائق!!

ترد ماريا: بل وأعتقد أن لقائك به والأمانة التي أوصلتها له قد تكون سرّعَت في مقتله في محاولة لمنعه من إقامة ذلك المؤتمر..

يقول ميشيل مقاطعًا:

الغريب أن المحقق "برنار" عندما اتصلت به اليوم مستفسرًا عن نتائج جديدة في التحقيقات قد أبلغني أنه قد أجرى تحقيقاته مع إدارة الفندق حيث كان سيعقد المسيو "عازر" المؤتمر، والذي دعا "أحمد" للمشاركة في حضوره، وأكدوا أنه لم يكن هناك أي حجز باسم المسيو "عازر" في التاريخ الذي أخبر "أحمد" عنه ولا في أي موعد آخر..

تقول ماريا باستغراب:

لكن أليس من الغريب أن يكون تاريخ المؤتمر موجودًا في دفتر ملاحظات المسيو "عازر"؟! ولم نجد أي حجز مسجل لذلك المؤتمر؟!

يجيب أحمد:

نعم ماريا!! بل الأكثر غرابة وما يثير التساؤل والريبة أن المسيو "عازر" قد دعاني لحضور ذلك المؤتمر.. فكيف لمؤتمر هام بهذا الشكل وتتم الدعوة إليه؛ ولم يوجد له أي حجز في الفندق المزمع عقده به!!

ماريا: نعم.. إن ذلك غريب فعلًا..

يقول ميشيل: أرى من المنطق أن يكون كلام المسيو "عازر" صحيحًا حول إقامة ذلك المؤتمر، وبما أنه قد وجه الدعوة إلى "أحمد" لحضور ذلك المؤتمر؛ قد يعني ذلك أنه يكون قد وجه الدعوة إلى غيره أيضًا..

فكيف لا نجد لذلك المؤتمر أي حجز مسجَّل في ذلك الفندق!!

يتأمل أحمد بما يتحدث به ميشيل ثم يتابع قائلًا:

وبالتالي قد يكون من الممكن أيضًا أن تاريخ ومكان المؤتمر قد تسرب إلى تلك اليد الخفية التي تريد منع المسيو "عازر"من إقامة ذلك المؤتمر.

وأظن كذلك أن من كان يريد منع إقامة المؤتمر كان على معرفة بما كان ينوي المسيو "عازر" الإعلان عنه للرأي العام.. وكل هذا يؤكد فرضية أن

المسيو "عازر" كان مُراقبًا من قبل من يريد إعاقة ما يقوم به طوال الأيام الأخيرة وقبل مقتله..

ماريا: هذا كلام منطقي، لكن من قد يكون وبالتحديد الذي يقف وراء تلك الجريمة وكل ما يجري؟!

يجيب ميشيل: قد تفسر كلمات الأب "باولو" في رسالته الأخيرة للمسيو "عازر" ذلك عندما قال حرفيًا..

"أن من يدعم خاطفيه هو نفسه من يقف ضدهم المسيو عازر".. لذلك أعتقد جازمًا أن من قتل المسيو "عازر موسان" كان يراقبه عن كثب حتى تم اللقاء مع أحمد، ووجد الفرصة سانحة لإلصاق تلك الجريمة بأحمد..

تتأمل ماريا بما يتحدث به ميشيل ثم تقول: لذلك قاموا بجريمتهم حينها وسرقوا ذلك المغلف!!

ينهض أحمد من مكانه قائلًا:

يا إلهي.. وأُلصِقت بذلك جريمة قتل المسيو "عازر" بي ظلما!!

يتابع ميشيل قائلًا: بل أكثر من ذلك..

وأعتقد أن القاتل ومن وارءه قد أرادوا إنهاء كل من له صلة بهذا الموضوع..

تهز "ماريا" رأسها وتنظر إلى ميشيل وأحمد وتقول:

تمامًا.. فهناك يد خفية، بل أيدٍ تحرك كل هذا الإجرام في مناطق عدة من العالم، وكان هذا واضحًا خاصة في حادثة إطلاق النار علينا في القدس وإصابة العم مصطفى..

ينهض ميشيل من مكانه، ويمسك بدفتر ملاحظاته ويسجل بعض الملاحظات، ثم يلتفت نحو ماريا وأحمد قائلًا:

إذًا علينا أن نعيد البحث ونبدأ من نقطة مهمة لفتت انتباهي..

تقول ماريا متسائلة: ما هي؟؟

يجيب ميشيل: يجب أن نركز البحث حول مسألة عدم وجود أي حجز في ذلك الفندق الذي كان المسيو "عازر" قد أخبر أحمد بإقامة المؤتمر فيه..

لذلك، بدايةً يجب أن أقوم بزيارة المحقق "برنار" صباح الغد لأعرف إن كان هناك أية مستجدات حول هذا الموضوع..

ويتابع وهو ينظر إلى أحمد قائلًا:

وأرجو منك أحمد أن تراجع مع ماريا كل ما جرى معك خلال لقائك القصير مع المسيو "عازر موسان" وأن تحاول أن تتذكر كل تفصيل وكل حرف أخبرك به المسيو "عازر" عن ذلك المؤتمر وزمن ومكان انعقاده..

يهز أحمد رأسه موافقًا، ويبدأ العمل فورًا.. ويجلس مع ماريا التي أخذت تسجل كل ما يقوله أحمد وهو يسترجع كل ما جرى معه في ذلك اللقاء الأول والأخير مع المسيو "عازر موسان" قبل مقتله..

الفصل الثامن والأربعون

في صباح اليوم التالي، وفي مكتب المحقق "برنار" في مركز شرطة باريس وسط العاصمة..

يستقبل المحقق "برنار" البروفيسور "ميشيل" في مكتبه، والذي بحكم صداقته الوثيقة مع المحقق "برنار" بدأ يطلعه على تفاصيل رحلته الأخيرة وما توصل إليه مع ماريا من حقائق وأحداث..

وبعد أن استمع المحقق "برنار" لكل ما تحدّث به صديقه "ميشيل" ينهض من كرسيه ويتجول في مكتبه وهو يفكر في كل ما سمعه للتو، حول رحلة البحث المكوكية والنتائج المثيرة لتلك الرحلة.. ثم يلتفت نحو ميشيل قائلًا:

في الحقيقة صديقي ميشيل، لا يمكنني أن أخفي لك اندهاشي الشديد وإعجابي بما قمت به والآنسة ماريا وتكبدكما جهد رحلة لم تخلُ من المخاطر في البحث عن أدلة ودوافع جديدة تدين وتكشف قاتل المسيو "عازر موسان" الحقيقي، وتلك الاكتشافات المهمة والخطيرة التي توصلتما لها..

ولكن كذلك يؤسفني أن أقول أن كل ذلك لا يشكل دليل براءة قاطع يبرىء الشاب أحمد من جريمة قتل المسيو "عازر" حاليًا فهو مازال مطلوبًا وفارًّا من العدالة، ولا أستطيع أن أكمل التحقيق للوصول إلى نتائج حقيقة بشكل أفضل دون أن يتم اعتقاله واستجوابه رسميًا..

يجيب ميشيل قائلًا:

أنا معك في كل ما قلته، لكن ألا ترى صديقي أن دوافع هذه الجريمة قد تغيرت وأصبحت تشير إلى قاتل آخر، وخاصة بعد كل الذي أخبرتك به!!

فالجريمة وفقًا لتلك الدوافع الجديدة، لم تعد تأخذ صورة جريمة ذات دافع عنصري اتُّهم بها أحمد لسوء حظه والظروف المحيطة بالجريمة..

ينظر المحقق برنار إلى ميشيل ويقول:

قد أتفق معك ضمنيًا صديقي فيما قلته، لكن سير العدالة يأخذ بالأدلة الموجودة، وحاليًا كل الأدلة الموجودة تثبت تورط "أحمد عيسى" للأسف، رغم قناعتي الداخلية بأنه قد يكون بريئًا مما نُسِب إليه، وخاصةً بعد نتائج بحثكما الذي أخذكما جغرافيًا لآلاف الأميال.. وزمنيًا لعصور مضت..

يهز ميشيل رأسه ويقول: نعم للأسف..

ثم ينظر للمحقق برنار ويقول: لكن هل لي أن أسألك إن كان هناك أي جديد بخصوص التحقيقات حول مكان عقد المؤتمر؟

يجيب المحقق برنار: في الحقيقة لقد أجرينا تحرياتنا عن الفندق الذي زعم أحمد أن المسيو "عازر" قد دعاه لمؤتمر يعقده فيه، وقد أكد مسؤول الفعاليات في ذلك الفندق المسيو "رينيه" وكذلك إدارة الفندق بعدم وجود أي حجز باسم المسيو "عازر موسان " أو أي حجز في التاريخ الذي كان يزعم إقامة المؤتمر فيه، والذي كان قد أخبر أحمد به..

وأيضًا أكدت تحرياتنا أنه لا يوجد أي حجز كذلك في أي فندق آخر أو في أي من قاعات الفعاليات في باريس باسم المسيو "عازر موسان" خلال هذه الفترة..

يرفع ميشيل حاجبيه مستغربًا ويقول:

ذلك غريب فعلًا.. ويدعو للتساؤل أكثر، وخاصة أننا قد وجدنا تاريخ المؤتمر مُسجَّل في دفتر تدوينات المسيو"عازر"!!

يرن جرس الهاتف فجأة في مكتب المحقق برنار، الذي يجيب على الإتصال ويبدو أن هناك أمرًا عاجلًا يستوجب مغادرة المحقق "برنار" للأهمية..

ينهض المحقق "برنار" من مكانه وهو ينظر إلى ميشيل قائلًا:

صديقي ميشيل أود أن أعتذر منك لاضطراري للتوجه لمهمة عمل، وأنت أكثر من يعلم طبيعة عملنا..

وكذلك أقدر اهتمامك بالتحقيق بخصوص قضية مقتل المسيو "عازر موسان"، ولكن من واجبي المهني أن أدعوك للمساعدة في إلقاء القبض على "أحمد عيسى" أو دعوته لتسليم نفسه لأن ذلك من مصلحته ومصلحتنا لاستكمال التحقيق..

ينهض ميشيل من مكانه وهو يقول للمحقق "برنار" مودعًا:

أشكر تعاونك صديقي وأعدك بأنني سأبذل جهدي في مساعدتك في استكمال تحقيقاتك حول هذه الجريمة..

ثم يتوجه للمغادرة ويسير بضعة خطوات ثم يتوقف أمام باب مكتب المحقق "برنار" ويلتفت إليه مبتسمًا وهو يقول:

وسأدعو "أحمد" كذلك لتسليم نفسه، لكن مع دليل براءته..

الفصل التاسع والأربعون

في ذات الأثناء تصل ماريا إلى منزل البروفيسور ميشيل بعد أن قامت بتحضير وإعداد بعضًا من مهامها الأسبوعية في مقر عملها في قسم التحقيقات الصحفية في التلفزيون، تعويضًا لما فاتها خلال فترة تغيبّها في الأيام السابقة ضمن الإجازة الخاصة التي قامت فيها بالسفر مع ميشيل إلى القدس والقاهرة ودمشق، في مهمة البحث عن ما يثبت براءة أحمد متتبعين معاني كلمات الأب "باولو" في رسالته الشفهية إلى المسيو "عازر"..

وتدخل ماريا منزل ميشيل، والذي يقوم بذات الوقت وفق المتفق عليه بزيارة للمحقق "برنار" في شرطة باريس لمعرفة آخر مستجدات التحقيق في جريمة مقتل المسيو "عازر"، ولإطلاع المحقق "برنار" على نتائج رحلته المثيرة مع ماريا إلى القدس والقاهرة ودمشق في الجهة المقابلة من البحر الأبيض المتوسط..

تسأل ماريا مدبرة المنزل فيرونيكا عن مكان وجود أحمد، فتجيبها بأنه في غرفة المكتبة منذ الصباح الباكر، فتشكرها مبتسمة ثم تسير في ذلك الممر الطويل المؤدي إلى تلك الغرفة لتقف أمام باب غرفة المكتبة وهي تطرق بضع طرقات خفيفة.. لكن لا صوت يجيب ويوحي بوجود أحد في الداخل..

فتفتح ماريا باب غرفة المكتبة حيث تلك الغرفة الواسعة الكبيرة التي تحيط بها جدران مغطاة بالكتب من كل جانب، وتلمح أحمد يجلس في ركن من أركان تلك الغرفة ويبدو عليه الشرود بما يقوم بكتابته حتى أنه لم يشعر بدخول ماريا..

تسير ماريا بضع خطوات بهدوء مقتربة من أحمد، والذي ما زال يكتب شاردًا لدرجة أنه لم يشعر بوقوف ماريا خلفه وهو يتابع كتابة بضعة أسطر شاردًا بين حروف وكلمات ما يكتبه..

تقترب ماريا بيدها لتضعها على كتف أحمد لتنبهه بأنها أصحبت موجودة هنا في هذا المكان، وأنها وصلت لمتابعة تنفيذ ما تم الاتفاق عليه بالأمس من مهام توزعت على فريق البحث المصغر المؤلف من ميشيل وأحمد وماريا..

لكن يدها تتراجع بعدما لمحت عيناها بعض ما يكتبه "أحمد" من كلمات فتقرر بقرار لا إرادي أن تتابع قراءة تلك الكلمات بالرغم من أن ذلك جعلها تبدو خجلة وهي تقوم بذلك مُحرجة من أن تكون قد تعدت على خصوصية أحمد فيما يكتبه..

فقلبها الآن هو من يتخذ القرار، والحب والإهتمام هما ما يجعلانها تتشجع وتقترب لتقرأ تلك الكلمات التي يكتبها أحمد، حيث تقرأ في سرّها تلك الكلمات التي تقول:

"توقظني أمي في منتصف الليل لتسألني ما سر بكاء أختي "راما" في غرفتها؟!

فأخاف أن أخبرها أنها قد ماتت عندما قُصف منزلنا في حمص.. ويزداد خوفي أكثر كي لا أخبرها أنها قد ماتت معها في نفس ذلك الحادث..

وإذا أصيبت حروفي هنا بالهذيان، فاعلم أنني في حالة كتابة، وقد بدأت بالبوح للسطور وللأوراق.. وأني أكتب لي ولك ولضمائرنا المثقلة.. أكتب اعترافًا بإنسانيتنا وضعفنا.. وأكتب لأتحدث إليك أيها الإنسان أينما كنت، لأتحرر مني وأرمي العتب على ظهر هذه السطور..

لقد كانت تلك الليلة من أسوأ الليالي التي عشتها، بل أسوأها على الإطلاق، حيث تبدلت حينها كل تفاصيل حياتي وفقدت الأهل والبيت والوطن.. وأصبح ليلي أرق في أرق وسهاد لا ينتهي، يهجرني النوم وأنا أتقلب في سريري والخوف والقلق يملؤني من غدٍ أترقبه وأخافه..

أكتب لأنني سئمت الكلام الذي يتبخر، فالعقلاء يملّون عقولهم ويشتهون جنون حروفهم واختراق أسوار المستحيل على السطور..

أكتب لأنني أحب أن أكتب وأشتاق لعناق قلمي وبعثرة حروفي في تجليها وجنونها وخرقها لقوانين العقل، فكلنا نكتب لنصارح أنفسنا بمشاعر عجزت الروح عن تحملها.. نكتب لنتحرر من مهمة البوح..

ليس عنَّا فقط، بل لمن لا قلم له ولا صوت ولا حياة"..

تدمع عينا ماريا فجأة وهي تقرأ تلك السطور التي يكتبها أحمد وهو شارد عن كل ما ومن حوله لدرجة أنه لم يشعر بوقوف ماريا خلفه، والتي لم تستطع كبت دموعها، وأن تجعلها تقف في حدود عينيها بل انهمرت دموعها من دون القدرة على التحكم بها من شدة التأثر بما قرأته من كلمات تلك السطور التي يكتبها أحمد، وهي التي تعلم أكثر من غيرها تفاصيل تلك الصور المرعبة التي مرت على حياة "أحمد" خلال السنوات الأخيرة..

فتنهمر دموع ماريا عبر خديها دون قدرتها على منع تلك الدموع من أن تنهمر لتسقط قطرة من دمع ماريا على تلك الورقة حيث يكتب أحمد، والذي يصحو عندها من شروده منتبهًا لوجود ماريا وهي تقف خلفه، فيلتفت نحوها وهو يشاهد عيناها وقد اغرورقت بالدمع متأثرة بما يكتبه..

في تلك اللحظة لا يشعر هذين العاشقين إلا وأنهما قد اقتربا من بعضهما البعض حيث يتعانقان ويبكيان معًا كصورة وتعبير لبوح جديد..

وفي تلك اللحظة يسود صمت غريب، فللمرة الأولى يجدا نفسيهما أنهما في حالة سِلمٍ مع الذات، وأنهما معًا في هذه اللحظة جزء من كل شيء، وأن كل شيء جزء منهما، وأن مركز الكون الآن ليس في الشرق ولا في الغرب، بل هو في المكان الذي يستسلم فيه المرء للحب..

الفصل الخمسون

بعد أن أنهى ميشيل زيارته إلى مكتب المحقق برنار يتوجه عائدًا باتجاه منزله، حيث سيجتمع مجددًا مع أحمد وماريا وفق المتفق عليه، ويسير متجاوزًا عددًا من الشوارع في العاصمة باريس والتي تصل به إلى تلك الضاحية القريبة الهادئة، حيث منزله الذي يسكن به..

وفي غرفة المكتبة في منزل ميشيل تجلس ماريا و أحمد وهما يتبادلان بعض الحديث ريثما يصل ميشيل.

وتنظر ماريا في وجه أحمد وهي تقول:

رغم أن في بعض ما تكتبه من سطور وتعبر عنه بتلك الكلمات ما يسبب سيلا من الدموع، إلا أنني لا أستطيع إلا وأن أعجب حقيقة بفكرة أن تقوم بكتابة رواية تصوّر فيها عبر الكلمات المثقلة بمشاعر متناقضة كل ما جرى معك حتى وصلت إلى باريس، وأن تعبّر فيها عن مشاهد حية حقيقية، حيث كانت هناك حياة مشرقة فيها الكثير من الأمل وتحولت فجأة إلى دمار وظلام دامس واشتعل العنف في كل مكان كالنار في الهشيم..

إلى أن يأخذك القدر لتجتمع مع الأب "باولو دالوليو" في زنزانة مظلمة ويسلمك تلك الرسالة والأمانة، والتي فيها من الكلمات ما أنار لنا الطريق في رحلة بحثنا عن الحقيقة لإثبات براءتك من جريمة لم ترتكبها، وبكلمات أخذتنا في رحلة عبر المكان والزمان ولعصور خلت..

يجيب "أحمد" قائلًا:

بل تستطيعن أن تقولي أن فكرة الكتابة فكرة قد فرضت نفسها، حيث وجدت نفسي فجاة أُرتِّب نتائج ما نقوم به عبر رحلة بحث تقودنا فيها روح

كلمات للسفر نحو المدن والبلدان، لنسافر بعيدًا عبر الزمن في كتب التاريخ والدين والفلسفة والعلم والفن..

لتعود تلك الكلمات وتتجمع فجأة من جديد وتظهر لنا الحقيقة ساطعة كالشمس في وسط السماء، ولكنها هنا تكمن فينا نحن البشر ونحن نتمسك بأمل الحياة بسلام ورغد..

ماريا: وماذا ستسمي تلك الروية أحمد؟؟

يجيب أحمد:

بما أن الجميع في تناحرهم يزعمون أن كل واحد منهم يعمل بوحيٍ من السماء.. وأن هناك من يقتل الآخر وهو يزعم جازمًا أنه يقوم بذلك بأمرٍ من السماء.. وآخر يحتل أرضًا بزعم إشارة من السماء..

وأن هناك من يلغي وجود الآخر وهو ينتظر من سيأتي من السماء ليبارك فعله الآثم.. ومن وحي رحلة البحث التي قمنا بها ونتائجها، سأسمي الرواية:

"الآتون من السماء"

ولتحدد السماء بعدها ما ستأتي به..

وبما أنهم جميعا يقولون بأنهم "آتون من السماء"؛ سأركّز في روايتي على معنى واحد يقول: كم هي جميلة هذه الأرض..

وكم سيكون جميلًا أن نحيا عليها بسلام نستحقه..

في تلك اللحظات يعود ميشيل إلى منزله ويدخل متوجهًا نحو غرفة المكتبة حيث ماريا وأحمد، ويطرق على باب غرفة المكتبة بضع طرقات وهو يقول مبتسمًا:

ها أنا قد عدت.. كيف حالك أحمد؟

ثم ينظر نحو ماريا قائلًا: وكيف هو صباح تلك الصحفية الجميلة؟
تجيب ماريا وهي تبتسم: أهلًا ميشيل.. الآن اكتمل نقاء صباحنا بك..
أخبرني، هل زرت المحقق برنار؟؟
يرد ميشيل:
بالطبع، وقد أطلعني على آخر المستجدات في التحقيقات..
ثم يقوم بملء فنجان من القهوة السريعة المحضرة مسبقًا.. ويتابع وهو يقول:
ولكن للأسف، مازال "أحمد" حتى اللحظة يعد مطلوبًا وفارًا من العدالة..

ينظر أحمد نحو ميشيل نظرة قلق وحزن وهو يقول:

لماذا يصرّون على اتهامي بقتل المسيو "عازر"!! فأنا لم أقم أبدًا بهذه الجريمة.. لا، بل لا أستطيع حتى القيام بذلك!!

تقاطع ماريا كلام أحمد وهي تتوجه لميشيل قائلة:
ميشيل.. وما الحل برأيك الأن؟
يقف ميشيل أمام نافذة المكتبة وهو يفكر بصمت لدقائق.. ثم يستدير نحو ماريا وأحمد ويقول: هل وجدتم أي شيء جديد أو أي أمر ملفت للاهتمام لدى مراجعتكما للحديث الذي جرى بين أحمد والمسيو "عازر" قبل مقتله، وخاصة موضوع مكان وتاريخ انعقاد مؤتمر المسيو "عازر" الذي أخبر أحمد عنه؟

يجيب أحمد: لقد استرجعت مع ماريا كل تفصيل مرَّ معي في لقائي القصير جدًا مع المسيو "عازر" وأؤكد لكما من جديد أنه قد دعاني وحدد لي موعد وتاريخ ومكان انعقاد المؤتمر بعد خمسة عشر يومًا من تاريخ ذلك اللقاء في فندق "رويال موريس" وسط العاصمة باريس..

يرد "ميشيل" معقِّبًا على ما يقوله أحمد: وهذا في الحقيقة ما يثير استغرابي.. فوفق ما أخبرني به المحقق "برنار" أنهم لم يجدوا في التحقيقات التي قاموا بها وجود أي حجز لذلك المؤتمر في ذلك الفندق!!

وقد أكدت إدارة الفندق للشرطة من أنه لم يكن هناك أي حجز لإقامة أي مؤتمر باسم المسيو "عازر موسان" ولا حتى بتاريخ المؤتمر الذي أخبر به المسيو "عازر" أحمد، ولا كذلك في أي تاريخ آخر..

مع أننا قد وجدنا تاريخ المؤتمر المزمع عقده مدونًا في دفتر يوميات المسيو "عازر"، والتاريخ المدون مطابق للموعد الذي دعى فيه المسيو "عازر" أحمد لحضور المؤتمر!!

تتابع "ماريا" وهي تقول: تمامًا وهذا فعلًا ما يدعو للاستغراب!!

تنهض "ماريا" من مكانها وتتجول في أرجاء غرفة المكتبة لعدة دقائق وهي تفكر بصمت..

ثم تقف وتلتفت نحو ميشيل الذي ينظر إليها كذلك فجأة بعد أن كان قد شرد قليلًا وهو يفكر ويركز على موضوع المؤتمر وإنكار إدارة الفندق وجود أي حجز له في التاريخ الذي كان قد سجله المسيو "عازر موسان" في مدونته والذي دعى فيه أحمد لحضور المؤتمر..

فتنظر ماريا في عيني ميشيل وهي تقول:

ميشيل هل تفكر مثلما أفكر؟!

يجيب ميشيل قائلًا: بل وأعتقد أني قد سبقتك فيما تفكرين به؟!

ويتابع وهو ينهض من مكانه استعدادًا للمغادرة مع ماريا قائلًا:

هيا بنا إذًا.. ماريا..

يسأل أحمد مستغربًا: لكن إلى أين ستذهبان؟

يجيب ماريا وميشيل معًا:

إلى حيث كان سيعقد المؤتمر.. إلى فندق "رويال موريس"..

الفصل الواحد والخمسون

في شارع "الشانزليزيه" أحد شوارع باريس الشهيرة يدخل ميشيل وماريا من البوابة الرئيسية لفندق "رويال موريس" ويتوجه "ميشيل" بحديثه إلى ماريا قائلًا:

لقد أخبرني المحقق "برنار" أن مسئول الفعاليات في هذا الفندق المسيو "رينيه" كان قد أكد له أنه لم يكن هناك لمؤتمر المسيو "عازر" أي حجز مسبق مسجل لديه.. ومع ذلك لا بد لنا أن نجري بعض الحديث مع المسيو "رينيه" فقد نتوصل منه لأي تفصيل ما يفيد القضية..

ترد ماريا: أوافقك الرأي في ذلك ميشيل..

يقف ميشيل وماريا أمام قسم الاستقبال في فندق "رويال موريس" ويتوجه "ميشيل" نحو موظف الاستقبال الذي يبادره بابتسامة وهو يقول:

صباح الخير سيدي، كيف أستطيع خدمتكم؟

يجيب ميشيل:

نريد أن نقابل مدير ومسئول حجوزات الفعاليات في الفندق المسيو "رينيه" لو سمحت.

موظف الاستقبال:

حسنًا، يمكنما الاستراحة لدقائق لأبلغ إدارة الفعاليات.

ماريا: شكرًا لك

يجلس ميشيل وماريا في ردهة الفندق في انتظار لقاء مدير الفعاليات المسيو "رينيه".. وبعد بضعة دقائق من الانتظار تقترب شابة ممشوقة القوام ذات شعر أشقر وتقف أمام ماريا وميشيل وهي تقول مبتسمة:

صباح الخير، أنا "إليزابيث" مسئولة الفعاليات في الفندق كيف أستطيع خدمتكما أيها السادة؟!

ينظر "ميشيل" نحو تلك الشابة مستغربًا ثم يقول:

عفوًا آنستي، لكننا قد طلبنا مقابلة المسيو "رينيه" مدير ومسئول حجوزات الفعاليات..

تجيب "إليزابيث":

نعم سيدي.. لكن المسيو "رينيه" قد أخذ إجازة طويلة منذ أكثر من أسبوع ليبدأ عمله في فرع الفندق في كندا التي انتقل إليها مؤخرًا..

ينظر ميشيل وماريا إلى بعضهما البعض وقد تفاجآ من رد تلك الشابة:

إلى كندا!!!

تنظر "اليزابيث" مستغربة من ردة فعل ماريا وميشيل ثم تتابع قائلة:

نعم سيدي، وأنا حاليًا المسئولة عن إدارة الفعاليات في هذا الفندق، فكيف أستطيع خدمتكما؟

تقول ماريا: لكن أليس ذلك غريبًا وفي هذه الفترة بالذات؟؟

ترد "إليزابيث" باستغراب: عفوًا ما هو الغريب في ذلك؟ لم أفهم؟!

ينظر ميشيل نحو إليزابيث وهو يوجه كلامه إليها ويقول:

في الحقيقة آنستي كنا نريد أن نسأل عن الفعاليات التي ستقام بتاريخ الثامن عشر من هذا الشهر؟؟

تراجع إليزابيث المفكرة التي تدوّن فيها الفعاليات الشهرية وتتصفح صفحات المفكرة عدة مرات بحثًا عن الفعاليات المحجوزة في التاريخ الذي سأل عنه ميشيل ثم تقول:

بتاريخ الثامن عشر من هذا الشهر وفق ما لدي هنا لا يوجد أي فعالية مسجلة أو حجز لنشاط ما..

تلتفت ماريا نحو إليزابيث قائلة: آنستي تأكدي جيدًا لو سمحتي..

ألم تجدي حجزًا لإقامة مؤتمر باسم المسيو "عازر موسان" في ذلك التاريخ ؟! فقد وجه الدعوة إلى عدد من الأشخاص لحضور ذلك المؤتمر، وأنا كصحفية لدي علم بذلك التاريخ، وأن مكان انعقاد المؤتمر هو هنا في هذا الفندق!!

يظهر بعض الارتباك على وجه "إليزابيث" ثم تنظر نحو ميشيل وماريا وتقول: تقصدون المسيو "عازر موسان" الذي وُجد مقتولًا منذ أكثر من عشرة أيام؟!

يجيب ميشيل: نعم للأسف..

إليزابيث: في الحقيقة أنا استلمت وظيفتي هنا منذ أسبوع، وقد جاء محققون من الشرطة مرتين قبل ذلك وتم سؤالي أيضًا عن ذلك المؤتمر ولم أجد لديَّ أي حجز للمؤتمر الذي تتحدثون عنه أيضًا..

وتتابع إليزابيث قائلة: وكذلك لم أجد أية ملاحظة من المسئول السابق المسيو "رينيه" حول ذلك، وقد راجعت مدير الفندق المسيو "جاك" والذي أكد لي أيضًا أن لا علم له بذلك المؤتمر، وهذا ما أكده هو شخصيًا لمحققي الشرطة..

تنظر ماريا إلى ميشيل وهي تقول: وهذا ما يثير استغرابي أكثر!!

ترد إليزابيث: عفوًا.. لم أفهم ما تقصدينه آنستي؟

يتابع ميشيل قائلًا: آنسة "إليزابيث" أرجو أن تتفهمي إلحاحنا في بعض الأسئلة.. فالموضوع الآن متعلق بحياة إنسان بريء اتُّهِم خطأ بجريمة لم يرتكبها..

تجيب إليزابيث:

في الحقيقة ليس لدي الآن ما أستطيع أن أفيدكما به حول هذا الموضوع للأسف.

ميشيل: حسنًا.. نشكرك آنستي على سعة صدرك، وفي كل الأحوال هذه بطاقتي وأرقامي إن استجد لديكِ أية معلومة حول الموضوع، أرجو منك الاتصال بي في أي وقت..

تأخذ إليزابيث البطاقة من ميشيل وتصافحهما مودعة:

حسنًا.. تشرفت بزيارتكما سيدي.

يخرج ميشيل وماريا من ذلك الفندق ويستقلا سيارة ميشيل، لينطلقا متوجهين في طريق العودة باتجاه منزل ميشيل..

وفي طريق العودة تلتفت ماريا نحو ميشيل وهي تقول:

ميشيل.. ألم تلاحظ أن هناك شيء غريب وغير منطقي؟؟

يجيب ميشيل قائلًا:

في الحقيقة نعم، أوافقك الرأي ماريا، وأفكر في ذلك فعلًا!

فإجازة طويلة مفاجئة، ثم انتقال مكان عمل المسيو "رينيه" مسئول الفعاليات بمثل هذا الشكل المفاجيء هل يمكن أن يكون صدفة؟؟ وفي هذا الوقت بالذات؟!

تتابع ماريا وتقول:

تمامًا، وهذا ما كنت أقصده.. وكذلك ألم تلاحظ أيضا تغيُّر وجه إليزابيث وهي تعيد تصفح مفكرة الحجوزات لديها؟!

يرد ميشيل: نعم لقد لاحظت ارتباكها قليلًا..

ماريا: في الواقع لا أعرف لماذا لم أكن مرتاحة للحديث الذي جرى في ذلك اللقاء!!

ميشيل: نعم.. وأشعر بأنه يوجد شيء ما ليس طبيعيًا..

تتابع السيارة سيرها حيث يسود الصمت من قبل ميشيل وماريا، اللذين غرقا في تفكير عميق في كل ما يحدث من مجريات هذه القضية، وقد بدا على وجهيهما شيئًا من عدم الرضا وهما يتابعان طريقهما عائدين إلى منزل ميشيل حيث ينتظرهما أحمد..

الفصل الثاني والخمسون

في مساء ذات اليوم وفي منزل البروفيسور ميشيل في أحد ضواحي باريس يجتمع الأصدقاء ميشيل وماريا وأحمد في غرفة المكتبة، وهم يتناقشون حول المستجدات الأخيرة في قضية مقتل المسيو عازر، وكيفية توجيه التحقيق في طريق إثبات براءة أحمد من تلك الجريمة..

ويقول أحمد:

إذًا بعد نفي وجود أي دليل لذلك المؤتمر عدنا إلى نقطة الصفر أصدقائي.. وكل ما توصلنا إليه مع بالغ أهميته، لا يشكل دليل براءة ينقذني من أن أكون متهمًا بتلك الجريمة البشعة..

ويصمت للحظات ثم يقول بحزن:

أرى أني قد تسببت لكما بالكثير من المتاعب، وقد قمتما بجهود كبيرة جدًا، وأرى أنه من الأفضل أن أقوم بتسلم نفسي للشرطة، فلا أستطيع أن أبقى هاربًا طوال الوقت، وهذا ما قد يؤخذ عليَّ أيضًا وبأن هروبي دليل آخر على اتهامي بتلك الجريمة..

تنظر ماريا نحو أحمد وهي تحدق بعينيها مستغربة من حجم اليأس الذي قد أصاب أحمد فجأة، ثم تقول:

أحمد.. ماذا تقول!!

بعد كل هذا التعب، هل من المعقول أن نيأس الأن..

ويقف ميشيل قرب أحمد وهو يربت على كتفه مخاطبًا:

أقدر حجم ضغط هذه المشكلة عليك أحمد، وتلك الجريمة التي اتُّهمت بها ظلمًا للأسف.. لكن يجب أن لا نيأس أبدًا، وخاصة بعد كل ما توصلنا إليه، وإيجاد دوافع جديدة للجريمة تبعد عنك هذا الاتهام..

وبينما يتحدث ميشيل مع أحمد يرن هاتف ميشيل مقاطعًا لذلك الحديث، فيمسكه ثم يجيب على المتصل وهو يقول:

آلو مساء الخير، ميشيل يتكلم، من معي؟

فيجيبه على الطرف الآخر صوت أنثوي مألوف بعض الشيء لدى ميشيل:

آلو.. مساء الخير بروفيسور ميشيل..

ميشيل: مساء الخير من معي من فضلك؟

تجيب صاحبة ذلك الصوت قائلة:

أنا إليزابيث مسئولة الفعاليات في فندق رويال موريس، لقد التقينا صباحًا في الفندق..

يرد ميشيل متفاجئًا: نعم لقد عرفتك!! أهلا آنسة إليزابيث..

إليزابيث: آسفة إن كنت قد اتصلت في وقت غير مناسب..

ميشيل: لا أبدًا.. لا تقلقي، فقط فوجئت قليلًا..

تتابع إليزابيث وهي تقول بارتباك:

في الحقيقة بعد زيارتك صباح اليوم والآنسة ماريا، وسؤالكما حول موضوع ذلك المؤتمر، وكذلك زيارة رجال التحقيقات في الشرطة قبل ذلك ولنفس الموضوع ازدادت مخاوفي، خاصةً وأنا أرى أشياء غير طبيعية ولا منطقية تدور من حولي بخصوص موضوع المؤتمر والمدير السابق.. ولا أريد أن أكون

مشاركة دون قصد بأي أمر أو شيء غير قانوني أو مشبوه قد أُسأَل عليه لاحقًا، أو أن يعاتبني عليه ضميري يومًا.

يرد ميشيل قائلًا: حول أي أشياء تقصدين آنسة إليزابيث؟؟

إليزابيث:

لا أستطيع أن أشرح ذلك على الهاتف، فهل من الممكن أن نتقابل وجهًا لوجه؟

ميشيل: بكل سرور، وأعتقد أن ذلك أفضل..

إليزابيث: حسنًا.. لنلتقي إذًا غدا في العاشرة صباحًا في أحد المقاهي القريبة من الجامعة حيث تعمل، وبعيدًا عن الفندق..

ميشيل موافقًا: حسنًا اتفقنا، وسأكون وماريا في انتظارك..

إليزابيث: حسنًا مع السلامة.

ميشيل: مع السلامة.

يغلق ميشيل هاتفه وهو يشاهد ماريا تنظر له مستغربة وهي تقول:

ماذا يا ترى تريد إليزابيث؟

ميشيل: لا أعلم.. وفي الحقيقة لقد فاجأتني.. ولكن يبدو أننا نسير في الاتجاه الصحيح، سنلتقي بها غدًا صباحًا ونستمع إلى ما لديها..

يقول أحمد معقبًا على ذلك الاتصال:

هل من المعقول أن يكون لديها معلومات مهمة تفيد في إثبات براءتي؟!

يجيب ميشيل: نأمل ذلك يا صديقي.. تفاءل وسنعرف ذلك غدًا..

تمر الساعات مسرعة، ويبدو أن الوقت قد تأخر ليلًا فيفترق الأصدقاء الثلاثة لأخذ قسط من الراحة، وشحن قواهم ببعض من النوم، وبأمل أن يجلب صباح الغد أخبارًا تدعو للتفاؤل..

ويجلس أحمد في غرفته محاولًا الاسترخاء وهو يفكر في ما يمكن أن يكون لدى إليزابيث من معلومات قد تفيد شيئًا في سبيل إثبات براءته..

ويفكر كثيرًا بكلام ماريا له وتشجيعه بعدم اليأس، وخاصة بعد كل الجهود والنتائج الأخيرة.. فيقول في نفسه:

نعم.. يجب أن لا أدع لليأس طريقًا نحوي.. نعم، يجب أن لا تموت لدي شعلة الأمل..

الفصل الثالث والخمسون

في العاشرة صباحًا من اليوم التالي وفي أحد المقاهي القريبة من الجامعة، حيث مقر عمل البروفيسور ميشيل يجلس هو وماريا على إحدى طاولات المقهى في انتظار إليزابيث، التي تدخل المقهى في الموعد المتفق عليه، و قد ارتسمت على وجهها علامات ارتباك واضحة، وتسير نحو مكان جلوس ميشيل وماريا وهي تنظر من حولها، وتقف أمامهما ثم تحييهما قائلة:

صباح الخير، أرجو أن لا أكون قد تأخرت..

ميشيل: صباح الخير آنسة إليزابيث، لا أبدًا.. في الموعد تمامًا، تفضلي بالجلوس رجاءً..

تجلس إليزابيث وهي تنظر إلى ميشيل وماريا وتقول:

أشكر حضوركما وتلبية دعوتي لهذا اللقاء، فأنا في الحقيقة لم أستطع أن أتجاهل كل ما يحدث حولي من أمور غريبة، لذلك فضلت أن نلتقي ونتكلم..

تقول ماريا: تفضلي إليزابيث، أخبرينا ما هي الأشياء غير الطبيعية التي تتحدثين عنها؟!

إليزابيث: نعم آنستي.. فبعد زيارتكما الأخيرة للفندق واجتماعي بكما وزيارة محققي الشرطة من قبل.. بدأت بمراجعة الكثير من الأمور التي لم أعطِ لها أهمية قبل ذلك..

ففي البداية كان غياب المسيو "رينيه" مدير الفعاليات السابق المفاجيء دون سابق إنذار، ومن ثم تم تسليمي مكانه بشكل مباشر حتى قبل أن

يذاع خبر انتقاله لأحد فروع الفندق في كندا، رغم أني قد علمت لاحقا بأنه لا يوجد أي منصب إداري شاغر في فرع الفندق في كندا!!

ثانيًا عندما جاءت الشرطة وسألت عن موضوع المؤتمر، وكنت لم أستلم منصبي الجديد بعد كمدير للفعاليات في الفندق بدلًا من المسيو "رينيه"، حيث جاء الرد من المسيو "جاك" مدير الفندق حاسمًا وقد أنكر فيه وجود أية حجوزات باسم المسيو "عازر موسان" لإقامة مؤتمر في التاريخ الذي ذكرته الشرطة والذي أخبرتموني عنه أيضًا بالأمس، وعندما سألت المسيو "جاك" عن ذلك، كان رده عصبيًا وكان حادًا في جوابه وأمرني أن أنسى أمر هذا المؤتمر نهائيًا.

وعندما جئتما أمس في زيارة إلى الفندق، كنت حينها قد وجدت مفكرة الحجوزات للتو، والتي اختفت منذ استلامي لمهامي الجديدة كمديرة لحجوزات الفعاليات، وعندما بحثت عن الحجوزات التي يتوافق تاريخها مع تاريخ المؤتمر المزعوم فوجئت بعدم وجود أي صفحات في المفكرة لذلك التاريخ الذي سألتموني عنه وتأكدت بعد مراجعتها بدقة أنها قد مُزِّقت حديثًا..

ولكن عندما علمت منكما أن هناك حياة إنسان بريء على المحك، لم أستطيع السكوت هنا عن كل تلك الأشياء!!

تنظر ماريا نحو إليزابيث مندهشة:

ماذا تقولين!! فعلًا إنها نقاط مهمة وتثير الريبة!!

فتضيف إليزابيث: نعم، وحتى بعد مراجعتي لنظام الحجوزات الإلكتروني في الفندق كذلك لم أجد أبدًا أي ملف بتاريخ موعد المؤتمر بل لم أستطع الدخول إلى مراجعة الحجوزات الموجودة في ذلك اليوم!!

أي أن ملف حجوزات ذلك التاريخ قد حُذِف من أجهزة قسم الحجوزات والفعاليات التي أعمل عليها.

ميشيل مقاطعا : ماذا يعني هذا؟

إليزابيث: يعني أن الملف قد حذف من الإدارة العليا ولكل الأقسام دون مبرر منطقي!!

ماريا: من الذي يمكنه أن يفعل ذلك في الفندق؟

تجيب إليزابيث: المسيو "جاك" مدير الفندق هو الشخص الوحيد الذي يستطيع الاطلاع على أية حجوزات وحذف أي ملفات لدى أي قسم عبر جهاز الكمبيوتر المركزي الموجود في مكتبه.

تنظر ماريا إلى ميشيل وهي مستغربة مما تسمعه من حديث إليزابيث إليهما..

فينظر ميشيل نحو ماريا قائلًا:

لقد أخبرني المحقق "برنار" أنه في إفادة المسيو "جاك" مدير الفندق للشرطة، أكد أيضًا بعدم وجود أية حجوزات باسم المسيو "عازر موسان" أو أي حجوزات في ذات تاريخ المؤتمر المفترض.

فتلتفت ماريا نحو إليزابيث وتسألها قائلة: هل يمكن وفق النظام المعمول به لديكم في الفندق أن يتم حذف ملف حجوزات تاريخ مؤتمر المسيو "عازر" في جهاز الكمبيوتر المركزي أيضًا؟

تجيب إليزابيث قائلة: يمكن ذلك.. لكن بشرط، أن يتم حذف كل النظام وإعادته تثبيته من جديد على كل الأجهزة المرتبطة به، وهذا يحتاج إلى وقت وجهد، والنظام الإلكتروني المعمول به لم يتم إعادة تثبيته خلال الفترة السابقة، وآخر مرة تم ذلك، أعتقد أنه كان منذ سنة..

لكني سمعت منذ يومين بأن الاستعدادات قائمة لحذف ذلك النظام الإلكتروني وإعادة تثبيت نسخة مطورة عنه..

يتساءل ميشيل:

كيف يمكننا أن نطّلع على جهاز الكمبيوتر المركزي الموجود في مكتب المسيو "جاك"؟

ترد إليزابيث وقد بدا عليها الارتباك الشديد: ليس من السهولة ذلك دون علم المسيو "جاك" وقد أخبرتكم أنه قد حذرني من الحديث في هذا الموضوع!!

تتابع ماريا قائلة: وهذا ما يزيد من شكوكنا!!

تنظر إليزابيث نحو ماريا بتعجب: ماذا تقصدين؟؟

يجيب ميشيل مقاطعًا ومتوجهًا بحديثه نحو إليزابيث:

عزيزتي إليزابيث، نحن نقدّر هذه المعلومات التي أخبرتنا بها الآن.. ولكن كما حدثناكِ سابقًا، فهناك حياة إنسان بريء على المحك.

فإن قمت بمساعدتنا في الوصول إلى الحقيقة، قد نستطيع أن نصل لطرف خيط في تحقيق براءته!!

ترد إليزابيث بارتباك:

أتفهم ذلك، ومتعاطفة جدًا مع ما تقولانه.. ولكن في هذا مسئولية.. وقد أفقد عملي!!

تنظر ماريا إلى عيني إليزابيث ثم تقول:

ولكنكِ ستكسبين راحة ضميرك دومًا، وأظن أن هذا ما دعاكِ للقائنا اليوم..

تقول إليزابيث وقد تبدل لون وجهها: لكن هناك مسئولية كبيرة في الموضوع!!

يتابع ميشيل:

عزيزتي إليزابيث.. المسئولية ستبقى موجودة على الجميع إلى أن ننقذ "أحمد" من التهمة التي اتُّهم بها ظلمًا..

تضع ماريا يدها على يد إليزابيث وتنظر لها برجاء قائلة:

ماذا قلتِ إليزابيث؟ هل ستساعدينا؟

تصمت إليزابيث للحظات وهي تفكر فيما سترد.. ثم تهز برأسها وهي تقول:

يبدو أنه ليس في اليد حيلة، حسنًا.. غدًا لدي مناوبة ليلية في الفندق، ومن عادة المسيو "جاك" أن يغادر مكتبه ليلًا في الساعة العاشرة مساءً، ويمكن في هذا الوقت أن أسَلِّم لكم نسخة المفتاح الاحتياطي لمكتب مدير الفندق الموجودة لدى مكتب الأمن في بهو الاستقبال، لتستطيعا الدخول إلى مكتبه والإطلاع على ملفات جهاز الكمبيوتر المركزي.. ومنها إلى ملف الحجوزات السنوي الكامل..

تنظر ماريا إلى إليزابيث بفرح وهي تقول:

شكرًا إليزابيث، توقعت منك أن تقفي إلى جانب صوت ضميرك، ولكن هناك سؤال مهم الآن، هل يكون جهاز الكمبيوتر المركزي في مكتب المسيو "جاك" متاحًا دومًا؟ أم من الممكن أن يكون مغلقًا حينها؟

تجيب إليزابيث:

من المؤكد أنه سيكون مقفلًا، ولكني أعلم أن المسيو "جاك" لديه مفكرة يضعها في درج مكتبه مكتوب فيها كلمة السر الخاصة بجهاز الكمبيوتر

المركزي لحالات الطوارىء، ويمكن الاطلاع عليها ومعرفة كلمة السر الخاصة بجهاز الكمبيوتر المركزي..

ميشيل: ممتاز.. إذًا لدينا فرصة مهمة، ويجب أن نخطط لها بشكل جيد ودقيق..

إليزابيث وهي تنظر إلى ساعتها: يبدو أنني تأخرت ويجب علي الذهاب.

ميشيل: حسنًا إليزابيث لكِ كامل الحرية، ونشكرك جزيل الشكر لمساعدتك الكبيرة لنا، وسنلتقي غدًا في تمام الساعة العاشرة مساءً في الفندق كما اتفقنا..

تنهض إليزابيث من مكانها قائلة: حسنًا إذًا، إلى اللقاء غدًا.

ماريا: إلى اللقاء غدًا، وكل الشكر لك إليزابيث مرة أخرى.

تبتسم إليزابيث وتغادر المقهى مسرعة.

بينما يجلس ميشيل وهو يفكر بعمق فيما تحدثت به إليزابيث، وماريا تنظر إليه متأملة لبضع دقائق، ثم تقاطع شروده قائلة:

ميشيل، أين سرحت؟

ميشيل: في الحقيقة أفكر فيما قالته إليزابيث..

ماريا: امم.. هل برأيك أن إخفاء وجود حجز لمؤتمر المسيو "عازر" في الفندق هو عمل مقصود؟!

ميشيل: من الممكن ذلك.. فكل ما توصلنا إليه حتى الآن يثبت أن هناك من كان يعمل على إعاقة المسيو "عازر موسان" من إقامة المؤتمر، ولكن لابد من العمل بدقة وحذر حتى الوصول إلى الحقيقة..

ماريا: نعم، كلامك صحيح ميشيل..

ينهض ميشيل من مكانه وهو ينهي فنجان قهوته، ثم ينظر نحو ماريا مبتسمًا: حسنًا بما أنني قريب من مكان عملي، هل لي أن أستأذنك للذهاب إلى مكتبي في الجامعة للقيام ببعض الأعمال المهمة، ولنلتقي مساءً في منزلي مع أحمد..

تجيب ماريا وهي تبتسم: حسنًا.. لقد ذكرتني بالعمل، فلدي الكثير من المتابعات الهامة يجب أن أقوم بها كذلك..

تنهض وهي تتابع ضاحكة: سأذهب لمتابعة ماذا يجري في عالم الصحافة اليوم، وأراك مساءً..

ميشيل: نعم، إلى اللقاء ماريا..

ماريا: إلى اللقاء ميشيل..

الفصل الرابع والخمسون

في المساء يلتقي الأصدقاء الثلاثة في غرفة المكتبة في منزل البروفيسور ميشيل ويبادر أحمد في الحديث قائلًا: إذًا إليزابيث تقول أنها قد لاحظت اختفاءً مريبًا لصفحة قائمة الحجوزات المؤرخة في الثامن عشر من الشهر الجاري، وهو نفس تاريخ المؤتمر الذي حدده المسيو "عازر"؟

ميشيل: نعم أحمد، وهذا ما أثار الشكوك لدى إليزابيث وخاصة بعد اجتماعنا معها، والذي جعلها تعيد النظر في تلك الأمور الغريبة التي حدثت خلال الفترة الأخيرة، بدايةً من أخذ المسيو "رينيه" مدير الفعاليات السابق في الفندق لإجازة طويلة مفاجئة، ثم الإعلان غير المنطقي بانتقاله إلى فرع الفندق في كندا رغم معرفتها بعدم وجود شاغر في ذلك الفرع، ثم اختفاء صفحات الحجوزات المؤرخة في التاريخ المفترض للمؤتمر من مفكرة الحجوزات والتي كانت مفقودة لأيام..

وكذلك والأهم هو اختفاء ملف الحجوزات الإلكتروني المؤرخ بذات التاريخ الذي كان المسيو "عازر" قد أخبرك عنه لإقامة المؤتمر من على نظام الحجز الإلكتروني لدى أجهزة كافة أقسام الفندق..

أحمد: فعلًا هناك شيءٌ مريب وغير منطقي..

تتابع ماريا وتقول: لذلك سنضطر غدًا مساءً إلى القيام بتسلل ودخول مكتب المسيو "جاك" مدير الفندق بمساعدة من إليزابيث للتأكد من وجود أو عدم وجود تلك الحجوزات التي كانت مسجلة في نفس تاريخ المؤتمر الذي أعلن عنه المسيو "عازر" قبل مقتله، وذلك عبر إلقاء نظرة على ملفات الحجوزات في جهاز الكمبيوتر المركزي الموجود في مكتب المسيو "جاك"، والذي يتم تثبيت كامل الحجوزات السنوية عليه.

أحمد: لكن ما أدراكم من أن يكون أحد قد قام بحذف ملف الحجوزات من على جهاز الكمبيوتر المركزي أيضًا؟!

يجيب ميشيل قائلًا: في الحقيقة أخذنا هذا الافتراض في الاعتبار، لكن إليزابيث قالت أنه لا يمكن حذف أي ملف من جهاز الكمبيوتر المركزي إلا بحذف كامل ذلك النظام من على كل الأجهزة وإعادة تثبيته من جديد..

تتابع ماريا: وهذا مالم يحدث خلال الفترة الأخيرة، وقد أكدت إليزابيث أن ذلك يحتاج إلى وقت وجهد، وأن آخر عملية لإعادة حذف وتثبيت النظام الإلكتروني كانت منذ عام..

لكن إليزابيث كذلك أخبرتنا بأنها قد سمعت في الفندق بأن عملية الإعداد قائمة لحذف ذلك النظام وتحميل نسخة مطورة عنه، وأنها ستتم خلال يومين..

وعليه فلا بد لنا من دخول مكتب المسيو "جاك" غدًا قبل أن يتم مسح ذلك النظام الإلكتروني وإعادة تثبيت نسخة جديدة..

أحمد: هذا شيء يدعو للتفاؤل..

ماريا: نعم، لذلك قررنا أنا وميشيل أن نقوم بعملية التسلل غدًا مساءً لمكتب "جاك" بمساعدة إليزابيث، ومحاولة معرفة تلك الحقيقة الضائعة..

ينظر أحمد نحو ماريا وميشيل وهو يقول: لكن هذا قد يشكل خطرًا عليكما!!

يجيب ميشيل: نعم من الوارد ذلك.. لكن لا بد من القيام بذلك الأمر.

فينهض أحمد وهو يقول: نعم.. ولكن كذلك من الأفضل أن يقوم شخصٌ آخر بهذه العملية..

تقول ماريا متعجبة: ومن سيكون ذلك الشخص؟

يجيب أحمد: أنا طبعًا!!

ينظر ميشيل وماريا إلى أحمد مستغربين مما يقوله.. وتعقب ماريا قائلة:

لكن في ذلك خطرًا أكبر عليك!! هل نسيت أنك ما زلت مطلوبًا في نظر القانون؟!

يجيب أحمد: طبعًا لا.. ولذلك من الحكمة أن أقوم أنا بتلك المهمة، فأنا في كل الحالات ما زلت أعد مطلوبا للعدالة، ويجب أن أقوم بالبحث عن دليل براءتي بنفسي، ولا أعرض الآخرين لأي خطر..

لكن إن قمتما بتنفيذ تلك المهمة بأنفسكما، وفي حال حدوث أي خطأ.. فستكون نتائج ذلك أكثر خطورة وتأثيرًا عليكما، وأريد كذلك أن لا تنسيا وضعكما الاجتماعي..

وكذلك من الحكمة أن لا نصبح نحن الثلاثة الآن في مواجهة القانون!!

يرد ميشيل بشيء من التردد: لكن!!

فيقاطعه أحمد قائلًا: لا داعي للتردد الآن..

ثم يتابع وهو يقول: اسمعا، لدي خطة للقيام بذلك..

ماريا: خطة!! ماهي الخطة؟؟

يجيب أحمد: حسنًا.. دعونا نجلس بهدوء لأخبركما ما هي خطتي في ذلك..

ويقترب ميشيل وماريا من أحمد ليجلس الجميع حول طاولة غرفة المكتبة الرئيسية، ويقوم أحمد بشرح خطته وملاحظاته لمهمة التسلل إلى مكتب المسيو "جاك" مدير الفندق، وماريا وميشيل يستمعان لما يقوله بتركيز شديد..

الفصل الخامس والخمسون

في مساء اليوم التالي، وبعد أن تجاوزت الساعة العاشرة مساءً.. تدخل ماريا وأحمد من البوابة الرئيسية لفندق "رويال موريس"، ويسيران معًا نحو ردهة الاستقبال ثم يجلسان على أحد الطاولات القريبة من بار الفندق، لتشير ماريا بيدها منادية للنادل المتواجد في صالة البار..

يتقدم النادل مقتربًا نحو الطاولة التي تجلس عليها ماريا وأحمد، ثم ينظر إلى ماريا قائلًا:

مساء الخير.. تفضلي سيدتي، ماذا أقدم لكما؟

تجيب ماريا وهي تحاول أن تعطي انطباعًا للنادل بأنها قد أسرفت في الشرب وتريد أن تصحو من أثر الشراب:

أريد كوبًا مضاعفًا من القهوة لو سمحت..

يبتسم النادل قائلًا: كما تأمرين سيدتي..

ثم يلتفت نحو أحمد ويقول: وحضرتك سيدي؟؟

ينظر أحمد نحو النادل دون تركيز ويجيب: لا بأس بكوب قهوة آخر..

يتابع أحمد وهو ينظر إلى ماريا مخاطبًا:

حبيبتي ريثما يجلب لنا هذا الشاب اللطيف القهوة سأستلم مفتاح غرفتنا من الاستقبال وأجري اتصالًا هامًا..

تهز ماريا رأسها موافقة وهي تلتفت نحو النادل وتقول:

حسنا.. هيا لو سمحت ولا تنسى أن تجلب لي مع القهوة كوبًا من الماء..

ينحني النادل برأسه وهو يقول:

كما تأمرين سيدتي، سأقوم بإعداد طلباتكما فورًا..

ثم يبتعد النادل متجهًا نحو البار..

بينما يقوم أحمد بالسير باتجاه مكتب الاستقبال في الفندق ليجد إليزابيث تنظر إليه وهي تقف في قسم الاستقبال بجانب أحد الموظفين المنشغل بتلقي أحد الاتصالات..

تقترب إليزابيث من أحمد وتسلّمه نسخة من مفتاح مكتب مدير الفندق المسيو "جاك" بعد أن تمكنت من أخذ النسخة الاحتياطية الموجودة لدى مكتب الأمن دون أن ينتبه لها أحد من موظفي أمن الفندق..

ثم تبتسم وهي تنظر إلى أحمد وتقول له بصوت يمكن لزملائها في قسم الاستقبال أن يسمعه لتبدو وكأنها تسلِّم مفتاح غرفة لنزيل في الفندق:

تفضل سيدي.. أتمنى لك ليلة سعيدة..

يبتسم أحمد في وجه إليزابيث شاكرًا، ويتوجه عائدًا نحو مكان جلوسه مع ماريا، وهو يتصرف تصرف طبيعي كأي نزيل في الفندق..

تلتفت ماريا نحو أحمد باهتمام وهي تسأل بصوت منخفض:

هل استلمت المفتاح؟؟

يجيب أحمد: نعم هاهو المفتاح في يدي..

ويتابع قائلًا: وسأتوجه الآن إلى مكتب المسيو "جاك"، وأنتِ ماريا راقبي الأجواء من هنا ولنبقى على اتصال عبر جهازَيّ الجوال لأي طارئ..

ترد ماريا: اتفقنا أحمد.. وتوخى الحذر رجاءً.

من الجهة الأخرى يتقدم نادل الفندق مقتربًا وهو يحمل في يديه طبقًا يحتوي على كوب الماء الذي طلبته ماريا ويقوم بتقديمه لها:

تفضلي سيدتي.. هذا الماء الذي طلبتِه..

يتوجه أحمد نحو النادل ويسأله قائلًا:

لو سمحت هل من دورة مياه قريبة؟

يجيب النادل: نعم سيدي.. ويشير قائلًا:

اتجه هناك نحو الأمام ثم اليمين بعد المصعد..

أحمد: شكرًا..

ثم ينظر إلى ماريا وهو يقول: عن إذنك حبيبتي سأعود بعد قليل..

ويهمّ النادل بالمغادرة وهو يقول:

عن إذنكما، وخلال دقائق ستكون القهوة التي طلبتماها جاهزة سيدتي..

يسير أحمد باتجاه الممر المؤدي حيث دورة المياه.. ثم يتوقف قليلًا وهو يتلفت من حوله ويدخل المصعد بسرعة دون أن يلفت نظر أحد، ويضغط على زر الطابق الثالث حيث يقع مكتب مدير الفندق المسيو "جاك"..

بينما ماريا تراقب الأجواء من بهو الفندق..

في الطابق الثالث يخرج أحمد من المصعد وهو يسير بحذر في ممر طويل ليجد لافتة على أحد الأبواب كتب عليها "مكتب مدير الفندق" ليقترب من ذلك الباب ويُخرِج نسخة المفتاح الذي سلمته إياها إليزابيث، ويقوم بفتح باب المكتب بحذر وارتباك، ثم يدخل ويغلق الباب من وارئه..

أما في بهو الفندق وفي المقهى بالتحديد تجلس ماريا في مقهى الفندق تنظر من حولها بقلق مركزة على بوابة الفندق، وتلمح عن بعد إليزابيث وهي تقف عند مكتب الاستقبال، وقد بدأ يظهر عليها شيء من الارتباك..

فترتشف من فنجان قهوتها بضعة رشفات محاولة أن تتمالك أعصابها وهي تحدّث نفسها:

يا ترى هل سيتمكن أحمد من دخول ذلك المكتب والوصول إلى شيء ما يستحق هذه المخاطرة؟

ليقطع ما تفكر به "ماريا " صوت رنين هاتفها حيث تتلقى اتصالًا من ميشيل عبر هاتفها المتحرك وهو يسأل مستفسرًا عن سير خطوات تنفيذ المهمة..

الفصل السادس والخمسون

في ذات الأثناء وفي الطابق الثالث من الفندق حيث مكتب المسيو "جاك"، يدخل أحمد المكتب وهو يشعر بارتباك شديد وينظر من حوله ويقول لنفسه:

لم يبقَ شيئًا لم يحدث معي إلا أن أدخل مكاتب الآخرين كاللصوص.. فكل هذه الأمور والمصائب تأتي مرة وحدة!

يفكر للحظات ثم يأخذ نفسًا قويًا ليطرد كل الأفكار التي تشوش على تركيزه في المهمة التي يقوم بها الآن، ويستجمع شتات نفسه ويقترب من جهاز الكمبيوتر الرئيسي الموجود على مكتب المسيو "جاك" مدير الفندق ليجده مقفلًا كما توقعت إليزابيث من قبل وأخبرت ماريا وميشيل بذلك..

يتمعن أحمد في جهاز الكمبيوتر الذي أمامه قائلًا:

الجهاز مقفل كما توقعت إليزابيث..

فيتأمل في تفاصيل طاولة المكتب لتقع عينه على أحد الأدراج الموجودة على يمين طاولة المكتب ويقول:

أظن أن هذا هو الدرج كما وصفته إليزابيث!!

ويتابع قائلًا: ولابد لي من أن أقوم بفتح هذا الدرج الذي أخبرتنا إليزابيث بأن فيه المفكرة التي تحتوي على كلمة سر جهاز الكمبيوتر..

يخرج أحمد من جيبه سكينًا صغيرة ويهمّ بمحاولة فتح ذلك الدرج وهو يمرر رأس السكين ويضغط بها نحو الأسفل والأعلى عدة مرات حتى يتمكن أخيرًا من أن يفتح ذلك الدرج وقد تصبب عرقًا..

آه.. نعم هاهي المفكرة.. يقول أحمد بعد أن تمكن من فتح ذلك الدرج..

ثم يوجّه على تلك المفكرة ضوءًا خافتًا من مصباح يدوي صغير ويبدأ بالبحث بين تلك الصفحات ليجد أخيرًا سطرًا قد كُتب على أحد الصفحات، يتضمن أرقامًا وحروفًا وبعض الرموز..

يتمعن أحمد في ذلك السطر وما كُتب عليه وهو يقول:

أظن أن هذه الرموز المكتوبة هنا هي كلمة سر هذا الكمبيوتر..

فيقوم بالضغط على لوحة مفاتيح جهاز الكمبيوتر الموجود أمامه وفق الأحرف والرموز التي وجدها في مفكرة المسيو "جاك" مدير الفندق وهو ينظر إلى الشاشة ويقول بترقب شديد: هيا هيا..

إلى أن بدأ يسمع فجأة صوتًا خفيفًا يصدر من جهاز الكمبيوتر تعبيرًا عن عملية بدء الإقلاع والتشغيل، وشاشة جهاز الكمبيوتر الكبيرة قد بدأت تضيء لتظهر الملفات على تلك الشاشة شيئًا فشيئًا..

يصيح أحمد فرحًا: رائع ها قد تم إقلاع الجهاز من جديد.

ثم يتابع النظر بتركيز في شاشة جهاز الكمبيوتر المركزي حتى بدأت تظهر واضحة وهو يخاطب نفسه قائلًا:

ممتاز.. لأدخل الآن سريعًا إلى نظام الحجوزات ونبحث عن ذلك الملف المفقود وفق الخطوات التي أخبرتنا بها إليزابيث..

عندها يقوم أحمد بالضغط على أيقونة نظام الحجوزات الذي يحتوي على كامل حجوزات الفعاليات السنوية في الفندق، ليظهر من على تلك الشاشة ترتيب الحجوزات وفق تسلسل كامل لكل شهر من السنة فيقول فرحًا:

عظيم.. هاهو نظام الحجوزات الرئيسي في الفندق قد تم تفعيله حيث أستطيع أن أرى كامل الحجوزات السنوية..

ثم يقوم أحمد بكتابة تاريخ عقد المؤتمر وفقًا للتاريخ الذي أخبره به المسيو "عازر"، وهو يحدق في شاشة الكمبيوتر منتظرًا ظهور أية معلومات بشغف كبير..

وفجأة يظهر من على تلك الشاشة جدول يُظهِر حجزًا كتبت أمامه ملاحظة بعنوان:

"حجز خاص لمؤتمر المسيو "عازر موسان" / التاريخ ٢٠١٧/١٢/١٨"

ينظر أحمد لما يظهر على تلك الشاشة، وقد تجّمد في مكانه دون حراك منه إلا عيناه اللتان أخذت تتبع تلك العبارة التي ظهرت على شاشة جهاز الكمبيوتر المركزي للفندق، والتي تفيد وتؤكد بوجود حجز مسبق لإقامة مؤتمر المسيو "عازر موسان " وفي التاريخ الذي أخبره عنه قبل مقتله..

فيصيح أحمد مذهولًا مما يقرؤه من على تلك الشاشة قائلًا:

يا إلهي هاهو لقد وجدته!! هاهو الملف المفقود الذي يؤكد أنه كان هناك حجزًا فعلًا باسم المسيو "عازر" لإقامة ذلك المؤتمر وبذات التاريخ الذي أخبرني عنه!!

في تلك اللحظات المثيرة يقطع ذهول أحمد ارتجاج جهاز هاتفه الذي كان يضعه في جيبه فيمسك به ليتلقى اتصالًا من ماريا التي كانت تجلس في بهو الفندق وهي تراقب بقلق منتظرة عودة أحمد من مهمته..

تسأل ماريا أحمد عبر هاتفها وهي تقول بقلق:

أحمد..كيف تجري الأمور عندك؟

يجيب أحمد فرحًا: ماريا.. لقد وجدت ذلك الملف المفقود!!

ووجدت فيه حجزًا مدونًا باسم المسيو"عازر" وفي ذات التاريخ الذي أخبرني عنه قبل مقتله!

ترد ماريا مندهشة مما تسمع:

ماذا تقول؟! هذا خبر رائع!! إنه طرف خيط براءتك أحمد..

وتتابع قائلة: اسمع أحمد لا تضّيع الوقت إذًا، قم بطباعة نسخة من ذلك الملف واخرج من عندك فورًا..

يجيب أحمد: تمامًا وهذا ما سأفعله ماريا.. حسنًا عليَّ أن أغلق الهاتف الآن لأركّز على العمل..

ماريا: حسنًا هيا لا تتأخر.. وكن على حذر..

يغلق أحمد هاتفه، ثم يقوم بفرح شديد بالضغط على زر أمر طباعة للملف الذي وجده أخيرًا، والذي يؤكد وبكل وضوح وجود حجز مسبق لإقامة مؤتمر باسم المسيو "عازر موسان"، وفي التاريخ المحدد الذي أخبره به المسيو "عازر" قبل مقتله..

حيث يشكل وجود هذا الملف بداية مهمة فيها كثير من الأمل في طريق إثبات براءة "أحمد" من جريمة القتل التي اتُّهم بها ظلمًا..

الفصل السابع والخمسون

وفي مكان آخر من فندق "رويال موريس"، وفي قسم أمن الفندق يعود موظف الأمن "أندريه" من غرفة كاميرات المراقبة والتي كان يقوم بتفقدها ليعّد كوبًا من الشاي وهو يسير وينظر إلى لوحة المفاتيح الاحتياطية نظرة سريعة، فيسير بضع خطوات ثم يتوقف فجأة ليعود بنظره نحو لوحة المفاتيح تلك مدققًا فيها ليلاحظ أن هناك مفتاحًا في تلك اللوحة غير موجود في مكانه..

فيقترب "أندريه" من لوحة المفاتيح تلك وهو يحدّث نفسه:

أعتقد أن المكان المخصص لنسخة مفاتيح مكتب مدير الفندق فارغ.. لا بل أن نسخة المفاتيح تلك غير موجودة فعلًا..

يفكر قليلًا وهو يسير متجهًا نحو ماكينة المشروبات لإعداد كوبًا من الشاي، ثم يتوقف فجأة.. ليتوجه مسرعًا نحو الهاتف وينظر إلى ورقة عليها عدد من الأرقام ثم يقوم بالضغط على لوحة أرقام الهاتف متصلًا بأحد الأشخاص الذي يسمع من مكان آخر رنين اتصال يرده على هاتفه الخاص فيقوم بالرد على ذلك الاتصال ليستمع من على الطرف الأخر إلى صوت "أندريه" الذي يجيبه قائلًا:

آلو مساء الخير سيدي.. أعتذر للاتصال في وقت غير مناسب.

يرد على "أندريه" صوت أجش متسائلًا: من معي؟؟

يقول "أندريه": أنا "أندريه" المناوب في مكتب الأمن في الفندق سيدي.. هل معي المسيو "جاك" مدير الفندق؟؟

يجيب صاحب ذلك الصوت:

نعم معك "جاك" مدير الفندق ماذا لديك؟؟

يرد "أندريه" قائلًا: في الحقيقة سيدي كنت أتفقد لوحة المفاتيح الاحتياطية لمكاتب الإدارة في الفندق منذ قليل، وقد لاحظت اختفاء نسخة مفاتيح مكتبكم الاحتياطية.. فوجدت من الأصح أن أسألكم بدايةً هل تم طلبها من قبل حضرتكم؟؟

وفجأة يسمع "أندريه" صوت ضغط شديد على فرامل سيارة من على الطرف الآخر من الهاتف..

ثم تستقبل أذناه صوت "جاك" مدير الفندق وهو يصرخ بعصبية قائلًا:

ماذا تقول!! نسخة مفاتيح مكتبي مفقودة!! تأكد من السجلات إن كان هناك من طلبها.. وأنا قادم فورًا

يجيب "أندريه" مرتبكًا: أمرك سيدي..

ويغلق "أندريه" سماعة الهاتف بسرعة ويقوم بالاتصال بقسم الاستقبال على الخط الداخلي للفندق لتجيب إليزابيث على الاتصال وهي تقول:

آلو إليزابيث معك.. من المتصل؟؟

أندريه: مساء الخير آنسة إليزابيث، معك "أندريه" مناوب قسم الأمن في الفندق، لاحظت منذ قليل اختفاء نسخة المفاتيح الاحتياطية لمكتب المسيو "جاك" مدير الفندق، وقد اتصلت بالمسيو "جاك" متسائلًا إن كان قد طلب تلك النسخة ولكنه نفى ذلك، وطلب مني تفقد السجلات إن كان هناك طلب ما من قسم كالصيانة مثلًا ريثما يعود.. وهو الآن في طريق العودة إلى الفندق كما أخبرني..

تجيب إليزابيث وهي تحاول أن تخفي قلقها الشديد مما يقوله "أندريه":

ماذا!! حسنًا سأراجع السجلات وأعاود الاتصال بك..

يقول "أندريه" قبل أن ينهي الاتصال:

حسنا آنستي.. سأكون في انتظار اتصالك..

تمسك إليزابيث بهاتفها بسرعة وارتباك بالغ وتقوم بالاتصال بماريا فزعة..

تجيب ماريا فورًا على اتصال إليزابيث بها، والتي تسألها مباشرة وهي تقول:

ماريا.. أين أحمد الآن؟!

تجيب ماريا على سؤال إليزابيث: إنه في مكتب المسيو "جاك"..

وتتابع وهي تقول فرحة: وقد وجد ذلك الملف المفقود للحجوزات ويقوم بطباعته الآن..

إليزابيث!! لقد وجد أحمد ملف الحجوزات المفقود!! أخيرًا..

تجيب إليزابيث بمشاعر تمتزج بين القلق والدهشة وهي تقول:

ماذا تقولين ماريا!!

ثم تتابع وهي تقول بقلق واضح: لكن ماريا يجب على أحمد أن يخرج فورًا من ذلك المكتب.. فقد علم المسيو "جاك" باختفاء نسخة مفاتيح مكتبه الاحتياطية، وهو في طريق العودة إلى الفندق!!

ترد ماريا وهي تنهض من مكانها وقد أصابها قلق شديد:

ماذا تقولين!! دعيني أتصل بأحمد لأنذره وأعلمه بالخروج من مكتب المسيو "جاك" فورًا.. وأعود لك إليزابيث..

وتغلق ماريا هاتفها بسرعة.. وتقوم بالضغط على أزرار الأرقام في هاتفها بارتباك وهي تحاول الاتصال بأحمد الذي تسلل إلى مكتب المسيو "جاك" بحثًا عن ملف الحجوزات المفقود..

الفصل الثامن والخمسون

في ذات اللحظات وفي مكتب مدير الفندق المسيو "جاك"، وبينما يقوم أحمد بطباعة الملف المفقود والذي يثبت فيه وجود حجز مسبق باسم المسيو "عازر موسان" لفعالية المؤتمر وفي التاريخ الذي أخبره عنه المسيو "عازر"..

وعند انتهاء الطباعة يأخذ "أحمد" أوراق ملف الحجوزات التي قام بطباعتها بسرعة ويقوم بإغلاق جهاز الكمبيوتر ويعيد فتح درج المكتب ليعيد تلك المفكرة التي وجد بها كلمة السر الخاصة بجهاز الكمبيوتر المركزي.

ثم يضغط على ذلك الدرج محاولًا إعادة إغلاقه لعدة مرات لكنه لم يفلح بذلك، فيقوم بوضع يده الأخرى مستندًا على طاولة مكتب المسيو "جاك" ويقوم بالضغط مجددًا محاولًا إغلاق ذلك الدرج وهو يحاول التوازن مستندًا وضاغطًا على يده التي وضعها على منتصف طاولة المكتب..

ولكن فجأة.. وبينما يقوم أحمد بمحاولة التوازن وإسناد يديه التي تضغط على منتصف طاولة المكتب، يصدر صوت غريب كصوت فتح درجٍ ما، فينظر أحمد إلى مصدر ذلك الصوت ليجد مصدره أسفل منتصف طاولة المكتب، حيث يندفع أمامه درج سري مخفي من أسفل تلك الطاولة..

يقترب أحمد من ذلك الدرج السري وهو يقول:

ما هذا؟! لماذا هذا الدرج مخفيٌ هنا؟!

فيقوم بحذر شديد بفتح ذلك الدرج الذي اندفع من تحت أسفل منتصف طاولة المكتب، لتتسع حدقتا عينيه لما يراه أمامه الآن، ويصيح بذهول شديد:

المغلف.. إنه المغلف!!

وفي ذات الأثناء تقوم ماريا بمحاولة الإتصال بأحمد مرارًا لكنه لا يجيب على هاتفه..

حيث يقف أحمد مذهولًا وهو يشاهد من جديد ذلك المغلف الورقي تلك الأمانة التي كلفه بها الأب "باولو دالوليو" ليقوم بتسليمها إلى المسيو "عازر موسان" والذي كان قد اختفى نهائيًا عند مقتله..

ينظر أحمد بتمعن في ذلك المغلف وهو يقول:

يا إلهي.. هذا هو المغلف الذي كلفني الأب "باولو" بتسليمه للمسيو "عازر".. لكن لماذا هو موجود هنا!!

ثم يمسك أحمد بذلك المغلف ويتفقده ليجد أنه قد تم فتحه من أعلاه، فيدخل بيده إلى داخل ذلك المغلف ليخرج منه ملفين يحتويان على مجموعة كبيرة من الأوراق..

بينما ماريا تقف في بهو الفندق قلقة وهي تحاول الاتصال بأحمد مرارًا لكن دون جدوى، فأحمد لا يجيب على هاتفه مما زاد من قلق ماريا..

لكن أحمد مازال موجودًا في مكتب المسيو "جاك" وهو ينظر بذهول متمعنًا في تلك الأوراق الكثيرة التي وجدها داخل ذلك المغلف الورقي، ولا ينتبه إلى هاتفه الذي يهتز بصمت ويضيء كثيرًا لورود اتصالات كثيرة من ماريا، من دون انتباه أحمد لما يجري من حوله..

تقول ماريا لنفسها وهي في حالة قلق وارتباك شديد:

لماذا لا يجيب أحمد على اتصالاتي؟!

وتنهض فجأة وتفكر للحظات ثم تمسك بهاتفها من جديد..

وتقوم بالاتصال بميشيل الذي يرد مباشرة على اتصالها لتصيح بقلق:

آلو ميشيل..

يجيب ميشيل:

نعم ماريا ماذا بك!! أخبريني كيف هو الوضع عندك في الفندق وماهي التطورات في مهمة أحمد؟؟

ترد ماريا بتوتر بالغ:

ميشيل لقد وجد أحمد ملف الحجوزات المفقود، ووجد فيه بشكل واضح حجزًا مثبتًا لإقامة مؤتمر باسم المسيو"عازر"..

ميشيل: ماذا تقولين!! ممتاز..

ثم يتابع متسائلًا: وماذا و..

فتقاطع ماريا سؤال ميشيل وهي تقول:

ميشيل لا وقت للشرح الآن.. فالمسيو "جاك" علم باختفاء نسخة مفاتيح مكتبه الاحتياطية وهو الآن في طريق عودته إلى الفندق، وأحمد مازال موجودًا في مكتب المسيو "جاك" ولا يرد على اتصالاتي لأخبره بوجوب الخروج من هناك فورًا..

يرد ميشيل قائلًا:

ماريا تمالكي نفسك، حسنًا أنا في الطريق إليك.. لكن من الأفضل أن تذهبي حالًا وتخرجي أحمد من مكتب المسيو "جاك" قبل أن يصل..

تجيب ماريا وتقول: حسنًا سأذهب فورًا..

وتغلق ماريا هاتفها وتركض مسرعة باتجاه المصعد وتصعد به متجهة نحو الطابق الثالث حيث مكتب المسيو "جاك" مدير الفندق..

بينما وفي تلك اللحظات يجلس أحمد في مكتب المسيو "جاك" وكأنه قد دخل في حالة غيبوبة عما يحيط به وهو ينظر إلى ذلك المغلف أمانة الأب "باولو" والملفات التي كانت موجودة فيه ويقوم بقراءة بعضها والإطلاع على بعضها الآخر..

ويقول متفاجئًا مما يقرؤه في تلك الملفات والأوراق التي أخرجها للتو من المغلف الورقي:

أووه.. ما كل هذه المعلومات!!

ثم يتابع قائلًا:

إذًا لقد تم قتل المسيو "عازر" لمحاولة إخفاء هذه المعلومات والتعتيم على هذه الأبحاث!!

نعم.. لقد أصبح هذا واضحًا، وخاصة إذا ما قارنا ذلك بما توصلنا إليه من نتائج البحث، وفي نتائج رحلة ماريا وميشيل للقدس والقاهرة ودمشق!!

في تلك اللحظة تصل "ماريا" إلى أمام باب مكتب المسيو "جاك" وهي تلهث، لتقف وهي تقوم بحذر بالطرق على ذلك الباب ببعض الطرقات الخفيفة وتتلفت من حولها وتنادي بصوت خفيف عبر ذلك الباب وتصيح قائلة:

أحمد افتح لي أنا ماريا.. هل أنت بخير؟؟

على صوت تلك الطرقات المستمرة على باب مكتب مدير الفندق ونداء ماريا ينتبه أحمد من شروده في تلك الأوراق التي وجدها في ذلك المغلف ويتوجه مسرعًا نحو ذلك الباب ويفتح لماريا التي تدخل وهي تقول بانفعال:

أحمد.. ماذا بك!! أين كنت؟! لماذا لاترد على اتصالاتي؟!

يجيب أحمد على ماريا وهو يقول متحفزًا:

ماريا!! انظري.. لقد وجدت المغلف الذي سلمته للمسيو "عازر" والذي اختفى عند مقتله..

تنظر ماريا بذهول لما يقوله أحمد قائلة: ماذا تقول؟ المغلف!!

ثم تتابع وهي تنظر نحو باب المكتب وتقول:

هيا أحمد لنخرج من هنا الآن.. فالمسيو "جاك" في طريق العودة إلى هنا..

تتوسع حدقتا عيني أحمد مما تقوله ماريا ويقول:

ماذا تقولين!! حسنًا دعيني أولًا أقوم بأخذ الملف الذي طبعته من على الطاولة وأغلق الدرج المخفي قبل أن نخرج..

تجيب ماريا بقلق: هيا بسرعة أحمد..

ولكن فجأة يقطع حديثهما صوت خطوات سريعة تقترب من باب المكتب حيث يقفان، يليها بثوانٍ صوت واضح لعملية وضع مفتاح ما داخل قفل ذلك الباب والذي يُفتح فجأة ليظهر وجه المسيو "جاك" وهو يقوم بفتح باب المكتب على مصراعيه حيث تختبىء "ماريا" بسرعة خلف ذلك الباب..

ويقف المسيو "جاك" وقد بدا على وجهه ملامح الغضب وهو يشاهد أحمد واقفًا خلف طاولة مكتبه وبيده ذلك المغلف الورقي والملف الذي قام بطباعته..

فيخرج جاك مسدسه ويشهره نحو أحمد وهو يصرخ قائلًا:

من أنت!! وماذا تفعل هنا؟؟

ويقترب جاك بخطوات حذرة تجاه أحمد، وهو ينظر إلى ذلك المغلف الذي بيده ويقول:

ولماذا هذا المغلف بيدك؟!

يقف أحمد بصمت وارتباك من هول المفاجأة، وهو يرى ذلك المسدس مشهرًا في وجهه من ذلك الشخص الغاضب أمامه..

بينما يقوم جاك بالاقتراب منه أكثر وهو يقوم بتفحص ملامح أحمد.. ثم يصيح قائلًا:

نعم، إنه أنت.. "أحمد عيسى" الهارب من الشرطة!!

ماهذه الجرأة لتقتحم مكتبي؟!

يستجمع أحمد نفسه وهو يرى ذلك المسدس قد أُشهِر في وجهه ويجيب قائلًا:

نعم.. أنا "أحمد عيسى"، والذي تم اتهامه بجريمة قتل لم يرتكبها.. وأظن كذلك أنني قد وجدت الآن دليل براءتي..

وفي ذات اللحظات تقف ماريا والتي قد اختبأت خلف باب ذلك المكتب وهي تستمع للحديث الذي يدور في أجواء عالية من التوتر والحذر..

فتقوم بحركة لا إرادية سريعة بتسجيل مايدور من حديث بين أحمد وجاك عبر كاميرا جهاز الموبايل الخاص بها..

بينما مايزال جاك ينظر نحو أحمد بغضب وهو يحدق بعينيه نحو ذلك المغلف الذي بيده ويتلفت من حوله وهو يقول لأحمد:

كيف دخلت هنا؟!

لا.. لا.. لم يعد هذا السؤال مهمًا الآن..

وهذا الذي تطلق عليه دليل براءتك لم يعد يفيدك أيضًا.. فأنت مازلت بالنسبة للشرطة والقانون متهمًا.. ومازلت هاربًا من العدالة، والآن تقف في صورة لص قد تسلل إلى داخل مكتبي ليسرق، ولذلك من الطبيعي أن

أقوم بحق الدفاع عن نفسي قانونًا وأقتلك دون أن يستطيع أحد محاسبتي.. فأنت ميتٌ ميت..

ويتابع جاك وهو يصيح بغضب:

لقد كان يجب عليَّ أن أقتلك مع المسيو"عازر"..

فينظر أحمد في وجه جاك وهو يقول له:

أنت إذًا هو القاتل الحقيقي؟!

أنت من قتل المسيو "عازر موسان"؟!

ويتابع أحمد وهو يشير للمغلف الذي يحمله قائلًا:

وهذا هو المغلف الذي كنت قد سرقته من المسيو "عازر" عندما قتلته بدم بارد!!

يحدق جاك في وجه أحمد غاضبًا وقد احمرَّ وجهه من شدة الغضب:

نعم أنا من قتلت المسيو "عازر"..

وأنا من سيقتلك كذلك.. ولن يفيدك معرفة ذلك الآن فأنت ميت في الأصل قبل ذلك..

وكان يجب أن تموت أساسًا داخل ذلك الصراع المشتعل في بلدك.. أو في طريق اللجوء الذي سلكته، وكان يجب أن تموت كمجرم على حبل المشنقة هنا في باريس.. لكنك جئت الآن نحو قدرك المحتوم بنفسك، لتثبت للمرة الثانية أمام القانون بأنك مجرم قاتل هارب، وكذلك لصٌ سأقتله الآن دفاعًا عن النفس.. لقد انتهت حياتك الآن يا أحمد، وسأقتلك..

في تلك اللحظات العصيبة التي كان يعيشها أحمد، وبينما يوجه جاك مسدسه نحوه وهو ينوي قتله..

فجأة وفي هذا الجو المشحون بالرعب والتوتر يأتي صوت قادم من جهة باب المكتب يصيح بحزم من خلف "جاك" قائلًا:

جاك.. ارمِ المسدس حالًا.. المكان محاصر ولاداعي للمقاومة..

فيلتفت "جاك" نحو مصدر الصوت من خلفه وقد انتابه الذهول وهو يرى المحقق "برنار" مشهرًا بمسدسه تجاهه ومن حوله عدد من عناصر الشرطة، وكذلك يقف ميشيل الذي وصل مع المحقق "برنار" أمام باب المكتب وهو يمسك بيد "ماريا" مطمئنًا لها بعد أن دخلت في حالة من الذعر لما شاهدته وسمعته قبل لحظات وقامت بتسجليه بكاميرا هاتفها من مكانها حيث كانت تختبيء خلف باب المكتب..

وينظر جاك نحو المحقق "برنار" مندهشًا وهو يصيح قائلًا:

إنه لص.. قد اقتحم مكتبي، ولقد ضبطته بالجرم المشهود يحاول السرقة..

يرد المحقق "برنار" على "جاك" مقاطعًا:

مسيو "جاك " لا داعي للإنكار ولهذا الحديث الآن.. لقد أصبح كل شيء واضحًا ومسجلًا، وبالدليل القاطع وبشهادة الشهود..

ويتابع مشيرًا لأحد رجال الشرطة من حوله:

أيها الشرطي.. ضع القيود في يديه..

يسقط المسدس من يد "جاك" وقد تغيَّر لون وجهه وجبينه يتصبب عرقًا، وهو يحاول أن يرد على المحقق "برنار" بشيء مقنع لكن دون جدوى.. فلا يوجد كلمات من الممكن أن تقال في هذ الوضع الواضح المعاني..

ويتقدم أحد رجال الشرطة ليضع القيود في يدي "جاك" الذي يصيح قائلًا:

لماذا.. أنا.. أنا بريء.. لماذا تعتقلونني؟! ويشير نحو أحمد وهو يقول بعصبية: اعتقلوه هو.. هو القاتل..

يمسك المحقق "برنار" بمسدس "جاك" وهو يقول له:

سنعرف منك في التحقيق كل شيء، ولماذا قتلت المسيو "عازر" ومن يقف وراء كل ذلك..

و"جاك" ينظر من حوله بحالة هيسترية وقد أمسك به رجال الشرطة وهو يصرخ بالمحقق "برنار":

هناك خطأ وسوء تفاهم أنا..

وبينما يهم "جاك" بمتابعة ما يقوله للمحقق "برنار".. تقطع فجأة كلماته شهقة قوية تصدر من فمه وهو يسقط مرتطمًا على وجهه في الأرض، لتظهر بقعة من الدم تسيل وتتدفق من على ظهره.

يصيح شرطي للمحقق "برنار" وهو يشير نحو النافذة:

سيدي هناك من أطلق النار من بندقية أو مسدس كاتم صوت من الجهة المقابلة للنافذة..

فينبطح الجميع على الأرض وهم ينظرون إلى تلك النافذة بحذر بينما "جاك" يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي الشرطة..

وأحمد ينظر بعينيه نحو ماريا وميشيل، والجميع يشاهدون غير مصدقين لما يحدث أمامهم..

بعد عدة دقائق يعلن المحقق "برنار" عن تأمين رجال الشرطة لمحيط المكان ووجوب مغادرة الجميع..

بينما المحققين يقومون بتصوير جثة المسيو "جاك" وتخطيط مكان الجريمة الجديدة وأخذ أقوال وإفادات الجميع استكمالًا للتحقيق..

الفصل التاسع والخمسون

في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، وفي قسم شرطة العاصمة باريس، يجلس أحمد بجانب ماريا وميشيل في مكتب المحقق "برنار" الذي يقوم بالاطِّلاع على ملف التحقيقات النهائي والخاص بملف جريمة مقتل المسيو "عازر موسان" ثم ينظر إليهم وهو يقول مبتسمًا:

الآن وبعد استكمال التحقيقات وظهور الحقيقة واضحة كاملة، يمكنني أن أقول وأعترف بأنكم قد قمتم بعمل ومجهود كبير للوصول إلى هذه الحقيقة ومعرفة قاتل المسيو "عازر موسان" الحقيقي، حيث تعتبر الأدلة التي وجدتموها في مكتب المسيو "جاك" واعترافه الصريح الذي سجلته الصحفية النشيطة ماريا كافيًا لإثبات براءة أحمد من هذه الجريمة نهائيًا..

فينظر أحمد نحو المحقق برنار وهو يقول فرحًا:

إذًا.. هل أنا بريء الآن سيدي المحقق؟!

يجيب المحقق "برنار" مبتسمًا:

نعم مسيو أحمد، أنت بريء.. وحرٌ كذلك..

يلتفت أحمد نحو ميشيل وماريا ويصيح وهو يرقص من الفرح:

أنا بريء.. أنا حر!!

ويعانق ماريا وميشيل وعيناه تدمع فرحًا وهو يقول:

لن أنسى كل ما قمتما به من أجلي.. شكرًا لكما.. أنتما أغلى وأوفى الأصدقاء لي..

يرد ميشيل بتأثر بالغ قائلًا:

وأنت كذلك أحمد.. فأنت من أنقى وأطيب الشخصيات التي عرفتها، وفي الحقيقة نحن من يجب أن نشكرك كذلك، لأنك كنت حريصًا على إيصال أمانة الأب "باولو" للمسيو "عازر" رغم كل المعوقات والظروف الصعبة التي مررت بها، والتي استطعنا عبر تتبع كلماتها أن نصل لاكتشافات تاريخية، ونتعرف على حقائق مهمة جدًا في زيارتنا للقدس والقاهرة ودمشق..

فقد ساعدنا ذلك في إظهار حقائق مهمة كان الأب "باولو" وكثير من أصدقائه على مستوى العالم، والمؤمنين برسالته التي تسعى لتحقيق السلام بين الشعوب يعملون معًا لإيصالها للعالم بأسره..

ويتابع المحقق "برنار" معقّبًا على ما يقوله ميشيل:

وأظن كذلك أن هذه الحقائق والأبحاث كانت السبب والدافع الأساسي في جريمة قتل المسيو "عازر"، لمنع وعرقلة إظهار هذه الحقائق للعالم..

تتابع ماريا قائلة: نعم، إن ما تقوله صحيح حضرة المحقق..

ولكن الآن، وبعد مقتل المسيو "جاك" وعملية محاولة إخفاء الحقيقة من جديد.. كيف سنصل إلى من كان وراء كل ذلك؟؟

يلتفت ميشيل نحو ماريا ويقول:

أعتقد أن من قام ويقوم بكل هذه الجرائم ليس شخصًا خفيًا واحدًا، بل قُوى خفية تعمل على مستوى العالم، وتسعى جاهدة –لهدف ما– لإخفاء الحقائق وخلق الفتن..

فمن قتل المسيو "جاك" عند انكشاف أمره بهذه الطريقة ما يزال يعمل جاهدًا في محاولة طمس كل الحقائق كذلك..

ويعقّب المحقق "برنار" على ما يتحدث به ميشيل مؤكدًا، ويقول:

صحيح ما تقوله صديقي ميشيل.. وكذلك فماتزال تلك اليد الخفية مستمرة في محاولات منع كل من يقوم على كشف تلك الحقائق بأي طريقة.. وأعتقد أن جريمتي القتل الأخيرتين خير دليل..

يستمع الجميع لما يقوله المحقق "برنار" باهتمام.. وتقول ماريا بقلق:

ماذا تقصد حضرة المحقق؟؟

يجيب المحقق "برنار": أقصد أنكم مازلتم في دائرة الخطر..

فيلتفت أحمد نحو المحقق "برنار" مندهشًا: ألم ينتهِ هذا الموضوع بعد؟!

يجيب المحقق "برنار" على سؤال أحمد ويقول:

في الحقيقة وبعد كل ما حدث ورأيناه، لا أعتقد ذلك..

فمن كان وراء مقتل المسيو "عازر" كان يريد منعه من إقامة المؤتمر الذي أراد أن يعلن فيه حقائق ومعلومات هامة للعالم أجمع..

ومن الواضح أن جهة ما كانت ترصده كما كانت ترصد زملاءه وعلى رأسهم الأب "باولو" كما أعتقد، ومن الواضح كذلك بأن لهم أيدٍ خفية في كل مكان..

ينظر ميشيل نحو المحقق "برنار" ويقول:

هل تقصد أن حادثة إطلاق النار علينا في القدس قد يكون وراءها نفس تلك الأيدي التي تتكلم عنها؟!

المحقق "برنار": كل شيء ممكن.. لأن ما حدث ويحدث هو سلسلة متكاملة تعمل لهدف واحد وبتنسيق عالي المستوى..

يتأمل أحمد المغلف الذي يحمله بيده ثم ينهض من مكانه قائلًا:

وهذا المغلف أمانة الأب "باولو" وما يحتويه من أبحاث وحقائق وأحلام كان يعمل من أجلها الأب "باولو" وكل المؤمنين معه برسالة السلام والحوار بين الأديان والحضارات، واليوم وبعد أن مضت حتى هذه اللحظة أكثر من أربع سنوات على تغييب أثر الأب "باولو"، وبعد مقتل المسيو "عازر" وبعد أن اتُّهمت ظلمًا بجريمة مقتله.. وبعد كل ما حدث ويحدث من عنف وقتل في أماكن عديدة من العالم..

هل سنقف صامتين خائفين؟! هل سنصمت لنحقق بذلك هدف تلك القوى الخفية التي تعمل على إخفاء وطمس كل هذه الحقائق، وتعمل بحرية ومكر شديد في إشعال الفتن في أماكن مختلفة من العالم..

تتأمل ماريا كلمات أحمد ثم تقف وتقول:

ولكن الحقيقة لم تمت أحمد..

فرسالة وأمانة الأب "باولو" التي جاهدت أنت وثابرت لتقوم بإيصالها، والتي جعلتنا الأحداث نتتبع معاني كلماتها لنتعرف عن كثب على مثال حقيقي لما كان يقصده الأب "باولو" عن التسامح، والذي رأيناه في شخصية وحكمة وفكر "صلاح الدين الأيوبي" وقوة تسامحه التي جعلت من القدس من جديد مدينة السلام والصلاة لكل الطوائف، وجعلتنا نطّلع على ما تركه للأجيال التي ستأتي من بعده من معرفة وحكمة ..

يعقّب ميشيل قائلًا:

نعم صدقتِ ماريا، وهذا ما رأيناه في القدس جليًا ونحن نستمع لحديث وكلام حامل أمانة مفاتيح كنيسة القيامة المسلم..

وحتى عندما زرنا ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي" في دمشق، كان أثر فكره حاضرًا وحيًّا لم يمت، وقد فرض وجوده على الأصدقاء والأعداء، حتى أنهم أعادوا له رمزيًا كتاب العلم المسروق حيث يرقد كممثل عن تلك

الأمة التي سُرق منها علمها وسعيها في اكتشافات وعلوم كثيرة بعد أن فتحت من عصور خلت ذراعيها وعلومها لكل الأمم..

ينظر أحمد إلى ذلك المغلف وهو يستمع لما يتحدث به ميشيل وماريا ثم يقول:

إذًا بعد كل ما تقولونه الآن، وكل ما توصلنا إليه وعايشناه، وخاصة في الأسبوعين الأخيرين، أرى أن الأمانة الآن أصبحت أكبر من هذا المغلف.. ويجب أن يعرف العالم بأجمعه كل هذه الجهود وكل تلك الدراسات والحقائق..

فعسى أن يكون في ذلك فرصة حقيقة لتعزيز مفهوم الحوار الحقيقي من جديد بين الحضارات والأديان وترسيخ مفهوم السلام.. ومنع أفكار العنف والتطرف والقتل من الانتشار، وإحلال أفكار التعاون والتواصل والمحبة وتقَبُّل الآخر بدلًا عنها..

ماريا: لكن كيف سيكون ذلك؟!

يقف المحقق "برنار" وهو يقول مقاطعًا:

لا شك أن ما توصلتم إليه في رحلة البحث عن براءة أحمد من حقائق تاريخية ووقائع معاصرة هامة فيها كثير من المعاني السامية التي كان الأب "باولو" وزملاؤه يعملون على إيصالها لكل العالم..

لكن يجب علّي أن أعيد تذكيركم بأن الخطر مازال قائمًا.. فمن كان وراء تغييب الأب "باولو" ومقتل المسيو "عازر" وكذلك مقتل المسيو "جاك" الذي نفذ جريمة قتل المسيو "عازر" وأمور كثيرة تحدث هنا وهناك.. مازالت له أيدٍ تنفذ له ما يريده وتعمل على إسكات ومنع هذه الحقائق من الظهور بأي شكل.

وأعتقد الآن أن الخطر مازال يلاحق أحمد بشكل خاص..

يلتفت أحمد نحو المحقق وهو يقول مندهشًا:أنا.. لماذا؟!
يجيب المحقق "برنار" وهو ينظر إلى أحمد:
لأنك الآن للأسف الحلقة الأضعف، وكذلك من الحلقة الأكثر ضعفًا.. ولأنك كذلك من أوصلت الأمانة وكنت شاهدًا على كل شيء، وقد كان من أهداف جريمة قتل المسيو "عازر" أيضًا هو إظهار أنك من أنصار ذلك العنف والتطرف، حيث جئت قادمًا من تلك البقعة الملتهبة من العالم..

ويتابع قائلًا: لذلك أرى حاليًا أنه من الأفضل أن تبقى في المكان الذي كنت تقيم فيه حين كنت متهمًا، ريثما تهدأ تداعيات ما حدث..

ونحن سنعمل جاهدين للوصول إلى تلك الأيدي الأثمة ومن يعمل معها لمنع تمادي جرائمها..
ثم يلتفت المحقق "برنار" نحو ميشيل وهو يبتسم ويقول:
لذلك صديقي ميشيل فقد وضعنا أمام منزلك ومنزل الآنسة ماريا قوة حراسة أمنية لتقوم على أمنكم وحراستكم.. ومن دون أن تشعروا بوجودهم أو بأي مضايقة في ذلك..
تنظر ماريا نحو المحقق برنار متعجبة وتقول: ماذا!! هل هذا الخطر حقيقي إلى هذه الدرجة حضرة المحقق؟! وهل كنت على علم بمكان أحمد حين كان متهمًا بتلك الجريمة البشعة؟
ينظر المحقق "برنار" نحو ماريا وهو يبتسم ويقول: ربما.. إنه الحدس..
يستمع ميشيل لما يقوله المحقق برنار و يصمت قليلًا.. ثم يقول ضاحكًا:
نعم، إنه الحدس..

فينظر الجميع لوجوه بعضهم البعض.. ثم تنتابهم موجة من الضحك المفاجيء..

الفصل الستون

بعد غروب شمس ذلك اليوم وفي أحد مطاعم باريس الجميلة حيث تجلس ماريا وأحمد يتناولان معًا عشاءً شهيًّا على أنغام عزف مقطوعة موسيقية رائعة على البيانو، وهي المقطوعة التي كانا يحبان أن يستمعا إليها معًا في السنوات الأولى لتعارفهما، ويعيشان الآن تلك الأجواء وهما في سعادة غامرة لظهور براءة أحمد من جريمة مقتل المسيو "عازر"..

وأحمد يشعر وكأن حياته قد بدأت من جديد ليحيا بأمان وحرية أخيرا..

وينظر إلى ماريا وهو يقول مبتسمًا:

كم كان جميلًا لو شاركنا ميشيل هذه الأجواء الرائعة..

ماريا: نعم، فهو يعشق هذه الأجواء وهذه الموسيقى بالذات، لكنه اضطر للمشاركة في العشاء السنوي لإحدى المؤسسات العلمية الهامة، حيث سيشارك بإلقاء كلمة هناك، ولكنه وعد بأن يلحق بنا عند الانتهاء من تلك المشاركة..

يتأمل أحمد في عيني ماريا ثم يقول:

لا أعرف ماذا سيكون مصيري لولا وقوفك إلى جانبي في هذه المحنة أنت وميشيل..

ماريا بابتسامتها الجميلة:

أنا لم أقم إلا بما كان يجب أن أقوم به، وكذلك لا أظن أنك كنت ستتخلى عني لو كنت مكانك وفي الظروف التي مررت بها.

بالإضافة إلى أنني فخورة بك جدًا لأنك استطعت أن تتجاوز كل تلك الظروف السيئة التي مرت بك، وتحملت كل الصعوبات التي وقفت في

طريقك لإيصال تلك الأمانة، وحافظت على هذه الروح الطيبة وهذا القلب الدافىء الذي لم يعرف الحقد ولا الكره يومًا..

يستمع أحمد لكلمات ماريا وهو ما يزال يتأمل بها ثم يقول:

ماريا.. كم أنتِ جميلة..

تصاب "ماريا" بشيء من الخجل لما يقوله أحمد ويزداد احمرار وجنتيها وهي تستمع لأحمد الذي يتابع التأمل فيها قائلًا:

نعم كم أنت جميلة.. في كل شيء.. بروحك وعقلك وفكرك وعيناكي.. وقد ملكت ذلك القلب الذي تتحدثين عنه وأصبح دافئًا بوجودك في حياته..

فمنذ لقائِنا الأول منذ أكثر من عشر سنوات، حيث التقت عيناي بعيناكي في مصادفة عجيبة كانت أجمل مصادفة بالنسبة لي، وكم تمنيت حينها أن لا أفارق أبدًا تلك العينين من جديد..

تضحك ماريا وهي تقول: تقصد بتلك المصادفة، حين كنا نقوم بزيارة سياحية إلى دير "سيدة صيدنايا" في ريف دمشق، وكدت حينها أن أقع من على سطح ذلك المرتفع العالي حين تعثرت قدمي وأنا أقوم بتصوير بعض تلك المشاهد الساحرة هناك..

ولتمسك يداك بي في آخر لحظة قبل أن أقع من ذلك المرتفع وتسحبني نحوك، وأنا أنظر إليك ويكاد أن يغمى عليَّ..

يعقب أحمد ضاحكًا: نعم أتذكرين..

ويتابع ضاحكًا: فلو لم أنتبه لك حينها، من كان سيساعدني في إثبات براءتي هنا!!

تبتسم ماريا وهي تفكر بما يقوله أحمد ثم تنظر إليه وتقول:

أحمد.. هل تعتقد بأني أنا من ساعدك فقط، لا.. أنا لا أعتقد ذلك،

فهناك ميشيل والشيخ عمر والعم مصطفى والسيد جودة والأب حنا والجنرال محمد، وكذلك العم رضا وإليزابيث والمحقق برنار، وغيرهم الكثير أيضًا..

وفي الحقيقة، أنت من قمت بالمساعدة الأكبر لكل من ذكرتهم ولكل من عرف ومن سيعرف لاحقًا بنتائج بحثنا ونتائج ما اكتشفناه جميعًا عبر تلك الرحلات الميدانية في القدس والقاهرة ودمشق، وعبر نتائج البحث والغوص في تلك الكتب والدراسات والمراجع..

نعم أحمد حيث قمت أنت بتقديم المساعدة الأولى لكل من ذكرت منذ أن تحملت عبء تلك الأمانة في أسوأ ظروف ممكن أن يمر بها إنسان، لتوصل تلك الأمانة لمن أراد الأب "باولو" أن تصل إليه بكل صدق وصبر ومثابرة.. وبذلك قمت بتقديم المساعدة الأكبر ليعلم العالم ويتعلم معنى السلام والتسامح الحقيقي، ويتنبه إلى كل ما يحيكه أصحاب الفتن والحروب التي ترتبط مصالحهم بكلمة حرب من مؤامرات وصراعات..

نعم لقد قدمت المساعدة كذلك نيابة عن كثيرين، بداية من الأب "باولو" والمسيو "عازر" والعريف"حسن الإغدرلي"، وبسلسلة طويلة تكاد لا تنتهي عند السلطان "صلاح الدين الأيوبي" الذي استطعنا أن نسمع كلماته وروح فكره من جديد..

فهل علمت الآن بأنني لم أقُم إلا بقدرٍ بسيط من تلك المساعدة التي قمت أنت بها!!

ينظر أحمد في وجه ماريا، وتدمع عيناه متأثرًا بما تقوله ويصمت لبرهة من الزمن ثم يقول:

لا يمكن أن تعلمي ماريا كم تأثرت وأنا أستمع لما تقولينه، حيث بكلماتك تلك قد جعلت شريطًا من الصور يمر من أمامي الآن وهو يعيد ذكريات فيها كثير من الأحداث التي عشتها وصور لوجوه كثيرة من الشخصيات التي ذكرتها منذ قليل لتمتزج بداخلي مشاعر مختلطة من حزن وقهر وحب وفرح.. ولتتولد منها مشاعر يملؤها الأمل، وخاصة بعد كل ما عرفناه عن تضحيات أناس أحبوا أن يكون السلام عنوان حياتنا..

فتضع ماريا يدها فوق يد أحمد وهي تقول مشجِّعة:

ولا بد أن يستمر هذا الأمل الذي نحيا به..

فيقول "أحمد":

نعم ماريا، فالأمل سيبقى ولن يموت طالما بقينا نحيا به بحب..

لقد كانوا يقولون عني أنني أخلّق الحب في كل حدث، وكنت أجيبهم، أوليس الحب هو مفتاح كل حدث!!

وعندما بدأت بكتابة تلك الرواية شعرت وكأني قد خضتُ حربًا كونية حتى استطعت أن أكتب ما كتبته حتى الآن، وكأنما لم أكتب من قبل، وكأن قلمي قد بدأ يكتب الآن عندما رأى ذلك الأمل وهو مفعم بكل هذا الحب من جديد..

ثم ينظر لأجواء المطعم من حوله ليلفت نظره أحد موظفي المطعم الذي يجلس فيه مع ماريا وهو يقوم بتعليق لوحة إعلانية عن فعالية موسيقية في مساء الغد، ليحدّق أحمد مليًا في ذلك التاريخ المكتوب والذي يصادف يوم غد..

ثم يلتفت نحو ماريا وهو يقول باهتمام:

ماريا.. هل تعلمين أن غدا هو الثامن عشر من ديسمبر؟!

تجيب ماريا: نعم وماذا في ذلك؟!

يرد أحمد قائلًا:

يبدو أنك لم تنتبهي جيدًا.. فبتاريخ يوم غد كان من المفترض أن يعقد المسيو "عازر موسان" ذلك المؤتمر الذي أراد أن ينقل عبره لكل العالم رسائل هامة، ويتحدث فيه عن أبحاث هامة قام بها وكثير من المؤمنين معه بذات القيم وعلى رأسهم الأب "باولو دالوليو" تساهم في وقف تمدد العنف والتطرف عبر العالم، وإفساح المجال لبدء حوار حقيقي بين الأديان والحضارت يترسخ فيه معنى السلام الحقيقي..

فتقول ماريا بتأثر:

أووه.. نعم، إن ما تقوله صحيح، فقد أخبرك المسيو "عازر" عن تاريخ ذلك المؤتمر قبل مقتله وتأكدنا من ذلك بالأمس، وكان هذا دليل إثبات براءتك..

يعقّب أحمد:

نعم.. لقد تم قتل المسيو "عازر" وخطف الأب "باولو" المجهول المصير حتى هذه اللحظة وترهيب آخرين حتى لا يتم إيصال هذه الرسائل والمعاني السامية لكل العالم..

فتتابع ماريا: لكننا وبعد كل الذي جرى معنا وعرفناه ورأيناه وقرأناه لن نتوقف قبل أن يعلم العالم كله بما قام به هؤلاء الأناس الطيبون، وما قدموه من تضحيات ليعم السلام أرجاء الارض ويتوقف الجهل والعنف والتطرف في مكانه، ويتوقف المتستر برداء الدين في صنع حروب لا يرضى بها الله..

يجيب أحمد وهو يقول بحزن:

لكن كيف ذلك ونحن لا نستطيع التحرك بحرية وهناك أعين خفية تراقب ما نقوم به وما زلنا كما قال لنا المحقق برنار يوم أمس في دائرة الخطر..

تتأمل ماريا بما يقوله أحمد وتصمت لعدة دقائق ثم تلمع عيناها وكأنها قد توصلت إلى فكرة ما..

وتنهض ماريا فجأة من على كرسيها وتقول وهي تشير لأحمد بعينيها بأنها ستتجه إلى دورة المياه:

سأستأذنك قليلًا وأعود..

يهز أحمد رأسه ويبتسم قائلًا: وسأنتظرك دومًا..

تسير ماريا بضع خطوات باتجاه الممر المؤدي إلى دورة المياه ثم تلتف يمينًا متوجهة إلى أحد شرفات المطعم، وتمسك بهاتفها الجوال وتقوم بإجراء اتصالٍ ما..

وفي مكان آخر يرن جرس هاتف ميشيل الذي انتهى للتو من إلقاء كلمة له في حفل عشاء لإحدى المؤسسات العلمية وينظر إلى رقم المتصل ويبتسم ثم يجيب:

ماريا.. كيف حالك لقد انتهيت الآن من إلقاء كلمتي، وسأجلس قليلًا مع بعض الزملاء، وأنضم إليكم لاحقًا كما وعدت..

ترد ماريا وهي تضحك:

مرحبا ميشيل البروفيسور العظيم.. أعرف أنك قد اشتقت لي.. لكني أتصل بك الآن لأن هناك فكرة مثيرة وعظيمة قد خطرت في بالي وأنا أتحدث مع أحمد، وأحببت أن أناقشها معك الآن سريعًا وأستغل وجودك في هذا الحفل الهام الذي تحضره مع شخصيات هامة في مختلف المجالات..

يجيب ميشيل مستغربًا:

لم أفهم ما تريدين الوصول إليه ماريا؟؟

ترد ماريا وهي تقول:

اسمع ميشيل، هل تعلم أن تاريخ يوم غد هو ١٨من الشهر الجاري؟!

يجيب ميشيل: نعم أعلم.. لأن لديَّ غدًا محاضرة مهمة في الجامعة، ولكن ما الذي تقصدينه بذلك؟؟

تقول ماريا: لديك محاضرة غدًا.. ممتاز!!

يرد ميشيل وقد ازداد استغرابه: نعم.. لكني لم أفهم ماريا ماذا تقصدين؟

تجيب ماريا وهي تقول:

اسمع ميشيل.. غدًا يصادف التاريخ المفترض لعقد مؤتمر المسيو"عازر موسان"..

يصيح ميشيل وقد تذكر ذلك:

نعم نعم.. كان من المفترض أن يُعقد غدًا لولا ما جرى مع المسيو "عازر" للأسف..

وتتابع ماريا قائلة: ميشيل.. إذًا استمع إلى فكرتي بسرعة.. ولنستغل وجودك في هذا الحفل الذي تتواجد فيه مع تلك الشخصيات الهامة..

وتتحدث ماريا لميشيل عن تلك الفكرة ويتناقشا معًا ببعض التفاصيل.. لتنهي ماريا اتصالها بميشيل وهي تقول:

إذًا اتفقنا..

فيجيب ميشيل عليها قائلًا:

نعم اتفقنا ماريا.. ولنبدأ العمل فورًا..

تعود ماريا حيث يجلس أحمد ويتابعان تناول عشائهما معًا.. وهي تخبر أحمد بأن ميشيل قد اتصل بها معتذرًا لعدم القدرة على اللحاق بهما، وبأنه سيجتمع به صباح الغد في غرفة المكتبة في منزله كما العادة..

الفصل الواحد والستون

في الصباح الباكر من اليوم التالي وفي منزل ميشيل، يبدأ ميشيل نشاطه الصباحي في غرفة المكتبة وهو يقوم بتوضيب بعض الكتب والدراسات ويضع بعضها في حقيبته وهو يستعد لأمرٍ ما..

بينما أحمد والذي يبيت حاليًا في منزل ميشيل قد استيقظ بكل نشاط وهمة وأمل، وكيف لا وهذا الصباح يعد كأول يوم يعود فيه لممارسة حياة طبيعية دون خوف أو مطاردة من أحد، وبعد سنوات صعبة عاشها حيث كان شبح الموت يحوم من حوله مع صور القهر والإعتقال والتنقل..

يفتح أحمد نافذة غرفته التي يبيت فيها وهو ينظر إلى السماء، والتي بدأت الشمس الدافئة تأخذ مكانها فيها وتسطع بآشعتها الذهبية لتضيء أجواء يوم جديد، فيأخذ نفسًا عميقًا وهو يستنشق عبير هواء ذلك الصباح النقي كمن يستنشق هواء حريته من جديد مع أمل ينبض بأيام أجمل..

ثم يتوجه نحو غرفة المكتبة حيث أكثر أرجاء منزل ميشيل حيوية وطاقة ويدخل وهو يحي ميشيل مبتسمًا ويقول:

صباح جميل ومشرق لأعظم بروفيسور في باريس..

فيرد ميشيل ضاحكًا وهو يتابع ما يقوم به من توضيب لبعض الكتب والملفات:

صباح الخير صديقي أحمد، كيف أصبحت اليوم؟؟

يجيب أحمد وهو يشعر بسعادة كبيرة قائلًا:

أصبحت اليوم على شمس جميلة أراها بعد غياب طويل، كيف لا وهي كشمس الحرية التي أشرقت عليَّ بعد ظلام سنوات كنت أظن أن آخر أيامي فيها..

ثم يتأمل أحمد بما يقوم به ميشيل وهو يتنقل بين أرجاء المكتبة ويقوم بتوضيب بعض الكتب هنا ويكتب بعض الملاحظات هناك، وهو في قمة النشاط فيبتسم ويقول له:

أتعلم.. كم أحب نشاطك الصباحي وحيويتك وأنت تصحو وكلك طاقة وحب لما تقوم به من عمل..

يلتفت ميشيل نحو أحمد ويبتسم له قائلًا:

وستحب هذا النشاط أكثر إن قمت بإعداد نفسك والإستعداد للذهاب معي..

يجيب أحمد مستغربًا: الذهاب معك!! إلى أين؟؟

يلتفت ميشيل وهو يركز نظره نحو أحمد قائلًا:

لدي اليوم محاضرة مهمة وسيحضرها جمهور غفير من الطلاب و الأساتذة من مختلف الكليات وشخصيات مهمة ذات مواقع رفيعة المستوى..

يرد أحمد: رائع.. وما هو موضوع المحاضرة؟؟

يتمعن ميشيل في سؤال أحمد ثم يقول مبتسمًا:

اممم.. سؤال وجيه صديقي.

فليكن عنوانها.. "حضارة الإنسان والبحث عن السلام".

أحمد: عنوان جميل وذو أبعاد عميقة..

ميشيل: إذًا هيا أحمد، فلتعد نفسك بسرعة، ولنذهب إلى الجامعة قبل أن نتأخر، حيث سيكون هناك الكثير من الحضور في انتظارنا..

يجيب أحمد بهمة عالية: بكل سرور، دقائق وسأكون جاهزًا..

وبعد عدة دقائق يغادر البروفيسور ميشيل منزله مصطحبًا أحمد بسيارته متجهين إلى جامعة السوربون، وأحمد ينظر من نافذة السيارة متأملًا في شوراع باريس الجميلة وصباحاتها المشرقة، ويأخذ نفسًا عميقًا وهو يتذكر صباحات وطنه ورائحة الياسمين التي كانت تعبق في تلك الحارات القديمة الدافئة..

وتمر اللحظات الجميلة بسرعة ويصحو من تأمله الجميل على صوت ميشيل وهو يقول: ها قد وصلنا الجامعة يا صديقي ..

ويلتفت ميشيل نحو أحمد وهو يبتسم متابعًا:

لكن قبل كل شيء وريثما يحين موعد المحاضرة، دعنا نتوجه إلى مكتبي في الجامعة حيث نأخذ استراحة سريعة لبضع دقائق ونشرب معًا كوبين من قهوتي المميزة، ونجلب بعض الكتب والملفات معنا استعدادًا لإلقاء هذه المحاضرة الخاصة..

يجيب أحمد بابتسامة عفوية: حسنًا.. لا بأس في ذلك..

ويترجلان من السيارة، ثم يسيران معًا في أروقة الجامعة متوجهين نحو مكتب ميشيل قبل الذهاب لقاعة المحاضرات حيث ستلقى هناك تلك المحاضرة الهامة..

ينظر ميشيل نحو أحمد وهما يدخلان معًا ذلك المكتب ويقول:

ما رأيك أن تقدّم لنا من تلك القهوة السريعة الطازجة بينما أعد بعض الملفات التي سنأخذها معنا للمحاضرة..

أحمد: بكل سرور صديقي..

ثم يسير بضعة خطوات باتجاه ماكينة القهوة السريعة ويقوم بإعداد كوبين من القهوة السريعة التي تفوح منها رائحة زكية مميزة..

ويقترب أحمد من طاولة ميشيل وهو يقدم له كوب القهوة وينظر إليه وهو يقوم بوضع كتاب قديم كبير الحجم في حقيبته ويجمع بعض الملفات الأخرى..

فيتأمل أحمد في ذلك الكتاب ثم يقول مندهشًا:

ميشيل.. أليس هذا كتاب العلم المسروق من عهد فريدريك الثاني، والذي أعاده الإمبراطور الألماني "ويليام" إلى حيث ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي"!!

يجيب ميشيل وهو يرتشف على عجل من فنجان قهوته:

نعم أحمد هذا هو الكتاب بكل تأكيد.. والذي وجدناه مخبأً في النعش الرخامي الملاصق لضريح السلطان "صلاح الدين" في دمشق..

ثم يتابع قائلًا: وسيكون هذا الكتاب أساس محاضرتنا اليوم..

ينظر أحمد نحو ميشيل مستغربًا: كيف ذلك؟؟

ينهض ميشيل من مكانه وهو يقول:

وكذلك هذه الملفات التي كانت في ذلك المغلف أمانة الأب "باولو" لديك والتي أعددت منها نسخًا للحاضرين..

ثم يتابع كلامه وهو يتوجه لمغادرة المكتب قائلًا:

ما رأيك أن تساعدني الآن في حمل هذه الملفات لنتوجه معًا إلى قاعة المحاضرات مباشرةً..

ينظر أحمد نحو ميشيل مندهشًا مما يقوله: لكن..كيف سـ..

يقاطع ميشيل كلمات أحمد ويسحبه من يده وهو يبتسم قائلًا:

هيا بنا الآن يا صديقي وسترى كيف ذلك في القاعة التي تكون قد امتلأت بالحضور، فلا وقت للشرح الآن..

ويسير أحمد بجانب ميشيل وهما يتوجهان مباشرة نحو قاعة المحاضرات ليدخلا تلك القاعة والتي امتلأت كامل مقاعدها بحضور غير عادي، حيث يتقدم الصفوف الأولى نخبة من أساتذة الجامعات وعدد من الشخصيات العامة وعدد كبير من الطلبة من كليات مختلفة..

يقوم البروفيسور ميشيل بتحية عدد من الحضور ثم يتوجه نحو المنصة في وسط قاعة المحاضرات ويجلس أحمد على أحد المقاعد القريبة وهو ينظر من حوله مندهشًا من عدد الحضور الكبير ومشاركة عدد مهم من الشخصيات العامة..

ويقف البروفيسور ميشيل من على منصة تلك القاعة وهو يضع ذلك الكتاب القديم وتلك الملفات أمامه ثم يمسك بمكبر الصوت ويُحيّي الحضور مرحبًا وهو يبتسم قائلًا:

السيدات والسادة .. الحضور الكريم من أساتذة أفاضل وزملاء الفكر والعلم، طلابنا الأعزاء الذين حضروا من كليات مختلفة..

يسعدني جدًا حضوركم اليوم وتلبية دعوتي الخاصة..

وفجأة يُفتح باب قاعة المحاضرات من جديد وتطل ماريا برأسها وهي تبتسم وتقول:

آسفة على التأخير..

وتتابع بابتسامة عفوية.. هل ستبدأون المحاضرة قبل حضور عدسات الإعلام وأقلام الصحافة؟!

يبتسم ميشيل وهو ينظر نحو ماريا قائلًا:

طبعًا لا.. تفضلي ماريا.. أهلًا بك وبكل الأصدقاء الإعلاميين، وأهلا بالسلطة الرابعة..

فتدخل ماريا ويدخل من ورائها عدد من الإعلاميين الذين يتوزعون في أرجاء القاعة، ويقوم البعض بسرعة بتثبيت كاميراتهم من أمام المنصة الرئيسية وبعض زوايا قاعة المحاضرات..

بينما أحمد ينظر من حوله مندهشًا ولا يكاد يستوعب ما يجري، فتقترب ماريا منه وتجلس على المقعد الملاصق له وهي تبتسم بابتسامتها الساحرة وتغمز له قائلة:

هل يمكن أن أجلس بقربك مسيو أحمد..

فيرد عليها أحمد بابتسامة يملؤها الفرح والشغف..

أما في المنصة الرئيسية لقاعة المحاضرات يتأمل ميشيل من هناك لمشهد القاعة وقد اكتمل تمركز جميع الحضور في أماكنهم وهو يقول:

أظن أننا قد أصبحنا جاهزين..

ثم يتابع متوجهًا نحو الحضور قائلًا:

لقد دعوتكم اليوم أيها السادة لمحاضرة من نوعٍ خاص، ربما سيسمعها البعض كقصة أو حكاية مؤثرة، لكني متأكد من أن الجميع سيراها كحقيقة ناصعة..

دعوتكم لنستمع معًا إلى كلامٍ جديدٍ نوعًا ما، قد يجعل الكثير منا يبدأ في النظر إلى كثير من الأمور والحقائق بمنظار جديد..

فقد أخذتني بعض الأحداث في الأسابيع الأخيرة للقيام مع صديقتي الصحفية النشيطة "ماريا مادين" في رحلة بحث استثنائية وزيارة لعواصم مهمة في العالم القديم حيث زرنا أورشليم القدس والقاهرة وكذلك دمشق..

وربما قد تستغربون أيها السادة من سبب تلك الرحلة، ولكن لا بد أنكم قد سمعتم منذ فترة قريبة بجريمة قتل مؤسفة راح ضحيتها أحد دعاة السلام في العالم وهو المسيو "عازر موسان"، وقد اتّهُم بداية بتلك الجريمة للأسف شاب بريء يدعى "أحمد عيسى" قدم مؤخرًا من سورية إلى فرنسا باحثًا عن حياة يحيا بها بسلام هربًا من مظاهر الحرب والعنف الذي تعيشه بلاده في الآونة الأخيرة..

وقد وصل إلى فرنسا بعد رحلة شاقة وهو يحمل معه أمانة من داعية سلام نذر نفسه وحياته لإرساء وترسيخ مفهوم السلام والمحبة وكرّس نفسه لتأسيس حوار حضارات حقيقي، هو وكل من عمل معه من مختلف الطوائف والجنسيات..

وهو الأب "باولو دالوليو"..

ورغم كل الظروف الصعبة والاستثنائية التي مر بها "أحمد"، إلا أنه قد ثابر بجهد على إيصال تلك الأمانة والتي كانت عبارة عن رسالة شفهية ومغلفا ورقيًا كان يحتوي على هذه الملفات التي أحملها الآن أمامكم، والتي تتضمن عددًا من الأبحاث الهامة التي ربما، وبسببها، ولمنع معرفة العالم بهذه الحقائق مجتمعة، كانت جريمة مقتل المسيو "عازر موسان" للأسف، وجعل أصابع الاتهام تشير نحو ذلك الشاب القادم من الشرق..

ويتابع ميشيل حديثه وهو يشير نحو خارطة العالم الكبيرة المعروضة من خلفه وهو يقول:

الشرق هناك.. أيها السادة..

حيث ما يسمى بالعالم القديم، والذي قمت بزيارته مؤخرًا متتبعًا وباحثًا في معاني كلمات الأب "باولو دالوليو" في تلك الرسالة لمحاولة إيجاد رابط ما يشكل دليل براءة ذلك الشاب من جريمة لم يقترفها..

لكني في الحقيقة لم أكن أعلم أني سأتعرف عن قرب على الوجه الحقيقي لحضارة تلك المنطقة حيث مهد الديانات السماوية..

فلقد رأيت وعايشت قصصًا تحتاج إلى عدد من الروايات لتصوّر وتعبر عن ما رأيته وشاهدته من واقع التسامح والتعايش الذي كان سائدًا في القدس كمثال واحد..

فهل أبدأ مثلا بقصة دخول "عمر بن الخطاب" وخادمه على ناقة إلى القدس في رحلة شاقة ليكتب مع المسيحيين وثيقة أمان لهم عُرفت باسم "العهدة العمرية"، وهي الوثيقة التي منحتهم حق الحرية الدينية والتعهد بالحفاظ على ممتلكاتهم ومقدساتهم!!

أم أروي قصة عرض البطريرك "صفرونيوس" بطريرك القدس على "عمر بن الخطاب" بأن يؤدي الصلاة في كنيسة القيامة بعد أن حان موعدها أثناء زيارته لها، فيخرج "عمر" حينها من الكنيسة ويصلى على مبعدة منها ثم يعود.. ليسأله البطريرك "صفرونيوس" عن السبب، فيجيبه بأنه يخاف من أن يتخذ المسلمون من فعله ذريعة فيما بعد فيقولون من بعده "ها هنا صلَّى عمر" وبالتالي يحولون الكنيسة إلى مسجد!!

أم أروي قصة حدثت بعد قرون حين استطاع السلطان "صلاح الدين الأيوبي" من أن يعيد تحرير القدس من أيدي الصليبيين آنذاك ويضمن لحُجَّاجهم السلامة ويدخل القدس من دون أن يسفك الدماء تنفيذًا لما تعهد به "عمر" في عهدته العمرية.. بل الأكثر من ذلك أنه قد سمح حينها ليهود عسقلان بأن يدخلوا إلى القدس ليعيشوا ويصلوا بحرية!!

أم أروي لكم كيف أن مفاتيح كنيسة المهد المقدس هي في عهدة أسرة مسلمة كانت قد نذرت نفسها لحماية تلك الأمانة والقيام بذلك الواجب منذ عصور!!

لقد تعرفت أيها السادة في رحلتي السريعة تلك على شخصيات عاشت في تلك المنطقة المقدسة وتربت على تلك القيم، وقد أثرت بي شديد الأثر بما سمعته منها حيث تعرفت على مدير المسجد الأقصى، والمسلم حامل مفاتيح الأماكن المسيحية المقدسة، ومدير كنيسة القيامة، وسمعت منهم وشاهدت قصصًا وحقائقًا في التسامح والتعايش هناك!!

وكذلك رأيت عن كثب نسخة من ذلك المنبر العجيب للمسجد الأقصى الذي احترق الأصل منه على يد متطرف مهووس، وتتبعت أثر وإرث ذلك الحارس العثماني الأخير للمسجد الأقصى، والذي استطعنا من خلال تتبع إرثه أن نكتشف الكثير من الحكمة التي تركها العظماء الذين عاشوا في تلك المنطقة من العالم حيث مهد الديانات السماوية،

وأخذتنا تلك الحكمة نحو القاهرة ودمشق لنكتشف هناك عند ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي" والذي عرفه العالم والغرب كذلك كقائد استثنائي استطاع بشجاعته وتسامحه أن يعيد كتابة التاريخ من جديد.. لنكتشف سر ذلك النعش الرخامي الذي أهداه الإمبراطور الألماني "ويليام الثاني" وأصرّ بأن يُوضع بجانب ضريح السلطان "صلاح الدين" قبل أكثر من مائة عام، لنعثر على هذا الكتاب القديم القيّم والذي هو بعهدتي حاليًا، فهل تعرفون ما هو هذا الكتاب؟ وعلى ماذا يحتوي؟!

إنه ببساطة أحد كتب العلم المسروق الذي سرقته أوروبا العصور الوسطى من أصحابه الحقيقيين، وطمست أسماء العلماء العرب والمسلمين لتنسب تلك العلوم بأسماء غيرهم..

وبعد أن قمت ببحث دقيق استطعت أن أجد كتب "علم مسروقة" أخرى تؤكد ما أقوله الآن، وهي موجودة اليوم على شكل خمس مجلدات في جامعة "جوته" الألمانية في مدينة "فرانكفورت"، والتي بذلت مجهودًا كبيرًا في الكشف وإدراج تلك النماذج العلمية المسروقة منذ العصور الوسطى والتي أحدثكم عنها الآن..

فقبل حوالي ألف عام أيها السادة نشأ نظام عالمي جديد واندلعت حرب طاحنة على مدينة القدس قاتل فيها الصليبيون العرب المسلمين، لكن مما لا يعرفه إلا القليل أن المسلمين آنذاك كانوا يمتلكون من التقنيات ما لا يعرفه الأوروبيون..

ويحدثنا التاريخ أنه في عام١١٩٠م شرع "ريتشارد" قلب الأسد بحملته الصليبية على فلسطين لاسترداد القدس من أيدي المسلمين وتمكن من تحقيق بعض الانتصارات إلا أنه أخفق في استرداد القدس..

حينها عرض "صلاح الدين الأيوبي" على "ريتشارد" قلب الأسد تسوية سلمية، اتفقوا فيها على أن تبقى القدس بأيدي المسلمين مقابل السماح للحجيج المسيحيين بزيارة القدس، وقد أدى هذا التقارب إلى تدفق العلوم الإسلامية إلى أوروبا ولم يعلم المسلمون آنذاك أنهم سيخسرون بهذا تفوقهم العلمي..

حيث استفادت أوروبا من ذلك، وأخذت العلوم والتقنيات الإسلامية تصل إلى العالم الأوروبي وبالأحرى إلى مقر الإمبراطور الروماني آنذاك "فريدريش" الثاني والذي ترعرع بين المسلمين، والتي كانت لغته العربية أفضل من ألمانيته..

وكان بذلك يعيش حينها في مأزق، حيث الكنيسة آنذاك تحرضه كقيصر ألماني مسيحي على الشروع بحملة صليبية لاسترداد القدس ولكنه يشعر بذات الوقت بأنهم أقرب إليه من أبناء جلدته..

وفي الحقيقة أيها السادة لم يكن هذا السبب الوحيد لنقد الكنيسة له آنذاك إذ أنه كان يدرس علاوة على ذلك في العلوم والتقنيات وكانت الكنيسة ترى أن في ذلك العمل كفر..

لقد كان "فريدريش" شديد الإعجاب بالعلوم الفلكية الإسلامية إذ كانوا يستخدمون ساعات دقيقة لمراقبة مسارات النجوم والكواكب وغيرها من العلوم..

لكن بموت "فريدريش" سنة ١٢٥٠م مات أكبر مشجع للعلم في أوروبا وكانت هذه فرصة الكنيسة حينها لإنهاء التقارب مع المسلمين ونبذ علمهم..

وبموت "فريدريش" الثاني انتهى عصر التبادل العلمي وبدأ عصر الكراهية والبغضاء، حيث صادرت الكنيسة حينها كتب ومخطوطات ورسومات ونماذج علمية لفريدريش والتي أخذها من العرب وعكف على دراستها، وهكذا بدأت أكبر عملية سرقة للعلم والمعرفة في تاريخ البشرية، وتم نفي العلماء المسلمين من البلاط..

وتم الاستيلاء على كتب العلماء العرب، وكذلك سرقتها وترجمتها حيث تم ترجمة خمس وعشرين مجلدًا في المدينة الإيطالية "ساليرنو" إلى اللغة اللاتينية دون ذكر أسماء مؤلفيها الحقيقيين..

نعم هذا ما حدث أيها السادة، فلقد كان هذا نهجًا عاديًا في أوروبا العصور الوسطى للأسف..

واليوم وفي القرن الحادي والعشرون اسمحوا لي أن أقول لكم هذه الحقيقة:

إن هذا الكتاب الذي بين يدي الآن هو أحد تلك الكتب التي كتبها علماء عرب وتُرجمت بعد سرقتها وطمس أسماء مؤلفيها إلى اللغة اللاتينية..

كتب ومخطوطات ورسومات كثيرة اختفت في غياهب مُظلمة، وقد تم إغفال وطمس أسماء مؤلفيها، إلا أنها عادت لتظهر من جديد بعد مئات السنين، وبدأ علماء أوربيون أمثال "ليوناردو دافنشي" و"جاليليو جاليلاي" يعملون على أساس نتائج أبحاث علماء عرب ومسلمين دون أن يعلموا أسماء مؤلفيها الحقيقيين..

ولقد كانت رحلة بحثنا التي أحدثكم عنها وتتبعنا لكلمات الأب "باولو" في رحلة الكشف عن الحقيقة وإثبات براءة من اتُّهم ظلمًا بجريمة قتل لم يرتكبها؛ هي سبيلنا لكشف مكان هذا الكتاب والذي أراد أحد قياصرة العصر الحديث بإعادته رمزيًا في أواخر القرن التاسع عشر إعادة الاعتبار إلى تلك الأمة التي سُرقت منها علومها وإرسال رسالة تسامح من وحي فكر قائد تاريخي عرفه الشرق والغرب بقوة تسامحه وسعيه لتحقيق العدالة للشعوب التي حكمها وهو "صلاح الدين الأيوبي"..

ومن المؤسف أن أقول أن العلم الإسلامي الذي دام أكثر من ٨٠٠عام، والذي كان حصيلة جهود عباقرة وعلماء من العرب والمسلمين لم يضِع.. بل سُرق، نعم لم يضِع ذلك العلم أيها السادة بل سُرق، واليوم تُعاني كرامة تلك الشعوب في تلك البقعة من الأرض والتي انطلقت منها الكثير من العلوم وكانت مهدًا للديانات السماوية وللحضارات الإنسانية الأولى..

تعاني اليوم من جحودنا في الغرب لإنجازات وحضارة تلك الشعوب، ويعاني كثير من المسلمين والعرب للأسف من عقدة الشعور بالنقص تجاه التفوق العلمي الغربي..

واليوم أيها السادة يشعر الكثير من شعوب الشرق بعقدة التأَخُّر تجاه التفوق العلمي الغربي، لأنهم لا يعرفون إنجازات أسلافهم، ولا يعرفون أن مستوى تقدمنا العلمي اليوم في الطب والهندسة ومجال البصريات والقياس الزمني ما كان ليكون لولا اختراعات علماء العرب والمسلمين.

ولو أن عالمنا الغربي الآن عرف كل تلك الحقائق وكيف تقدمت وتطورت حضارته الغربية –والتي منشأها تلك الحضارة الإسلامية– لزاد احترام هاتين الحضارتين لبعضهم البعض، وزاد الانفتاح والحوار الفكري، والذي به أولًا تتقدم الإنسانية، فبالعلم وقيم التسامح الحقيقة نستطيع أن نوقف مد التطرف والعنف الذي نراه يمتد وينتشر في عدد من الدول والأقاليم عبر العالم..

وأن نستبدل كلمة حرب بكلمة حب..

يرفع ميشيل يده وهو يمسك بكتاب العلم المسروق ثم يتابع قائلًا:

وهذا الكتاب الذي أحمله بين يدي أيها السادة، والذي أعاده الإمبراطور الألماني "ويليام" الثاني بطريقة رمزية تملؤها معاني الاحترام والود.. ها أنا أعيده أمامكم لأحد أبناء تلك البقعة الهامة من العالم وأجعله في عهدته أمانة لتلك الشعوب التي تريد أن تحيا بسلام وأمان مثلنا..

أقدمه من جديد لذلك الشاب الذي حمل أمانة ثقيلة من كاهن يسوعي إيطالي داعية سلام حقيقي عشق تلك الأرض وأهلها، هو الأب "باولو دالوليو" وأوصلها بكل تفاني..

ولنستطع من وحي تلك الأمانة معرفة الكثير من الحقائق التي تساهم في ترسيخ الحوار بين الحضارات والأديان ومعرفة صور الفتن والأفكار الضالة المضللة والتي تريد أيد خفية ممن يكرهون الحياة أن تنتشر وتعم لتعكِّر جمال الحياة وبياض السلام..

لذلك اسمحوا لي أيها الحضور الكريم أن أدعو السيد "أحمد عيسى" الذي قدم إلينا ضيفًا كريمًا، إلى هذه المنصة.. وأعتقد أن لديه الكثير كذلك مما يود أن يقوله هنا..

يقف "أحمد" وسط تصفيق الحضور وقد تفاجأ من تقديم "ميشيل" له ودعوته للحديث من على منصة إحدى القاعات التي تعد من أهم قاعات المحاضرات في العاصمة باريس والعالم..

ثم يتقدم بخطوات خجولة نحو تلك المنصة حيث يقف ميشيل، وهو ينظر لعيني ماريا التي تصفق وهي تشجعه بشغف جميل يذكّره بتلك الأيام الجميلة التي كان يقوم فيها بمرافقة تلك المجموعات السياحية التي كان يشرح لها تاريخ وقصص المواقع التاريخية في وطنه، حيث كانت عينا "ماريا" تنظر له وهو يقوم بالشرح والحديث بنفس ذلك الشغف..

يقدّم "ميشيل" مكبر الصوت لأحمد ويدعوه مبتسمًا للحديث للجمهور الكبير الذي ينتظر باهتمام لما سيتحدث به "أحمد".

فيمسك "أحمد" بمكبر الصوت وهو ينظر في وجوه الحضور ويصمت قليلًا..

ثم يبدأ بالكلام مع بعض الارتباك ويقول:

صباح الخير جميعًا..

في الحقيقة لقد فاجأني البروفيسور "ميشيل لوكلير" بدعوتي للحديث من على هذه المنصة، وفي هذه القاعة الهامة وأمام هذا الحضور الكريم..

واسمحوا لي بدايةً أن أعرفكم بنفسي.. اسمي "أحمد عيسى" شاب عربي من بلد اسمه سورية..

في الحقيقة كنت أتوقع أن أزور مدينتكم الجميلة باريس من قبل كزيارة سياحية لأتعرف عليها عن قرب وأرى البلد الذي أُتقن لغته الجميلة كما لغتي العربية..

لكنني لم أتوقع أبدًا أن أكون هنا في هذه البقعة من الأرض بصفة لاجيء هارب من العنف والاقتتال، في بلد كان الشعراء والأدباء والفنانين يتغنون بجمالها وتاريخها وورودها..

فلمن لا يعرفنا الآن.. أقول له:

إليك لمحة وبعض تعريف..

عيون ذابلة تفيض بكل شيء إلا الحياة

خجل مزور وطبائع استبداد

أمومة مناضلة رغم عجزها

أبوة مثابرة أقصى عرقها رغيف

لمن لا يعرفنا إليك بعض تعريف..

كنا بفكرنا فاتحين وأصبحنا اليوم لاجئين..

وللأسف شاءت الأقدار كذلك لأن أكون قبل يومين من الآن متهمًا بجريمة قتل لم أرتكبها، إلى أن تم إثبات براءتي بمساعدة أصدقائي المخلصين البروفيسور "ميشيل" والصحفية الغالية "ماريا" وجهودهما المخلصة وإيمانهم الكبير ببراءتي من جريمة لم أرتكبها.. بل لا أستطيع القيام بها أو تخيُّلها أبدًا، فلا أخلاقي التي تربيت عليها ولا حتى ديني يسمح لي بذلك..

ولكن للأسف فقد كان السبب الأولي لاتهامي بتلك الجريمة البشعة هو الاشتباه بوجود دافع عنصري وكراهية من كوني عربي مسلم ضد يهودي فرنسي ومن أم يهودية عربية، قابلته لدقائق قليلة لأسلِّمه أمانة ورسالة من الأب "باولو دالوليو" ذلك الإنسان الطيب الذي كنت أسعد بلقائه دومًا حينما كنت أزور دير "مار موسى الحبشي" وأنا أقوم بمرافقة وإرشاد

المجموعات السياحية التي كانت تزور مهد المسيحية الأول حيث سورية وكنائسها التاريخية..

وقد قابلته للمرة الأخيرة حيث كنا مختطفين معًا لدى جماعة إرهابية ليس فيها شيء من الدين أو الأخلاق بل تحيا بفكر مشوّه دخيل على مجتمعاتنا هناك..

حينها طلب مني الأب "باولو" أن أقوم بإيصال أمانته، لشعوره بأن خروجه من ذلك المكان سيكون صعبًا أو شبه مستحيل بعد أن قرأ في وجوه تلك الجماعة ميلهم للعنف والتطرف وتعطشهم للقتل..

ومن المؤسف حقًا لناشط سلام كبير كالأب "باولو دالوليو" أن يقع بين أيدي تلك الجماعة المتطرفة..

لقد كان هذا في ٢٩ يوليو من العام ٢٠١٣م..

وكان الأب "باولو" قبل اختطافه منذ عقود قد اكتشف دير "مار موسى الحبشي" وقام بإعادة الحياة فيه ونشر فكرة حوار الأديان والحضارات لترسيخ رسالة السلام والمحبة في العالم أجمع، والتي نذر نفسه من أجلها.. وقد غُيِّب في سبيل ذلك، ولا أحد يعرف مصيره حتى هذه اللحظة التي أقف فيها أمامكم..

لقد شاهدت الموت بعيني أكثر من مرة قبل أن أصل إلى هنا في طريق اللجوء المر بحثًا عن الأمان.. وكان أول عمل أقوم به هو إيصال تلك الأمانة ورسالة الأب "باولو" لمن أراد أن تصل إليه، ولكني لم أكن أعرف أبدًا أن هناك أيدٍ خفية آثمة لا تريد لجهود السلام وفكر الحوار الإنساني الحضاري أن يتقدم.. فقاموا بجريمتهم بقتل المسيو "عازر موسان" لمنع تلك الأفكار والأبحاث والدراسات والجهود التي قام بها الأب "باولو" وزملاؤه

المؤمنين بروح السلام الحقيقي من أن تثمر، وأن تصل رسالتهم إلى كل العالم الذي ينشد الحياة بسلام وازدهار..

واكتشفت وأصدقائي المخلصين "ماريا" و"ميشيل" بعد تتبع أثر ومعاني كلمات رسالة الأب "باولو" في رحلة البحث عن دليل براءتي الكثير من الأسرار والحقائق مثل سر بناء المنبر في المسجد الأقصى وكيف احترق نتيجة لفكر متطرف صهيوني قام بتلك الجريمة..

لكننا اكتشفنا كذلك آثار فكر التسامح التي اتبعها "عمر بن الخطاب" عند تسلُّمه لمفاتيح مدينة القدس قبل أكثر من ألف عام والتي سار على نهجها "صلاح الدين الأيوبي" وجعل من مدينة القدس مدينة سلام وصلاة لكل الديانات السماوية.

وكتاب "العلم المسروق "هذا الذي تحدث عنه البروفيسور "ميشيل" لهو دليل على مدى تطور الفكر والعلوم في تلك البقعة من العالم التي عاشت في ظل تسامح وتعايش بين الثقافات حينها.

حيث لا يمكن أن يجتمع العلم والتطرف في مكان واحد..

لقد جئتكم أيها السادة من بلاد كانت مهدًا للحضارات والديانات السماوية فمنها خرج النبي "موسى" بقومه من ظلمات البحر..

وفيها رفع فيها "السيد المسيح" راية التسامح والعفو عن الخطيئة..

وفيها أعلى الرسول الكريم "محمد" مكارم الأخلاق وأن لا إكراه في الدين وهو من قال: "من أذَى ذِمِّيًّا –أي من أهل الكتاب– فأنا خَصْمُه، ومن كنتُ خَصْمُه خَصَمتُه يوم القيامة".

وبعد كل ما جرى معي خلال السنوات الأخيرة، وما رأيته في بلدي ولقائي الأخير بالأب "باولو"، وما عايشته في الأشهر الأخيرة، عرفت مغزى تلك الأمانة والرسالة التي كان يريد أن يوصلها لكل العالم..

كان يريد أن يقول باسم شعوب تلك المنطقة والعالم بأسره، أننا نريد أن نبني عالمًا بعيدًا عن العنف والعنصرية والتطرف..

عالمٌ يستطيع بالعلم والمحبة فقط أن يطعم المزيد من الجائعين بدل من صرف الإمكانيات الضخمة لصناعة الحروب والسلاح الذي يقضي على الأبرياء..

نعم نريد أن نجعل من حوار الحضارات مسلكًا لازدهار الإنسانية، ومن حوار الأديان منهجًا لمعرفة الخالق والأخلاق، فلا يوجد دين حقيقي يحرّض على العنف..

إن من يشجعون على الإرهاب هم من يريدون من هذا العالم أن يكون مفككًا، لا بل يريدون ذلك في كل بيت وأسرة..

لنقرأ التاريخ من جديد أيها السادة، لنعرف ماذا قدمت لنا كل تلك الحروب، فما تزال آثار الحرب العالمية الأولى والثانية في العصر الحديث باقية إلى الآن من ذكريات ألم وطمس تاريخ ومدن بحد ذاتها مثل "هيروشيما" و"ناغازاكي"..

لقد جئتكم أيها السادة من تلك البقعة التي تقع في وسط العالم..

جئتكم من حضارة الرافدين، وبلاد ما بين النهرين، حيث مهد الشرائع..

جئتكم من حضارة النيل والفراعنة وأهراماتهم الخالدة..

جئتكم من جزائر بلد المليون شهيد، ومن ليبيا وتضحيات "عمر المختار"، وجمال المغرب وتونس الخضراء..

جئتكم من الخليج العربي وروح الصحراء التي أبت إلا أن تحيا فيها حضارات عدة..

جئتكم من مكة والمدينة مهبط الوحي.. جئتكم من القدس التي تئن حزينة من الصراع الذي لم ينتهي وهي تحلم أن تكون مدينة الصلاة والسلام لكل العالم..

جئتكم من حضارات بلاد الشام ومن مهد المسيحية ودرب ألام المسيح.

وقد جئتكم من دمشق.. أقدم عاصمة في التاريخ، والتي خرج منها القديس "بولس" الرسول حاملًا نور المسيحية للغرب..

جئتكم من هناك لأقول لكم ما وجده الأب "باولو دالوليو" في بلادنا من حضارة وتسامح..

للأسف إن صورة الإسلام السائدة لدى البعض في العالم الغربي في يومنا هذا، منشأها تصرفات البعض المتطرفة من الدخلاء والمغيبّة عقولهم ومن تعبث بهم قوى الشر، والتي عشَّشَت فيهم روح العنف والقتل..

ولكن الحقيقة التي عرفها الأب "باولو" وغيره من الباحثين عن الحب في العالم هي أن حقيقة الدين الإسلامي مختلفة تمامًا عن ذلك، وأدعوكم لمراجعة رسالته التي حاز فيها على شهادة الدكتوراه وكان عنوانها "الأمل في الإسلام "..

ولا أستطيع أن أخفي عليكم أن ظروف الحياة في العصور الأخيرة التي عاشتها تلك المنطقة وتعرضها للكثير من الغزوات والاحتلال كان سببًا مباشرًا في تأجيج الحروب ونشر العنف..

لذلك أضع بين أيديكم تلك الأبحاث والدراسات والحقائق والتي أرى أن البروفيسور "ميشيل" لم يغفل عن إعداد نسخ منها ليقرأها كل من يحب أن يعمل معنا ويسعى في نشر رسالة المحبة والتسامح بين شعوب الأرض، وأن يكون الحوار بين الحضارات مسلكًا ومنهجًا..

لقد أراد الأب "باولو" أن يوصل هذه الأمانة لكل العالم.. فدعونا نعمل معًا على نشر هذه الرسالة، رسالة السلام.. ولنعمل على نبذ العنف ووقف التطرف في كل أرجاء العالم..

وأن نقول معًا لكل من يتستر برداء الدين لغايات مشبوهة:

توقفوا عن الدفاع عن الله بقتل الإنسان، ودافعوا عن الإنسان كي يتمكن من التعرف إلى الله.. حيث الله هو المحبة، ولا يرضى بأن يُقتل طفل بريء باسمه..

وقد دفعني كل ما عايشته وجرى معي إلى أن أكتب ذلك وأرويه لكل العالم عبر رواية أنقلها عن لسان كل من يريد أن يحيا بسلام وحرية وكرامة تحفظ آدميته التي خصنا الله بها، فأنا اليوم أكتب هذه القصة.. وسأروي فيها للجميع كل ما رأيته وماحدث معي، وإلى أين أخذتنا كلمات بسيطة من رجل صادق وحَّد حب العالم في قلبه..

فلعل ذلك قد يمكّننا من أن نسمع معًا صوتًا حقيقيًا "آتيًا من السماء" ينادي بالسلام والمحبة..

أتقدم بكل الشكر لكم، ولكل المخلصين الذي ساعدوني لأن أقف أمامكم الآن بدون خوف وتردد.

فقد غمرتني محبتكم الآن، كما غمَرَت الكثيرين ممن أرادوا العيش بسلام.. فشكرًا لكم جميعًا.. وعلينا جميعًا السلام.

يتوقف "أحمد" عن الكلام وهو في حالة تأثر شديد، ويلتفت نحو "ميشيل" و"ماريا" التي اغرورقت عيناها بالدمع.. ويضع بمكبر الصوت جانبًا ويستدير مصافحًا "ميشيل" الذي يعانقه بحب وتأثر..

ليسود الصمت بضعة لحظات في تلك القاعة الكبيرة..

وفجأة يقف عددًا من الأساتذة والمفكرين وعدد من الموجودين في القاعة، ويبدأون في التصفيق الذي أخذ يعلو في كل أرجاء القاعة التي تأثر كل من كان حاضرًا فيها بما تحدث به "ميشيل" و"أحمد"، وعدسات الصحافيين تصور وتحفظ تلك اللحظات المؤثرة..

فيلتفت أحمد نحو ذلك الحضور وهو ينظر لذلك المشهد، وردة فعل كل من حضر، وتدمع عيناه فجأة وهو يرى الكثيرين من الحضور يقترب ليسلِّم عليه ويشجعه.

لكنه لم يستطع أن يغفل تلك العينين اللتين أحبهما وهما تنظران إليه بحب حيث تتقدم "ماريا" نحوه ليجد نفسه وهو يسرع الخطى باتجاهها ليعانقها وهو يبكي فرحًا كونه استطاع أن يوصل الأمانة وتلك الرسالة لكل العالم، وأنه الآن مع الإنسانة التي يستطيع أن يعبر بحرية عن حبها لها..

فالصمت عن الحب أبدًا لا يهدىء من قوة هذا الحب، بل يزيده اشتعالًا فى القلب حتى يتحول إلى كتلة من نار متأججة يسعد القلب بلهيبها..

تعانق "ماريا" "أحمد" وهي تقول:

كم أنت رائع يا "أحمد".. وما أجمل ما سمعته منك الآن، لقد كان الأب "باولو" محقًا في أن يأتمنك على أمانته تلك.

يتأمل "أحمد" في عيني "ماريا" وهو يقول:

بل كم هي جميلة تلك الروح التي تحيين بها "ماريا" وتهيم بجمالها في كل مكان تتواجدين فيه..

يقترب "ميشيل" من "أحمد" و"ماريا" وهو يبتسم قائلًا:

أظن أن هذه الصحفية المشاغبة قد وقعت في شباك الحب أخيرًا..

تنظر "ماريا" نحو "ميشيل" وقد احمرَّت وجنتاها خجلًا وتقول:

نعم صديقي.. هو كذلك، ويبدو أن أحمد يريد من يساعده في نشر رسالة الحب والسلام..

فيضحك الجميع من عفوية ذلك المشهد..

ثم يلتفت "ميشيل" نحو الرجل الذي يتقدم منهم ويقول:

وها هو المحقق "برنار" قد جاء ليشاركنا ويشهد معنا هذه اللحظات الجميلة..

يقترب المحقق "برنار" من تلك المجموعة وهو يبتسم قائلًا:

في الحقيقة لا أستطيع أن أنكر أنها كانت خطة ذكية، وأعجب بفكرة قيامكم بهذه المحاضرة القيمة أمام هذا الحضور النوعي، وقد قطعتم الطريق على كل من يحاول منع هذه المعاني من الوصول لكل قلوب وعقول العالم..

يجيب "ميشيل" ضاحكًا وهو يشير إلى "ماريا":

في الحقيقة إنها فكرة هذه الصحفية النشيطة..

يضحك المحقق "برنار" قائلًا:

من المؤكد ذلك، فلم أشك للحظة في ذكائها وحسها الصحفي الكبير.. وكذلك أقدّر شجاعة "أحمد" الذي استطاع تجاوز كل الصعوبات التي مر بها..

ثم يتابع قائلًا: وأنا هنا في الحقيقة كذلك لأسلم "أحمد" هذا المغلف..

ينظر "أحمد" باستغراب وهو يقول:

ماذا؟ مغلف من جديد!!

يضحك المحقق "برنار" وهو يقول:

لا تخف أحمد، فهذا كتاب صدر بأمر سريع من الحكومة الفرنسية، يفيد بقبول طلبك للجوء قانونيًا والحياة بسلام هنا، إلى أن تهدأ الأوضاع في بلدك.

فترتسم على وجه أحمد ابتسامة عفوية وهو ينظر إلى "ماريا" التي لم تفارقه في أيامه الصعبة وكذلك الجميلة وعيناها تدمع فرحًا..

يقترب ليقف أمام "ماريا" وينظر في عينيها متأملًا للحظات.. ثم يقول وهو مايزال ينظر في عينيها:

هل لصاحبة تلك العينين الجميلتين أن تقبل طلبي في الزواج منها أمام هذا الحضور الكبير؟!

فتنظر "ماريا" إلى "أحمد" متفاجئة وقد احمرَّ وجهها وتوسعت عيناها فرحًا..

وتهز رأسها تعبيرًا عن الموافقة وهي تقول:

نعم أوافق على طلبك أحمد..

ويتعانق الحبيبان وسط تصفيق كل من حضر وهم يرمون بالورود عليهما مهنيئن..

الفصل الثاني والستون

مع إشراقة شمس اليوم التالي، وفي منزل البروفيسور ميشيل، يقف أحمد في غرفة المكتبة بجانب ميشيل الذي يقدم له كما العادة كوبًا من قهوته الصباحية المميزة وهو يقول مبتسمًا:

الآن أستطيع أن أقول لك حمدًا لله على سلامتك، وأهلًا بك بين أهلك وأصدقائك..

يأخذ أحمد كوب القهوة من يد ميشيل وهو يقول:

في الحقيقة لا أعرف كيف أشكرك صديقي ميشيل على كل ما قدمته لي من مساعدة، وعلى استضافتك الكريمة لي كل هذه المدة، وتحملك لكل الضغوط في سبيل إظهار براءتي..

يجيب ميشيل وهو يرتشف من قهوته مبتسمًا:

لا شكر على واجب كما تقولون صديقي، ولا تنسى أنه بفضلك كذلك استطعنا أن نكتشف الكثير من الوثائق والأسرار التاريخية، وبفضل شجاعتك الكبيرة ومثابرتك في إيصال تلك الأمانة استطعت أن توصلها للكثيرين ممن حضر بالأمس ولكل من أراد الأب "باولو" أن تصل له..

ويلتفت الصديقان فجأة نحو باب غرفة المكتبة الذي تطرق عليه "ماريا" طرقات خفيفة معلنة وصولها وهي تبتسم قائلة:

صباح الخير أيها الأصدقاء هل هناك من اشتاق لوجودي؟

وتدخل وهي تمسك في يدها عددًا كبيرًا من الصحف والمجلات وهي تقول:

انظر أحمد، لقد تصدّرت قصتك الصفحات الأولى في معظم صحف اليوم، وكذلك في عدد من المحطات التلفزيونية والتي أخذت تتناقلها بشكل ملفت للنظر..

ينظر "ميشيل" نحو "ماريا" ويقول ضاحكًا:

ها قد جاءت الصحفية النشيطة..

أم هل من الأفضل أن أقول الخطيبة الجميلة؟

تجيب ماريا وهي تضحك:

لك الحق في أن تناديني كما تحب حضرة البروفيسور الكبير..

ثم تقول مازحة: وأرى كذلك أنكما قد تناولتما الفطور من دوني..

ينظر أحمد إلى ماريا وهو يقول:

في الحقيقة كنت أشكر ميشيل على كل ما قدمه لي من مساعدة، وكذلك لا يمكن لبعض الكلمات أن تعبر لك ماريا عن شكري لكل ما فعلتِه من أجلي..

يعقب ميشيل ضاحكًا وهو يشعل تبغ غليونه:

لا تقلق صديقي، فلديك العمر كله لتعبر لها عن ذلك..

تنظرماريا في عيني أحمد وهي تقول:

نعم لدينا العمر كله.. أليس كذلك أحمد؟؟

يرد أحمد بشغف جميل: بل لآخر العمر ماريا..

فتتابع ماريا قائلة وهي تمسك بيد أحمد:

حسنًا إذًا، هيا بنا.. أريدك أن تذهب معي في مهمة صغيرة.

فيقول أحمد مستغربًا: إلى أين؟!

تجيب ماريا وهي تلتفت نحو ميشيل:

إلى القرب من برج "إيفل" وسط العاصمة، فلدي أمانة كذلك ووعد يجب أن أنفذه..

يبتسم ميشيل وهو يقول لماريا:

نعم، من الجيد أنك لم تنس أمانة العاشق العجوز "رضا "..

ينظر أحمد مستغربًا:

أمانة من؟! ومن هو ذلك العاشق العجوز؟!

تمسك ماريا بيد أحمد وهي تدفعه للخروج معها وتقول مبتسمة:

تعال معي وسأخبرك في الطريق..

وتتابع ضاحكة وهي تلوح بيدها مودعة:

وداعا ميشيل.. وأعرف أنك ستشاق لنا..

يضحك ميشيل وهو يصيح قائلًا:

وأعرف أنكما لن تغيبا كثيرًا.. كونا بخير صديقَيَّ الجميلين..

وتنطلق سيارة ماريا في شوارع باريس متجهة نحو الساحة العشبية الملاصقة لبرج "إيفل" ، وماريا تحدِّث أحمد بقصة العم رضا، ذلك العجوز الذي التقت به مع ميشيل في دمشق، حيث كان يعمل متطوعًا في رعاية ضريح السلطان "صلاح الدين الأيوبي" وقصة حبه لزوجته الفرنسية الأصل "ليزا"، والتي فضلت أن تمضي بقية عمرها في دمشق مع حبها الذي وجدته وعاشته هناك..

وتتابع ماريا حديثها لأحمد عن وعدها للعم "رضا" بزرع بذور زهرة الياسمين التي شهدت على حب العم "رضا" وزوجته "ليزا" أمام برج "إيفل" تخليدًا لذكرى "ليزا" وحبهما..

تصل ماريا وأحمد إلى تلك الساحة العشبية أمام برج "إيفل"، حيث يقفان، وتحمل ماريا بيدها ذلك المنديل الذي أعطاها إياه العم "رضا" والذي يضم بضع زهرات مجففة وبذور لزهرة الياسمين، فيقوم أحمد بمساعدتها في وضع وزرع تلك البذور في تربة تلك الحديقة التي يطل عليها برج "إيفل" شاهقًا وشاهدًا..

ثم ينظر في عيني ماريا بعد أن انتهيا من زراعة بذور زهر الياسمين تلك وفاءً لذكرى العم "رضا" وزوجته "ليزا" وهو يقول:

أتعلمين ماريا.. أنه بقدر سعادتي في مساعدتك بالوفاء في تنفيذ الوعد الذي قطعته للعم "رضا".. فسعادتي أيضًا لا توصف وأنا أزرع معك هذه الزهرة التي ترعررت وأنا أستنشق عبق رائحتها ومعانيها الجميلة..كيف لا وأنا من بلد ذلك الياسمين!

تقول ماريا:

نعم أحمد، وكذلك سعادتي لا توصف وأنا أشاركك في تخليد ذلك الحب..

يمسك أحمد بيد ماريا وهو يساعدها على النهوض بعد أن زرعا معًا بذور الياسمين تلك ويتابع قائلًا:

هل تعلمين حقيقة تقول: أن الياسمين لا يحتاج إلى الكثير من الرعاية بقدر ما يحتاج إلى الكثير من الحب! ولذلك فأنا على يقين بأن هذه البذور التي زرعناها الآن معًا ستنبت الكثير من شجيرات وورد الياسمين الذي سينتشر عبقه ليعم أرجاء هذا المكان..

ثم يسيران معًا ليقفا أمام برج "إيفل" الشاهق وهما يتأملان ذلك المشهد وينظران نحو السماء التي بدأت تمطر، وبدأت حبات المطر تتساقط لتسقي من جديد تلك البذور التي زرعاها معًا..

وترفع ماريا يدها نحو السماء فرحة لتتلقى بعض قطرات من ذلك المطر الذي بدأ بالتساقط وتقول:

كم أعشق هذه القطرات المنهمرة بحنو من السماء..

ينظر أحمد إلى تلك السماء متأملًا ويقول:

نعم، فلا بد من أن يأتي الخير من السماء أخيرًا..

ويصمت قليلًا ثم يتابع قائلًا:

ولكن للأسف، فهناك كثيرين ممن يقومون بأعمال الشر وهم يدّعون كذبًا أنهم يفعلون ذلك بوحي من تلك السماء..

تتأمل ماريا بما يقوله أحمد ثم تقول: ربما أحمد.. لكن ألم تقل أنه لا بد أن يكون كل الخير قادم من السماء.. فلندع لقطرات هذا المطر النقية من أن تظهر الخير الحقيقي لكل ما يأتي من السماء، ولتكشف كل مدعي بعكس ذلك..

يجيب أحمد:

صدقتِ ماريا، فمن المستحيل أن يخلق الله لنا عقولًا وقلوبًا، ثم يرسل لنا شرائع تخالف هذه العقول والقلوب التي فُطرت على حب الخير والسلام..

تنظر ماريا في عيني أحمد وهي تبتسم قائلة:

نعم أحمد، فدعنا إذًا نكون الآن كهذا المطر الآتي من السماء.. وبكل هذا الحب الذي يملأ قلبينا..

يتامل أحمد في عيني ماريا وهو يقول:

نعم.. بكل هذا الحب ماريا..

ويمسك الحبيبن بيد بعضهما البعض ويسيران وهما ينظران بأمل إلى تلك السماء التي تمطر بحنو وحب..

ويلتفت أحمد إلى ذلك الياسمين الذي زرعه الآن مع حبيبته ماريا.. ثم ينظر إلى الأفق ويتراءى له مشهد الوطن فيصيح قائلًا:

لقد أخذتني الحرب بعيدًا عنك، وهجرتني الأسباب، وما زلت أذكر صباي فيك ومرتع آمال.. انتظريني أيتها الأرض الحسناء، يا منبع الجمال وغرام الأمد البعيد.. يا مدينة الحكمة والسرائر، فأنا سأعود يومًا.. انتظرني يا وطني وعشقي.. فالأمل باقٍ باللقاء..

تشد ماريا على يد أحمد وتبتسم.. نعم سيبقى الأمل طالما الحب موجود..

فينظر أحمد في عيني ماريا ثم يبتسم..

نعم يا حبيبتي.. سيبقى الأمل وسنعيشه بحب..

ويتعانق الحبيبان تحت قطرات المطر المنهمرة من السماء بحنو وجمال..

الفصل الأخير

وتمضي الأيام سريعًا، فبعد مضي ستة أشهر ينتهي أحمد من كتابة روايته التي بدأ في كتابتها وهو يعايش ظروف عصيبة ومريرة حين كان متهمًا بجريمة مقتل المسيو "عازر موسان"..

والتي يصوّر ويروى فيها قصته وكل ما مر به من ظروف صعبة خلال السنوات الأخيرة، ويروي قصة تلك الكلمات وأمانة الأب "باولو دالوليو".. التي أوحت كلماتها للسعي والترحال بحثًا في معانيها والتوصل لاكتشاف كنوز وقصص تاريخية مهمة تحيا فيها قيم ومعاني إنسانية كبيرة، وليتكلم في روايته عن كل تلك القصص الحقيقة وأبطالها الحاضرين بين فصولها بحب..

فمن خلال تلك الرحلات والدراسات التي قام بها مع ميشيل وماريا، استطاع قراءة ومعرفة كثير من التضحيات والأعمال العظيمة لرجال عملوا وقدموا الكثير لترسيخ رسالة السلام والمحبة بين الحضارات..

حازت رواية أحمد الإعجاب الشديد لكل من قرأها وتمعّن في كلماتها وتلك المشاعر والصور التي تنقلت بين فصولها، لتروي قصة إنسان سعَى باحثًا عن السلام دون يأس، وقصة الصراع الطويل بين الخير والشر عبر العصور.

وتحمل في طياتها قصصًا تاريخية حقيقية حدثت في تلك البقعة المتوسطة من العالم، التي تأخذ موقعها كما القلب حيث مهد الديانات السماوية والحضارات الإنسانية الأولى.

وبعد أن لاقت تلك الرواية استحسان كل من قرأها، شجعت ماريا وميشيل أحمد بأن يشارك بروايته تلك في مسابقة الرواية الدولية، والتي تنظمها دائرة الثقافة والفنون في باريس سنويًا..

لتحتل روايته "الآتون من السماء"، وبعد تصفيات لجان المسابقة وبالإجماع؛ المركز الأول، وتحوز على الجائزة الذهبية لتلك المسابقة مع تكفل دائرة الثقافة بطباعة ونشر وترجمة رواية أحمد، وبدعم كامل منها، ولتتصدر تلك الرواية المركز الأول كأكثر كتب الروايات مبيعًا لذلك العام..

وفي معرض الكتاب السنوي الشهير الذي يقام في باريس، تنظم إدارة المعرض حفل توقيع لرواية أحمد، حيث يقف أمام جمعٍ غفيرٍ من الناس في محاضرة يتحدث فيها عن معاني تلك الرواية والأجواء التي رافقت كتابته لها، ثم يجلس في ركن من ذلك المعرض ليقوم بتوقيع نسخ من روايته للمعجبين من الجمهور، فيصطف عددٌ غفير من الناس أمام طاولة التوقيع، حيث يقوم "أحمد" بتذييل توقيعه وإهدائه لنسخ من روايته..

يتقدم فجأة رجل من بين تلك الجموع وهو يمسك بنسخة من رواية أحمد وهو يقول له:

هل يمكن أن توقع لي هذه النسخة من روايتك الرائعة؟

يجيب أحمد وهو ينهي توقيع إحدى النسخ وإهدائها لأحد الجمهور:

بكل سرور سيدي..

ويمد يده ليمسك بتلك النسخة التي يقدمها ذلك الرجل لأحمد وهو يقول:

باسم من سيكون الإهداء سيدي؟

"إبراهام ساسون".. يجيب ذلك الرجل والذي يتابع قائلًا:

اسمي.. "إبراهام ساسون مزراحي"..

يرفع أحمد ناظريه نحو الأعلى ،وينظر إلى ذلك الرجل.. ليشاهد أمامه رجل يرتدي معطفًا أسود اللون ويعتمر قبعة سوداء تتدلى من تحتها جديلتي شعر طويلتين، فيتأمل لدقائق في وجه وهئية ذلك الرجل الذي ذكّرته هيئته تلك بلقائه الأول بالحاخام "عازر موسان"..

ثم يقف مبتسمًا وهو يأخذ نسخة الرواية من ذلك الرجل ليكتب كلمات إهداء ويذيلها بتوقيعه ويعيدها له قائلًا:

تفضل سيدي، على الرحب والسعة.

يأخذ الحاخام "إبراهام" نسخة الرواية من يد "أحمد" ليقرأ كلمات الإهداء التي كُتب فيها:

دين الحب منفصل عن كل أشكال الديانات..

العاشقون أمة واحدة ودين واحد..

وهذا هو الله..

فيبتسم ذلك الرجل، ويمد يده نحو أحمد مصافحًا وهو يقول:

نعم.. بوركت سيدي.

تنظر ماريا في عيني أحمد وهي تبتسم وتقول:

نعم هو دين الحب..

فيبادلها أحمد بنظرات عميقة تعبر عن حبه الشديد..

ويربت ميشيل على كتف أحمد مهنئًا وهو يقول:

فلننعم جميعًا بهذا الحب..

النهاية

وإلى كل من يؤمن بالحب في هذا العالم

إليكم هذه الرواية

"الآتون من السماء"

وإلى لقاء قريب في الجزء الثاني..

فادي أوطه باشي

Fadi Otabashi